جامعـــة 8 مـــاي 1945 قالمـة

حوليـــــات جامعـــــة قالمـــــة
للعلـوم الاجتماعيـة و الإنسانيـة

مجلـــة محكّـــمة تصـــدر
عن جامعة 8 ماي 1945 قالمة

العـــدد رقم: 5

ديسمبـــر 2010

رقم الإيداع القانوني: 2129– 2007

ISSN : 1112 -7880

مديرية النشر لجامعة قالمة – 2010

م.ن.ج.ق

حوليـــات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية و الإنسانية

مجلـــة علميـــة محكّمة تصـــدر عن مديريـــة النشـــر بجامعـــة 08 مـــاي 45 قالمـــة و تعنى بنشـــر الأبحـــاث و الدراســـات الأصيلة في العلـــوم الاجتماعيـــة و الإنسانيـــة.

مدير الحوليـــة:

أ.د/ **محمـــد نمامشة (رئيـــس جامعة قالمة)**

مدير النشـــر:

أ.د/ **عبد الـــرزاق بزازي**

رئيس التحريـــر:

أ.د/ **إبراهيـــم بلعـــادي**

أعضاء هيئة التحريـــر:

- **د. عبد العزيـــز بومهـــرة**
- **د. خليـــل بوصنوبـــرة**
- **د. يوســـف قاسمـــي**
- **د. عبد الحق العقـــون**
- **أحســـن بوصيـــد**

أعضـــاء الهيئـــة العلميـــة:

أ.د بلقاسم سلاطنية	جامعة بسكرة
أ.د. عمر عسوس	جامعة قالمة
أ.د. عبد المجيـــد حنون	جامعة عنابة
أ.د. بلقاسم بلعرج	جامعة قالمة
أ.د. ع.الكريم بوصفصاف	جامعة قسنطينة
أ.د. محمد خان	جامعة بسكرة
أ.د. نصر الدين جابر	جامعة بسكرة
أ.د. محمد مليابي	جامعة وهران
أ.د. اسماعيل قيرة	جامعة سكيكدة
أ.د. خير الدين معطى الله	جامعة قالمة
أ.د. حسين خمري	جامعة قسنطينة
أ.د. محمد كراكبي	جامعة عنابة
أ.د. عبد الرحمن بوقاف	جامعة الجزائر
أ.د. سعد بوفلاقة	جامعة عنابة
أ.د.عبد الجليل هنوش	جامعة القاضي عياض مراكش – المغرب
أ.د. صالح فركوس	جامعة قالمة
أ.د. نوارة قايد تليلان	جامعة بجاية
أ.د.حنيفي هلايلي	جامعة سيدي بلعباس
أ.د. جيلالي عبد الرزاق	جامعة عنابة
أ.د. إبراهيم بلعادي	جامعة قالمة
د. لونيسي رابح	جامعة السانية وهران
د. وسيلة حمداوي	جامعة قالمة

المراسلات:

ترسل جميع المراسلات إلى: أ.د. بلعادي إبراهيم رئيس تحرير حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية و الإنسانية. العنـــوان: ص.ب 401 قالمـــة 24000 الجزائـــر

الهاتـــف:037.21.58.49 الفاكـــس: 037.20.72.68

Email: annalesguelmassh @ yahoo.fr

الموقع الإلكتروني : www.univ-guelma.dz

قواعـــد و شـــروط النشـــر في المجلة

1- أن يتميـــز الموضوع بالأصالة و الجدة.

2- أن يكون الموضوع موثقـــا علميا.

3- أن لا يكون البحث قد نشر أو أرسل للنشـــر في مجلة أخرى.

4- أن لا يزيـــد عدد الصفحات عن **20** ص إلا إذا قسم البحث إلى حلقات.

5- البحوث و المقـــالات التي تصل المجلة لا ترد لأصحابها نشرت أو لم تنشر.

6- تنشـــر المجلة الموضوعات باللغة العربيـــة و الفرنسية و الإنجليزيـــة مع ملخص باللغة العربية فـــي حدود **100** كلمة.

7- تخضع الأعمـــال المرسلة للتحكيم قبل النشـــر.

8- جميـــع الآراء الواردة في المقالات المنشورة لا تعبـــر إلا عن وجهات نظر أصحابها.

9- ترسل جميـــع المراسلات إلى الدكتور: ابراهيم بلعادي

رئيس تحرير حوليات جامعة قالمة للعلـــوم الإنسانية و الاجتماعية

– العنوان: ص.ب **401** جامعة **8** ماي **1945** قالمة **24000** الجزائر.

– البريـــد الإلكتروني: **Email: annalesguelmassh@yahoo.fr**

Tel : 037- 21- 58- 49 **Fax : 037-20-72- 68**

– ترسل المقـــالات مكتوبـــة بالخط **Simplified Arabic 14** بالنسبة للغـــة العربية و خـــط **12** **Times New Roman** بالنسبة للغـــات الأخـــرى.

- شكـــل الورقـــة: **24 x16**
- بالهوامش الآتيـــة:

أعلى: **2.5** أسفل: **2.5** يمين: **1.5** يسار: **1.5** التجليد: **1**

- فـــي نسختين مرفقة بقرص مضغوط.

10- تذكـــر الهوامش فـــي آخر المقـــال.

11- على صاحب المقـــال أن يبيـــن بوضوح: الاسم و اللقب و المؤسسة التي ينتمي إليها والعنوان الكامل و الهاتف و البريد الإلكتروني.

مديرية النشـــر لجامعة **08** ماي **45** قالمة، ص.ب **401** قالمة الجزائر

الهاتف: **0.37.21.58.49** الفاكس: **037.20.72.68**

كلمة العـــدد

يأتي هذا العدد الخامس من "حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية "، تماما كما وعدناكم في افتتاحية العدد السابق بالمزيد ؛ فهو من دون شك عدد متميز، له نكهة خاصة، فرضتها المادة العلمية التي ضمنتها المجلة بين دفتيها، كما ونوعا. حيث تنوعت فعلا الدراسات التي جمعتها المجلة في عددها الجديد فراوحت من الاقتصاد إلى الاجتماع إلى الأدب و اللغة إلى التربية و الفلسفة و التاريخ.

إن هذه الدراسات الأكاديمية المعتبرة التي يقدمها هذا العدد الخامس من الحولية، لاشك في أنها تلبي مشارب كثير من الباحثين و القراء؛ حيث أنها تنوعت حتى ضمن التخصص الواحد. نأمل أن تكون الثقة المتبادلة بين المجلة و قرائها التي هي في طور النمو و الازدياد، و لاشك في هذا لأن نظرة عجلى على تشكيلة الباحثين الذين نشروا في هذا العدد تدعو إلى التفاؤل بالآفاق الواعدة للمجلة، و هو ما يثلج صدورنا نحن العاملين على المضي بالمجلة إلى الاستمرار والازدهار. فبالإضافة إلى بحث الأساتذة الأردنيين لقد جاءت المشاركات من مختلف الجامعات الجزائرية التي أقبل أصحابها ينشرون في مجلتنا فهناك جامعة بشار ووهران و بومرداس و الجزائر العاصمة و جيجل و قسنطينة وأم البواقي وعنابة والجلفة فضلا عن جامعتنا جامعة 8 ماي 1945.

هذه النجاحات لا تنسينا واجب الشكر للأساتذة الأفاضل الذين يسهمون في تحكيم هذه الدراسات و الدفع بها إلى السطح لترى النور، كما علينا أن نشكر كل

الباحثين الذين وضعوا ثقتهم في المجلة و أرسلوا دراساتهم و انتظروا طويلا قبل أن يظفروا بفرصة النشر.

نأمل أن نلاقيكم في العدد القادم، و قد تطورت المجلة، و وفت بوعدها بالظهور عليكم كل نصف سنة.

كما نعلمكم أنه يمكنكم الاطلاع على جميع أعداد الحولية بمحتوياتها وذلك على الموقع: http://www.univ-guelma.dz/dpu/revues.asp

السلام عليكم و إلى اللقاء.

هيئة التحريـــر

الفهـــرس

كلمة العـــدد

مقومـــات تطويـــر بورصـــة الجزائر
رشيد بوكساني و نسيمة أوكيل.....1-18

المقابلة في خدمة الفـــرد – آلياتهـــا وتطبيقاتهـــا
عبد العزيز جاهمي.....19-42

دور المثقف العربي المعاصر – الواقـــع و الآفـــاق
محمود سمايلي وربيع شتيوي.....43- 64

واقع إدارة التنمية المحلية بالجزائر
د.: ليندة نصيب.....65- 93

العنف ضـــد المـــرأة
نصيـــرة سالم..... 95-114

الأمن النفسي لدى أعضاء هيئة التدريس في جامعة البلقاء التطبيقية
د. صالح سلامة بركات ود. عمار محمد فريحات و د.عبدالله أحمد العواملة... 115-153

دائرية الزمن و دلالته في روايات إبراهيم الكوني
د. وردة معلم.....155-177

دور الأستاذ في إنجاح عملية التعليم

فوزية عساسلة.....179- 207

النص السردي – نحو سيميائيات الجسد

د. مختـــار بادي.....209-238

تشكيلات المقاطع الصَّوتيَّة وتعليلاتها اللغويَّة في المباني الإفراديَّة

د. سعاد بسناسي..... 239- 259

أقنعة التاريخ وهموم الحاضر في المسرح الشعري العربي

د. إسماعيل بن اصفية..... 261- 291

أسلوبية الانحراف في شعر أمل دنقل

د. بلقاسم دكدوك.....293-316

المنهج الغربي والنص العربي – البنيوية نموذجا

ميلود قيـــدوم.....317-334

نظرية المثل الأفلاطونية من الوجود الواقعي إلى الافتراض العقلي

كترة خيذر.....335-361

الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة عـــام 1837 و موقف أعيان أريافها

العياشي روابحي..... 363-380

ركائز الإدارة الاستعمارية في الجزائر

أ.د صالح فركوس.....381- 395

مقومـــات تطوير بورصة الجزائر

الأستاذ: رشيد بوكساني – جامعة بومرداس
الأستاذة: نسيمة أوكيل – جامعة بومرداس

الملخـــــص:

هذه الورقة ترتكز على ثلاثة عناصر أساسية:

– **العنصـــر الأول:** الإطار التأسيسي و التنظيمي لبورصة الجزائر.

– **العنصـــر الثاني:** يوجه المعالجة نحو مختلف المعيقات و العقبات التـــي تحول دون تطوير بورصة الجزائر.

– **العنصـــر الثالث:** يتعلق بالمتطلبات الكفيلة لتطـــوير و تفعيـــل بورصـــة الجزائر.

مقدمـــة

دخلت الجزائر في نهاية الثمانينات و بداية التسعينات في سلسلة من الإصلاحات الاقتصادية نتيجة أزمة 1986، و التي فرضت عليها تغيير النهج الاقتصادي المتبع آنذاك و انتهاج نظام اقتصاد السوق، فبدأت الجزائر في وضع أعمدته الأساسية من خوصصة، وتحريـــر الأسعار، تحرير التجارة الخارجية و كذا إنشاء سوق للأوراق المالية كقناة جديدة من قنوات التمويل الحديثة للتنمية الوطنية، و بالفعل تـــــم إنشاء هذا السوق سنة 1993 و كذا ترسيخ سبل تنظيمها و تسييرها، و كان الأمل كبير في نجاح هذا السوق، إلا أنه و بعد مضي أكثر من عشرية بقي دور البورصة حيادي و إذا لم نقل منعدم و لم تشهد أي تقدم أو تطور يذكر بل أصبحت جهة مستهلكة للأموال (أجور الموظفين- تكاليف الوسائل) بدل من أن تكون خالقة للأموال.

كل هذا يدفعنا للبحث في المحاور التاليـــة:

1- نشأة و تنظيم بورصة الجزائر.

2- معيقات بورصة الجزائر.

3- ماذا يجب عمله لتطوير بورصة الجزائر.

أولا: نشـــأة و تنظيـــم بورصـــة الجزائر

تعود فكرة إنشاء بورصة الأوراق المالية إلى الإصلاحات الاقتصادية التي أعلن عنها سنة 1987 و التي دخلت حيز التنفيذ عام 1988، إذ في نفس السنة صدرت قوانين اقتصادية عن استقلالية المؤسسات العمومية وصناديق المساهمة، كما كان من الضروري تأسيس هذه السوق كمصدر إضافي للتمويل كون الجهاز المالي كان عاطلا.

و بالفعل و في غضون سنة 1933 و بمقتضى المرسوم التشريعي رقم 93-08 المؤرخ في 25 أفريل 1993 المتمم و المعدل للأمر المتضمن قانون التجارة و المرسوم التشريعي رقم 93-10 المؤرخ في 23 ماي 1993 المتعلق بسوق القيم المتداولة تم تكريس انطلاق عملية تأسيس بورصة الجزائر.

1- تنظيـــم سوق القيم المتداولة في الجزائر

قام المشرع الجزائري بتوكيل مهمة تسيير و تنظيم بورصة الجزائر إلى الجهات التالية:

- لجنة تنظيم و مراقبة عمليات البورصة - ***COSOB*** -
- شركة تسيير بورصة القيم المنقولة - ***SGBVM*** -
- المؤتمن المركزي للسندات.

و لكل هيئة من هذه الهيئات مهام خاصة بها يتم التطرق إليها فيما يلي:

1-1- لجنة تنظيم و مراقبة عمليات البورصة - ***COSOB*** [1]

تم تشكيل هذه اللجنة بموجب المرسوم التشريعي رقم 93-10 المؤرخ في 23 ماي 1993 المتعلق بسوق القيم المتداولة و تم تثبيتها رسميا في فيفري 1996، كما تم إجراء عدد من التعديلات عليها من خلال القانون رقم 03-04 السابق من خلال المواد 06، 12، 13 و 14.

تتمتع هذه اللجنة بالاستقلالية المالية و الإدارية، و تتمثل مهمتها في تسيير و مراقبة القيم المنقولة و هذا بالسهر على حماية المستثمرين، بالسهر على حماية المستثمرين، و ضمان حسن سير العمل و شفافية هذا السوق.

1-2- شركة تسيير بورصة القيم المنقولة - ***SGBVM*** -

و هي شركة ذات أسهم تقوم بتسيير المعاملات التي تجري حول القيم المنقولة في البورصة، يتمثل رأسمالها في الأسهم المخصصة لوسطاء في عمليات البورصة، و لا يصبح اعتماد أي وسيط اعتمادا فعليا إلا بعد أن يكتتب في قسط من رأسمال هذه الشركة، كما أنها تتلقى عمولات من العمليات التي تجري في البورصة، و تحدد قواعد حساباتها في اللائحة التي تصدرها لجنة تنظيم و مراقبة عمليات البورصة[2].

1-3- المؤتمن المركزي للسندات[3]

تعتبر الهيئة الجديدة التي جاء بها قانون 03-04 المؤرخ في 17 فيفري 2003 و المتعلق ببورصة القيم المنقولة، و هي عبارة عن هيئة أسست على شكل شركة ذات أسهم، و بترخيص من طرف لجنة تنظيم و مراقبة عمليات البورصة، و تتمثل وظيفتها الأساسية في مسك الحسابات و حفظ السندات المتداولة في البورصة، و يقدر رأسمالها الاجتماعي بـــ65.000.000 دج موزعة بين مختلف المساهمين فيها مثل: **CNEP, BADR, CPA, BEA, BNA**، مؤسسة صيـــدال، مؤسسة الريـــاض – سطيف–، مؤسسة تسييـــر فندق الأوراسي.

2- شـــروط قبول التسجيل في قيد البورصة

حتى تقبل الأوراق المالية للشركات و يتم تسجيلها في قيد بورصة الجزائر، ينبغي على الشركة التي ترغب في ذلك أن تتوفر فيها جملة من الشروط بعضها له طابع عام و الآخر ذو طابع خاص، و هي كما يلي[4]:

2-1- الشـــروط العامـــة

- المؤسسة المصدرة للأوراق المالية تأخذ شكل شركة مساهمة طبقا لما هو منصوص عليه في أحكام القانون التجاري.
- تقديم تقرير تقييمي لأصول المؤسسة، يعده عضو من مصف الخبراء المحاسبين الجزائريين غير محافظ الحسابات للمؤسسة.
- إثبات وجود هيئة مراجعة داخلية، و يتطلب أن تكون موضع تقييم محافظ الحسابات في تقريره بشأن الرقابة الداخلية للمؤسسة.
- نشر قوائمها المالية المصادق عليها للسنتين الماليتين السابقتين للسنة التي تم فيها تقديم طلب القبول.
- تحقيق أرباح خلال السنة المالية التي سبقت سنة طلب القبول.
- تقديم مذكرة إعلامية مؤشرة من طرف اللجنة.

2-2- الشروط الخاصة (حسب طبيعة الورقة)

2-2-1 الشروط الخاصة بالأسهم: و تتمثل فـــي:

- تتوفر على رأسمال لا يقل عن 100.000.000 دج محررة.
- توزع على الجمهور ما نسبته 20% من رأس المال الكلي للشركة على الأقل.
- توزيع رأسمالها على عدد لا يقل عن 300 مساهم في أجل لا يتعدى يوم الإدخال.

2-2-2 الشـــروط الخاصة بالسندات: و تتمثل فـــي:

- قيمة القرض تعادل على الأقل 100 مليون دج و ذلك يوم الإدخال.
- توزيع السندات على عدد لا يقل عن 100 شخص يوم الإدخال.

- قيم القروض المصدرة من قبل الدول غير ملزمة بالحد الأدنى، ولا بقيمة الإصدار، و لا بعدد الحاملين.

3- الخصائص الأساسيـــة لسوق القيم المنقولة في الجزائر

تعكس هذه الخصائص القواعد الأساسية المحللة في مخطط عملها و هـــي[5]:

- ✔ تدار السوق الممركزة بالأوامر و ليس بالأسعار.
- ✔ لا توجد سوق خارج تسعيرة البورصة بالنسبة للمؤسسة التي تقوم باللجوء العلني للادخار.
- ✔ توجد سوق ثانوية واحدة فقط خارج البورصة مؤمنة خصوصا لقيم الخزينة.
- ✔ يتم دخول الورقة المالية في جدول التسعيرة بموافقة شركة تسيير بورصة القيم و الوسيط في عمليات البورصة. .

ثانيا: معيقـــات بورصة الجزائر

بالرغم من مـــرور ثلاثـــة عشر سنة علـــى تأسيس بورصة الجزائـــر (23 مـــاي 1993) إلا أنها ما زالت تعاني العديد من العوائق نذكر منها:

1- ضعف الأطر التشريعية:

لا تزال أوجه الضعف في مجال الأطر التشريعية و التنظيمية واضحة في العديد من الجوانب، فمن جانب يتمثل القصور في غياب الاستقلال الإداري لبورصة الجزائر و قلة الصلاحيات المخولة لها و افتقارها لأدوات الرقابة التي تساعدها على إدارة الأوراق المالية، و من جانب ثاني غياب الشركات صانعة الأسواق و شركة التسوية و المقاصة.

كذلك تفتقر معظم المؤسسات العربية و منها الجزائر إلى وجود وكالات محلية لتصنيف و تقييم الملاءة الائتمانية و إلى شركات الترويج و ضمان الاكتتاب التي تقوم بإدارة الإصدارات و الترويج لها وضمان الاكتتاب الكامل بالأسهم المطروحة[6].

2- صغر حجم السوق و محدوديته:

يتمثل صغر حجم بورصة الجزائر ومحدوديته بالنقص الواضح في الأدوات المالية الحديثة، حيث تسيطر وسائل التمويل التقليدية على التعاملات في بورصة الجزائر و الجدول التالي يوضح ذلك:

جدول رقم(01): مؤشرات بورصة الجزائر

البيان / السنوات	2000	2001	2002	2003
القيمة السوقية لبورصة الجزائر بمليون الدولار	*	*	*	**64.143**
القيمة السوقية لبورصات الدول العربية بمليون الدولار	**148158.38**	**152230.05**	**208858.11**	**363827.70**
نسبة القيمة السوقية بالنسبة للأسواق المالية العربية	*	*	*	**%0.01**
عدد الشركات المقيدة في بورصة الجزائر	**3**	**3**	**3**	**3**
عـــدد الشركـــات المقيـــدة فـــي البورصات العربية	**1678**	**1687**	**1826**	**3756**
نسبة الشركات المقيدة في بورصة الجزائـــر بالنسبة لعـــدد الشركات المقيدة في الأسواق المالية العربية	**%0.178**	**%0.177**	**% 0.164**	**%0.079**

المصدر: صندوق النقد العربي، التقرير الاقتصادي العربي الموحد 2001.

من خلال الجدول أعلاه نلاحظ أن بورصة الجزائر:

– تحتل المرتبة الأخيــرة في عدد الشركات المدرجة في البورصة مقارنة مع الأســواق المالية العربيــة. و هذا ما ينتج عنه عدم تنوع الأوراق الماليــة، إذ تعتبر من الأسبــاب التي تقف وراء نجــاح عمليــة التــداول (03 شركات فقط)، ضف إلى ذلك أن نسبة القيمة السوقية تمثل 0.01% من إجمالي القيمة السوقية للأوراق المالية المقيدة في أسواق الأوراق المالية العربية و هي نسبة قد تكون معدومة.

(*) بورصة الجزائر دخلت في قاعدة بيانات صندوق النقد العربي في سنة 2003

و زيادة على هذا فإن حيازة الأوراق المالية المدرجة في البورصة من طرف الأعوان الاقتصاديين محدد بسقف واحد، و على سبيل المثال على ذلك نجد أن مجمع صيدال أحد الشركات المقيدة في البورصة و الاكتتاب يتم وفق الأصناف التاليــة[7]:

الإجراء .....40 سم للعامل.

الأفراد.....200 سم للفرد.

المؤسسات المالية.....300000 سم لكل مؤسسة.

أشخاص معنوية أخرى.....3000 سم لكل شخص معنوي.

نستنتج من هذا التحديد الطابع الاحتكاري للمؤسسات المالية و لا يشجع ادخار العائلات.

3– انخفاض الطلب على الأدوات الماليــة:

تعاني الأسواق المالية العربية من انخفاض الطلب على الأدوات الاستثمارية نتيجة لتدني معدل الدخل و الادخار الفردي في البلدان العربية

باستثناء البلدان الخليجية وانخفاض الوعي الاستثماري لدى الكثير من الأفراد في البلدان العربية، خاصة في الأدوات المالية الجديدة المطروحة لتداول وتفضيل المستثمرين حيازة الموجودات الثابتة كالعقارات، المعادن النفيسة، الودائع في المصارف[8].

و من الأسباب الأخرى لانخفاض الطلب على الأوراق المالية نجد السوق الموازي أو بما يعرف باقتصاد الظل حيث يشكل في الجزائر قطب لاجتذاب المستثمرين و المدخرين، إذ يجدون فيها ما يبحثون عنه على النحو الذي يحقق لهم تثمين أموالهم بشكل أسرع من الاستثمار في بورصة الأوراق المالية حيث توفر لهم (السوق الموازي) فرص للحصول على أرباح سهلة دون عناء كبير بالإضافة إلى المر دودية الكبيرة.

4- معوقات الخوصصة:

عمدت الكثير من الدول انتهاج سياسة الإصلاح الاقتصادي و ذلك عن طريق تحرير الاقتصاد و الأخذ بمبدأ آلية السوق و كان من نتائجها توسيع قـــاعدة الملكية وتفعيل الدور الذي يضطلع به القطاع الخاص في الاقتصـــاد و مما ساعد على تطبيق و توسيع قاعدة الملكية، قيام تلك الدولة بتصفية القطاع العام ببيعه أو تحويل إدارة منشآته إلى القطاع الخاص و هو ما يعرف الخوصصة[9].

و في الجزائر تعترض الخوصصة العديد من الصعاب حـــالت دون نجاحها و توسعها، إذ يؤكد الخبراء الاقتصاديين على أن غياب الإرادة السياسية الواضحة كان وراء فشل تنفيذ عملية الخوصصة في الجزائر[10]. فمنذ سنة 1991-1996 لم تكن للسلطات الجزائرية نظرة واضحة وإستراتيجية و لم تكن هناك دراسة حقيقية و واقعية من طرف مكاتب

متخصصة، بالإضافة إلى المشاكل الهيكلية التي تتمثل في ضعف القطاع الخاص و السبب في ذلك يعود إلى طبيعة نظام التأمينات (التأميم) ونموذج التصنيع المعتمد مما أثر سلبا على نمو القطاع الخاص حيث أنه و إلى غاية سنة 1982 كان القطاع الخاص محصورا في الجزائر و وضعت عليه قيود تحد من نموه و توسعه[11].

عدم تكيف القوانين و إشكالية القدم و عدم مرونة القوانين في الجزائر خاصة في ميدان القانون الإداري و قانون العمل الذي يجب أن يكون مكيف مع سياسة الخوصصة[12].

ضف إلى ذلك الوضعية السيئة للمؤسسات الاقتصادية التي سوف تخوصص من الناحية الإنتاجية، المالية التسييرية والجباية الثقيلة بالنسبة للمشترين المحتملين و كذا الأعباء الاجتماعية الثقيلة...الخ.

5- الضغط الجبائي:

ما يميز النظام الجبائي الجزائري هو تعدد أنواع الضرائب من جهـــة و ارتفاع معدلاتها من جهة أحرى ،فمثلا نسبة الضريبة على أرباح الشركات تعادل 30% من الأرباح الإجمالية، هذه النسبة تؤدي إلى تخفيض نسبة الأرباح القابلة للتوزيع على المساهمين و من ثمة تخفيض التوزيعات التي توزع على المساهمين زيادة على الضريبة على الدخل الإجمالي التي تخضع لها مرة أخرى التوزيعات عند تحويلها إلى حسابات المساهمين، وعليه فإن كل هذه الضرائب تغرم من مرد ودية الأموال المستثمرة في الأوراق المالية[13].

6- معـــدل التضخم:

سبق وأن رأينا الضغط الجبائي الذي يتأثر به المستثمر الجزائـــــري في سوق الأوراق المالية سلبا عن طريق ازدواجية الضريبة وارتفاع معدلاتها فإن التضخم يزيد من حجم الفجوة التي تربط المستثمر بسوق الأوراق الماليـــة فمنه أن التضخم يؤثر في قيمة النقد و بالتالي يؤثر على القيمة الحقيقية لعوائد الأوراق المالية خاصة أن التضخم يتوقف على معدلات النمو الاقتصادي وهذا الأخير يتوقف على حد كبير على المحروقات.

و فيما يلي تطـــورات معدل التضخم في الجزائر.

جدول رقم (2) تطور معدل التضخم في الجزائر خلال سنوات 1999-2004

السنـــوات	1999	2000	2001	2002	2003	2004
متوسط معدل التضخم	2.6	4.8	3.5	3	2.59	4

المصدر: **ONS.BA –** www.dre.org

7- ارتفـــاع درجة التركز:

و يقصد بها نسبة تداول الأسهم النشطة إلى إجمالي حجم التداول والتي تعكس صغر عدد الأسهم ذات الجاذبية، و يشير خبراء السوق إلى سببين رئيسيين لارتفاع درجة التركيز.

- ✓ الأول هو احتفاظ كبار المستثمرين بأسهم الشركات الواعدة.
- ✓ الثاني هو انخفاض جودة غالبية الأسهم المدرجة لاسيما شركات القطاع العام.

و الجديد الذكر أن التركيز المالي في سوق الأسهم غير مرغوب فيه لأنه يؤثر كليا على سيولة السوق، و الجزائر ترجع درجة التركز إلى السبب الثاني.

8- خصوصية نظام المعلومات:

يجب على المستثمر في بورصة الجزائر أن ينتظر التقـــــارير السنوية (سنة كاملة) التي تصدرها المؤسسات المقيدة في البورصة حتى يتحصل على بعض البيانات المالية التي تعتبر سطحية و عامة مقارنة مع البورصات المتقدمة من أجل اتخاذ قرار الاستثمار.

أما فيما يخص مدة إنهاء الصفقات – عمليـــات البـــورصة – بمعنى مدة التسوية و التسليـــــم فالمعيار المعتمد من قبل هو T+3 أيام بعد إجراء الصفقة، أما الأجل المعتمد في بورصة الجزائر هو T+30 و هذا بعيد كل البعد عن المعيار الدولي[14].

9- عوائـــق اجتماعية و دينية:

إن السياسة السليمة لتجنيد الادخار العائلي ينبغي عليها الأخذ بعين الاعتبار النظام ألقيمي للمجتمع و عليه فإنه ذو أهمية كبيرة في عملية توجيه المدخرات من أجل توظيفها في القيم المتداولة، و عليه تمنع العديد من العائلات فـــــي توظيف فوائضها في الأصول المالية خاصة منها السندات باعتبارها ذات عائد يتمثل في الفائدة و الذي يعتبر من الناحية الشرعية محرما أي ربا[15].

ثالثا: ماذا يجب عملـــه لتطويـــر بورصة الجزائر؟

يعتبر تطوير سوق الأوراق المالية في الجزائر جزء من عملة تطوير القطاع المالي، ويحتاج تطوير القطاع المالي إلى منهجية صحيحة تبدأ من خلق بيئة اقتصادية مساندة و تصل إلى تطويـــــر الأجزاء الأساسية لهذا القطاع.

- ✓ استكمال الإطار التشريعي من خلال سن القوانين و التشريعات وآلية العمل المناسبة ويأتي في مقدمة هذه التشريعات قانون الشركات، قانون سوق الأوراق المالية و اللوائـــح التنفيذية إضافة إلى قوانين وأنظمة الاستثمار و الضريبة المتعلقـــــة بتداول الأوراق المالية والقوانين العـــــامة ذات الصلة و التأثير غير المباشر على السوق.
- ✓ وضع قوانين و قواعد للإيضاح و الشفافية و ذلك من خلال:
- ✓ إلزام الشركات بنشر تقاريرها المالية اليومية، الأسبوعية و الشهرية و في نهاية السنة المالية تم إعداد و نشر القوائم المالية الختامية.
- ✓ تنظيم و تطوير مهنة المحاسبة و تدقيق الحسابات بما يتماشى مـــــع معايير المحاسبة و المراجعة الدولية.
- ✓ تطوير صناعة التحليل المالي والاستثماري، و ذلك بالعمل على تشجيـــع تأسيس و تطوير بيوت خبرة تعمل في صناعة التحليل المالي و الاستثماري و تقييم نوعية الأوراق المالية التي تصدرها الشركات.
- ✓ تشجيع قيام مؤسسات المعلومات المالية، حيث تقوم بجمع المعلومات عن أداء الشركات و تحليلها مثل الشركتين الأمريكيتين:
  Moody's and Standar and Poor's
- ✓ تطوير بورصة الجزائر عن طريق تحفيز الطلب في سوق الأوراق الماليـــة و ذلك من خـــلال:

  – تخفيض سعر الفائدة.

– إعادة هيكلة الحوافز الضريبية لصالح المستثمرين و ذلك بإعفاء جزء من الدخل الخاضع للضريبة يعادل المبلغ المستثمر في الأوراق المالية.

- ✓ تعميق الوعي الاستثماري لزيادة الطلب المحلي للأفراد و ذلك عن طريق إتاحة فترات كافية لبث برامج في الإذاعة و التلفزة خاصـــة للجمعيات المهنة العاملة في سوق المال، و كـــذا بـــث الحمـــلات الإعلامية (الترويج) لتـــــوعية و جذب صغار المدخرين.
- ✓ ضرورة الفصل بين الهيئة التنفيذية والهيئة الرقابة لبورصة الجـــــزائر.
- ✓ تطوير بورصة الجزائر عن طريق تعدد الوسطاء، بالرجوع إلى القانـــون رقم 99-02 المؤرخ في1999/07/27، نجد خمسة(05) شركات وساطة مالية (الراشد المالي، الشركة المالية للاستشارة والتوظيف، شركة التوظيف في القيم المنقولة، الشركة العامة للمالية والاستثمار وأخيرا وسيط البنك الاتحادي) و هي مكونة كلها من بنوك تابعة للدولة، لذا يجب فسح المجال أمام هيئات أخرى تابعة للقطاع الخاص بهدف توسيع دائرة الوسطاء.
- ✓ تطوير بورصة الجزائر عن طريق تنويع الأوراق المالية أي زيادة أعدادها كما و نوعا (المشتقات المالية).
- ✓ تطوير بورصة الجزائر عن طريق تعميق وتوسيع قاعدة المستثمرين، مثلا إلحاق شركات التأمينات و صناديق الضمان الاجتماعي.
- ✓ تخفيض مدة التسوية و المقاصة و ذلك من خلال الربط الآلي لفروع الجهاز المصرفي بمراكزها الرئيسة و فيما بينها لتقترب من

المعيار الدولي T+3 و كذلك إنشاء غرف للمقاصة في الأقاليم وتسهيل الاتصال فيما بينها.

- ✓ إنشاء معاهد و مدارس عليا متخصصة في البورصات من أجل تكوين كوادر متخصصة لتفعيل و تنشيطك البورصة.
- ✓ فتح بورصة الجزائر أمام الاستثمار الأجنبي ضمن شروط وضوابط محددة و ذلك من خلال القضاء على مشكلات المستثمر الأجنبي الخاصة بتحويلات النقد الأجنبي وكذا واقعية سعر الصرف و تحدده عند مستوى يتلاءم مع قوى السوق .
- ✓ الاستثمار في برامج الخوصصة التي تشكل أحد أهم المتطلبات التي يمكن من خلالها تعزيز العرض و التداول في الأوراق المالية.

الخـــاتـــــمة

خلص هذا البحث إلى أن بورصة الجزائر تقف في وجهها العديد من المعوقات آلت دون تحقيق الأهداف التي أنشأت من أجلها، و بغية تطوير و تفعيل بورصة الجزائر نقدم الاقتراحات التالية:

- ✔ إعادة النظر في التشريعات التي تحكم البورصة وخاصة تلك التي وضعت في 23 ماي 1993 و ما يتصل بها واستكمال الأطر التشريعية و التنظيمية، و كذا القوانين الخاصة بالشركات المساهمة وحماية حقوق المستثمرين عن طريق وضع و تحديد قوانين تضمن الإفصاح و الشفافية.
- ✔ تفعيل عملية الخوصصة خاصة في الشركات التي تتميز بالمراكز المالية الجيدة لتفعيل السوق المالي عوض خوصصة الشركات المفلسة.
- ✔ تفعيل السوق الأولى (سوق الإصدار) من خلال تسهيل إجراءات القيد.

- ✔ تهيئة المناخ الاستثماري و ذلك من خلال تحسين الأوضاع و الظروف الاقتصادية و الاجتماعية.
- ✔ تخفيض معدلات الفائدة في السوق النقدي و تخصيص معدل ضريبي تفضيلي خاص بسوق الأوراق المالية كحافز لزيادة الطلب عليها.

قائمـــة المراجـــع:

(1) : Guide COSOB, Guide De L'investisseur, 1997, P 53.

(2) : الجريدة الرسمية، العدد 11، الصادر في 17 فيفري 2003.

(3) : نفس المرجع السابق، ص12.

(4) : محمد براق، بورصة القيم المنقولة و دورها في تحقيق التنمية مع دراسة حالة الجزائر– كلية العلوم الاقتصادية و علوم التسيير– جامعة الجزائر 1999، ص ص 385– 386.

(5) : Info Bourse, la négociation en bourse, 3 éme édition, 1998, P 6.

(6) : إبراهيم أحمد حركس، تفعيل أداء الأسواق و المؤسسات المالية في العراق عامل مهم في مواجهة تحديات العولمة، بحوث المؤتمر العلمي الثالث – الدراسات الاقتصادية بعنوان الاقتصاد العربي و متغيرات البيئة العربية والدولية، بيت الحكمة، بغداد 2002، ص 268 بتصرف.

(7) : Info Bourse, Bulletin de la COSOB N° 1, 1999, P 29.

(8) : هناء عبد الغفار السامراني، الأزمات المالية العالمية و أثرها على الأسواق المالية العربية، بحوث المؤتمر العلمي الثالث لقسم الدراسات الاقتصادية بعنوان الاقتصاد العربي ومتغيرات البيئة العربية و الدولية، بيت الحكمة، بغداد 2002، ص 330.

(9) : حوار أجرتـــه جريـــدة الخبر مع الخبير الاقتصـــادي شكيب أرسلان، العـــدد 2798 ، بتاريخ 03 جانفي 2000.

(10) : L'Economie, Mensuel Economique, Edité Par L'agence Algérie Presse Service N°34, Juin 1996, P 16.

(11) : KHALIF Omar, Economie Algérienne Politique De Privatisation, Colloque ERIAD Sur L'emploi, Alger 2004, P 26.

(12): حسن خضر، تحليل الأسواق المالية، سلسلة دورية تعنى بقضايا التنمية في الأقطار العربية، العدد 27، مارس 2004، ص 12.

(13): مصبيح أحمد، الاستثمار المالي مع دراسة حالة الجزائر،مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجيستر في علوم التسيير – فرع المالية– المدرسة العليا للتجارة – الجزائر 2002، ص 238.

(14) : A/SADEMI, La Bourse Une Affaire De Volonté Politique, Journal Liberté Economie N°118 du 04 Au 10 Avril 2001.

(15) : محمد براق و آخرون، مداخلة بعنوان " معوقات الاستثمار في أسواق الأوراق المالية العربية " - حالة الجزائر- المؤتمر الدولي العالم الثاني، كلية العلوم الاقتصادية و علوم التسيير، جامعة سكيكدة- الجزائر2004، ص26.

المـــقابلة في خدمة الفـــرد
آلياتها وتطبيقاتها

الأستاذ: عبد العزيز جاهمي
قسم علم الاجتماع والديمغرافيا
جامعة 8 ماي 1945– قالمة

الملخص:

إن هذا المقال ما هو إلا مساهمة متواضعة لفهم واستيعاب هذه التقـــنية (المقابلة) الأكـــثر استخداما في الخدمة الاجتماعية عموما وفي خدمة الفرد خصوصا. والتي تساعد دون شك الأخصائيين الاجتماعيين في تجاوز الصعوبات التي قد تعترضهم في هذا الميدان، وإثراء ممارساتهم.

ما من شك في حاجة المجتمعات الإنسانية على اخـــــــتلاف مشاربها الإيديولوجية و نظمها الاقتصادية و الاجتماعية إلى خدمات اجتماعية تلبي احتياجات أفرادها و جماعاتها، و تحل مشكلاتهم والمساهمة بفعالية في دفعهم إلى العمل و الإنتاج، و تحقيق التنمية بمفهومها الشامل.

فعالم اليوم يتسم بالفلسفة البراجماتية التي تؤمن بأن العلم الصالح هو ما ينفع المجتمع، و أن المعرفة المجردة لا قيمة لها إلا بعرضها على محك الواقع. والخدمة الاجتماعية باعتبارها إحدى نواحي الاهتمام في نسق الرعاية الاجتماعية الحديث لها مدلولين احدهما عام والأخر خاص. فالمعنى العام يتأتى من المدلول اللفظي المكون لهذا الاصطلاح، حيث أن كلمة خدمة تعني مجهودات هادفة يقصد بها تحقيق فائدة أو منفعة معينة؛ أو إيقاف أو منع ضرر واقع أو محتمل الوقوع.

أما لفظ اجتماعي فبديهي أنه صفة مشتقة من المجتمع. و يمكن من دلالة هذا التركيب اللفظي القول أن الخدمة الاجتماعية بمعناها العام هي مجهودات موجهة يقصد بها منع الأضرار الاجتماعية أو إحداث ألوان من المنفعة المرغوبة. و إذا انتقلنا إلى المعنى الخاص للمهنة نجده قريب الصلة بالمعنى العام[1].

والحقيقة أن الخدمة الاجتماعية مهنة هدفها الرئيسي تنمية المجتمعات؛ و ذلك عن طريق البحث عن القوى و العوامل المختلفة التي تحول دون النمو و التقدم الاجتماعي مثل: الحرمان و البطالة و المرض والظروف المعيشية السيئة التي تخرج عن نطاق قدرة الأفراد الذين يعانون منها؛ و التي تعمل على شقائهم. كما تبحث عن أسباب العلل في المجتمع لكي تتصدى لها

وتكافحها؛ و تنتقي أنسب الوسائل الفعالة في المجتمع للقضاء عليها، أو التقليل من آثارها و الأضرار التي تنتج عنها إلى أدنى حد ممكن.

فالخدمة الاجتماعية مهنة شاء لها قدرها أن تعتمد كليا على فن الأداء و العطاء، و مهارة التغيير لتحقيق أفضل رفاهية ممكنة للإنسان كفرد، و كعضو في جماعة أو في المجتمع الكبير؛ و إن قامت على معارف علمية و نظريات مقنعة لتفسير السلوك الإنساني و ظواهر المجتمع و قضاياه ومشاكله، لأن المعارف لا تجدي نفعا إلا إذا طوعتها مهارة الممارس لتناسب المواقف الاجتماعية المختلفة؛ حتى أن (ستروب STROUP و فينك FINK) وهما من الرعيل الأول لعلماء الخدمة الاجتماعية و صفا المهنة بأنها فنART و مهارة SKILL يوظفهما الممارس لخدمة عملائه. بل ذهب أستاذ الخدمة الاجتماعية في بريطانيا (هالمس HALMES) إلى أنهـــا مهنة تجسد معاني الحب الإنساني من خلال عمليات المساعدة المختلفة. بل كشف (سكيدمورSKIDMORE و سيبورين SIPORIN) عن أن مشكلات الخدمة الاجتماعية تتركز في كيفية الممارسة HOW و ليس في مضمونها TWHA. لهذا احتل الجانب التطبيقي في الخدمة الاجتماعية أهمية قصوى منذ نشأة المهنة في أوائل القرن الماضي كدعامة أساسية في إعداد صفوة قادرة على العمل الاجتماعي. و ازدادت أهمية ذلك خاصة مع سيطرة الاتجاهات البراجماتية التي تؤمن بأن العلم الصالح هو ما ينفع المجتمع بأفراده وجماعاته المختلفة[2].

و بالتالي أصبحت الخدمة الاجتماعية تعتمد على خريج قادرا عمليا على التأثير أكثر من احتياجها لخريج يعلم فقط بأساليب هذا التأثير. و لما كانت الخدمة الاجتماعية تهتم أساسا بالأفراد و الجماعات و المجتمعات.

ويتميز أسلوب العمل مع كل من هذه الوحدات الثلاث بمميزات تجعله يختلف عن غيره، نشأت طرق الخدمة الاجتماعية الرئيسية الثلاث و هي: خدمة الفرد، خدمة الجماعة ،خدمة تنظيم المجتمع. و هناك طريقتان مازالتا في طور التشكل و التكوين و الظهور و هما طريقتا: البحث الاجتماعي و إدارة المؤسسات الاجتماعية[3].

و خدمة الفرد هي أولى طرق الخدمة الاجتماعية منذ نشأتها عام 1898. ومن داخل مؤسسات خدمة الفرد تبلور إطار الخدمة الاجتماعية المهني؛ وخرجت المداخل و الاتجاهات المختلفة. و امتدت أبعادها ونشاطاتها في المجتمعات لتغطي كافة ميادين الحياة. ومصطلح خدمة الفرد هو ترجمة للمصطلح الانجليزي (CASE WORK) و يعني دراسة الحالة. ومع ظهور مهن أخرى تهتم بدراسة الحالة كان لابد من إضفاء الصفة الاجتماعية على اللفظ لتميزها عن تلك المهن الأخرى، و تحدد الصفة الاجتماعية لها. ولذلك أضيف لها لفظ اجتماعيSOCIAL فأصبحت SOCIAL CASE WORK أي خدمة الفرد الاجتماعية[4].

و لخدمة الفرد تعاريف متعددة صاحبت تاريخها. و نظرا لتعدد النظريات في ذلك، فقد تنوعت بالتالي هذه التعاريف من حيث الصياغة والمضمون حسب الاتجاهات المتعددة لخدمة الفرد؛ سواء كانت تحليلية أو وظيفية أو سلوكية[5]. فالبعض يعرفها بأنها طريقة خاصة لمساعدة الأفراد لمقابلة حاجاتهم الشخصية وا لاجتماعية[6]. و البعض الآخر يعرفها بأنها عملية تمارس في مؤسسات اجتماعية لمساعدة الأفراد على المواجهة الفعالة للمشكلات التي تعوق أدائهم لوظائفهم الاجتماعية[7] وهناك من يرى أن خدمة

الفرد هي الفن الذي يعتمد على العلاقات الإنسانية و المهارة في تكوين العلاقات المهنية المتينة، التي تسمح بإيقاظ قدرات الفرد. و الاستفادة من الموارد المناسبة بشرية كانت أو مادية ليتمكن من التكيف الأفضل مع كل أو بعض بيئته الاجتماعية[8]. و يذهب (صباح الدين علي) في تعريفه لخدمة الفرد إلى أنها طريقة لمساعدة شخص يواجه موقفا عسيرا لا يمكنه الاستمرار في مواجهته؛ و ذلك بتمكينه من فهم أسباب مشاكله الشخصية أو الأسرية، و السعي لمعرفة واستغلال القدرات الموجودة في شخصية العميل أو في أسرته، و كذا خدمات المؤسسات الصحية و الاجتماعية التي تساعد على صيانة حياته و حياة أسرته[9].

و مهما تعددت التعريفات فإن خدمة الفرد هي طريقة من طرق الخدمة الاجتماعية تستهدف مساعدة العميل في تجاوز العقبات و التحديات والمشكلات المادية و المعنوية التي تحول دون توافقه الاجتماعي؛ و التي عجزت إمكانياته الذاتية و البيئية عن تخطيها. و ذلك بالاعتماد على قاعدة علمية ومهارية، تمكنه من التعاطي معها بفعالية؛ و التي تتطلب التوظيف الأمثل للموارد المتاحة بالإضافة إلى المهارات المهنية الأخرى .

و يعتبر الأخصائي الاجتماعي ذو المهارة و الإعداد العلمي المناسب هو الوسيلة و الأداة الأساسية في تطبيق و استخدام طريقة خدمة الفرد، وهناك مجموعة من الوسائل التي يعتمدها في دراسته للعميل والحصول منه على المعلومات الشخصية و البيئية التي تفيده في فهم موقفه فهما دقيقا وبالتالي علاجه.

و تعتبر المقابلة من أهم الوسائل التي يحصل بها الممارس المهني في الخدمة الاجتماعية (الأخصائي الاجتماعي) على بيانات و حقائق المواقف الإشكالية من المصادر المختلفة، ووسيلة تشخيصية تمكنه من التعرف على العوامل الأساسية المؤثرة في المشكلة التي يعاني منها العميل (طالب الخدمة أو المساعدة). كما أنها عملية علاجية لا غنى عنها في مواجهة الكثير من المشكلات التي تحتاج إلى إفراغ وجداني مثلا. فهي تمثل عصب عملية المساعدة و الدعامة الأساسية لها باعتبارها الطريق الذي يتمكن بواسطته الأخصائي الاجتماعي من تحقيق أهداف الدراسة عن طريق تبادل المعلومات و البيانات الوافية مع العميل. و التي من خلالها تتم عملية التشخيص التي على أساسها توضع خطة العلاج. و من ثم فهي إحدى الوسائل الأساسية المستخدمة في مختلف المراحل التي تتبع في خدمة الفرد. فالمقابلة في خدمة الفرد هي لقاء مهني يتم بين الأخصائي الاجتماعي و العميل أو أي فرد أو أفراد آخرين مرتبطين بالمشكلة، في إطار أسس و قواعد منظمة من اجل تحقيق عملية المساعدة[10]. و يختلف هذا النوع من المقابلة عن غيره في باقي المهن و الفنون الأخرى. وسعيا منا لاستجلاء و تبيان ذلك سنحاول التركيز على أهم الخصائص التي تتميز بها هذه الوسيلة في خدمة الفرد وذلك في ما يلـــي:

أولا: أن المقابلة في خدمة الفرد لا تسعى في الغالب لغرض شخصي أو لكسب مادي. و لكن هي وسيلة لفهم مواقف الأفراد على حقيقتها تمهيدا لتوجيه دوافعهم و مساعدتهم على التخلص من العوامل النفسية والاجتماعية السلبية. و ذلك انطلاقا من أن للمقابلة في خدمة الفرد ثلاث أهداف رئيسية و هـــي:

1- الأهداف الدراسية: و تتلخص في:

ا- أنها الوسيلة الأساسية لنمو العلاقة المهنية.

ب- أنها الأسلوب الأساسي للتعرف على حقائق خاصـــة بســـمات العميـــل الشخصية الجسمية منها و العقلية و الانفعالية و الاجتماعية.

ج- أنها وسيلة لجمع المعلومات و الوصول إلى الحقـــائق مـــن مصـــادرها الأولية.

د- أنها الوسيلة الأساســـية للاتصـــال بالمصـــادر البشـــرية مـــن خبـــراء ومتخصصين.

2- الأهـــداف التشخيصية: وتتمثل فـــي:

أ - أنها الوسيلة الأساسية للوقوف على العوامل المسببة للموقـــف الإشـــكالي والمرتبطة بالسمات الشخصية للعميل.

ب- أنها وسيلة للوقوف على العوامل البيئية المتعلقة بالأفراد المحيطين.

ج- أنها وسيلة للوقوف على التاريخ التطوري للفرد المشكل.

د- أنها وسيلة للوقوف على الظروف المختلفة المسببة للموقف الإشكالي.

3 – الأهـــداف العلاجية: وتتمثل فـــي:

أ - أنها الوسيلة الأساسية لتقوية ذات العميل.

ب- أنها وسيلة لتعديل اتجاهات الأفراد المحيطين بالعميل.

ج- أنها وسيلة هامة للتنفيس الوجداني و التعبير الحر عن المشاعر السلبية.

د- أنها وسيلة سريعة للبت في الموقف الإشكالي.

ه- أنها تزيل عوامل القلق و المخاوف لدى العميل.

و- أنها وسيلة أساسية للتعامل مع دفاعيات العميل[11].

و حتى تحقق المقابلة هذه الأهداف يجب على الأخصائي الاجتماعي أن يعمل على:

- ❖ إعطاء العميل الفرصة للاستماع إلى مشكلته و الوصول إلى معرفة نوع حاجاته و إكتشاف مستواه العقلي و علاقته بمشكلته.
- ❖ تكوين علاقة مهنية مع العميل يكون أساسها الثقة و التفاهم و تكون بدورها أساسا لما يتبع من الصلة بين الأخصائي و العميل.
- ❖ الحصول على مصادر المعلومات التي تعين الأخصائي على فهم الموقف و مناقشة الطرق الممكنة لإثبات استحقاق العميل لخدمات المؤسسة.
- ❖ إتاحة الفرصة للعميل خلال المقابلة للتعبير عن مشاعره السلبية والايجابية و إزالة المخاوف فيما يتعلق بالموقف الذي يعاني منه، وتخفيف شعوره بالضعف بسبب التجائه لطلب المساعدة.
- ❖ توجيه دوافع العميل لكي يعتمد على نفسه و ذلك بتشجيعه على المساهمة لكي يبذل ما يمكن بذله من نشاط لعلاج موقف[12].

ثانيا– أن المقابلة في خدمة الفرد تتم مع أنماط صعبة المراس من العملاء فمنهم: المقاوم لعملية المساعدة، والمحول لانفعالاته السلبية والايجابية (حبا أو كرها) إلى الأخصائي الاجتماعي، و الناصح الذي يدعي المعرفة وإظهار التفوق على الأخصائي و تغطية نقص معلوماته و عجزه عن حل مشكلته، و المتواكل الذي يلقى حمله على الأخصائي لنقص ثقته في نفسه وفي كفايته في اتخاذ القرارات، و الذي يعتقد أن الأخصائي بيده المفتاح السحري لحل كل المشكلات، و الخاضع المستكين الذي يوافق على كل شيء

و يعمل كل ما يؤمر به دون مناقشه أو نقد أو اعتراض، و أحيانا دون فهم، و المنسحب الذي يلوذ بالانسحاب و الصمت و السلبية بينما يسعى الآخرون لمساعدته، و القلق الخائف من المستقبل، و الغير مستقر خشية من الفشل، والحزين المحس بالذنب و الشاعر بالمرارة الذي يرى زاهدا منعزلا مكتئبا. و كبش الفداء ممن تعرضوا لعدوان سادي من قبل الآخرين نتيجة لسذاجته أو قسوة ظروفه، أو ممن يعرضون أنفسهم للعدوان و يتلذذون بذلك، والمصادق الاجتماعي الذي يحاول جعل العلاقة المهنية علاقة صداقة و ألفة اجتماعية دون حدود مهنية و دون كلفة، و الممثل الذي يمثل دورا مختلفا عن دوره الواقعي وحياته الحقيقية، والعدواني الذي يشعرانه معتدى عليه فيرد بالعدوان، و قد يمتد عدوانه إلى الأخصائي الاجتماعي. والمحتكر المتمركز حول ذاته الذي يحاول السيطرة على مجاله الاجتماعي و تسليط الأهواء على نفسه كرد فعل دفاعي لخوف مرضي من الانعزال أو البقاء في الظل[13].

ويذهب (عبد الفتاح عثمان) إلى تبيان أهم السمات الإشكالية للعملاء وعواملها في: الشاعر بالنقص كعامل من عوامل مشكلته مع زوجته مثلا؛ و الشاعر بالذنب كعامل من عوامل الإدمان أو كنزعة تدميرية انتقامية ضد الذات؛ والشاعر بالاضطهاد كعامل من عوامل الفشل الدراسي بدعوى أن المدرسين يضطهدونه و الجميع بالمدرسة يكرهونه؛ و الشاعر بالعجز كعامل من عوامل الفشل في العمل، و الدافع إلى الحيل التعويضية. والمكتئب كعامل من عوامل الخلاف الزواجي و الشك في الآخرين؛ و المتردد كعامل من عوامل العزلة و السلبية والسخرية؛ و المتقلب المزاج كعامل من عوامل علائقية. والمنطـــوي كعامل من عوامـــل إفتقاد التكيف مع الآخريـــن؛ و الذي يعانـــي صعوبات في النطق (الثأثأة و اللجلجة) لعوامل نفس اجتماعية[14].

و حتى تحقق المقابلة أهدافها مع هذه الأنماط الإشكالية يجب على الأخصائي

الاجتماعي تهيئة مناخ نفسي مناسب يراعى فيه خصائص الموقف الإشكالي، والتقيد بما يلي:

1- الملاحظـــة و ليس المراقبة: و فيها يحاول الأخصائي التعرف على المظهر العام للعميل من حيث الملبس، العاهات إن وجدت، الانفعالات والمشاعر... الخ

2- الاستمـــاع و ليس الجمـــود: بمعنى الإنصات الواعي لكل ما يقوله العميل و ما يحمله من المشاعر التي تمكن من التعرف إلى ما يريد أن يقوله و مالا يريد أن يتطرق إليه.

3- التعليقات و ليس الثرثرة: و هذا يتيح للعميل حرية التعبير عن آرائه أو لتوضيح معنى غامض أو للاستطراد في منطقة دراسية بعينها.

4- توجيـــه المناقشة لا التحكم فيهـــا: و هو قيادة المناقشة إلى الجوانب التي لها صلة بالموضوع دون خنق العميل في مسارات يرفضها.

5- الاستفهـــام و ليس الاستجواب: وهو الأسلوب الغالب في المقابلة الذي يهدف إلى إيضاح منطقة دراسة معينة أو استجلاء أمر من الأمور المرتبطة بالمشكلة[15]. و الاستفسار باعتباره عصب عملية المقابلة في خدمة الفرد له أهدافه و أسلوبه الفني الخـــاص به فهو:

ا- يؤدي إلى معرفة بعض الحقائق و البيانات الهامة التي لم ترد خلال سرد العميل لمشكلته.

ب- وسيلة لإشعار العميل باهتمام الأخصائي الاجتماعي من خلال أسئلة التعاطف مثلا.

ج- قد تؤدي بعض الأسئلة أدوارا علاجية كما في حالات الاضطراب النفسي، و الأشخاص قليلي الكلام أو الأطفال النافرين.

د- وسيلة لتحويل المناقشة من موضوع لآخر و خاصة مع العملاء الثرثارين أو الذين يبدون مقاومة في الحديث عن موضوع معين[15].

و للاستفهام في هذا السياق قواعد و أسس يجب الالتزام بها و يمكن إيجاز أهمها في الآتـــي:

- ❖ أن يوجه السؤال في الظروف المناسبة، ويكون مرتبطا بموضوع الحديث.
- ❖ أن لا يكون السؤال مفاجئا للعميل حتى لا يربكه أو يقطع تسلسل أفكاره.
- ❖ أن يكون السؤال بسيطا و واضحا و قصيرا بحيث لا يشمل أكثر من موضوع. و أن يكون في حدود إدراك العميل من حيث اللغة والعمق، و يتفق في عمقه مع الموقف.
- ❖ إلقاء بعض الأسئلة بطريقة مباشرة في بعض المواقف التي تستدعي ذلك.
- ❖ أن تبدأ الأسئلة بتناول الموضوعات العامة، ثم تتدرج إلى النواحي الخاصة تجنبا للإحراج.

- ❖ أن يرتبط مضمون السؤال و جوهره بالحالة النفسية للعميل لحظه توجيه السؤال.
- ❖ أن يكون السؤال مفتوحا في أغلب الأحيان خاصة فـــي المقـــابلات الأولى، و تجنب الأسئلة التي لا تستجلي الموقف الإشكالي بجوانبه و أبعاده.
- ❖ تجنب الأسئلة التي تثير قلـــق العميـــل مثـــل: الأســـئلة الملتويـــة والساخرة. والأسئلة الإيحائية، وأسئلة الادانه ...الخ[16].

ثالثا– أن للمقابلة في خدمة الفرد قواعد تنظيميـــة خاصـــة يجـــب مراعاتها و هـــي:

1– تحديـــد موعد المقابلة:

إذا كان ذلك من الأمـــور الواجبة فـــي المقابلات العاديـــة فهو من ألزمها في المقابلات المهنية في خدمة الفرد. و ذلك للاعتبارات التالية:

ا– أن الموعد هو نوع من الارتباط يشكل بطبيعته التزاما نفسيا ومهنيا عند كل من الأخصائي و العميل، ينعكس على حرص كل منهما على إنجاح المقابلة ذاتها.

ب– تهيئ العميل نفسيا و اجتماعيا لما سيدور فـــي المقابلـــة مـــن مناقشات و ما تمسه من موضوعات، و ما يعكسه ذلك على حسن اســـتجابته للمقابلة.

ج– ينظم عمل الأخصائي إداريا و مهنيا، فيكون أقدر على قيـــادة المقابلة قيادة ناجحة[17].

2- تحديـــد مكان المقابلة:

يختلف مكان المقابلة حسب أهدافها. فقد تكون المقابلة داخل المؤسسة أو خارجها (الزيارة المنزلية، أو أي مكان يتصل به الممارس المهني خارج المؤسسة من أجل إجراء مقابلة للحصول على معلومات أو لتحقيق هدف علاجي). وعلى الممارس في هذا المجال التصرف في حدود الإمكانيات المتاحة، و بما يحقق هدف المقابلة، و يحافظ على سرية المعلومات؛ و تهييئة العميل نفسيا للمقابلة دون إهدار لكرامته أو إهانته. ويسمح بسير المقابلة في مجراها الطبيعي دون عرقلة أو تعطيل. و يجب أن يكون المكان هادئا و بعيدا عن الضوضاء، و أن يتسم بطابع العمل والبساطة و البعد عن المبالغة في التزين . كما يجب أن تكون الإضاءة و التهوية جيدة حتى تساعد على ملاحظة الممارس للعميل و إنفعالته[18].

3- الإعداد المهني للمقابلة:

و يمكن التمييز في هذا المجال بين خطوتين متكاملتين و هما:

أ- **التخطيط المسبق للمقابلة** و ما يتطلبه من دراسة وافية للملفات أو السجلات أو الطلب المقدم لذلك، أو قرار المحكمة، و ما إلى ذلك حسب ظروف كل حالة؛ و تقدير احتمالات سير المقابلة و اتجاهاتها قدر الإمكان.

ب- الإعداد النفسي للمقابلة: و يتمثل ذلك في تخليص العميل من ضغوطه النفسية الخاصة به، سواء كانت لأسباب شخصية أو اجتماعية[19]. **و** يسمح للأخصائي الاجتماعي باختيار أفضل التقنيات و أنسب الطرق.

و يتطلب الإعداد للمقابلة أن يقوم الأخصائي في ذلك بما يلـــي:

1- تجميع المعلومات المتوافرة لديه عن العميل و عن الغرض الذي أتى من أجله إلى المؤسسة و مراجعتها و تقييمها. و بناء على هذه المعلومات يقوم الأخصائي الاجتماعي باختيار الإستراتيجية المناسبة لكل مقابلة، على أن يضع في اعتباره أن التقارير الأولية ليست دائما دقيقة وربما لا تعكس الموقف الحالي بشكل مناسب.

2- في جميع المقابلات يجب أن يبدأ الإعداد للمقابلة فور انتهاء المقابلة السابقة. و يبدأ التخطيط بمراجعه الأخصائي الاجتماعي لملاحظاته وسجلاته في تلك المقابلة. فالمهارة في مراجعة المعلومات التي تم الحصول عليها في المقابلة السابقة ستكشف عن معلومات ذات أهمية كبيرة يمكن الاستفادة منها في الإعداد للمقابلة التالية. و يمكن أن تتم المراجعة من خلال الإجابة على أسئلة مثل: ما الأمور التي سارت بشكل جيد؟ و ما الأمور التي فشلت؟ ما الجديد الذي تم معرفته عن العميل؟ ما القوى التي تم التعرف عليها التي يمكن الاستفادة منها في تحقيق الهدف؟ ما المعلومات التي ظهرت عن الشبكة الاجتماعية للعميل و يمكن الاستفادة منها فيما بعد ؟ لماذا استجاب العميل لأسئلة معينة و لم يستجب لأسئلة أخرى؟ و ما النقاط التي تحتاج لمزيد من التوضيح؟ ...الخ

3- التأكد من توفر الجو النفسي الملائم لإجراء المقابلة؛ ذلك الجو الذي يشعر فيه العميل بالخصوصية، و الراحة و حرية الانطلاق، وعدم الإحساس بالضيق و المهابة و الانزعاج قدر الإمكان.

- الاتصال بالآخرين المحيطين بالعميل الذين تعوق اهتماماتهم أو مشاركاتهم أو الاثنين معا المساعي الموجهة لتحقيق التغيير.

4- الاهتمام الكافي بمصادر التحويل لما لها من متضمنات عديدة لكل من الأخصائي الاجتماعي و العميل عندما يبدآن العمل سويا[20].

4- زمـــن المقابلة:

من القواعد التي انتهى إليها علماء التربية أن الإنسان يفقد القدرة على التركيز بعد عشرة دقائق إذا ما ظل مستمعا بصورة سلبية. كما يفتر إنتباهه بعد ساعة إذا كان مشتركا بنفسه في المناقشة. لذلك يتفق الأخصائيون الاجتماعيون على أن المقابلة لا يجوز أن تزيد مدتها على الساعة مهما كانت الظروف. و هي الفترة التي يفقد بعدها كل من الأخصائي وخاصة العميل القدرة على التركيز والفاعلية[21]. أما مدة المقابلة ذاتها فشأنها شأن كافة عمليات خدمة الفرد تحددها للضرورة عدة عناصر منها:

ا- **شخصية العميـــل:** فقد يطول زمن المقابلة نتيجة حواجز دفاعية لدى العميل أو لأنه كثير الكلام أو لضعف قدرته على التفكير و التركيز. وهناك حالات لا تحتمل أن تطول فيها المقابلة لأكثر من دقائق كحالات المرض بأمراض تتعارض مع النشاط الذهني أو الإثارة أو الانفعال.

ب- طبيعـــة المشكلة و أهميتها: فالمشكلة الاقتصادية تستغرق من الوقت أقل من المشكلات السلوكية و النفسية.

ج- خبرة الأخصائي و مهارته: كلما كان لدى الأخصائي الخبرة الطويلة والمهارة الكافية كلما كان الطريق واضح أمامه؛ و كلما اختصر الطريق في الوصول إلى الهدف.

4- إمكانيـــات المؤسسة: فكلما كثر عدد الأخصائيين في المؤسسة ،انعكس ذلك على إعطاء المقابلة حقها و عدم ضغطها. و كلما قل عدد الأخصائيين زاد ضغط العمل، وقل بالتالي زمن المقابلة مع العملاء حتى يتمكن الأخصائي من مقابلة أكبر عدد ممكن في أقل وقت. و لا شك أن ذلك يكون على حساب العمل المهني.

5- نـــوع المقابلة: فالمقابلة الأولى غالبا ما تحتاج إلى وقت أكثر مما تحتاجه المقابلات التالية. و المقابلة المفتوحة قد تستغرق وقتا أطولا من المقابلة المقننة و هكذا[22].

رابعا- أن للمقابلة في خدمة الفرد ثلاث أنـــواع و ذلك حسب طبيعة العمـــلاء وهـــي:

1- المقابلة الفرديـــة: و هي أكثر الأنواع شيوعا حيث تتم فيها مقابلة الأخصائي للعميل نفسه و بمفرده. و أكثرها نجاعة لنمو العلاقة المهنية و مباشرة العمليات التأثيرية المختلفة .

2- المقابلة المشتركـــة: و هي التي يشترك فيها مع العميل أفراد آخرين حسبما يقتضيه الموقف. و هي مقابلات تشيع عادة في المشكلات العائلية أو اضطراب العلاقات بين أفراد الأسرة و في الأسر البديلة حيث يشترك الطفل مع الأم البديلة في المقابلة مثلا. كما تشيع في بعض حالات الضعف أو المرض العقلي التي قد يكون من المفيد وجود الأب و الأم أو الأقارب خلال المقابلة. و يتم هذا النوع عادة بعد المقابلة الفردية. و يستهدف منح الفرصة لأطراف المشكلة للتعبير عن أحاسيسهم و أفكارهم في مواجهة

الطرف الآخر، في ظل توجيه مهني و قيادة عاقلة تستثمر هذه الأحاسيس وهذه الأفكار رغم احتمال تصارعها لتوجه وجهة بناءة لحل المشكلة. و هي نمط من المقابلات التي يستعان فيها بأساليب العلاج الجماعي، و أهمية التفاعل المشترك في تحقيق عمليات علاجية عظيمة الأثر. لذلك فهي تتطلب مهارات خاصة من الأخصائي الذي يجب أن يتسم باللباقة ودقة الملاحظة في مواجهة الانفعالات المتصارعة؛ و المهارة في قيادة التفاعل و توجيه المناقشة. و بالتالي منح كل طرف حقه في التعبير عن كل ما يحس به اتجاه الآخر. و بالقدر الذي يتفهم كل طرف حقيقة موقف الآخر و معنى مشاعره السلبية تجاهه. و التي تنتهي بوضع خطط علاجية.

3- المقابلة الجماعية: و هي تلك المقابلات التي يقابل فيها الأخصائي الاجتماعي عددا من العملاء من ذوي الظروف المتشابهة؛ أو الحاجات المتجانسة ليشرح لهم فلسفة المؤسسة و شروطها، أو تفسير برامج جديدة و ما إلى ذلك. و يتم هذا النوع من المقابلات عادة في المراحل الأولى. ثم تنظم لقاءات فردية أو مشتركة. و تفيد مثل هذه المقابلات في توفير الجهد و الوقت الضائع في تكرار شرح خدمات المؤسسة و شروطها لكل عميل على حدة. كما قد تساعد بعض العملاء الذين يخشون مقابلة الأخصائي على إنفراد . فبمجرد التعرف عليه مع عدد من العملاء تجعله أقل مقاومة لمقابلته حيث يصبح شخصا مألوفا لديهم[23].

خامسا- أن لكل مرحلة من المراحل التي تمر بها خدمة الفرد نوع خاص من المقابلات. و يمكن إدراجها في الآتـــي:

1- المرحلة الأولـــى: و هي المرحلة التي تتم فيها المقابلة التمهيدية أو مقابلة البت. و يقوم بها أخصائي اجتماعي يعنى باستقبال الحالات و البت فيها بناء على نوع المشكلة و طبيعتها و أثرها على العميل؛ و مدى صلتها بوظيفة المؤسسة. و مدى مطابقة شروطها على الشخص المتقدم و قياس قابلية المشكلة للحل بجهود المؤسسة. و يمكن اعتبارها مقابلة استكشافية يستطيع الأخصائي الاجتماعي عن طريقها إتخاد قرار حول قبول الحالة أو رفضها لسبب أو لآخر؛ أو تحويلها إلى مؤسسة أخرى إذا تبين للأخصائي أن هناك مشكلة حقيقية تستدعي الحل لكنها خارجة عن وظيفة المؤسسة أو نطاقها الجغرافي.

2- المرحلة الثانيـــة: و هي المرحلة التي يتم فيها أول لقاء مهني بين العميل و الأخصائي الاجتماعي الذي سيتولى العمل معه. فإذا ما قرر الأخصائي الاجتماعي الخاص قبول الحالة فإنه يحولها إلى أحد الأخصائيين الاجتماعيين، و يكون العمل الفعلي في عملية المساعدة هو مع الأخصائي الذي يبدأ العمل خلال هذه المقابلة الأولى التي يجب أن تتم في المؤسسة[24]. و يعنى الأخصائي عناية خاصة بالمقابلة الأولى باعتبارها أول خطوة على طريق التعارف بينه و بين العميل؛ و تنمية الثقة بينهما. و من ثم لا تهتم المقابلة الأولى بالحصول على المعلومات قدر اهتمامها بتنمية علاقات الثقة والتفاهم بين الأخصائي والعميل. و من هنا رأت (ماري ريتشموند) أن المقابلة الأولى لابد أن تتيح الفرصة للأخصائي لكي ينصت للعميل في صبر و اهتمام حتى يستطيع أن يكون فكرة عامة عنه و عن اتجاهاته في الحياة. وتشير (جوردن هاملتون) على الأخصائي في المقابلة الأولى بان يعنى باستطلاع مشاعر العميل و تنمية العلاقات المهنية معه؛ و باستيضاح مشكلته

حتى يتأكد من أنها تقع في اختصاص المؤسسة الاجتماعية. كما يستوضح العميل عما اتخذه من خطوات اتجاه مشكلته. و يبين له مطالب المؤسسة منه... و يرى المشتغلون بالخدمة الاجتماعية أن المقابلة الأولى تعتبر ملكا للعميل. و المقصود منها التعارف و كسب الثقة. لذلك فإن الأخصائي يترك الحرية للعميل للتعبير عن نفسه دون تدخل مستمر من جانبه بالأسئلة والاستجواب[25]. و أن يحاول بوعي التقليل مما قد يكون لدى العميل من توتر أو عداوة. فالعميل لن يشارك بشكل كامل في المقابلة إلا إذا شعر بالراحة و الاطمئنان له[26]. و هو ما أكده بحث أجرته الجمعية القومية لرعاية الأسرة بأمريكا حول أسباب تخلف العملاء عن حضور المقابلة الثانية و انسحابهم من المؤسسة حيث ذكر 54% منهم أنهم شعروا عقب المقابلة الأولى بقدرتهم على تناول مشكلاتهم بشكل أفضل وكفاية مناسبة. بينما ذكر 37% من العملاء أن أسباب ذلك تعود إلى خيبة أملهم عند المقابلة الأولى[27].

3- المرحلة الثالثة: و هي المرحلة التي تتم فيها المقابلات الدورية و هي المقابلات التي تلي المقابلة الأولى؛ و التي قد تتم بصفة دورية أو متقطعة حسب الظروف. و تتميز هذه المقابلات عن المقابة الأولى بتخلص العميل من قدر كبير من مشاعره السلبية التي تتملكه في المراحل السابقة . وفيها يحدث التجاوب الفعلي و تتوطد العلاقة المهنية بتوفر عناصر الثقة والأمن و الاستقرار. ولذلك تعتبر هذه المقابلات هي المناخ المناسب لعمليات التأثير و التعديل في شخصية العميل، أو في ظروفه البيئية المحيطة. وتتميز هذه المقابلات في أغلب الأحيان بأنها أقل زمنا عن المقابلات الأولى؛ كما أنها قد تتم في مكان آخر غير المؤسسة.

4- المرحلة الرابعة: وهي المرحلة التي تتم فيها المقابلات التتبعية. و هي المقابلات التي تتم بعد وضع خطة العلاج موضع التنفيذ. وعادة ما يتم هذا النوع من المقابلات في منزل العميل أو في مقر عمله أو دراسته. و تهدف المقابلة التتبعية إلى التأكد من مدى متابعة العميل لخطة العلاج الموضوعة سابقا، و مساعدته عند أي طارئ و تجنيبه أية انتكاسة قد يتعرض لها. كما تعتبر من أهم الأساليب في تقويم عمليات المساعدة رغم ما يؤخذ عليها من عيوب، حيث يعتبرها بعض العملاء تجسسا عليهم. فهناك من العملاء ممن تحقق لهم الاستقرار في حياتهم الجديدة يرفضون أية وصاية عليهم و يتنكرون لأية صلة لهم بالمؤسسة و أخصائييها[28].

5- المرحلة الخامسة: و هي المرحلة التي تتم فيها المقابلة الختامية. و هي آخر لقاء مهني للأخصائي مع العميل. وتتميز بانتهاء علاقة العميل بالمؤسسة باستكمال علاج المشكلة أو تحويل الحالة إلى مؤسسة أخرى أو أخصائي آخر.وبالرغم من أنها مقابلات تتم عادة بعد الاستقرار على جوانب علاجية معينة، إلا أنه قد تسودها مشاعر مختلفة تتفاوت بين مشاعر الحيرة البسيطة وبين مشاعر عميقة من الخوف أو القلق التي قد تصل إلى حد الإضراب والاتجاهات النكوصية خاصة عند الصغار وذوي الميول الإعتمادية. لذلك ومن أجل نجاح المقابلة في هذه المرحلة يجب على الأخصائي القيام بما يلي:

ا- تلخيص الخطوات العلاجية للعميل وإلزامه بإتباعها.

ب- توضيح أسباب التحويل بالقدر الذي يقتضيه الموقف وباللباقة الواجبة.

ج- طمأنته بشأن المساعدة في حالة ظهور المشكلة ثانية.

د- ربط العميل بالواقع الذي سيعيش فيه وإشعاره بأن علاقته بالأخصائي لم تكن إلا علاقة مهنية مؤقتة[29].

وخلاصة لذلك فإن المقابلة كأداة أو وسيلة للحصول على البيانات والمعلومات والحقائق المتعلقة بالمواقف الإشكالية التي يتعرض لها أخصائي خدمة الفرد، تتطلب من هذا الأخير أن يكون على دراية واسعة بخصائصها وأساليبها الفنية للاسترشاد بها في مهامه الوظيفية. حتى تؤدي الخدمة الاجتماعية دورها بمهارة وفعالية تمكنها من حل مشكلات الأفراد وتلبية احتياجاتهم المختلفة.

المراجـــع:

1) د. عبد المحي محمود حسن صالح: الخدمة الاجتماعية و مجالات الممارسة المهنية، دار المعرفة الجامعية، مصر. 2002، ص: 25.
2) د. عبد الكريم عفيفي، د. علي الدين السيد محمد: التعليم العملي في إعداد الأخصائي الاجتماعي، ج1، المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، القاهرة، 1996، ص:7، 8.
3) د. عبد الفتاح عثمان و آخرون: مقدمة في الخدمة الاجتماعية، مكتبة الانـــجلو المصرية ، 1985، ص: 171.
4) سلوى عثمان الصديقي: خدمة الفرد في محيط الخدمة الاجتماعية – الأسس النظرية و الاتجاهات العملية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2003، ص: 25.

– د.أحمد مصطفى خاطر: الخدمة الاجتماعية نظرة تاريخية: مناهج الممارسة و المجالات، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1998، ص: 25.

5) د. عبد الفتاح عثمان و آخرون : مقدمة في الخدمة الاجتماعية، مرجع سابق، ص: 175

– د. أحمد مصطفى خاطر: الخدمة الاجتماعية–نظرة تاريخية، مناهج الممارسة، المجالات، مرجع سابق، ص: 183.

6) محمد كامل البطريق، حسن طه أبو الفضل: مدخل الخدنة الاجتماعية: دراسة تحليلية لدور الخدمة الاجتماعية في المجتمع الاشتراكي، مكتبة القاهرة الحديثة، الاسكندرية، د.س.ن، ص:143.
7) د. محمد سيد فهمي: مقدمة في الخدمة الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1997، ص: 74.
8) أحمد كمال أحمد، صلاح مصطفى الفوال: الخدمة الاجتماعية و الميثاق، مكتبة القاهرة الحديثة، ط1، 1963، ص: 230.
9) صباح الدين علي: الخدمة الاجتماعية، الهيئة العامة للتأليف و النشر، ط3، مصر، 1974، ص: 87.

10) د. هناء حافظ بدوي: الاتصال بين النظرية و التطبيق المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 2003، ص: 339.
- عبد المحي محمود حسن صالح: الخدمة الاجتماعيـــة ومجالات الممارسة المهنية، مرجع سابق، ص: 64.

11) سلوى عثمان الصديقي: خدمة الفرد في محيط الخدمة الاجتماعية، مرجع سابق، ص : 180.

12) خليل المعايطة و آخرون: مدخل إلى الخدمة الاجتماعية، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2000، ص: 46.

13) السيد رمضان: ممارسة خدمة الفرد–أسس عملية المساعدة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000، ص:88، 89.

14) عبد الفتاح عثمان : خدمة الفرد بين النظريات الحديثة و مهارات العصر، بل برنت للطباعة و التصوير، مصر، 2002، ص: 206–208 .

15) محمد مصطفى أحمد: خدمة الفرد، مبادئ و عمليات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1997، ص: 124.
- عبد المحـــي محمود حسن صالـــح: الخدمة الاجتماعيـــة ومجـــالات الممارسة المهنية، مرجع سابق، ص: 66، 65.

16) جلال عبد الخالق: العمل مع الحالات الفردية، أسس و عمليات، مرجع سابق، ص: 250–254 .

17) د. عبد الفتاح عثمان: خدمة الفرد و المجتمع المعاصر، مكتبة الانجلو المصرية، 1970، ص: 225.

18) سلوى عثمان الصديقي: خدمة الفرد في محيط الخدمة الاجتماعية، مرجع سابق، ص : 197.

19) د. عبد الفتاح عثمان: خدمة الفرد و المجتمع المعاصر، مرجع سابق، ص: 227.

20) د. علي إسماعيـــل علي: المهـــارات الأساسيـــة في ممارسة خدمة الفرد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، ص: 159–161.

21) د. محمد مصطفى أحمد: خدمة الفرد. مبادئ و عمليات، مرجع سابق، ص: 142، 143.
22) جـــلال عبد الخالق: العمل مع الحالات الفردية – أسس و عمليـــات، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 1985، ص: 225، 226.
23) محمد مصطفى أحمد: خدمة الفـــرد، مبادئ و عمليـــات، مرجع سابق، ص: 176– 148.
24) جـــلال عبد الخالق: العمل مع الحالات الفردية– أسس و عمليات، مرجع سابق، ص: 231، 230.
25) د.الفاروق زكي يونس: الخدمة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي، عالم الكتـــب، لقاهرة، د.س.ن .ص: 130.
26) د. علي إسماعيل علي: المهارات الأساسية في ممارسة خدمة الفرد، مرجع سابق، ص: 162.
27) د. عبد الفتاح عثمان: خدمة الفرد و المجتمع المعاصر، مرجع سابق، ص: 242، 243.
28) د. جلال عبد الخالق: العمل مع الحالات الفردية، أسس و عمليات، مرجع سابق، ص: 234، 235.
29) د. عبد الفتاح عثمان: خدمة الفرد و المجتمع المعاصر، مرجع سابق، ص: 245، 246.

دور المثقف العربـــي المعاصر
الواقـــع و الآفـــاق

محمـــود سمايلي قسم علم الاجتماع – جامعة قسنطينة
ربيـــع شتيوي قسم علم الاجتماع – جامعـــة جيجل

الملخـــص:

يعتبـــر الحديث عن المثقفين في المجتمعات العربية من القضايا التـــي ما تزال تثير الكثير من التساؤلات، لدورهم المتميز فـــي اســـتمرار التنميـــة الاجتماعية و قيادة الفكر البشري غير أننا و نحن نتحدث على هـــذه الفئـــة تتبادر إلى أذهاننا مجموعة من التساؤلات حول من هم هـــؤلاء الأشـــخاص الذي يمكن أن يوصفوا بالمثقفين و عن أسباب تراجع دورهم في إنتاج الفكر المعرفي و اتساع الهوة بينهم و بين فئات المجتمع التي ينتمون إليها.

و في هذا الإطار و انطلاقا من أراء و أفكـــار بعض الكتاب و المفكرين الذي اهتموا بهذا الموضوع سنحاول تحليـــل واقع و مستقبل المثقـــف فـــي المجتمعات العربية من خلال تحديد مفهوم المثقف، و وضعيته في الجماعـــة التي ينتمي إليها، و الأسباب التي أدت إلى تدهور هذا الدور، و في الأخيـــر تصور الدور المستقبلي للمثقف في ظل التحديات التي تعيشها البلاد العربية.

مقدمـــة

يحتل الخطاب حول المثقف موقعا متميزا في الحقلين الأكاديمي و السياسي وذلك بالنظر إلى الموقع المتميز الذي يحتلـــه هذا المثقف ضمن جماعة الانتماء، و لا شك أن العوامل الثقافية تشكل أهمية حيوية في تحديد الدور الذي يمكن أن يلعبه المثقفون في استمرار التنمية الاجتماعية و توجيه و قيادة الفكر البشري نحو التحدي و التطور، و انطلاقا من هذه الأهمية فالمثقف لابد له من أداء دور حيوي في تغير الحركة الاجتماعية، و هو الدور الذي يعني أهميته في الموقع الاجتماعي.

إن المتتبع لحركة الفكر الثقافي في المجتمعات العربية يدرك أن هذه الحركة عرفت فترات متميزة اتسمت كل فترة بخصائص وسمات فكرية مميزة، ففي بداية القرن التاسع عشر لاقت هذه الحركة رواجا كبيرا لتزامنها مع حركات التحرر في الوطن العربي و قد كانت وظيفتها الدفاع عن المصالح الوطنية و حاجات شعوبها و إنارة العقول وتحريك الأذهان كمقدمة لتغيير المجتمعات والنظم السياسة، فبرز العديد من رواد النهضة العربية ممن جمعوا بين الثقافة و الممارسة السياسة فقام الأفغاني أشهر ممثل للإصلاح الديني بإعادة فهم العقائد من أجل المقاومة، لمقاومة الاستعمار في الخارج، والقهر في الداخل، وأسس كل من الطهطاوي (1801–1873) في مصر، وخير الدين (1810–1890) في تونس الفكر السياسي الليبرالي الحديث في " مناهج الألباب " و في " أقوم المسالك " و الذي على أساسه قامت الدول الوطنية الحديثة. كما كان أيضاً لرواد الفكر العلمي أمثال شبلي شميل (1860–1917) وفـــرج أنطون (1874–1922) ويعقـــوب صروف (1852–1927) وسلامة موسى (1888–1958) دورا في الدفاع عن حرية

الفكر كمقدمة للدفاع عن الحرية السياسية، وعن حرية الفرد كمقدمة لديمقراطية الحكم، وعن المعذبين في الأرض، والقرية الظالمة دفاعاً عن العدالة الاجتماعية. وكما قامت ثورة عرابي (1841-1911) إثر تعاليم الأفغاني، وقامت ثورة 1919 بفضل الفكر الليبرالي تلتها الثورات العربية بداية بثورة 1952 بفضل الأفكار الوطنية والاشتراكيـــة التي روّجها الفكـــر العلمي[1].

أما في السبعينات فقد انفتحت هذه الحركة على الثقافات الغربية و اتجهت نحو دعم النهج السياسي للسلطة و التموقع فيها، أما في السنوات الأخيرة حيث كان التغير السياسي و الاقتصادي الذي واكب العولمة يحيا المثقف العربي حالة من الغربة في مجتمعه بالنظر إلى عدم تمكنه من الحفاظ على دوره التقليدي وهو إنتاج الفكر المعرفي فاتسعت الهوة بين المثقف و فئات مجتمعه التي ينتمي إليها من جهة و تنكر السلطة السياسية لدوره و تضيق الخناق عليه من جهة أخرى.

إن التباين في هذه الأدوار يعلن وجود أزمة حقيقية في الأوساط الثقافية العربية تعود في الأساس إلى طبيعة البناء الفكري لدى هؤلاء المثقفين وواقع الحياة السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية في البلدان العربية.

و أمام تفاقم حدة هذه الأزمة برزت العديد من الدراسات و الأبحاث التي خلصت إلى نتيجة مفادها أن المثقف لم يعد له وجود فعلي في مجتمعه الأمر الذي جعل العديد من أفراد النخبـــة المثقفـــة يكثفون من جهودهم لتشخيص أسبابهـــا الحقيقية و تغير مسارها.

و في هذا الإطار و انطلاقا من أراء و أفكار بعض الكتاب و المفكرين الذي اهتموا بهذا الموضوع سنحاول تحليل واقع و مستقبل المثقف في المجتمعات

العربية من خلال تحديد مفهوم المثقف، و وضعيته في الجماعة التي ينتمي إليها، و الأسباب التي أدت إلى تدهور هذا الدور، و في الأخير تصور الدور المستقبلي للمثقف في ظل التحديات التي تعيشها البلاد العربية.

1- مفهـــوم المثقف في المجتمعات العربية

يحيل مفهوم المثقف إلى جدل كبير أدى إلى غموض في هذا المفهوم وإلى التباين في أطره العامة و الحق أن هذا المفهوم عرف العديد من التعريفات تتفق في المضمون غير أنها تختلف في الشكل و قد نجد أن هناك من المفكرين من يضع مجموعة من التعاريف تتمايز فيما بينها بحسب الحالة التاريخية.

إن الاستخدامات الأولى لكلمة مثقف كانت في أواخر القرن 19 عندما صدرت جريدة **لورور l'Aurore** الفرنسية بعنوان **إعلان المثقفين** و ذلك بمناسبة اعتراض أصحابه على الاعتداء على الإجراءات الشكلية المتعلقة بحماية المواطن أثناء محاكمتـــه وذلك أثناء النظر في قضية **دريفوس*** الشهيرة، والتي كانت من نتائجها إضفاء صفة الشرعية على وجود المثقفين[2]. في حين أن أول من استعمل هذه كلمة مثقف هو **كليمانصو Clemenceau** عندما كتب يقول " أليست هذه إشارة كل هؤلاء المثقفين الذين جاءوا من كل الاتجاهات و اجتمعوا للدفاع عن فكرة؟ "[3]. و لتحديد هذا المفهوم في المجتمعات العربية ينبغي الإشارة إلى مرجعين أساسين لهما وزنهما في الفكر الأكاديمي المتخصص و في حقل الثقافة العامة سواء في الثقافة العربية أو الثقافة الغربية وهذان المرجعان هما **غرامشي (Gramsci)** و **سارتر (Sartre)**.

ميز **غرامشي (Gramsci)** بين صنفين من المثقفين المثقف العضوي وهو الذي يعمل على إنجاح المشروع السياسي والمجتمعي الخاص بالكتلة التاريخية المشكلة من الفلاحين و العمال مقابل المثقف التقليدي الذي يوظف أدواته الثقافية للعمل على استمرار الهيمنة الثقافية لهذه الكتلة هذه القراءة امتد تأثيراتها من ايطاليا إلى فرنسا إلى الوطن العربي[4].

أما سارتر(Sartre) فقد كان لكتابه **دفـــاع عن المثقفين (plaidoyer pour les intellectuels)** نصا متميزا في بيان وظيفة المثقف داخل مجتمعه عندما يعتبر المثقف " كل شخص بلغ الشهرة بفضل أعماله في مجال الفكر، ويستغل تلك الشهرة للتدخل في أمور خارج مجال تخصصه، أو باختصار التدخل فيما لا يعنيه "[5].

و قد تنوعت هذه التعاريف بين المفكرين و الباحثين فقد اعتبره **فيبر Weber** بأنه المفكر المتميز والمتسلح بالبصيرة و **بارسونز Parsons** بمفهوم المفكر المتخصص في أمور الثقافة و الفكر المجرد البعيد عن أمـــور الحياة و**باسكال اري Pascal ory** بالشخص الذي يعمل على إيصال ما يفكر فيـــه إلى الآخرين[6].

إن المتفحص لهذه التعاريف يدرك تماما أنها تثير الكثير من القضايا بعضها يتعلق بمصـــدر المعرفة و أخرى تختص بنوعية الثقافة وأشكالها، وثالثة تثير قضية العلاقة بين المثقف و النخبة السياسية و رابعة ترتكز على التخصص الفني .... .

أما في البلاد العربية فقد استخدم مفهوم المثقف في سياقه العربي، للدلالة على دور شغله أهل الرأي والفقهاء ورجال الدين، وهو استخدام حديث العهد نسبياً دخل إلى العربية ليحلّ محل ألفاظ عديدة نجدها في التراث العربي، مثل الفقيه، الإمام، المتصوف، العالم، المتكلم، الشيخ، الفيلسوف وقد توصل

د. محمد عابد الجابـــري في بحثـــه **(المثقفون فـــي الحضارة العربيـــة)** إلى النتيجة التالية: " كان الأمراء هم العلماء، وكان الصحابة أمراء وعلماء في الوقت نفسه، يحكمون بالشرع ويشرّعون للحكم، ثم حصل خلاف حول الحكم، فاستأثر الأمراء بالسلطة وتمسك العلماء بالرأي، وحصل استبداد بـــ (الأمر) أدى إلى استقلال الرأي، فانفصل العلم والثقافة عن السياسة وبدأت فئة المثقفين الأوائل في الإسلام بالظهور "[7].

أما عن تعريف المثقف عند بعض المفكرين العرب فقد اتخذ عدة أسس، فمنهم من اشترط تـــوفر معيـــار التعليـــم و الثقافة، ومنهم من يرى بأن المثقف هو الذي يسعى إلى التغيير و بالتالي لابد من وجود معيار التغيير، والبعض الأخر من يطرح معيار المشاركة في بناء المجتمع، وأخيرا مجموعة أخرى تعتبر أن للمثقف دورا هاما في المجتمع يتركز على نقد السلطة و أن يظل دائما ناقدا لها و ليس مبررا لسلوكها[8].

أما أهم التعاريف التي تناولت مفهوم المثقف في المجتمعات العربية كما يراه بعض المفكرين و الكتاب العرب فنوردها كما يلي:

يعتبر **د. زكي نجيب محمـــود** من أكثر الكتـــاب الذين اهتمـــوا بموضـــوع المثقف و افرزوا له حيزا كبيرا من التعريفات فقد وصفه في احد تعاريفه " بالشخص الذي يحمل في ذهنه أفكارا من إبداعه هو أو من إبداع سواه، و يعتقد إن تلك الأفكار جديرة بأن تجد طريقها إلى التطبيق في حياة الناس فيكرس جهده لتحقيق هذا الأمل "، و في تعريف أخر لنفس المفكر يرى فيه أن المثقف" هو الشخص الذي يروج للقيم العليا (أخلاقية أو جمالية) و في هذا يكون الفرق بين المتخصص الذي وقف عند تخصصه في فرع من العلوم، و المثقف الذي ينشر الفكر ليس لمجرد لأنه أي فكـــر وكفى و لكن لأنـــه في نظره هو الفكر الذي يتيـــح حياه أفضل "، و عرفه أيضـــا:

" بأنه هو من أدرك مثلا للحياة الإنسانية ثم لا يقف عند مجرد الإدراك، بل حاول تغيير الحياة وفق ما أدركه شريطة أن يجئ هذا التغيير في الاتجاه الذي يسير فيه التاريخ....الخر "[9].

أما **المفكر حيدر إبراهيم** فيرى في المثقف هو " ذلك الشخص الذي يتحلى بالمعرفة مضافا إليها العمل و الممارسة و وفقا للثقافة المكتسبة، فالمثقف هو متعلم أو متخصص و زيادة، أي صاحب قضية اجتماعية وسياسية يعمل أجلها وفق رؤية للعالم، و لذلك يعتمـــد تحديد معنى المثقف على التطـــور التـــاريخي أو مستوى المحـــددات الاقتصادية و الاجتماعية لكل مجتمع، كذلك يتغير دور المثقفين و تأثيرهم حسب هذه المعطيات "[10].

أما **أحمد موصللي و لؤي صافي** فقد عرفا المثقف بأنه " الشخص الذي يهتم بتفكيـــك وإظهار التناقضات المجتمعية، موظفا في ذلك هواجسه واهتماماته" [11] .

أما **إدوارد سعيـــد** فيـــرى" أن المثقف فرد له في المجتمع دور علني محدد لا يمكن تصغيـــره إلى مجرد مهني لا وجه له، أو كعضو كفؤ فـــي طبقـــة ما لايهتم إلا بأداء عمله، ويرى أن الحقيقة المركزية بالنسبة لي هي أن المثقـــف وهب ملكة عقليـــة لتوضيح رسالة أو وجهة نظر أو موقف أو فلسفـــة أو رأي و يشترط على المثقف أن يمتلك صفة التمثيل أي أن يقوم المثقف بتمثيل وجهة نظر ذات طبيعة معينة و يعبر بجلاء لجمهوره عن تلك الأفكار التي يمثلها برغم الحواجز و العوائق "[12].

انطلاقا من التعريفات السابقة للمثقف يمكن القول أن التعريف الذي يعتبر المثقف بأنه المتعلم الحاصل على الشهادة الجامعية هو تعريف سطحي، لأنه يعني ضمنيا أن كل متعلم مثقف غير أن للمثقف وظائف أخرى تميزه من بقية المتعلمين.

و قد نخلص إلـــى تعريف للمثقف لنقول هو ذلك الشخص المتعلم الـــذي يدرك ما يحيط بـــه ويستوعبـــه و يشارك بوعيه في بناء وتغير الأوضاع المحيطة به.

2- واقـــع المثقف في المجتمعات العربيـــة

يجمع الخطاب العربي المعاصر أن المثقف العربي يعانـــي أزمة متعددة الأبعاد تعكس حالة التفكك الموجودة في المجتمع العربي فهو مجتمع فاقد للفاعلية و مثقفه كذلك لم يعد يتميز بخصوصيته و هي إنتـــاج المعرفة و قد أصبح في مؤخرة المجتمع و في عزلة تامة عنه[13]، لأنه لم يبق وفيا لأصوله الحضارية و لمنطلقات هذه الأصول الفكرية ذلك انه خرج من المجتمع و لم يعد إليه ليجد نفسه في مأزق. ووفق هذا الحال كانت علاقات فئات المجتمع مع المثقف يطبعها دائما الحذر والشك نتيجة لعدم وعي خطابه مثل الديمقراطية، العولمة، الحداثة...الخر، فهي أفكار لا تعبر على قيم متأصلة في الوسط التاريخي و الثقافي والحضاري لهذا المجتمع، ومن شأن هذا الوضع أن يخلق تمـــايز اجتماعي و ثقـــافي بين المثقـــف و المجتمـــع الذي ينتمي إليه بدعوة المحافظة على سلطته الثقـــافية و الفكرية و الرمزية، ولذلك يرى الكاتب **برهان غليون** " انه من الصعب إزالة هذا التمايز الموجود بين الثقافة الشعبية و الثقافة العليا، أو جعل ثقافة الشعب اليومية ثقافة علمية أو عقليـــة خاضعة لنفس القواعد والأطر و المعايير التي تخضع لها الثقافة العليا لأن من الصعب أن تتحول الثقافة الشعبية كما يحلم آخرون إلى ثقافة قائدة "[14].

إن المثقف العربي يوصف اليوم في مجتمعه بالشخص المثالي لأنه يعتمد في مشاريعه على الخطاب الثقافي المجرد والبعيد عن ثقافة مجتمعه الأصيل،

فهو ليس ذلك الشخص المؤثر في الحياة العامة و في القضايا الكبرى التي تخص المجتمـــع و موجها لأفكـــاره ورمزا لتطلعاته المستقبلية[15]. لذا فإن التحدي الأساسي أمام المثقف العربي في الوقت الراهن هو الارتفاع فوق ذاتـــه و فوق الموقـــف الذي يحملـــه حيال مجتمعـــه لتحقيـــق و استرجاع صورة الثقافي العربي القادر على إحـــداث التوازن بين ما هو اجتماعـــي وما هو معرفي. ولا يتحقـــق له ذلك إلا بالتخلص مـــن الأوهـــام التي تسيطـــر على فكـــره وتصوراته (وهم الثورة، وهم الحقيقة، وهم الاستقرار، وهم الفردية، وهم الذاتية...) كما يراهـــا **جـــلال فـــاروق الشريـــف،** (في كتابـــه: **بعض قضايا الفكر العربي المعاصر**) حتى تجعل وفي المقام الأول، "مشكلة المثقف مع نفسه وأفكاره، مع رؤيته للعالم ومفهومه للحقيقة، إذ تكمن مشكلته في نخبويته بالذات. فالمثقف بقدر ما تعامل مع نفسه بوصفه ينتمي إلى النخبة الممتازة أو الصفوة المختارة، صار في عزلة عن الناس والمجتمع، وانتهى به المآل إلى فقدان المصداقية والفاعلية. ومشكلته ثانياً تكمن في طريقة تعامله مع أفكاره، فالمثقف تعامل مع مقولاته علـــى نحو دوغمائي أو أحادي تبسيطي. لقد غلبت عنده إرادة العقيدة علـــى إرادة المعرفة. وتكمن مشكلته ثالثاً في رؤيته الماورائية للحقيقة أي في تعامله مع الواقع كموضوع يمكن القبض عليه عن طريق التصورات فحسب "[16].

و الحال هكذا فقد أصبح المثقف العربي لدى عامة الناس في المجتمعات العربية مجرد شخص يكتب لذاته و يعيش على مخلفات كتابات و أفكار غيره من المثقفين الذين سبقوه فلم يعد ذلك الفاعل الذي بإمكانه أن يحدث التغيير كما أحدثه غيره من الكتاب و المثقفين.

إن هذه الوضعية التي أصبحت تميز الفئة المثقفة في البلاد العربية يردها البعض إلى اللغة العنيفة التي أصبحت تميز كتابات المثقفين ولهجتهـــم الحادة القائمة على التجريـــح و الرفض فقط، إلى جانب الصراع القائم فيما بينهم الذي يقوم علـــى الانتماء لا على الأفكار مما جعلهم يصنفون في البـــلاد العربية بحسب المنطلقات و الاتجاهـــات الفكريـــة والإيديولوجية التي يعتقدونها إلى أرياف المثقفين وإلى حواضر المثقفين بحسب رأي **الدكتور معن خليـــل عمر**.

أ – **صنف أرياف المثقفين:** يشير هذا الصنف إلى الجمود الفكري و المعرفة السطحيـــة و الضيق في الرؤية الثقافية بسبب الانعزال وعدم القدرة على التحدي و الدخول في العمليـــات الصراعية والتفاعل معها بسبب الخوف من التغيير مما تجده يقبل بالتبعية و الاستسلام و يحافظ على الأفكار الجامدة ويدافع عليها وقد حدده **د. معن خليـــل عمر** في أربع نمـــاذج هـــي:

1– نموذج ذو منطلق موقفي و هو المتميز بمواقفه الدقيقة تجاه ثقافة مجتمعه و تجاه الثقافات الأخـــرى و التي من خلاله يحدد هدف المثقف و مركزه الخاص من المثقفين في مجتمعه، فإذا كان اتجاهه استعلائيا على عناصر ثقافة مجتمعه بسبب انحطاطية اتجاهه الثقافي إزاء الثقافات الأخرى، فإن هذا الصنف سيقوم بطرح سلبيات ثقافة مجتمعه المحلي (المعرفي والتعليمي) والعام و يبالغ فيها فضلا عن انتقاصه من مواقع مثقفي مجتمعه و دورهم، والهدف من ذلك هو خلق القلق الثقافي في مجتمعه مما قد يؤدي إلى إعاقة النمو الثقافي داخل مجتمعه[17].

2– المثقف ذو المنطلق السلطوي: هذا الصنف ينتشر بكثرة في المجتمعات العربية بحيث يعمل على استحواذ أعمال و تجارب و أفكار الآخرين وينسبها

لأفراد لم يساهموا في طرحها أو استعمالها دون الإشارة إلى أصحابها وصفه نراها لدى بعض المثقفين ممن يقومون باقتباس الأعمال و التجارب و الأفكار و المراجع و المصادر التي ظهرت في مجتمعات أجنبية و قدمها على أنهـــا من أفكـــارهم و أعمالهم الخاصة، و تنتشر هذه الظاهرة خاصة في الوسط الفني والمسرحي والجامعي بسبب انعدام الأمانة العلمية و مـــا الصراع الموجود بين ممتهني الفن بأشكاله إلا دليل على انتشار هذا النوع من أشباه المثقفين[18].

3- المثقف ذو المنطلق الادعائي: يعبر هذا النموذج على المثقفين الذين يدعون بالتخصص في ميادين أخرى دون تخصصهم الأصلي، خاصـــة إذا ما تعلق الأمر بالمواقع الحيوية في البناء المعرفي، وذلك باستعمال جميع الوسائل اللاخلاقية من اجل إثبات هذا الانتماء ما يجعل تميزه قار وواضحا في عطائه المعرفي بحيث يصبح يتقلب من نظرية معرفية إلى أخرى ومن منهج إلى أخر و ذلك بحسب حاجته لهذا الموقع المعرفي[19].

4- المثقف ذو المنطلق الموقعي: و هو يعرف أيضا باسم المثقف المختص الذي يداهن المواقع الإدارية و المعرفية لكي يصل إلى مستويات إدارية ومعرفية رفيعة مدافعا عن السلطة تابعا منصاعا لأوامرها دون أن يفيد مجتمعه أو يثري المعرفة بشيء بل يصبح بوق من أبواق السلطة و مستغلا لهذه المواقع ليحقق أهدافه، و بالتالي فإنه يصبح موظفا في المعرفة و ليس مختصا فيها[20].

ب- صنف حواضر المثقفين: و هم أصحاب المنطلقات الصريحة و القادرين على الدخول في العمليات الصراعية والإسهام فيها و قيادتها عن طريق كتاباتهم و توجيه الصراع للصالح العـــام وليس الخاص بما تملكه من رؤيـــة واسعـــة للأحداث الفرديـــة و الاجتماعية و هم أربعة نماذج:

1- نموذج ذو منطلق تفاعلي: وهو المثقف المطلع على ثقافات غير ثقافة مجتمعه مقارنا ذلك مع ثقافة مجتمعه مبرزا أوجه الاختلاف و التشابه بينهما و حقق تفاعلا بين خبراتهما و أهدافهما.

2- نموذج ذو منطلق نقدي: أي الشخص الذي رصد المشكلات والظواهر و الوقائع الاجتماعية و السياسية و الثقافية و ثبت سلبياتها وقدم علاجا لها ثم قومها و لم يكتف بنقدها.

3- نموذج ذو منطلـــق إنساني: وهم المثقفين الذين تحرروا من عصبيـــاتهم الضيـــقة و تحـــيزاتهم وخصوصياتهم الشخصية المحلية وعبروا عن مجتمعهم.

4- نمـــوذج ذو منطلق إجرائي: أي المثقف الذي يخدم الناس من خلال موقعه دون تقديس المناصب الإداريـــة، ويعمل على إزالـــة المعوقات البيروقراطيـــة لكي تتحقق أهـــداف و غايات الناس.

ويرى **د.معن خليـــل عمر** أن هذه النماذج الأربعة تنتعش كلما قل الـــوعي الثقـــافي في المجتمـــع وتنحسر كلما زاد الوعي الثقافي داخله لأن الوعي الثقافي يرتفع مستواه كلما زاد احتكاك المجتمع مع المجتمعات المغايرة لـــه في الثقافة المدنية و الأكثر تقدما و تطورا منه. وقد علق على هذه الأصناف بكونها لا تمثل الحـــالات الإبداعية الخلاقة بل تمثل حـــالات جـــامدة ومنعزلـــة تعمل علـــى عزل و إقصاء المثقفين الحقيقيين أصحاب المواقف الواضحة والصريحة في مواجهة مشكلات المجتمـــع عن طريق الموضوعيـــة و التحليل و التقييم و الالتزام بعيدا عن الغنى المادي السريع وتقديس المواقع الإداريـــة والسلطوية[21]. و قد جعلت هذه الحالة المثقف العربي يعيش أزمة حقيقية حالت دون تمكنه من فرض وجوده و نشر أفكاره حددها **د.زكي نجيب محمود** في ثلاثـــة عوامـــل:

1- محاولة المثقف العربي في الجمع بين طرفين متضادين ثقافة موروثة، وثقافة غربية معاصرة اكتســـابهـــا ونشأ بين أحضانها تجعله بعيد عن المبادرات الإبداعية فهو بحكم النشأة حين يتبنى قضايا التحرير يقع في الازدواجية، فهو من ناحية يخوض صراعا ضد ثقافة تعلمها و تربى عليها و من ناحية أخرى فهو عاجز عن إعطاء ثقافة بديلة.

2- أزمة أخلاقية و سلوكية نتيجة التناقض بين المبادئ التي يعلنهـــا، والسلوك المتبـــع و الذي يطلق عليه بالنفاق القبيح.

3- أزمة تتعلق بمجال العلوم و مناهجها، بين الأخذ بالعلم عمليا دون دراية و الشك فيه نظريا تحت دعوى التراث[22].

إن هذه الأزمة جعلت المثقف في المجتمعات العربية يعيشون عزلة وأزمة داخلية حقيقية يبحثون فيها عن ذاتهم، نتيجة انسداد قنوات الاتصال بينهم وبين فئات المجتمع الأخرى بفعل انعدام بيئة ثقافية واجتماعية ملائمة تساهم في نمو أفكارهم و تفاعلاها مع التغيرات الواقعة في المجتمع، جعلته هذه الأزمة يسأل أسئلة عديدة منها بأنه يفكر لمجتمع لا يقرأ بسبب تفشي الأمية وسيادة القيم المادية و عزوف الفئات المثقفة عن القراءة و النقد.

3- أسباب تدهور دور المثقف في المجتمعات العربية.

لقد تباينت الآراء المعللة لأسباب تدهور دور المثقف في الوطن العربي، ولأجل تفسير هذه الحالة فقد شخصت عوامل التدهور من طرف بعض المفكرين والباحثين، فوجدوا منها ما يتعلق بانعدام فضاء حـــر للكتـــابة التعبير، ومنها ما هو متعلق بالمستوى التعليمي للمجتمع في حد ذاته إضافة إلى بعض العوائق الاقتصادية والمادية التي تعوق المثقفين دون نشر أفكارهم و تحصيل أفكار جديدة بسبب عدم توفر إمكانيات النشر و الترجمة.

وقد كانت مساهمة العديد من المفكرين في تحديد هذا الأسباب واضحة **فالمفكر حامد ربيع** يعتقد أن من بين هذه الأسباب هو " هروب المثقفين من وظيفتهم الحقيقية في التقييـــم و النقد و الرفض، إلى جانب عدم القدرة على التعمق و التحليل و فهم المشاكل و النقل الأجوف عن الفكر الغربي دون فهم حقيقي لهذا الفكر، إلى جانب ذلك تبعية المثقف للسلطة ..." [23].

أما **عالم اجتماع اللبنانـــي سمير خلف** فقد ارجع أسبـــاب أزمة المثقف العربي إلـــى:

1- انعدام الحوار الحقيقي وغياب تقاليد راسخة للاجتماع في حلقات ثقافية منظمة نتج عنه تفتت و تفرق طبقة المثقفين.

2- ارتباط المثقف العربي بتفكير الأجداد والمراكز التقليدية لأنها تجعـــل لهم قيمـــة اجتمـــاعية و تشعرهم بالأمن والطمأنينة اكبر من أي منظمة أخرى.

3- انعدام حرية التفكير في المجتمعات العربية.

4- زحف جماعات التكنوقراطين على مواقع السلطة في المجتمع مما أدى إلى ضعف تأثير فئة المثقفين في المجتمع[24].

فيما يشير **د. علي الدين هلال** إلى أن من بين أسباب هذه الأزمة هو "مشكلة انقسام الجماعات الثقافية إلى جماعتين جماعة ذات تعليم ديني وجماعة ذات تعليم مدني مما يؤدي إلى الاغتراب الفكري. إلى جانب مشكلة العلاقات مع السلطة و أزمة التعبير ومشكلة العلاقة مع المجتمع الذي ينتمي إليه[25] ".

أما الأديب و المفكر **نجيب محفوظ** فيرجع هذه الأزمة إلى طبيعة الوضع الاقتصادي و اهتمـــام الناس (بلقمة العيش) أكبـــر من أي شيء أخر....[26].

أما **الدكتور احمد خليفة** فيرى أن السبب الرئيسي لعدم قيام المثقفين بدورهم يرجع إلى " انه لا يمكن الحديث عن مثقفين داخل مجتمع غير مثقف بسبب انعدام صلة الفهم و التفاهم التي تمكنهم من القيام بدورهم[27] ".

استنادا إلى الأسباب التي عرضها هؤلاء المفكرين يتضح أن عوامل تدهور دور المثقفين في المجتمعات العربية يعود إلى مجموعة من العوامل الداخلية المرتبطة بالبيئة السياسية و الاجتماعية والاقتصادية التي يعيش فيها المثقف و العوامل الخارجية الوافدة من خارج هذه البيئة.

العوامـــل الداخليـــة:

1- تضيق الحريات العامة (حرية التعبير، حرية البحث العلمي، حرية التنقل، حرية الإعـــلام و الاتصال ...) في البلدان العربية.
2- انعدام الممارسة الديمقراطية في المجتمعـــات العربية سواء تلك المتعلقـــة بالحاكم و المحكـــوم أو تلك المتعلقة بالمعاملات اليومية بين الأبناء و الأولياء.
3- شعور أغلبية المثقفين بالإحباط و بالعزلة نتيجة التهميش المقصود من طرف السلطة الحاكمة.
4- الرغبة لدى بعض المثقفين في الحصول على مراتب في السلطة أو الاقتراب من مواقعها أدى إلى عدم الالتزام و الوفاء العلمي والفكري لدى بعض المثقفين.
5- تعفن المناخ السياسي و سيادة الفوضى الثقافية.
6- التباين في المستويات المعيشية بين المجتمعات العربية أدى إلى عدم توازن الطبقة الثقافية ففي الوقت الذي يعاني بعض المثقفين من الحرمان و العجز أمام تلبية حاجاتهم الاجتماعية، يعيش البعض منهم

في بلدان أخرى في رفاهية مترفة أدت إلى سيادة السلوك الاستهلاكي مقابل ركود فكري و ثقافي.

7- هجرة المثقفين من كتاب و فنانين وجامعين إلى الدول الغربية لتحقيق طموحاتهم الفكـــرية و العلمية و تحسين واقعهم المعيشي.

8- انتشار الأمية وغياب الوعي لدى فئات كبيرة من المجتمع العربي صعـــب في دور المثـــقف و عقد مهامه.

9- سيادة الأفكار والقيم التقليدية في الأوساط الاجتماعية العامة جعل صنف المثقفين بالخبرة هم السواد في المجتمع.

10- عدم الالتزام و الولاء للثقافة المحلية لدى بعض المثقفين ولد أزمة أخلاقية بينهم و بين المجتمع الذي ينتمون إليه مقابل التمسك بالقيم والأفكار الغربية و اتهام الأفكار والقيم الموروثة بأنها سبب تخلف هذه المجتمعات.

العوامـــل الخارجيـــة:

1- الضغوط الخارجية التي هي ذات طابع سياسي و اقتصـــادي مثل ضغط المؤسسات الماليـــة و السيـــاسية و الثقافية الدولية بمحاولة فرض القيم و النماذج الغربية على هذه المجتمع العربي مما يؤدي إلى استصغار الأفكار و الأبحاث المحلية.

2- الغزو الثقافي في إطار العولمة عن طريق فتح المدارس الأجنبية وتدعيمها مقابل اتهام المدارس الوطنية بالتخلف و الفشل في مسايرة التغييرات العالمية.

3- الإغراءات التي تقدمها المؤسسات الأجنبيـــة للطبقة المثقفـــة المحلية من باحثيـــن و جامعيين من اجل الاستفادة من خدماتهم وتحسين صورتها لدى هذه الشعوب.

4- الاهتمام الأجنبي بكتابات و أبحاث المفكرين العرب وتقديم تسهيلات مالية للنشر والترجمة وحوافز تشجيعية مقابل تدعيم نموذجها الاستغلالي.

على العموم و من خلال ما سبق من الآراء المختلفة حول عوامل ضمور دور المثقف العربي في فضائه الحضاري نعتقد أن أهم هذه العوامل تتباين بتباين شخصيات المثقفين أنفسهم، منها أسباب ترجع إلى عوامل ذاتية تتعلق بالمثقف ذاته بسبب اهتمامه بالناحية الفردية و الذاتية و إهماله للجماعة والعامة وانغماسه فيها، و منهم من ربط علاقته بالسلطة بالتداعي أمامها ومدحه لها قصد الحصول على امتيازات خاصة، ومنهم من ترجع أسبابه إلى حالة التغريب التي ينتهجها و التي أصبحت ملازمة له دوما في كتاباته وأفكاره وسلوكاته إلى جانب بعض الأسباب التي توصف بأنها بيئية مثل انعدام الحرية الفكرية، و الديمقراطية و حق الكتابة و التعبير.

4- الـــدور المستقبلي للمثقف العربي.

إن التصور المستقبلي للدور الذي ينبغي أن يكون عليه المثقف العربي لا بد أن يستند على الوظيفة التاريخية التي عرف بها كضمير للجماعة وذاكرة الأمة، و العنصر الموجه لوعي المجتمع عن طريق تفعيل أدوات الفعل لديه اجتماعيا و سياسيا و أخلاقيا حتى يكون بمثابة الشخص القادر على مواجهة و مقاومة كل أشكال الاختراق الثقافي الداخلية والخارجية، ومن ثم الاستمرار في بناء دعائم المجتمع الحضاري و إثبات نجاعة و دور الفكر في تغيير القيم اليائسة و المعتقدات البالية التي تميز المجتمعات العربية جملة، لأن الفكرة كما هو معروف قد تستمـــر ضد القـــدر الإنســـاني وتسخر لمصلحة العنصر البشري[28].

لذلك فإنـــه ينبغـــي على المثقـــف العربي أن يكون القدوة كإنســـان وذلك في قلمـــه، و في موقفه و سلوكه قادرا على المواجهة و التغيير مؤمنا بدوره، تعتليه فكرة النجاح لا منفصلا عن ما يحدث في مجتمعه ليعيش بين الموتى و ذكـــريات الماضي لأجـــل حل مشاكل الحـــاضر بل مندمجا في مجتمعـــه و مشاركا في نقد و تقييم أنظمته، فدوره في الأساس مرتبطا بنواتج النظام التعليمي والاجتماعي والثقافي و ما توفره من فضاء ديمقراطي حر يساهم في إبداع المثقف، و لذا فإنه مطالب أكثر من أي وقت مضى بفرض أفكاره و تصوراته التي تخدم مصلحة المجتمع الذي ينتمي له.

كما أن التغني تارة و التبـــاكي تارة أخرى على شعـــارات الحرية والديمقراطيـــة و حقوق الإنسان...الخ والمطالبة بتجسيدها و حمايتها في المجتمعات العربية لا يكفي، لأن المثقفين أنفسهم مطالبون بالكفاح والمقاومة لتحقيقها كما فعلوه نظرائهم و لا يزالون يفعلونه في الدول التي عرفت شوطا متقدما في هذا المجال، و ذلك من خلال الاختـــراق و الاندماج في كافة الهيئات الاجتماعية و الثقافية و السياسية دون الانغماس و التموقع فيها.

أما عن المزاوجة بين الثقافات لا يعني تفضيل ثقافة عن أخرى و محاولة فرضها على الآخرين و إنما المزاوجة تعني التكامل والتجـــانس دون استعـــلاء أو استصغار للقيـــم و المعتقدات المشكلة للثقافة المحلية لأن المسؤولية الملقاة على الطبقة المثقفة من أساتـــذة و جامعيين وصحافيين وكتاب ومحامين ونـــواب و غيرهم تحتم عليهم أن يكونوا وسطاء بين المجتمع و النظام الحاكم للتعبير عن رغباته و انشـــغالاته و الدفاع عن مصالحه عن طريق تقييم السلطة و فضح الممارسات المشبوهة وأشكال الفساد المنتشرة. إن التحدي الحقيقي الذي يواجه المثقف في حاضرنا العربي يجعله أمام خيارين إما الخضوع لضغوطات المجتمع التي قد تحد من دوره

و فاعليته و تهدد وظيفته، و إما أن يقاوم هـــذه الضغوط و يعمل على تحييدها و إضعافها و إن يؤدي وظيفته دون خوف أو تردد. و في هذا الإطار فقد أورد الكاتب **أميـــن هويـــدي** تصوره للمثقف الحقيقي في مقاله **(المثقفون بين المناصب و المواقف)** إن اقتراب المثقف من أصحاب القرار خطوة لا غبار عليها بشرط ألا يكون ذلك على حساب اعتقاداتهم، وأن يكون ذلك بدافع خدمة القضايا فالولاء يكون للرئاسة و ليس للرئيس. على المثقف أن ينزل من برجه العاجي إلى الشارع و الواقع و يحتك بالجماهير ليعيش قضاياها و يبحث عن علاج و لا يكتفي بتوصيف المشاكل و الرجوع على أصولها التاريخية فهو مطالب بأن يقترح حلا[29].

ما يمكن قوله أن أزمة الثقافة العربية عامة وأزمة المثقف العربي بالخصوص لا تكمن في البناء المعرفي للمجتمـــع وإن الحديـــث على ضرورة اللجـــوء إلى الإصلاحـــات و التعديلات في برامجنـــا التعليميـــة و إدخال بعض التقنيات الحديثة و إصلاح منظومتنا الإداريـــة و التسييرية، أو الانفتاح و الاحتكاك بالثقافات الأخرى لا يكفي لاسترجاع الحياة الثقافيـــة لمجتمعاتنا لأن واقع المجتمعـــات العربيـــة بسبب حـــالة التخلف الاقتصاديـــة و الاجتماعية و السياسية و الثقافية جعلها تعيش حالة من التشوه و التبعية، لذا فإن العمل على تخطي هذا الأزمة يستوجب تحسين الوضعية السياسية و الاقتصادية والفكرية للمجتمع العربي للقضاء على التناقضات الموجودة في البناء الاجتماعي و البناء المعرفي والثقافي. ومن هنا يأتي دور المثقف الذي ينبغي أن يعمل و أن يدعو إلى تكوين ثقافة ذات مضمون وطني ترتبط بالحياة المعيشية للمجتمع الذي ينتمي إليه بحيث تعكس بصدق ووعي حاجات الناس و تهيئهم لخدمة قضياهم دون تزييف و تشويه لضمان علاقة صريحة و واقعية ليست مغتربة مـــابين المثقـــف و مجتمعه.

المراجـــع:

1- حسن حنفي، في الثقافة السياسية، ط1، دمشق: دار علاء الدين، 1988، ص182- 186.

2- **Jacqueline Russ , les théories du pouvoir, librairie générale française, paris , 1994, p225**.

3- **Ibid , p230.**

4-**Jean marc piotte, la pensée politique de Gramsci , édition électronique, ChicoutimI, Guebec, 2002, p17.**

5- جون بول سارتر، دفاع عن المثقفين، الترجمة العربية، بيروت، 1973، ص 33.

6- **Jacqueline Russ: Opcit, p231.**

7- محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية محنة ابن وحنبل نكبة ابن رشد، ط2 بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2000، ص31.

8- جمال علي زهران، تأثير الأوضاع المجتمعية على دور المثقف العربي، الرباط: المجلس القومي للثقافة العربية، **مجلة الوحدة**، السنة 4، العـــدد 40، جانفي، 1988 ص35.

9- زكي نجيب محفوظ، هموم المثقفـــين، بيـــروت: دار الشـــروق، 198، ص 12، 11.

10- حيدر إبراهيم علي، المثقف العربي و السلطة، بيروت: المجمع الثقافي العربي، 1996، ص88.

11- احمد موصللي، لؤي صافي، جذور أزمة المثقف في الوطن العربي، ط1، سلسلة حوارات لقرن جديد، دار الفكر، دمشق،2002، ص 86.

12- ادوارد سعيد، صور المثقف، ترجمة غسان غصن و مراجعة منى أنيس، بيروت: دار النهار للنشر، 1994، ص 28،29.

13- جمال علي زهران، مرجع سبق ذكره، ص 35.

14- برهان غليون، اغتيال العقل: محنة الثقافة العربية بين السلفية و التبعية، ط2، بيروت: دار التنوير، 1987، ص 110.

15- M. teitler, & autres, Elites, pouvoir et légitimité au Maghreb, édition du centre national de la recherche scientifique: Paris, 1973, p14.

16- علي حرب، الفكر و الحدث، ط2، بيروت: دار الكنوز الأدبية، 1997، ص 120.

17- معن علي خليل، نماذج من المثقفين في المجتمع العربي، الرباط: المجلس القومي للثقافة العربية، **مجلة الوحدة**، السنة 4، العدد 40، جانفي 1988، ص50.

18- المرجع نفسه، ص 50.

19- المرجع نفسه، ص 51.

20- المرجع نفسه، ص 51.

21- المرجع نفسه، ص 52.

22- زكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص 26.

23- حامد ربيع، الثقافة العربية بين الغزو الصهيوني و إرادة التكامل القومي، القاهرة: دار الموقف العربي، 1983.

24- جمال علي زهران، مرجع سابق، 40.

25- المرجع نفسه، ص 41.

26- نجيب محفوظ، في حوار مع جريدة الأهرام، 1984/9/10، ص11.

27- جمال علي زهران، مرجع سابق، ص41.

28- محمد شكري سلام، وظائف و أدوار المثقف بين الثابت والمتغير، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، **مجلة المستقبل العربي**، السنة 18، العدد 200، أكتوبر 1995، ص 75.

29- أمين هويدي، المثقفون بين المناصب و المواقف، **مجلة العربي**، الكويت، العدد 547، جوان 2004، ص 36.

* قضية "دريفوس " بدأت عام 1894 حينما كشف عن برنامج أرسل إلى الميجر "شفارتز كوين " الملحق العسكري الألماني بباريس، و معه قائمة بالوثائق السرية التي وعد كتب البرنامج تقديمهـــا، وأدانت المحكمـــة العسكرية الكابتن اليهـــودي "الفرد دريفوس " (1895 – 1935) بتهمـــة الخيانـــة وحكمت عليه بالسجن مدى الحياة بجزيرة الشيطان عـــام 1894 وفي عام 1896 أعيد النظر في القضية التي أصبحت مثار نزاع سياســـي قسم فرنســـا إلى قسمين: حيث كان الملكيون والعسكريون و الكاثوليـــك، يـــرون إدانة "دريفوس " شرعية، بينمـــا أيد براءتـــه الجمهوريون والاشتـــراكيون و المعادون لرجال الدين، و بعد مدة أعيدت المحاكمة مرة ثانية عام 1899 ثم عفا عنه الرئيس" لو بيه" و في عام 1906 أبرئت ساحته وأعيد للجيش، وكان لهذه القضية دور هام في التعجيل بين الكنيسة والدولة.

واقع إدارة التنمية المحلية بالجزائر

الدكتورة: ليندة نصيب
قسم علم الاجتمـــاع
جامعة باجي مختار – عنابة

الملخص:

التنمية المحلية عملية اجتماعية اقتصادية ثقافية ترتبط بالسياسات والبرامج المعدة وفق إستراتجيات ومخططات رشيدة تتعلق بضرورة الاستمرار في استغلال الإمكانيات المتاحة سواء كانت مادية أو بشرية.

لذا وجب استخدام المدخل الاستراتيجي الهادف إلى التغيير والتطوير والارتقاء بالمجتمعات المحلية من خلال صياغة نماذج فكرية عملية واقعية تنطلق من تقدير الاحتياجات المجتمعية وكيفية تجاوزها من خلال الإحاطة بكل مستجدات البيئة الداخلية والخارجية للمجتمع المحلي.

فالجزائر واحدة من الدول التي طبقت العديد من المخططات والبرامج التنموية التي تتلاءم مع التغييرات الحاصلة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. غير أن السؤال الذي يطرح هو: ما مدى ملائمة هذه السياسات التنموية المحلية الحاصلة على مستوى إدارة التنمية المحلية؟

مقدمـــة:

لقد أدت التحولات السوسيو اقتصادية التي شهدتها المجتمعات ما بعد الصناعية إلى إحداث تطورا و تغيرا في مجال صياغة نماذج و مخططات تنموية ترتبط عادة بالسياسات و التوجهات الداخلية للدول.

و عليه استدعت الضرورة تبني استراتيجيات تنموية هادفة إلى أحداث تغيرات في البنية الاجتماعية و الاقتصادية مع مراعات التوجهات العلمية والعملية لاستغلال الإمكانيات المحلية وفق الاستناد للقواعد المنهجية الرشيدة، تنطلق هذه الأخيرة من البحث في إمكانية الاستثمار الأمثل للموارد المادية والبشرية، و دلك من خلال سياسة تثمين المورد البشري في إطار عام يدعم الجهود الفردية و المشاركة الجماعية.

فالتنمية المحلية إذا جزء لا يتجزأ من التنمية الشاملة التي ترتبط بضرورة الإدراك الواعي لمختلف العمليات الاجتماعية من خلال المعرفة الدقيقة لطبيعة و نوع العلاقات التي تربط بين عناصرها في إطار تكاملي بالغ التشابك، بحيث تجعل أي تطوير أو تغيير يحدث في بداية العملية التنموية ما هو إلا بداية لتغيرات أخرى.

و التنمية المحلية عادة تتجاوز قضية تلبية الاحتياجات الفعلية للمجتمع المحلي بل تتعداه إلى التفكير الرشيد في ضرورة إحداث تغيرات و الارتقاء بالمجتمعات الإنسانية، إذ أن هذا التطور لا يأتي بالممارسة العملية فحسب دون مراعات الاستراتيجيات العلمية التجريبية التي تعتمد بالدرجة الأولى على إدارة الموارد البشرية و ما يتضمنه من تحليل مختلف العمليات التنموية وفق أسس علمية تجريبية واقعية.

إذا فالاهتمام بهذا الجانب لا بد أن يجسد في خطط و برامج التنمية في كافة المجتمعات خاصة دول العالم الثالث، و الجزائر واحدة من هذا العالم الذي يتميز بخصوصيات عدة تتراوح بين هشاشة الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية التي في الغالب لا تراعي مختلف التغيرات والمؤشرات الاقتصادية خاصة الفروقات الكامنة بين مستوى الدخل الفردي و القدرة الشرائية الخاصة بالمواطن، و كذا إمكانية تحقيق الكفاية الغذائية الاجتماعية. وعته وجب النظر للتنمية المحلية وفق إستراتيجية تقدير الاحتياجات عن طريق القيام بالدراسات العلمية و العملية و الميدانية يقوم بها مختصين وخبراء اجتماعيين و اقتصاديين قبل رسم الخطط و البرامج التنموية مع مراعات الإمكانيات المحلية و خصوصة كل منطقة.

فإدارة التنمية المحلية تبنى على ضرورة تضافر الجهود و السياسات الوطنية و المحلية و كذا التكوين النوعي للقائمين على هذه العملية و الذي يسند هذا الأخير إلى درجة تحويل المعلومات و النظريات العلمية إلى تطبيقات عملية تراعي الخصوصيات المحلية بغية الوصول في النهاية إلى تحقيق أهداف التنمية بشكل عام.

كل هذه العناصر و غيرها سيأتي التفصيل فيها من خلال تتبع العناصر الآتية

أولا: استخدام البحث العلمي في تشخيص المجتمع: إن تحليل و توصيف وتصميم برامج التنمية المحلية الهادفة إلى ترقية و تطوير المجتمعات الإنسانية يبنى على استراتيجيات و مناهج علمية تنطلق من[1]:

1- **ضرورة صياغة برامج تنمية المجتمع المحلي:** إن المنظمـــات التـــي تتصف بالفاعلية في المجتمع، والتي تعتمد على المشـــاركة في حل مشكلات المجتمع تواجه إشكالية أساسية تتمثل في أن المخططين الاجتماعين قـــد

توصـــلوا إلى طرق نظرية لمقابلة مشـــكلات المجتمع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والمعرفة لدى هـــؤلاء العلماء هـــي خليط من المسلمات وليدة بحوث محدودة والتطبيقات التي يتوقع أن تقوم بحل مشكلات المجتمع.

إن العاملين في مجال التنمية يهتمون بالنظريات **بلاك لي: blakely** وفي هـــذا الإطار يقـــول العلميـــة على اختلاف انتمـــائها وبناء الفروض، والتحليل الوصفـــي للوصـــول إلـــى أسلوب أمثل لحـــل مشكلات المجتمع وهذا يلقي مزيدا من الثقل عليهم، ونجد أنهم في مرحلة من المراحل في حاجة ملحة للوصول إلى تشخيص أساسي في ضوء الأهداف المراد الوصول إليها.

2- التعريـــف والوصف لنسق التشخيص: إن عدم التعرف الكامل لمشكلات المجتمع هـــي العقبـــة الأساسية التي تقف أمامها تحقيق أهداف تنمية المجتمع ويمكن أن نسمي ذلك الخبرات المرفوضة فـــي تنمية المجتمـــع وهذا يرجع إلـــى عـــدم كفاءة التشخيص. إن احتياجات المجتمـــع متعددة ولا يمكن حصرها فمثلا لو كان المجتمـــع يفتقر إلى المصادر الأساسية كالمياه والطاقة نجد أن هذا ينعكس على سمات المواطنين أنفسهم فـــي اكتســـابهم لبعض الأمـــور مثل التعليم أو غيرها، ولذلك نجد أن تصميم خطـــة العمـــل مع المجتمع تتضمن تحليل العديد من الأبعاد الاقتصـــادية والاجتماعية والثقـــافية والبيئية.

3- **تحديـــد وضبط المفاهيـــم:** إن بعض المفاهيم مثل مفهوم تقدير الحاجات أو مفهوم تحليل المجتمع تستخدم أحيانا بالتبادل في تنمية المجتمع، أي كمرادفات حيث أن كل من المصطلحين يشيران إلـــى العمليـــات التشخيصية بينما هما يختلفان تماما حيث نجد أن تقدير الحاجات هو تعبير يقصد به

رؤيـــة المواطنين أنفسهم للمشكلات ومدى شعورهم بها وكيفية التعامل معها وإيجاد الحلول لها.

أما تحليـــل المجتمع هي وصف تشخيصي للواقـــع الاجتماعـــي والاقتصادي والبيئي الذي يعيشه المجتمع ويستخدم في تنمية المجتمع لتحديد الأفراد أو الجماعات وموارد المجتمـــع. إن التشخيص المناسب في تنمية المجتمـــع يستند على مبادئ أساسية ومراحل عمل، ويمكن أن نقدم نمـــوذج للتشخيـــص الذي يحض بالقبول في تنمية المجتمـــع وهو يحتوي علـــى خمس مراحـــل:

أ- مراحـــل ما قبل التشخيـــص: وهي مرحلة تهيئة أو التعرف علـــى المجتمـــع ومشكلاته.

ب- مرحلة البدايـــة في التشخيص: وهي مرحلة تصميم أو تحديد المعلومات الـــراد الحصول عليها.

ج- مرحلة تحديد مداخل التدخل التجريبي للتشخيص: وهي مرحلة نحدد مـــن خلالها نمـــوذج جمع البيانات فـــي المجتمـــع.

د- مرحله اختيار نموذج التشخيص الأمثل: وهي مرحلة اختيار البدائل الممكنة لإجراء التشخيص لاختيار البديل الأمثل.

هـــ - مرحلة التقييم التشخيصي: تقيم العائد المتوقع من برنامج التشخيص الذي تم الاتفاق عليه.

نجد أن كل مرحلة من المراحل المذكورة دور هام في تحديد مشكلات المجتمع سواء فـــي الخدمات أو المرافق العامة.

ثانيا: ركائـــز تنميـــة المجتمع المحلي وعناصرها

تعتمد تنمية المجتمع المحلي على جملة من الركائز و الآليات يمكن حصرها فيما يلـــي[2]:

تتلخـــص ركـــائز التنميـــة فيما يلـــي:

* اشتراك أعضاء البيئة المحلية فـــي التفكير والعمل على وضـــع وتنفيـــذ البرامـــج والتـــي تهدف إلى النهـــوض بهم وذلك عن طريـــق إثـــارة الوعي بمستوى أفضل من الحياة الحالية.

*التكامل والتنسيق فـــي مشروعات الخدمات بحيث لا تصبح متكررة أو في حالة تضاد.

*الإسراع بالوصول إلى النتائج المادية الملموسة.

*الاعتماد على الموارد المحلية للمجتمع سواء كانت مادية أو بشرية وهذا ما يؤدي إلى منفعة اقتصادية من حيث تقليل التكلفة في انجاز المشاريع.

تعتبر عملية الاعتماد على الموارد المحلية من أساليب التغيير الحضاري المقصود باعتبار أن ذلك يتم عن طريق إدخال الأنماط الحضرية الجديدة من خلا الأنماط القديمة وهذا التوجه ينطبق أيضا علـــى الموارد البشرية، فمثلا القادة المحليون يعتبرون أكثر نجاح في تغيير اتجاهات أفراد مجتمعـــهم مـــن الشخص الغريب علـــى المجتمـــع حتى ولو كان أثر كفاءة وقدرة.

ثالثا – عناصـــر تنمية المجتمع المحلـــي:

يمكن تحديد عناصر التنمية المحلية في ثلاث أسس وهي على النحو التالي:

1- **التغييـــر البنائـــي:** يقصد بالتغير البنائي ذلك النوع من التغيير الذي يستلزم ظهور أمور وتنظيمات اجتماعية جديدة تختلف اختلافا نوعيا عن الأدوار والتنظيمات القائمة في المجتمع، ويقتضي هذا النوع من التغيير حدوث تحول كبير في الظواهر والنظم والعلاقات السائدة في المجتمع، أي أنه التغيير الذي يحدث في بناء المجتمع أي في حجمه وفي تركيب أجزائه وشكل تنظيمه الاجتماعي.

إن التغيير البنائي هو الذي يرتبط بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية، فمن الصعب أن تحدث التنمية في مجتمع متخلف اجتماعيا دون أن يتغير البناء الاجتماعي لذلك المجتمع، فقد ورث مجتمعنا العديد من المشكلات التي تراكمت منذ مدة طويلة سواء بسبب الاستعمار أو بسبب السياسات الاحتياطية، أدى إلى حدوث فجوة في توزيع الثروة والدخل إضافة إلى سقوط جهات الحكم والسلطة في يد طبقة عليا وكذلك انخفاض المستويات التعليمية والمعيشية[3].

2 – الدفعـــة القويـــة: إن النهوض بالمجتمع من المستويات المتخلفة يستلزم حدوث مجموعة من الدفعات القوية التي تسمح بالخروج من حالة الركود إلى حالة التقدم في أسرع وقت ممكن، وتعتبر حكومات الدول المتخلفة كما هو بالنسبة لنا هي المسئولة عن إحداث هذه الدفعات القوية، فهي التي تملك إمكانيات التغيير وهي كذلك المسئولة عن ضمان حد أدنى لمستويات الخدمات.

يمكن أن تحدث الدفعات القوية في مجالات عديدة أهمها المجال الاقتصادي والتي تصاحبها دفع مماثلة في المجال الاجتماعي، مما يؤدي إلى نمو وتحسين الاقتصادي للفرد والمجتمع

3 – الإستراتيجيـــة الملائمة: ويقصد بها الإطار العام أو الخطط العريضة التي ترسمها السيـــاسة التنموية في الانتقال من حالة التخلف إلى حالة النمو الذاتي، وتختلف الإستراتيجية عن التكتيك الذي يعني الاستخدام الصحيح للوسائل المتاحة لتحقيق الهدف.

ولكي يتم استخدام هذه الوسائل استخداما صحيحا لابد أن تكون هذه الوسائل موزعة وفقا لخطة جيدة الإعداد. كما ينبغي أيضا أن تقوم إستراتيجية التنمية المحلية على أساس التكامل والتوازن بين كل من التنمية

الاجتماعية والتنمية الاقتصادية أي تحقيق التوازن بين الرأسمال البشري والرأسمال المادي، وتتوقف الإستراتيجية على عدة اعتبارات أهمها:

* طبيعة الظروف عند بدأ التنمية من حيث درجة التخلف.
* الاستقرار السياسي وطبيعة النظام الاقتصادي ونوعية التركيب الطبقي.
* حجم المناطق الحضرية والريفية.
* تركيب المجتمع من حيث السكان، المستوى، الصحي، القيم والعادات السائدة.
* طبيعة الأهداف المرجوة إذ هناك أهداف قصيرة المدى، متوسطة المدى، بعيدة المدى.

رابعـــا: أهميـــة المشاركة فـــي التنمية:

دوباي فنجد العناصر الآتيـــة[4]: **doubay** للمشاركة أهمية بالغة في عملية التنمية نوضحها وفق مواضعه المفكر.

* تعمل المشاركة على ملائمة الخدمات للسكان المحليين باعتبارهم أنسب الناس للتعبير عن احتياجاتهم.
* إتاحة الفرصة للفئات المختلفة بالمجتمع للمشاركة والقيام بدور ايجابي في الأحداث الجارية والقرارات المؤثرة.
* تعمل المشاركة في عمليات التنمية إلى مساندتهم لتلك العمليات والاهتمام بها.
* من خلالها يمكن إعادة ترشيد وتوزيع الخدمات بين فئات المجتمع بحيث يحصل كل فرد على ما يناسبه من هذه الخدمات.
* المشاركة تعني المراقبة الشعبية على مشاريع الحكومة.
* تزيد بالإفراد إلى اكتشاف قيادات محلية جديدة من خلال المرافق التي تأتي بها.

* تعود المواطنين على الحفاظ عن الأملاك والأموال العامة وهذا ما تحتاجه العديد من الدول النامي وعلى رأسها الجزائر. من هذا المنطلق لا نستطيع حصر أهمية المشاركة في هذه النقاط فقط بل تتعدى إلى ما هو أوسع.

خامسا: واقع التنمية المحلية بالجزائر

إن الجزائر واحدة من الدول النامية التي تعرضت للاستغلال من طرف المستعمر الذي لم يترك إلا الدمار والخراب، وعند الاستقلال وجدت الجزائر نفسها أمام تخلف كبير فكان عليها أن تنهض من أجل اللحاق بالتغيير الحاصل في العالم، وكان عليها أن تعتمد على نفسها، فوضعت سياسة تنموية مست في البداية قطاع التصنيع ثم بدأ الاهتمام بعد ذلك بالقطاعات الأخرى.

فالاهتمام بالتنمية المحلية مر بمراحل متعاقبة تأثرت كل حقبة بمجموعة العوامل و الظروف الاجتماعية و الاقتصادية التي سادت في كل مرحلة، فأفرزت بذلك نماذج تنموية متعددة مرت بمراحل مختلفة يمكن اختصارها في المراحل الآتيـــة:

1- التنمية في الجزائر أثناء الاستعمار[5]:

خلال مرحلة السيطرة التركية في الجزائر حقق الانتقال نحو الرأسمالية في فرنسا وإنكلترا خطى ملموسة، فتميزت التشكيلة الاجتماعية الإقطاعية بإفراز مستلزمات رأسمال من حيث امتداد السوق وامتداد دائرة التداول وقد امتازت التجارة الخارجية في الجزائر. بخضوعها للإدارة التركية التي أعطت امتيازات تجارية لرأسمال الأوربي،أما الميزة الثانية فتمثلت في التحالف الطبقي الموضوعي،فتزيد الطبقة المسيطرة التركية من خلال زيادة رسوم الخروج والعائدات وعند دخول المستعمر الفرنسي

للجزائر لم تهدف سلطته السياسية إلى إحلال الرأسمالية ففي سنة 1840 قرر المجلس النيابي أن الجزائر أرض لن تتخلى عنها السياسة الفرنسية وفي عام 1847 جرى غزو الجزائر تدريجيا وبدأ الاستعمار بالأراضي بكميات أكبر كانت تهدف فرنسا من هذه السياسة الزراعية حل مشكلة العاطلين عن العمل في المدن الفرنسية وسببا في نقص قوة العمل التي يقدمها الجزائريين،فقد شكلت الزراعة القاعدة الرئيسية لتراكم رأس المال في الجزائر آنذاك. وكانت غالبية اليد العاملة المستخدمة تعمل موسميا فقط وفي فترات الأعمال الكبيرة،والمعمر يلجأ بدوره إلى استئجار اليد العاملة الضرورية وفي كل موسم يعود العمال الموسميون ليعرضوا خدماتهم،وازدادت حركة الهجرة إلى فرنسا منذ سنة 1920 لما سمح بنشوء حركة عمالية جزائرية في الخارج، وهو مؤشر يدل على قلة نشاط الرأسمالية وعجزها عن تأمين العمل للجزائريين ككل،فتزايدت البطالة سنة 1934 نتيجة الوضع في القطاعات التصديرية وكل القطاعات المرتبطة بزراعة الكروم.

ولكنها كانت أقل بروزا في الأرياف بسبب العمل الموسمي، وفي الواقع أن ركود الأرباح ثم تراجعها قد دفع إلى هبوط الاستثمار في قطاع البناء الخاص الأمر الذي زاد بدوره من البطالة، ونشأت حول المدن أكواخ من الصفيح إكتضت بالفلاحين الذين حرموا من أراضيهم ولم يستطيعوا إيجاد عمل لكسب لقمة العيش.

ففي سنة 1830 قدر عدد سكان الجزائر بـــ 3 ملايين نسمة،وهبط سنة 1886 ويرتبط هذا الهبوط بالقمع العسكري في تلك الفترة،وقد تزايد السكان المسلمين بين1900-1927 تقريبا متساوي مع تزايد السكان الأوربيين حيث قدرت نسبة الجزائريين بـــ37%والأوربيين بـــ40%، وكان

معدل الولادات العالي يعوضه معدل الوفيات المرتفع نتيجة الأوبئة الشديدة والضعف والقهر العسكري على السكان الجزائريين.

وفيما يخص التعليم فقد كان موضوع صراع سياسي في تلك الفترة ما بين البرجوازية الاستعمارية والسلطة السياسية الفرنسية والطبقات الاجتماعية الجزائرية وتركز هذا الصراع حول طبيعة التعليم المقدم للنشئ الجزائري، وعملية فتح المدارس واجهت معارضة كبيرة من قبل المعمريين فطلب البعض أن يكون التعليم موجها أكثرا في المجال المهني لكن هذا الأخير لا يمكن أن يسبق التعليم الابتدائي الأولي هذا من جهة ومن جهة ثانية عدد المراكز المهنية الموجودة للسكان الأصليين قليلة، فأصبحت المدرسة الفرنسية في الجزائر منذ 1883 مطابقة للمدرسة الفرنسية، فكان الإقبال معدوما وهذا لم يكن بسبب الانتقاء الشديد الصعوبة لدى الدخول، وقد أعطت هذه السياسة الأفضلية لتعليم منطقة القبائل بقصد تقسيم السكان الجزائريين.

وفي عام 1920 أصبح القبول في المدرسة الفرنسية عاما وفهم الآباء فائدة التعليم وأصبحوا يطالبون بإنشاء مدارس جديدة وتوسيع المدارس القائمة وكان الكثير منهم يعلمون أطفالهم اللغة الفرنسية في منازلهم وعلى حسابهم، وهكذا حصلت الصناعة المعدنية سنة 1954 على 53.5% من التعليم الفني الممتاز و38% من فروع التعليم التقني، والواقع أن 73.3% أصل 151793 جزائري يعملون في فرنسا في ذلك الوقت والبناء والأشغال العمومية، أما المدارس التقنية كانت في الجزائر مغلقة أمام الجزائريين.

وكان التعليم يخص الأغلبية من الجزائريين، وفي عام 1954 كان هناك 179 طالبا من أصل 58 في جامعة الجزائر مسجلين في الحقوق، وفي الآداب165 طالبا، وفي الطب 66 طالبا، أما في العلوم فكان هناك 113 طالبا[6].

وفي نهاية الفترة الاستعمارية أصبحت هذه النخبة المثقفة رغم قلتها القائد الطبيعي للكفاح التحرري وهي التي ستصيغ سياسة التنمية الاقتصادية بعد الاستقلال.

2- السياســـة التنموية في الجزائر بعد الاستقلال:

بدأت التنمية في الجزائر بتطبيق أسلوب التخطيط عام 1967 وقد تطور منذ هذا التاريخ في تنظيمه وحجم برامجه وفتراته وأسلوبه ويعود هذا إلى التجربة المكتسبة ميدانيا خلال المرحلة الممتدة من سنة 1967 إلى سنة 1980 تميزت الإستراتجية الإنمائية على القطاع المنتج وخاصة التصنيع، ثم تميزت المرحلة الموالية بإعادة تنظيم الاقتصاد الوطني بما يسمى إعادة الهيكلة هذا في البداية ثم برامج التصحيحات الهيكلية فتميز المخططين الأول والثاني بالمركزية ثم اتجهت السياسة التنموية نحو دعم اللامركزية في المخططين الثالث والرابع وجزء من المخطط الخماسي. أو تحت أسلوب تطبيق المخططات البلدية أو تحت أسلوب تطبيق إعادة هيكلة المؤسسات.

وفي الأخير توجهت خلال تطبيق الجزء الثاني من المخطط الخماسي وبالتحديد مع نهاية عام 1987 إلى نظام استقلالية الوحدات الاقتصادية أو ما يسمى الإصلاح الاقتصادي الجديد، وقد قدر حجم الاستثمارات أثناء الفترة الممتدة من 1980-1989 التي تميزت بتطبيق مخططين خماسيين في أكثر من 715 مليار دينار جزائري، وتميز المخطط الخماسي الأول1980-1984 بأنه ساهم في إعداد الهياكل الحزبية والمجالس المنتخبة،كما أنه تميز بأنه أول تجربة تخطيطية لفترة أطول لسابقاتها وهي فترة خمس سنوات.

فاتسعت هذه الفترة وكان توجهها حول جعل التهيئة الإقليمية الركيزة الأساسية للتنمية، وجعل إستراتجية ترقية قطاع الهياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية الوسيلة المثلى لتحقيق التهيئة الإقليمية كما اتسعت كمية

استثمارات هذا المخطط لتصل تكاليف برامجه إلى560.5 مليار دينار جزائري.

وفي الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر1984 صادق المجلس الشعبي الوطني على مشروع قانون المخطط الخماسي الثاني1985-1989 ويمتاز هذا المخطط بأنه تكميل للمخطط الخماسي الأول من حيث الاهتمام لتسيير كذلك أنه وضع في أولويات التنمية مجال الفلاحة والري، وأعطى للصناعة والزراعة دورا حيويا لاستقطاب السكان إلى المناطق الداخلية من البلاد، كذلك اعتمد في تحليله على الوضعية الاقتصادية العامة للبلاد ومتطلبات التنمية وفي أواخر1987 دخلت الجزائر سياسة إنمائية جيدة أطلق عليها ما يسمى بالإصلاح الاقتصادي الجديد[7].

لقد أدت جهود التنمية في إطارها التخطيطي إلى خلق طاقات إنتاجية وطنية هامة في القطاع العام.

أ- تنميـــة الهياكل الأساسية الاجتماعية[8]:

نقصد بقطاع الهياكل الأساسية الاجتماعية البنية التحتية التي هي أحد الأنشطة الحيوية في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ويتكون هذا القطاع من المرافق التي يتلقى فيها الفرد خدمات اجتماعية وثقافية متعددة ومرتبطة بترقية مستوى صحته وتكوينه ومعيشته، ويتمثل مضمون هذه الهياكل في قطاع السكن والتجهيزات المرتبطة به كشبكات المياه والتنمية، ودور الثقافة والتجهيزات الرياضية والمؤسسات الدينية وحدائق الأطفال وغيرها ثم مؤسسات التعليم والتكوين والصحة.

فنجد أن المجموعة الأولى من مرافق البنى التحتية الاجتماعية تتمثل في السكن والتجهيزات جماعية،أما المجموعة الثانية فتتمثل في التكوين والصحة الذين يمنحان للإنسان القدرة على الحياة والتطور والتحكم في

أسباب بناء الحضارة وهدف هاتين المجموعتين هو التوفير للإنسان جميع شروط الحياة المادية والثقافية من أجل تحضيره للعمل والإنتاج، فقطاع الهياكل الأساسية الاجتماعية ليست مرتبطة مباشرة بالإنتاج ولكن هذه المرافق هي استثمارات غير منتجة بطريقة مباشرة ولكنها مع هذا ذات أهمية كبيرة في تطور الإنتاج مستقبلا، فالإنتاج هو علاقة اجتماعية مرتبطة بعلاقات اجتماعية أخرى تتعدى حدود قطاع الإنتاج الزراعي أو الصناعي، ولقد إهتما الجزائر في هذا القطاع أي الهياكل الأساسية الاجتماعية بهدفين أساسييـــن همـــا:

***هدف اجتماعـــي:** يتمثل في وجود اختلال كبير في التوازن بين النمو الديمغرافي والوحدات السكنية.

***هدف سياســـي:** يتمثل في تعمير التراب الوطني بإنشاء مراكز سكنية في مناطق الهضاب العليا وفي الجنوب حيث الكثافة السكانية ضعيفة جدا وتوافر الموارد الطبيعية وهذا لخلق حركة اقتصادية نشيطة وإيقاف نزوح السكان من الأرياف نحو المدن.

إن قطاع السكن يعتبر وسيلة سياسية في يد الدولة لإعادة تنظيم التراب الوطني،فوجود الفرد في مكان جغرافي معين هو شرط أساسي لبعث الحياة في هذا المكان وهذا التواجد يستلزم شروط مادية وأخرى اجتماعية وثقافية.

– تنمية قطاع السكن: انصب اهتمام الدولة في هذا القطاع حول ثلاثـــة أهـــداف هـــي:

– تنظيم المدن القديمة وتوسيعها.

– تطوير الحياة السكنية في الريف وتحديث مراكزه الحضرية في الولايات والدوائر والبلديات.

– بعث مدن جديدة في مناطق الهضاب العليا والصحراء.

وقد اهتمت الجزائر ضمن مخططاتها التنموية بإنشاء مدن صغيرة ومتوسطة في المناطق الريفية وفي مناطق الهضاب والصحراء، وهذا من أجل الاستفادة من هذه المناطق من خلال مواردها وبهذا ستتجنب الدولة التوسع على حساب الأراضي الخصبة،كذلك نجد هذه المناطق هي مناطق ذات طبيعة قاسية، كما تقل فيها المياه وتنخفض فيها خصوبة الأراضي مما يدعو إلى بناء منشآت كبيرة وهذا ما تقوم به الدولة من خلال سياستها التي تهدف إلى تحضير الشروط المادية والاجتماعية لنقل الاستثمارات الصناعية وهذا سيسبب في استقطاب مناطق الهضاب العليا والصحراء قدرة اقتصادية واجتماعية أعلى من المدن الصغيرة أو المتوسطة.

وقد برمج كذلك ضمن مخططات الدولة الارتكاز على وضع دراسات عميقة وشاملة لمدن الجزائر القديمة والجديدة خاصة في الهضاب العليا والجنوب، وترتكز على إنشاء وسائل الإنجاز في مختلف المستويات خاصة المستويات المحلية وصولا إلى البلدية.

- **تنميـــة قطاع التعليم والتكوين:**

هذا القطاع يعتني بمهارات الفرد وتهذيب تفكيره وترقية مستواه ليتجاوب مع حاجات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ويؤثر فيها كذلك وهذا كي يحقق أكبر تقدم فنجد الجزائر التي هي أكبر واحدة من البلدان النامية التي تولي عناية كبيرة جدا بمشكلة التعليم والتكوين وقد بدأ هذا الاهتمام منذ الاستقلال حيث جاء مبدأ ديمقراطية التعليم وحق المواطن فيه.

ولكن هذه السياسة عرفت تطورا عبر مراحلها وهذا بالبحث عن وسائل ناجعة لكي تتوافق مع الأهداف السياسية الطامحة للتنمية الشاملة ونجد هذا التجدد في التفكير والبحث في المخططات التي جاءت بها الدولة من أجل الوصول إلى التنمية.

وقد امتازت السياسات السابقة في التعليم والتكوين بما يلـــي:

-عدم وجود سياسة موحدة نتيجة لتعدد الجهات المكونة (الوزارات) وفق حاجاتها الخاصة.

- عجز القطاعات الاقتصادية عن تغطية جانب التعليم التقني بسبب ضعف توافق برامج التعليم مع حاجات التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

- ضعف التكامل بين فرع التعليم وفرع التكوين المهني.

نلاحظ من خلال هذه السياسات وجود اختلال وهذا نتيجة عجز كبير في إشباع حاجات المجتمع إلى استخدام الكفاءات الوطنية وكذلك عجز في مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية مما يؤدي إلى اختلاف في مستوى التكوين.

كما كانت الدولة تعاني من نقص في التأطير مما أدى بالجزائر إلى طلب العون الفني الأجنبي كذلك نظمت الجزائر بعثات إلى الخارج في إطار عقود صناعية متوسطة الأجل أو تكوينات متخصصة عادية وزيادة للعلم فإن معظم الإطارات الفنية يشتغلون في قطاع الصناعة، ومشكلة أخرى كانت تواجه الجزائر في النقص في الإطارات الإنسانية مثل العمال المؤهلين والمساعدين والأعوان الشبه الطبيين، وهذا النقص يمكن ملاحظته في مختلف فروع النشاط الاقتصادي خاصة في فروع البناء والأشغال العمومية نظرا لاعتماد الاستثمارات عليه في سير الإنجاز ولذلك يجب إعادة تشغيل المغتربين وعددهم كبير في مستوى التكوين وإيجاد علاقة تكاملية بين التعليم المدرسي والتكوين المهني.

- **تنمية قطـــاع الصحة:** يهدف هذا القطاع إلى وقاية الفرد من الأمراض ومكافحتها باستمرار للحفظ على قدرة الإنتاج والإبداع والخلق فهذا القطاع كذلك يحمل أهمية كبيرة مثله مثل القطاعات السالفة الذكر،

وقد دعمته الدولة، فبعد الاستعمار قررت الجزائر تطبيق سياسة الطب المجاني.

ولقد اهتمت الدولة في الماضي في هذا المجال بالتكوين العددي أي بالكم في عدد الأطباء الذين يجب تكوينهم وفي عدد الإطارات الشبه طبية وهذا نتيجة العجز الذي كان شائعا في مختلف الفئات الإطارات الطبية، واعتمدت الجزائـــر من أجل تنميـــة قطاع الصحة علـــى ثلاث مبـــادئ تتمثل فـــي:

- عناية الدولة بالمناطق المختلفة في إطار سياسة التهيئة الإقليمية.
- وقاية الفرد باعتبار الوقاية خير من العلاج، وهذا من خلال تطبيق شروط النظافة في جميع المحيطات الاجتماعية
- تطوير البحث الطبي وهذا من اجل تقدم هذا العلم وتغلبه على الأمراض المستعصية وعلاجها دون اللجوء إلى نقل المريض إلى الخارج.

*** التشغيـــل:**

لقد تطور التشغيل تطورا واضحا بسبب المكاسب السياسية والاقتصادية في الجزائر والتي تتمثل في القفزة التي سجلها تطوره خاصة منذ تطبيق أسلوب التخطيط حتى أصبح العمل مأمنا لكل طالب وأصبح مضمونا لكل فرد متحصل على الكفاءة والتأهيل من مؤسسة التعليم أو التكوين.

ففي سنة 1967 وهي سنة الشروع في تطبيق سجل التخطيط تطورا لخلق ديناميكية جديدة بفضل الاستثمار المعتمد ،وهي ديناميكية حية ونشيطة خصوصا على صعيد قطاع البناء والأشغال العمومية، وقطاع الصناعة الذي سجل ولأول مرة في تاريخ الجزائر دخوله مرحلة إنمائية نوعية جديدة وهي مرحلة التصنيع والتي أبرزت تطورت في التشغيل، ومعنا هذا أن ديناميكية الاستثمار ترتبط بديناميكية التشغيل[8] في بعدها الكمي والنوعي وهذه العلاقة

هي علاقة عضوية قوية تتميز ببهاضة التكاليف لأنه من اجل خلق منصب شغل واحد لا بد من تحمل نفقات استثمارية، ففي المخطط الثلاثي 1967-1969 كانت نسبة العمال الذي تم تشغيلهم حوالي 20% وقد قفزت هذه النسبة في المخطط الخماسي الثاني 1985-1989 إلى 90 %.

وقد وجدت المؤسسة الوطنية نفسها مجبرة لاتخاذ إجرائين بسبب التغيرات التي طرأت على الوحدات الاقتصادية ويتمثلان في مراجعة سياسة التشغيل التي يتعلق الحساب الاجتماعي خلال الفترة 1967-1980 قد طغى على الحسابات الاقتصادية أما الإجراء الثاني فتمثل في إغلاق باب التشغيل الجديد أمام القوة العاملة الجديدة ريثما يتم امتصاص فائض اليد العاملة التي تشكو فيها الوحدات الاقتصادية مشكل الطالة المقنعة، إذا فمشكل التشغيل قائم ويتطور تطورا سيئا ومنه فلا بد من ديناميكية للاستثمار[9].

ومنه فإن الجزائر تواجه تحديات داخلية وخارجية ولدراسة واقع التنمية في هذه الدولة لا بد من معالجة تاريخية لأسباب التخلف، واعتراف بمظاهره في المجتمع لأن الاعتراف بالتخلف مقدمة ضرورية للإصلاح والتغير، كما أنه آن الأوان أن تدرك القيادة السياسية الحاكمة خاصة في البلدان العربية أن الواقع المجتمعي يمر بمرحلة تغيير سريعة غير منفصلة عن التغيرات العالمية التي تشكل في كثير من جوانبها تحديا صعبا لا على مستوى كل بلد من البلدان العربية فحسب بل على مستوى العالم العربي ككل.

ب- مخططات التنمية المحلية بالبلدية:

تعد البلدية باعتبارها ملتقى لمختلف التطلعات الاجتماعية والاقتصادية للمواطن وأنسب جهاز إداري محلي يمكنه تحقيق هذه المتطلبات، وذلك من خلال مخططات التنمية المحلية التي تخدم المصلحة العامة.

إذ أن مشاركة البلدية لا تنحصر في التخطيط للتنمية على المستوى المحلي فحسب بل تتعداه إلى الصعيد الوطني حيث تساهم في التحضير وإنجاز المخطط الوطني للتنمية وفق الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة لكل بلدية في إطار الصلاحيات المخولة لها قانونيا وعليه تنص المادة 86 من قانون البلدية لسنة 1990 على انه " تعد البلدية مخططها التنموي القصير والمتوسط والطويل المدى وتصادق عليه وتسهر على تنفيذه في إطار الصلاحيات المسندة لها قانونيا وبانسجام مع مخطط الولية وأهداف مخططات التهيئة العمرانية[10].

حيث عرفت مخططات التنمية المحلية في الجزائر تطورات عديدة وكان الهدف منها غالبا إيجاد برامج تنموية ناجحة للقضاء على التدهور الإقتصادي والاجتماعي الموروث من الاستعمار الفرنسي، وانطلقت معركة البناء والتشييد بكل الإمكانيات المتاحة كبرامج التجهيز المحلي (P.E.L) وبرامج نفقات التجهيز الريفي (D.E.L) وبرامج التشغيل الكامل وبرامج التنمية الصناعية[11] وقد عرفت هذه المرحلة من المخططات وقبل 1970 العديد من المشكلات المالية والإدارية بسبب المركزية المفرطة في التخطيط، بالإضافة إلى تعدد المخططات والصعوبات التي تجعل إدراجها ضمن المخطط الوطني أمرا صعبا جدا،الأمر الذي نتج عنه عدم توحيد المنهجية في العمل.

ونظرا لعدم توحد هذه المخططات وصعوبة تنفيذها لجأت إلى محاولت توحيدها من خلال المخطط البلدي للتنمية ومخطط التحديث الحضري على إثر المرسوم رقم 136/73 المؤرخ في 1979/08/09 حيث حدد شروط التسيير الممثلة في الإعتمادات المالية فائدة الوالي.

ولقد خصصت مناقشة المؤتمر الإثنائي لحزب جبهة التحرير الوطني جوان 1980 لدراسة المسائل والأمور الاقتصادية والاجتماعية ومشاكل التنمية بشكل عام، ولقد حاز موضوع التخطيط الحيز الكبير من النقاش، وإنجر عنه تحويل كتابة الدولة للتخطيط إلى وزارة الدولة للتخطيط والتهيئة العمرانية.

***برامـــج دعم الإنعاش الاقتصادي:**

إذ أنشئ هذا البرنامج سنة 2001 ويهدف إلى تطوير الاستثمار العمومي بواسطة إنجاز مشروعات مسجلة ضمن مختلف برامج التجهيز العمومي للدولة ويخضع لنفس قواعد التسيير الخاصة بالبرنامج العادي غير أن الاختلاف الوحيد يكمن في كون إعتمادات الدفع لا تلغى بانتهاء السنة وإنما توضع على مستوى الحساب الخاص لخزينة الولاية[(12)].

*** البرامـــج القطاعيـــة:**

وتتوزع هذه البرامج القطاعية على النحو التالـــي:

- البرامـــج القطاعية الممركزة:

وهي البرامج والمشروعات الكبرى ذات البعد الوطني أو الجهوي، والهدف الأساسي منها يتمثل في تهيئة الإقليم على المستوى المحلي فتحتوي على أبعاد جغرافية، وتسجل تعاون الوزارات والهيئات المختصة.

- البرامج القطاعية غير الممركزة:

والهدف الأساسي منها يتمثل في محاولة تحقيق التوازنات الجهوية وتسجل هذه البرامج برمز الوالي الذي يعتبر الأمر الوحيد بالتصرف.

- المخطط البلدي للتنمية:

يعد هذا البرنامج الأكثر استعمالا منذ سنة 1974 والذي يتعلق بشروط تسيير وإنجاز المخططات البلدية للتنمية، ويعد من الاختصاصات المباشرة للبلدية أو المجلس الشعبي البلدي من حيث الاختيار، الملائمة والمشاريع المقترحة وأثرها المباشر على الجماعات المحلية والمشاركة الشعبية.

يعد المخطط البلدي بمثابة البرنامج الاقتصادي والاجتماعي الهام في البلدية حيث يلمس جميع القطاعات ويعمل على ضرورة الاستجابة لمختلف الأهداف التنموية، ويشكل الأداة الأفضل للتنمية المحلية نظرا لارتباطه بضرورة تحقيق الحاجات الأساسية للمواطنين في جميع المجالات.

أ- كيفية تحضير وتنفيذ المخططات البلدية الخاصة بالتنمية:

حيث ولتحضيـــر وتنفيـــذ هذه المخططات لا بد من مرورها علـــى عدة خطوات أساسية:

*** دراســـة ملائمة النشاطات:**

وهذه الخطوة من اختصاصات المجلس الشعبي البلدي والذي يعمل على تقدير وملائمة النشاطات والبرامج الواجب تنفيذها،مع مراعاة احتياجات المواطنين ووضع البلدية، وضرورة دراسة تكامل هذا البرنامج وتوافقه مع مشروعات البلديات الأخرى، وظروف البلدية بشكل عام وذلك في ظل الأولويات والتوجهات الوطنية وخصوصيات إقليم البلدية[13]، وعليه على المجلس الشعبي البلدي عند إعداد وتنفيذ المخططات التنموية ضرورة مراعاة خصوصيات البلدية الموجه لها مثل هذه المشاريع.

***إعـــداد وتسجيـــل مخططات البلدية:**

إن معرفة المجال البشري والمادي للبلدية يعد شرطا أساسيا ومسبقا لإعداد وتحضير برامج التنمية المحلية الذي يشمل مختلف المعلومات

الخاصة بهذه المجالات من خلال بنك المعلومات الإحصائية الموجودة على مستوى الولاية الأمر الآخر الضروري هو التأكيد على دراسة الأراضي التي ستتم فوقها المشروعات التنموية وتأثيرها على النسيج العمراني.

ويتبع هذا التحضير لمخططات البلدية جملة من المراحل نوردها على النحو الآتي[14]:

- ضبط قائمة مقترحات المشروعات.
- ضمان وجود دراسة وقطع أرضية لقيام المشروع.
- تحكيم الاقتراحات على مستوى لجنة الدائرة.
- تقديم البرامج للمجلس الولائي بهدف ضمان التكامل مع مختلف البرامج.
- إعداد البطاقة التقنية للمشروعات الموافق عليها.
- تسجيل المشروعات من طرف مديرية التخطيط والتهيئة العمرانية وتبليغها عن طريق الوالي للبلديات.

*** تنفيذ البرامـــج ومتابعتهـــا:**

حيث يتم تنفيذ هذه البرامج الموافق عليها وعلى مستوى البلدية عن طريق اختيار المتعاقد أو إحدى الشركات المكلفة بإنجاز المشروع ضمن القانون المحدد للصفقات العمومية.

وبعد ذلك يكلف مكتب الدراسات أو القسم الفرعي والمتخصص قطاعيا من متابعة سير المشروعات، وبعدها يتم الإقرار بإنجاز الأشغال بواسطة وضعيات شهرية،والذي يمكن من تسهيل التقديرات في مجال إعتمادات الدفع السنوي.

ويقوم رئيس البلدية باستلام الحوالات المعادلة لوضعية الأشغال المؤشر عليها.

*** استـــلام المشـــروع وإقفالـــه:**

حيث عند إنهاء إنجاز العمليات السابقة ورفع التحفظات وتسليم شهادة المطابقة يتم استلام المشروع وإقفاله.

وعليه ومن خلال حديثنا عن كيفية تحضير وتنفيذ المشروعات التنموية يتأكد لنا أن الدولة تسعى إلى تجسيد ألامركزية في التخطيط والتنفيذ كما تتيح للمواطنين ومن خلال هذه المخططات التعبير عن حاجياتهم وطموحاتهم التي يقترحونها بأنفسهم ويقترحون حلول لها،هذا العمل الحيوي جدا ومن خلاله يستطيع رئيس المجلس الشعبي البلدي وأعضاءه تأكيد فكرة القيادة أو تنحيتها.

*** تمويـــل مخططات تنمية البلدية:**

إن المجلس الشعبي البلدي بقيادته يحتاج لتنفيذ مخططات التنمية المحلية إلى موارد بشرية ومالية (مادية) كي تتمكن من إنجاز المهام الموكلة لها، والموارد المالية قد تكون:

– موارد مالية محلية،والتي تتشكل من أموال الضرائب المباشرة وغير المباشرة والرسوم والخدمات ومحاصيل الأملاك والهبات والوصايا والقروض[15].

لكن الملاحظ ومع تنوع مصادر تمويل هذه المشروعات التنموية إلا أنها تبقى عاجزة عن تغطية احتياجات هذه المشاريع إذ غالبا ما يستخدم القسم الكبير منها في أمور التسيير المتعلقة بالأجور ومرتبات المستخدمين، ونفقات صيانة الطرق، ونفقات صيانة الأموال المنقولة و العقارية، وتسدد الحصص والأقساط المترتبة على البلديات ونفقات تسيير مصالح البلدية وفوائد الديون[16].

هذا ما يفسر الضعف الشديد في تمويل قسم التجهيز والاستثمار اللذان يتعلقان مباشرة بالتنمية المحلية،الأمر الذي يدفع بالمجلس الشعبي البلدي إلى طلب المعونات الخارجية من الدولة أو الولاية" الأمر الذي يزيد من مراقبة الدولة عن طريق صرف الأموال المقدمة إلى درجة التدخل في أمور ونشاطات المجلس الشعبي البلدي وإعاقة نشاطه أو حتى في تحقيق الأهداف التي أنشأت من أجلها[17] الأمر الذي يجعلنا ندرك أن نقص التمويل المادي ولجوء المجالس للدولة يجعلها دائما تحت رحمتها وسيطرتها، بحكم تمويلها لمشروعات التنمية المحلية.

- مصادر تمويل مركزية:

لقد تشكلت طرق عدة لتمويل الجماعات المحلية وهي من الطرق الحديثة وتتمثل في الصناديق الخاصة قصد التكفل بالمشروعات التنموية وتغطية العجز الذي تعاني منه وتتمثل هذه الصناديق في:

- الصندوق المشترك للجماعات المحلية:

ويعمل على تغطية العجز الناجم عن نقص حصيلة الضرائب المتعلقة ببلدية ويعد مؤسسة عمومية ذات طابع إداري يتمتع بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي ويخضع لوصاية وزارة الداخلية ويتولى هذا الصندوق تسيير صناديق الضمان والتضامن من البلديات والولايات[18].

إذ يهدف هذا الصندوق لتدعيم مختلف البرامج التنموية الخاصة بالتنمية المحلية في البلديات التي تعيش وضعا ماليا مزريا نتيجة الكوارث الطبيعية أو الحوادث غير المتوقعة وتتخذ الإجراءات المتبعة لمنح هذه الإعانات جملة من الاعتبارات كمساحة البلدية ومعدل النمو فيها، ومدى تماشي المخطط التنموي مع المخطط الوطني الأمر الذي يجعل من هذا الصندوق المشترك

للجماعات المحلية بموافقة الوالي، الذي يتولى تحديد مضمون المشروع وغلافه المالي الذي يفضله القائمين على هذا المشروع.

-الصندوق الوطني لتنظيم وتنمية الفلاحة:

ويتولى هذا الصندوق دعم مختلف المشاريع الموجهة للتنمية الريفية خاصة المناطق التي تعاني عجزا ماليا.

- الصندوق الاجتماعي للتنمية:

ويتولى هذا النوع من الصناديق دعم المشاريع الموجهة التي تشجع المبادرات الخاصة بإنشاء المؤسسات الصغرى وتوفير مناصب عمل من خلال نظام الشبكة الاجتماعية، ويتولى أيضا منح قروض للنشاطات الصغرى ووكالة التنمية الاجتماعية هي التي تتولى تنفيذ عمليات هذا الصندوق[19].

- الصندوق الخاص بتنمية الجنوب:

يتكفل الصندوق الخاص بتنمية الجنوب تدعيم مشاريع التنمية المحلية في المناطق الجنوبية خاصة مختلف البلديات التي تعاني عزلة ونقص في الموارد المحلية أو إنعدامها وأنشأ هذا الصندوق بموجب قانون المالية لسنة 1998 ويخضع للمرسوم رقم 242-2000 المؤرخ في 16 أوت 2000[20].

ومن خلال ما سبق ذكره نستطيع أن نقول أن مصادر التمويل المالي للمشاريع التنموية الخاصة بالبلديات في أغلبها تخضع للتمويل المركزي الذي يتسبب في الضغط أو يستخدم كوسيلة ضغط في يد السلطات المركزية للتحكم في المجالس الشعبية البلدية،وذلك من خلال تقييد اختصاصاتها وحريتها

خاتمـــة:

لقد مرت الاستراتيجيات التنموية بالجزائر على العديد من المراحل التاريخية تراعي في غالبها جملة المتغيرات العالمية والمحلية، فقد تكون النماذج الاقتصادية المطبقة على الاقتصاد الجزائري خارجية تارة لا تراعي الخصوصيات المحلية و بالتالي أفرزت عدة مشكلات ساهمت في عرقلة التنمية بالجزائر.

لذا وجب عليها الاعتماد على رؤية واضحة بين الأطر الأربعة الهادفة إلى ترقية وتطوير المجتمع المحلي، كالإطار القانوني و الاجتماعي والاقتصادي و حتى الثقافي لهذه المجتمعات بغية الوصول إلى تحقيق أهداف التنمية وذلك بالاعتماد على إستراتيجية إدارة التنمية المحلية من خلال الاعتماد المتبادل بين الإمكانيات المادية و البشرية من جهة و بين الدراسات النظرية و إمكانية تطبيقها واقعيا من جهة ثانية.

إذ أن التخطيط للتنمية المحلية يرتبط بفهم عدة عناصر كتقدير الاحتياجات والاستغلال الأمثل للقدرات و الإمكانيات المتعلقة بالبيئة الفيزيقية الاجتماعية و الاقتصادية لهذا المجتمع.

كما لا بد من عدم إغفال الشريك الأساسي في التطوير و التغيير و المتمثل في آراء الخبراء و المختصين في مجالي العلوم الاجتماعية و الاقتصادية من خلال الدراسات التي يقدمونها حول سبل التنمية في المجتمع المحلي.

و عليـــه فالسعـــي لتحقيـــق الإدارة العلمية و التنمية المحلية يرتبط بالعناصر الآتيـــة:

- الاعتماد على تحليل و توصيف و تصميم العمليات المتعلقة بالتنمية المحلية مع مراعاة الخصوصية الاقتصادية و الاجتماعية للمجتمع المحلي.
- الاستناد إلى نتائج الدراسات و التطبيقات في مجال السياسات التنموية أي تثمين نتائج البحث العلمي المتعلق بقضايا التنمية المحلية.
- الاعتماد على آراء الخبراء و المختصين في تقدير احتياجات المجتمع المحلي و كيفية تحقيق الاحتياجات.
- وضع شروط موضوعية و واضحة لاختيار رؤساء البلديات بصفتهم أكثر ارتباطا بتطبيق سياسات و برامج التنمية المحلية، بحيث لا بد أن تتوفر فيهم القدرة على العمل، تفهم طبيعة المنظمة المحلية، القدرة على إقناع المواطنين و التواجد في أماكن العمل، التكوين في مجال تسيير البلديات.

عموما تحقيق التنمية المحلية يتطلب ضرورة تكامل الجهود السياسية والاجتماعية و الاقتصادية و القانونية، و انصهارها في بوتقة واحدة تثمن المورد البشري من خلال المشاركة الواعية للمواطنين المحليين في تقدير احتياجاتهم و كيفية تحقيق هذه المطالب الاجتماعية و الاقتصادية بإشراك ثلاثة عناصر أساسية: المواطن، خبراء و مختصين، مسيرين محليين.

قائمـــة المراجـــع

[1]– أحمد مصطفى خاطر: تنمية المجتمعات المحلية، المكتب الجامعي الحديث، طبعة 2، الإسكندرية، 2005* ص361.

[2]– محي الدين صابر: قواعد التنمية الاجتماعية/ مجلة تنمية المجتمع* عدد2/ لبنان 1963 ص 51.

[3]– أحمد مصطفى خاطر: مرجع سابـــق *ص 52–53.

[4]– محمد بن قاسم حسن بهلول: سياسة التخطيط وإعادة تنظيم مسارها في الجزائر*ج2/د–ت *الجزائر 1999، ص 136–231–270.

[5]– عبد اللطيف بن أشنهو: تكون التخلف في الجزائر، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر،1979ص46–89–304.

[6]–المرجع نفسه، ص 304.

[7]– محمد بن قاسم حسن بهلول: سياســـة التخطيط وإعادة تنظيم مسارها في الجزائر، ج2، د م و ت، الجزائر، سنة 1999 ص136–231–270

[8]– محمد بلقاسم حسن بهلول: مرجع سابق، ص63–68.

[9]– المرجع نفسه، ص72 –86.

[10]– المادة 86 من القانون البلدي رقم 90 /08، مرجع سابق.

[11]**Ahmed bahri ,mahfoud berkani, miloud mokrane: le planification en Algérie, revue intégration , Alger n°1/1975,p35.**

[12] تقرير وزارة الداخلية والجماعات المحلية: ملتقى رؤساء المجالس الشعبية البلدية، 2003، ص78، الجمهورية الجزائرية.

[13] – المرجع نفسه، ص77.

(14) – المرسوم رقم 136/73 المؤرخ ف09 أوت 1973 المتعلق بشرط وتسيير وتنفيذ برامج البلدية للتنمية، الجمهورية الجزائرية.

(15) – الحسين ابن الشيخ:ألامركزية واللاتمركز، وسائل تطبيق الديمقراطية على مستوى الإدارة المحلية، تربص الإدارة المحلية،1985، ص28– 29، الجمهورية الجزائرية.

(16) – مسعود شيهوب: أسس الإدارة المحلية وتطبيقاتها على نظام البلدية والولاية في الجزائر، مرجع سابق، ص166.

(17) – المادة 106 من قانون البلدية 08/90، مرجع سابق.

(18) – مصطفى كراجي: "أثر التمويل المركزي في استقلالية الجماعات المحلية في القانون الجزائري"، المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والسياسية والاقتصادية، جامعة الجزائر، 1996، الجزء34 عدد02، ص352.

(19) – المرسوم رقم 266/8 المؤرخ 1986/11/04 المتضمن تنظيم صندوق الجماعات المحلية المشتركة وعمله، الجريدة الرسمية رقم 45 1988، الجمهورية الجزائرية.

(20)– المرسوم رقم 266/8 المؤرخ 1986/11/04 ص40، الجمهورية الجزائري.

العنف ضـــد المـــرأة

الأستاذة: نصيرة سالم
قسم علم الاجتماع
جامعـــة الجلفـــة

الملخـــص:

العنف ضد المرأة هو أي فعل عنيف يرتكز على فارق الجنس، يسبب أو كان بالإمكان أن يسبب أذى أو معاناة جسدية، جنسية أو نفسية للنساء متضمنا التهديد، الإكراه أو التجريد القسري لحرية المرأة سواء حصل ذلك في العلن أو في الحياة الخاصة؛ وهو يعتبر مشكلة عالمية تقتل، تعذب، تشوه النساء من النواحي الجسدية، النفسية، الجنسية ... فهي تلغي حقوق النساء بالمساواة، الأمان، الكرامة، الشعور بتقدير النفس وحقوقهم بالتمتع بالحريات.

*** تمهيـــد:**

كسرت الدول الأوربية الصمت حول ظاهرة العنف، بعكس المجتمعات العربية التي تعتبر أن ما يحصل داخل الأسرة يبقى سرا وكأنه شيء مقدس، فما يحصل داخل البلدان العربية عامة والجزائر بصفة خاصة هو محاولة لتغطية العنف، وإنكار وجوده إلا نادرا. فكم من النساء تتعرض للإهانة والضرب والشتم وحتى الاغتصاب من قبل أحد أفراد أسرتها أو أفراد المجتمع، ولم يتحدثن عنه وعشن حياتهن صابرات، ولكن ذليلات لا حول ولا قوة لهن، وكم من الفتيات تعرضن للضرب، والاهانة بحجة التربية، وتعرضن للاغتصاب والتحرش الجنسي واختبأن وراء الصمت والخجل خوفا من الفضيحة .

إن المصدر الأكبر للعنف الذي يتهدد المرأة بلا استثناء هم الرجال، سواء غرباء كانوا، أو أحد أفراد أسرتها مثل الزوج، الأخ....إلخ، وذلك بقيامهم بأفعال مقصودة أو غير مقصودة بحيث تسبب معاناة جسدية أو جنسية أو نفسية للمرأة. وسنوضح فيما يلي المقصود بالعنف ضد المرأة والمقاربات النظرية المفسرة للعنف، وكذا أنواع العنف ضد المرأة. كما سنوضح أهم الآثار الناتجة عن العنف ضد المرأة والأسباب التي تترك المرأة تبقى أسيرة علاقة عنيفة.

أولا- مفهـــوم العنف:

يكاد يكون من الصعب تقديم تعريف موحد للعنف، وذلك لاختلاف اهتماماته وتخصصات الباحثين في هذا الصدد، فعلماء السياسة يعرفونه بطريقة مختلفة عن علماء الاجتماع، وهؤلاء بدورهم يختلفون في تعريفهم له عن علماء النفس أو علماء القانون وغيرهم، كما أنه يعرف

أحيانا بطريقة تختلف باختلاف الأغراض التي يراد الوصول إليها، وباختلاف الظروف المحيطة أيضا، ويرجع ذلك الاختلاف إلى تعدد الأبعاد والمتغيرات التي تشملها ظاهرة العنف، ونستعرض فيما يلي أهم اتجاهات تعريف العنف التي أوردتها مختلف الدراسات.

1- المعنـــى اللغـــوي للمفهوم:

يذكر قاموس "وبستر" سبعة معان على الأقل لهذا المصطلح تتراوح مابين المعنى الدقيق نسبيا << القوة الجسدية التي تستخدم للإيـــذاء أو للإضرار >>، إلى المعنى المجازي الواضح << ...عمل طاقـــة أو قوة طبيعية أو جسديـــة >>، إلى المعنى الشديد الغموض <<الاستخدام غير العـــادل للقوة أو السلطة كما في الحرمان من الحقـــوق >>(محمود سعيد الخولي، 2006، ص 35)

وكلمة عنف في اللغة العربية من الجذر (ع.ن.ف)، وهو الخُرْقُ بالأمر وقلة الرفق به وهو ضد الرفق (ابن منظور، 1992، ص429)

ويعرفه أبو هلال العسكري بأنه << التشديد في التوصل إلى المطلوب>>، ويعرف أيضا بأنه العدائية والغضب الشديد عن طريق القوة الجسمية الموجهة نحو الأشخاص أو الممتلكات >> وبهذا تشير كلمة عنف في اللغة العربية إلى كل سلوك يتضمن معاني الشدة والقسوة واللوم والتقريع، وعلى هذا الأساس فإن العنف قد يكون سلوكا فعليا أو قوليا (محمود سعيد الخولي، 2006، ص36)

2- المعنى الاصطلاحـــي للعنف:

1.2- التعريف القانونـــي للعنف:

كما ذكرنا سابقا أن العنف يأخذ العديد من التعريفات التي تعكس موقف الباحثين من القضايا المجتمعية المختلفة.

فالقانونيون لهم وجهة نظرهم، وغالبا ما تغفل تعريفاتهم القانونية – من وجهة نظر علماء الاجتماع– الظروف البيئية والمجتمعية المحتمة لظهور وانتشار العنف. لقد عرف أحمد جلال عز الدين في كتابه الإرهاب والعنف السياسي العنف على أنه << الاستخدام الإنساني للقوة بغرض إرغام الغير وإخافته وإرعابه، أو الموجه إلى الأشياء بتدميرها أو إفسادها أو الإستلاء عليها، ذلك الاستخدام الذي يكون دائما غير مشروع ويشكل في الأصل جريمة>>، كما يعتبر العنف من وجهة النظر القانونية << بأنه ظاهرة مركبة لها جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية وهو ظاهرة عامة تعرفها كل المجتمعات البشرية بدرجات متفاوتة >> (حسين توفيق إبراهيم، 1990، ص40).

2.2- التعريف الإعلامـــي للعنف:

يعد الإعلام جانبا هاما من جوانب الظاهرة، ولكن بالنسبة للظاهرة كان له تعريف محدد إذ عرف على أنه << أي تهديد واضح باستخدام القوة الجسدية، أو الاستخدام الفعلي لهذه القوة بهدف إحداث أذى بدني لشخص أو مجموعة من الأشخاص، كما يشمل العنف بعض المشاهد التي تصور نتائج ذلك الأذى على شخص أو مجموعة من الأشخاص، والذي يحدث كنتيجة لوسائل عنف قد تكون غير معروضة على الشاشة>>ومن ثم فإنه يوجد ثلاثة أنواع أساسية من مشاهد العنف تشمل:

تهديدا، وسلوكا عنيفا، ونتائج ضارة لحادثة عنف وإن لم تظهر على الشاشة (محمود سعيد الخولي، 2006، ص 40).

3.2 – التعريـــف الاقتصـــادي للعنف:

أما التعريف الاقتصادي للعنف فإنه يختلف عن باقي التعريفات حيث يعرف بأنه

<< محصلة الفجوة غير المحتملة بين رضا الناس لحاجتهم المتوقعة وبين رضاهم لحاجتهم الفعلية أو بمعنى آخر هو الفرق بين الواقع والمتوقع من الناحية الاقتصادية >>(محمود سعيد الخولي، 2006، ص 40).

4.2- التعريف البيولوجي للعنف:

توصل باحثون في مدينة نيويورك عام 1998 أنه هناك جينات وراثية لها علاقة بالعنف والعدوانية والإجرام؛ فقد عرف العنف البيولوجي على أنه: وجود إصابات في الدماغ أو إصابات أثناء الولادة لدى المرضى الذين يعانون من نوبات العنف الانفجاري أو الهجومي أو التدميري.

5.2- التعريفات النفسية والاجتماعية للعنف:

العنف واحدة من تلك الكلمات التي يعرفها كل شخص منا؛ وبالرغم من ذلك فمن الصعب تعريفها، فكما عرفها علماء النفس وعلماء التربية والاجتماع والسلوك فهي تغطي مدى واسعا جدا من السلوك الإنساني؛ حيث يقول (محمد عاطف غيث) العنف <<هو تعبير صارم عن القوة التي تمارس لإجبار الفرد أو الجماعة على القيام بفعل من الأعمال المحددة يريدها الفرد أو جماعة أخرى ويعبر العنف عن القوة الظاهرة حيث تتخذ أسلوبا فيزيقيا مثال ذلك الضرب أو تأخذ

صـــورة الضغط الاجتماعـــي وتعتمد مشروعيته على اعتـــراف المجتمع به>>. (محمد عاطف غيث،1987، ص 416).

ويعرف العنف أيضا بأنه << نقيض الهدوء وهو كافة الأعمال التي تتمثل في استعمال القوة والقهر والإكراه بوجه عام، مثل أعمال الهدم والإتـــلاف والتدمير والتخريب وكذالك أعمـــال الفتك والتعذيـــب وما شابـــه >>، وهناك من العلماء من عرفه بأنه << نشاط تخريبي أو هدام من أي نوع، أو نشاط يقوم به الفرد لإلحاق الأذى بالشخص الآخر إما عن طريق الجرح الفيزيقي أو عن طريق سلوك الاستهزاء أو السخرية أو الضحك>>.

وذكر قاموس (Webster) أن << من معاني العنف ممارسة القوة الجسدية بغرض الإضرار بالغير، وتعني بمفهوم العنف هنا تعمد الإضـــرار بالمرأة أو الطفل، وقد يكون شكل هذا الضرر مـــادي من خـــلال ممارسة القوة الجسدية بالضرب أو معنوي من خلال تعمد الإهانة المعنوية للمرأة والطفل بالسب أو التجريح أو الإهانة >> (عبد الرحمان العسوي، 1984، ص 80).

ثانيـــا- المقاربـــات النظريـــة للعنف:

1- المقاربة السيكولوجية:

من الزاوية السيكولوجية يبدو العنف كتعبير عن انفعال أو انفجار للقوة لا تخضع للعقل فيظهر في شكل سلوك عدواني، واعتبر العديد من علماء النفس أن<< العنف نمط من أنماط السلوك ينتج عنه حالة إحباط، ويكون مصحوبا بعلامات التوتر؛ فالكثير من المقاربات النفسية

والتي تدخل ضمن هذا الإطار، وهو البحث عن مسببات العنف، حاولت كلها إيجاد ربط بين السلوكيات العدوانية والعوامل المحددة.

ومن أهم هذه النظريات ما يلي:

1.1 – نظريـــة الإحـــــباط:

لقد افترض– دولا رد– وزملائه من جامعة نيل أن العنف نتاج للإحباط وأن حدوث السلوك العنيف يفترض دائما وجود حالة من الإحباط بالمثل، فإن قيام الإحباط يؤدي دائما إلى صورة أو أخرى من صور العنف، فهم يرون أن السلوك العنيف بالصورة المعروفة يمكن إرجاعه إلى الإحباط على أنه يمكن للمرء عندما يتعرض للإحباط أن يتقبل الموقف.

وخلاصة القول أن هذه النظرية قد اعتبرت أن الإحباط يسبب العنف وأنه تزداد حدته كلما اشتد الشعور بالإحباط.

والإحباط أساس قد يتولد الفرد من خلال فشل في تحقيق إشباع حاجاته كما يرى – فليب و فرويد و هريمان–.

ومن الانتقادات التي وجهت إلى هذه النظرية أنه ليس من الضرورة أن تكون صور العدوان هي نتاج الإحباط وأنه مما لا شك فيه أن العدوان غالبا ما يكون كسلوك أدائي يوجه نحو تحقيق هدف معين,ويمكن تفسير الدافع إلى العدوان في هذه الحالة من واقع الحصول على إثارة معين أو إشباع الميول السارية. (عبد الرحمان العسوي، 1984، ص 85).

2.1– نظرية التعلم الاجتمـــاعي:

يرى أصحاب هذه النظرية أن حدوث السلوك العنيف يرجع أساسا إلى فكرة التقليد أي أن الصغير يحاول تقليد الكبير في سلوكه

العنيف ويمكن أن يكون التقليد من الوسط الذي يعيش فيه الفرد أو من خلال نماذج تبث له عن طريق الأجهزة الإعلامية.

وعادة العنف يتكون لدى الطفل منذ وقت مبكر إذن أن التنشئة الاجتماعية، تلعب دور هاما في تثبيت هذه السلوك أو الابتعاد عنه. مثلا: إذا نشأ الفرد في بيئة أسرية سوية فإن شخصيته تميل إلى السلوك القويم، ولا تتعارض مصالحه مع المصالح الاجتماعية أو معاير التقويم الاجتماعي، إذا كانت التنشئة غير سوية من الناحية الأسريـــة والاجتماعية فأن شخصيته تؤول إلى السلك السيئ وتنحرف عن القيم الأخلاقية الفاضلة للمجتمع وهو بذلك ينتقم من هذا المجتمع الذي تسبب في عرقلة طموحه الإنساني، هذا ما يؤثر عليه ويجعله شخصا أنانيا وبتالي يجد نفسه في عالم تعود فيه الكلمة للأقوى ويرى الاهتمام بمشاعر الآخرين نوعا من أنواع الضعف، وهذا ما يدفعه إلى اختيار العنف كوسيلة لإثبات الذات، ويبدأ المنحرف بتجربة هذا المنهج. فإذا نجح فيه، مال إلى الإتيان بالسلوك العنيف على طول الخط (عبد الرحمان العيسوي، 1984، ص 175).

ويرى باندورا،1977.**Bandura** أن معظم السلوك العنيف متعلم من خلال الملاحظة والتقليد حيث يتعلم الأطفال السلوكات العنيفة لملاحظة النماذج والأمثلة من السلوك العنيف ويتم اكتساب السلوك العنيف عن طريق الخبرات السابقة ويتأكد هذا السلوك من خلال التعزيز والمكافآت، والعقاب قد يؤدي إلى زيادة العنف (عصام عبد اللطيف العقاد، 2001، ص ص 114- 115)

3.1- النظريـــة النفســـية:

تركز هذه النظرية على التحليل النفسي حيث يؤكد أصحاب هذه النظرية دور الدوافع اللاشعورية والصراعات المكبوتة في اتجاه الفرد للقيام بالعنف و لذلك فهو يتجه إلى السلوك العنيف من أجل إشباع الحاجة النفسية بداخله فمثلا: الشعور بالنقص قد يعبر الفرد عنه بالقيام بأعمال عنيفة وبذلك فهذا الفرد يمتلك دوافع إلى إتباع السلوك العنيف لإشباع حاجة النقص فيه.

وعلى هذا فإن المراهق في المرحلة يعيش أنواع هامة من الصراعات و الاضطرابات النفسية المتداخلة فهو يعبر عن ذلك الضيق والقلق الذي قد أعاق تقدمه فيشعر بالحاجة إلى توكيد هويته كي يثبتها فهو يلجأ إلى العنف كما يقول عبد الرحمان العيسوي: أن السلوك العنيف يرتكبه الأشخاص الذين يشعرون بعدم الأمان إزاء هويتهم ومكانتهم الاجتماعية والشخص العنيف في حقيقته شخص غير آمن وهو يمتاز بالتمركز حول ذاته وهو ميال لاختيار العنف كوسيلة لحل مشاكله واشتراك الفرد في العنف الجماعي يمكن أن يؤدي إلى اتساع صورته عن نفسه أو الدفاع عن مكانته أو الفرد من الضغوط الداخلية أو التعبير عنه، من خلال الشغب.

وقد يصبح العنف وسيلة للتأثر بالنسبة للبعض وتفريغا انفعاليا أو شكلا من أشكال التمرد بالنسبة للبعض الآخر، وقد يكون نتيجة لعوامل اجتماعية ونفسية واقتصادية وعقائدية وهذه العوامل عادة وما تكون بارزة في أذهان المشتركين في العنف الجماعي وسيسعون للتعبير عنها كما يرى "مارمور **Marmor** ": بأن هناك ترابط بين المتغيرات الاجتماعية و الاقتصادية في حدوث العنف الجماعي و يمكن القول بأن

العنف الجماعي يمثل رد فعل للطموحات و مطالب لم يتم إشباعها. (عصام عبد اللطيف العقاد،2001، ص118).

2- المقاربة السوسيولوجيـــة الاجتماعية:

إن النظريات السوسيولوجي تربط العنف بالتنظيمات الاجتماعية والسياسية المستوحاة من نظرية العدوان والإحباط، حيث نجد كل من - دايفيس وجور- **J.Davies, Tr .Gurr** يربطان ظاهرة العنف بالحرمان النسبي، فحجم العنف بالنسبة لهما مشروط بالفارق الموجود بين مستوى الرضا لدى الأفراد.

بمعنى أن العنف ما هو إلا تحصيل حاصل للفجوة الموجودة بين ما يرغب فيه الناس وما يحصلون عليه فعليا.

وجهات نظر أخرى ترى أن العنف ما هو إلا نتيجة انفجار للنظام الاجتماعي من خلال معارضات داخلية وأخرى خارجية، فبالنسبة لدوركهايم نجده يضع علاقة بين العنف ومفهوم الفوضوية واللانظام، حيث انطلق هذا الأخير من مبدأ أن الأزمات الاقتصادية والسياسية وحتى المعنوية تحدث لا توازن بين المعايير الخاصة بالتسيير والقيم الاجتماعية، ومن هنا يصبح ترابط الجماعة هش مما يسهل ظهور سلوكيات عنيفة، والنتيجة أن العنف عند دوركايم يكون وليد الظروف الاجتماعية.

ويرى الكثير من الباحثين في علم الاجتماع أن للعنف علاقة ترابطية مع التغيير والعصرنة، فالعنف عند هؤلاء ما هو إلا الإنتاج المشتق والمحترم للعصرنة مصحوبة بالشعور بالحصر الذي يمتلك الإنسان أمام عالمه الذي افتقده كالتوازن العائلي و العيش في كنف

العشيرة والجماعات التقليدية وغيرها... فالعنف بالنسبة إليهم يعتبر الهدية المسمومة لتمدن الوحشي.(**Touati.A.2004, p42**).

3- المقاربـــة الاقتصاديـــة:

يؤكد علماء الاقتصاد على أن ما يكمن وراء بروز السلوكيات العنيفة لدى الأفراد هو العامل الاقتصادي، حيث يعتبرونه جوهري ومركزي في حدوث ذلك، وقد تصل أحيانا إلى حد القيام بردود أفعال وثورات نتيجة للشعور بالاحتياج والفقر وعدم توف أدنى حد من الضروريات المادية التي تكفل العيش المقبول والمقنع لدى الأفراد.

إن انتشار ظاهرة البطالة داخل المجتمع مع شعور الفرد باللامساواة وانعدام العدالة في تكافؤ وتساوي الفرص بين أعضاء الشعب الواحد للمجتمع الواحد يولد عندهم الشعور بالإحباط والظلم وما أصطلح عليه في الوقت الحالي بمفهوم الحقرة، كل هذا يدفعهم بطريقة أو بأخرى إلى ممارسة العنف.

فالعديد من الباحثين يرون أن ظواهر العنف التي تبدو على مسرح حياتنا اليومية يعود إلى سوء الأحوال الاقتصادية التي تؤدي إلى إصابة بعض الأفراد باليأس، مما يولد لديهم الرغبة في الانتقام من المجتمع كرد فعل للفقر، والفقر في حد ذاته ليس هو الدافع الوحيد للاتجاه نحو العنف ولكن ما يصاحب هدا الفقر من صراعات وضغوط نفسية تؤثر على الأفراد، وكما كتب – روسو **Rousseau** أن الفقر أهم الجرائم الكبيرة.(عبد الرحمان العيسوي، كتاب ثاني، 1997، ص157).

4- المقاربـــة البيولوجيـــة:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن هناك عوامل بيولوجية تكمن وراء السلوك العنيف لدى الأفراد كالعوامل الوراثية المتمثلة في ناقلات الوراثة أو الجينات، ويرجعون ذلك إلى اختلافات في جهازهم العصبي معتمدين في ذلك على نظرية الطبيب الإيطالي" لمبروزو"

ففي الربع الأخير من القرن 19 " سيزار لمبروزو" قبل أن يصبح طبيب شرعي سنة 1876 نجح في فرض نظريته الشهيرة << المجرم بالولادة >>بعد أن فحص مجموعة كبيرة من المجرمين من مختلف الأعمار من خلال الصفات المرفولوجي لشكل الجمجمة .

وفي سنة 1966 نشر <<كونراد لورنس >> كتابا تحدث فيه عن العدوانية، حيث اعتبر العدوانية كغريزة خاصة بالعلم الحيواني الذي يكون الإنسان جزء منه، فالعدوانية إذن عنده سلوك فطري، أي عبارة عن غريزة طبيعية لا تخضع للمراقبة وهدفها الحفاظ على النوع والتواجد.

وقد بني <<لورينس>> افتراضه بأن للعنف أصول بيولوجية على أساس ملاحظة أنواع عديدة من الحيوانات، حيث أوضح أن غريزة العدوان هذه وجدت في الواقع من أجل الحفاظ على وظيفة البقاء، فهو يضمن البقاء للأصلح، كما أنه يساهم في توزيع الأفراد على المساحات المتاحة في البيئة. (**Touati**. A.2004, P56).

ثالثـــا- العنف ضد المـــرأة:

هو أي عمل عنيف عدائي أو مهين تدفع إليه عصبية الجنس، يرتكب بأية وسيلة كانت بحق امرأة ويسبب لها أذى نفسي أو بدني أو

جنسي أو معاناة بما في ذلك التهديد بأفعال من هذا القبيل أو القسر أو الإكراه أو الحرمان التعسفي من الحرية سواء حدث ذلك في الحياة العامة أو الخاصة.

ومن التعريف نفهم أن العنف هو أي فعل مقصود أو غير مقصود يسبب معاناة نفسية أو جسدية أو جنسية للمرأة فالعدوان عنف، وكل فعل يمارس من قبل الرجال في العائلة أو المجتمع ابتداء من الشتم والتحرش الجنسي واستخدام القسوة ضدها، والانتقاص من قيمتها كإنسان وإجبارها على فعل ما لا تريد، وحرمانها من حقوقها وانتهاء بالاغتصاب أو القتل هو عنف ضد المرأة، ويشمل العنف ضد المرأة عدة أشكال منها.

1- أنـــواع وأشكـــال العنف ضد المـــرأة:

1.1- العنف الجســـدي:

والذي يتمثل باستخدام القوة الجسدية بشكل متعمد تجاه الآخرين بهدف إيذائهم وإلحاق أضرار جسيمة لهم وذلك كوسيلة عقاب غير شرعية مما يؤدي إلى التسبب بوقوع الألم، الأوجاع، والمعاناة النفسية جراء تلك الأضرار مما يعرضهم للخطر ومن الأمثلة على أشكال العنف الجسدي: الحرق أو الكي بالنار، رفاسات بالرجل، خنق، ضرب بالأيدي أو بالأدوات، يكون عكس العنف اللفظي.... الخ. (حامد عبد السلام زهران، 1995، ص 384).

وقد نجده بمفهوم آخر وهو العنف الحركي، حيث يشارك فيه الجسد ويكون في شكل مظاهر حركية كالضرب والاعتداء والهجوم.

2.1- العنف المعنوي أو النفســـي:

ويعتبر من أخطر أنواع العنف، فهو غير محسوس ولا أثر واضح للعيان، وهو شائع في جميع المجتمعات غنية أو فقيرة متقدمة أو نامية، وله آثار مدمرة على الصحة النفسية للمرأة، وتكمن خطورته بأن القانون يجد صعوبة في إثباته أولا يعترفا به إطلاقا. حيث تعاني المرأة داخل المجتمع زوجة كانت أو أم ابنة، أخت ... إلخ من العنف النفسي الذي يرتكبه بحقها الرجال، وفيه الإهانة والإهمال والاحتقار والشتم والكلام البذيء والتحقير والحرمان من الحرية والاعتداء على حقها في اختيار الشريك، والتدخل بشؤونها الخاصة مثل الدخول والخروج، نوعية اللباس الذي ترتاديه، ومراقبة تصرفاتها وإجبارها على القيام بوظائف خارج نطاقها، مثلا إجبارها على إنجاب عدد كبير من الأبناء...الخ كلها أفعال تؤدي أن تكره المرأة حياتها، ونفسها، وأنوثتها مما يؤثر على معنوياتها، وثقتها بنفسها، وتحت العنف المعنوي يندرج ما يسمي بالعنف الرمزي الذي لا يتسم بالقيام بأي فعل تنفيذي بل يقتصر على الاستهتار، والازدراء واستخدام وسائل يراد بها طمس شخصية الضحية أو إضعاف قدرتها الجسدية أو العقلية مما يحدث تأثيرا سلبيا على استمرارها في الحياة بشكل طبيعي.

إن العنف المعنوي منتشر وبشكل كبير بسبب القيم الثقافية والتقليدية التي تكرس تنشئة المرأة اجتماعيا، وجعلها خاضعة منذ طفولتها المبكرة، حيث تسيطر الأعراف الثقافية لسلوك الذكور المقبول، فللرجل حق السيطرة على المرأة، والرجال قوامون على النساء، وارتباط فكرة العنف بالرجولة والذكورة، فتعامل الأسرة على أساس أنها

ضعيفة وعليها الخضوع للرجال. (رجاء مكي و سامي عجم، 2008, ص ص 91-92).

3.1 - العنف الجنســـي:

يعتبر العنف الجنسي من أخطر أنواع العنف الذي تتعرض له المرأة داخل الأسرة والمجتمع، إلا أنه يبقى في طي الكتمان، حيث التحرش الجنسي والخطف والاغتصاب وهتك العرض والدعارة والمجامعة بأشكال شاذة تتعرض لها المرأة (زوجة، ابنة أخت أم) من رجال العائلة أو المجتمع.

إنه عنف الاجتماع والجنس عبر علاقة تحكم الجنسين وتمركز على العنف الاجتماعي الجنسي الظاهر بالثقافة الذكورية المسيطرة على مجتمعاتنا.

نظرا لارتباط العنف المعنوي الذي يمارس ضد المرأة والذي يؤدي إلى إخضاعها وقهرها بتطبيق القوانين التمييزية ضدها والتي تؤدي بالنتيجة إلى العنف الجنسي.

2- أسبـــاب تعرض المـــرأة للعنف:

- القيم الاجتماعية السائدة؛ بمعنى سيادة القيم الذكورية، ونظرة المجتمع إلى القوة والعدوانية).
- التنشئة الاجتماعية التي تحلق لدى المرأة وعيا زائفا بذاتها باعتبارها الجنس الأدنى والأضعف، وعليه فوجودها لا يتحقق إلا بالرجل ومن خلاله.

– المؤسسات المجتمعية: كغياب الخدمات الاجتماعية الداعمة لضحايا العنف كدور الحماية للنساء ... بالإضافة إلى بعض عناصر الأمن عن التخصصية في مجال التعاطي مع حالات من النساء.

– تأثير المحيط الاجتماعي: كغياب الروادع الاجتماعية للعنف.

– العوامل النفسية والاضطرابات العقلية: كالنقص في مهارات التواصل، أو تبني الأوليات الدفاعية كالتباهي بالمعتدي، وقد تصل أحيانا إلى الإصابة بالاضطرابات العقلية: كالصرع والفصام وعقدة النقص، بالإضافة إلى الغيرة المرضية، الإدمان ... إلخ (حامد عبد السلام زهران، 1995، ص 385).

3– الآثـــار النفسية للعنف ضد المـــرأة:

قد يكون من الصعب حصر الآثار التي يتركها العنف على المرأة، وذلك لأن المظاهر التي يأخذها هذا الجانب كثيرة ومتعددة، ومع ذلك نستطيع أن نضع أهم الآثار وأكثرها وضوحا وبروزا على الصحة النفسية للمرأة والعقلية، وهذا بالطبع لا يعني أن المرأة تتعرض إلى لها جميعها، بل قد تتعرض لواحد من هذه الآثار، وذلك حسب درجة العنف الممارس ضدها:

- فقدان المرأة لثقتها بنفسها، وكذا احترامها لذاتها.
- شعور المرأة بالذنب إزاء الأعمال التي تقوم بها.
- إحساسها بالاتكالية واعتمادها على الرجل.
- شعورها بالإحباط والكآبة.
- إحساسها بالعجز.
- إحساسها بالإذلال والمهانة.

- اضطراب في الصحة النفسية.
- فقدانها للإحساس بالمبادرة والمبادلة واتخاذ القرار.
- لاشك أن هذه الآثار النفسية، أو بعضها تفضي إلى أمراض نفسية- جسدية متنوعة كفقدان الشهية، اضطراب المعدة أو البنكريـــاس آلام وأوجـــاع وصداع فـــي الـــرأس...إلخ. (رجاء مكي وسامي عجم، 2008، ص46).

3- الآثـــار الاجتماعيـــة للعنف:

تعتبر هذه الآثار من أشد ما يتركه العنف ضد المرأة، ولا نبالغ إذا ما قلنا أنه الأخطر والأبرز، ويمكن إبراز هذه الآثار بما يلـــي:

- الطلاق
- التفكك الأسري.
- سوء واضطراب العلاقات بين أهل الزوج وأهل الزوجة.
- تسرب الأبناء من المدارس.
- عدم التمكن من تربية الأبناء وتنشئتهم تنشئة نفسية واجتماعية متوازنة.
- جنوح أبناء الأسرة التي يسودها العنف.
- العدوانية والعنف لدى أبناء الأسرة التي يسودها العنف.
- يحول العنف الاجتماعي ضد المرأة عن تنظيم الأسرة بطريقة سليمة، أي أنه يقف عائقا أمام هذا التنظيم من جهة، ويبعثر مداخيلهم الاقتصادية ويشتتها في أمور غير ضرورية من جهة أحرى. (رجاء مكي وسامي عجم، 2008 ص47).

4- الأسبـــاب التي تدفع بالمرأة أن تبقى أسيرة علاقة عنيفة:

إن الأسباب التي تدفع النساء إلى الاستمرار في علاقة عنيفة عديدة ومتنوعة، وفقا للإطار الثقافي والاجتماعي، حيث يمارس العنف عليهن وهي:

- الخجل من وضعهن يدفعهن إلى نكران العنف.
- خوف الضحية من الإقدام على فعل قد يضاعف من خطورة الوضع.
- الخوف من نبذ أسرتها الأصلية لها في حال اتخاذها قرار مماثل.
- الخوف من النبذ المجتمعي.
- العزلة الاجتماعيـــة التي تعيش ضمنهـــا، كنقص الدعم أو غيابه.
- التبعية الاقتصادية لأحد أفراد أسرتها.
- التبعية النفسية واعتقاد المرأة بأنه لا يمكنها إعادة بناء حياتها.

(رجاء مكي وسامي عجم، 2008 ، ص48).

*** خاتمـــة:**

تزداد ظاهرة ممارسة العنف ضد المرأة في مختلف مناطق العالم دون أي فارق بين الأنظمة السياسية أو المنطلقات الإيديولوجية أو المعطيات الحضارية، حتى لقد بدا العنف وكأنه لغة انتقالية إلى القرن الواحد والعشرين.

وفي الأخير يمكن القول أن نساء أيامنا هذه أو النساء منذ بعض الزمن، هن الاستطاعة الخفية التي تقود العالم، سواء كن ماكثات في البيت أو عاملات، زوجات أو عشيقات أو أمهات أسر. فليس نظـــام الأبوة، ولو كان هـــادرا، غير مـــزاج لطيف بالقيـــاس إلى القوة الغامضة التـــي يتصف بها النوع الأنثوي ... ونذكـــر مـــا قالتـــه << سيمون دو بوفوار >> " **لو لم تكن المرأة موجودة لاخترعها الرجال**".

قائمـــة المراجـــع:

1- ابن منظور: " **لســـان العـــرب** "، ط2، الجزء التاسع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1992.

2- حامد عبد السلام زهران: "**علم النفس النمو الطفولة والمراهقة**"، ط5، عالم الكتب، القاهرة، 1995.

3- حسين توفيق إبراهيم: " **ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية**"، الانجلو المصرية، القاهرة، 1990.

4- رجاء مكي و سامي عجم: "**إشكاليـــة العنف المشروع والعنف المـــدان**"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2008.

5- عبد الرحمان العيسوي: "**سيكولوجيـــة المجـــرم**"، دار الراتب الجامعية، بيروت، 1984.

6- عصام عبد اللطيف العقاد: "**سيكولوجيـــة، العدوانية وترويضها**"، دار غريب للنشر والتوزيع القاهرة.2001.

7- محمد عاطف غيث: "**قامـــوس علم الاجتماع** "، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة،1987.

8- محمود سعيد الخولي: "**العنـــف**", دار ومكتبة الإسراء، القاهرة، 2006.

9-Touati.A. "Violence, ***Réflexion et Intervention*** ,Paris, Puf, 2004.

10 http: //www.rezgar.com/debat/show.art

الأمن النفسي لدى أعضاء هيئة التدريس في جامعة البلقاء التطبيقية وعلاقتها بمركز السيطرة وانعكاساتها التربوية

د. صالح سلامة بركات جامعة البلقاء التطبيقية المملكة الأردنية

د. عمار محمد فريحات جامعة البلقاء التطبيقية المملكة الأردنية

د.عبد الله أحمد العواملة جامعة البلقاء التطبيقية المملكة الأردنية

الملخص:

هدفت الدراسة إلى معرفة مستوى الأمن النفسي لدى أعضاء هيئة التدريس بجامعة البلقاء التطبيقية وعلاقته بمركز الضبط لديهم وتتكون عينة الدراسة من 216 من أعضاء هيئة التدريس تم اختيارهم بالطريقة القصدية وقد طبق الباحثون مقياسين أحدهما لقياس الأمن النفسي والآخر لقياس مركز السيطرة وأظهرت الدراسة أن أعضاء الهيئة التدريسية لديهم شعور واضح بعدم الأمن النفسي. ويمكن أن تعزى هذه النتيجة إلى الأحداث الضاغطة في الحياة اليومية وعدم وضوح التعليمات والأنظمة المطبقة، وأظهرت الدراسة عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في الشعور بالأمن النفسي بين الذكور تبين أن الشعور بالأمن النفسي يتناسب طردياً مع مدة الخدمة وتوضح هذه النتيجة أن هناك علاقة ارتباطيه موجبة بين الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة لدى أعضاء الهيئة التدريسية، فكلما زادت درجة المدرس على مقياس الشعور بالأمن النفسي ارتقت درجته على مقياس مركز السيطرة والعكس صحيح وأوصت الدراسة بضرورة توجه الادارت الجامعية نحو سياسات وتعليمات أكثر مرونة وعدالة ووضوح في التعامل مع أعضاء هيئة التدريس من اجل دعم الأمن النفسي وتعزز المسؤولية الذاتية لديهم.

المقدمـــة:

تتميز الحياة الإنسانية المعاصرة، بالسرعة والتطور وحتمية التغيير والتي زادت من حيرة الإنسان وتخبطه وانعدام مدى الرؤية أمامه، وكثرة المتغيرات والقوى المتلاعبة في حاضره ومستقبله (العظماوي، 1984، ص7). فالبيئة تحوي ما هو غير امن فقد تهدد امن الفرد، ولها القدرة على أحداث الألم. وزيادة التوتر والاضطراب لديه (هول ولندزي، 1971، ص67)، مما أصاب الفرد بالإحباط واخل في مستوى طموحه وتحقيق أهدافه، وأوجد حاله من التأزم والضياع وأصاب العلاقات الإنسانية بالشك والريبة.

ولقد تنبهت المجتمعات إلى ضرورة بناء الشخصية المتزنة بجوانبها كافة (الجسمية، العقلية، النفسية، الاجتماعية) ويأتي ذلك من خلال إشباع الحاجات النفسية والتربوية والاجتماعية، وتتضح أهمية إشباع الحاجات في حياة الأفراد، حين يواجهون صعوبات أو ظروفا تحول دون إشباع هذه الحاجات، إذ تبدو على الفرد علامات الاضطراب والقلق والشعور بعدم الأمن و الطمأنينة (بركات، 1986، ص175). فتمتع الفرد بالصحة النفسية يتحقق تبعا للدرجة التي يشبع بها حاجاته شرط ان إشباع حاجة معينة لا يتقاطع مع إشباع غيرها من الحاجات ومن ذلك شعور الفرد بالأمن النفسي والذي يعد مطلبا أساسيا للتوافق والاستقرار (عبد الغفار، 1981، ص83).

ومما يدل على أهمية الحاجة للأمن وضرورة إشباعها ما ورد في القران الكريم من آيات كريمة تؤكد أهمية الأمن في حياة الفرد قال تعالى [الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون] (الأنعام،

آية 82) وقوله تعالى [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب] (الرعد، آية 28).

وللشعور بالأمن النفسي دور مهم في تطور شخصية الفرد ونموه المعرفي(Fatil & Reddy,1985,P12). لأنه يؤثر في جوانب عده هامه مثل دافع الانجاز، والإبداع، والتجديد (Leroy,1980,P1528)(Bishop,1970,P2520). ووفقاً لماسلو (Maslow) فان الأمن النفسي والصحة النفسية شيئان مترادفان .(Panwar,1985,P17)

وقد اهتمت التربية ببناء الشخصية الإنسانية بكل جوانبها وعناصرها المادية والبشرية، والمدرس هو احد هذه العناصر البشرية المهمة التي تسهم مع الأسرة والمجتمع في العملية التربوية، فهو يعد قائدا وموجها لها وأنموذجا يقتدي به، ومصدرا أساسيا للمعرفة (البزاز، 1989، ص180).

فالمدرس ما زال أنموذجا يحظى بهيبة طلبته واحترامهم، لذلك كان لابد من تشخيص العوامل المؤثرة في اتزانه وشعوره بالأمن النفسي، وفي قدرته على إدراك نتائج الأحداث التي تواجهه، ويشير (weigand) إلى ان عدم الاتزان الانفعالي للمعلم أمام طلبته يؤثر سلبيا في قدراتهم التدريسية ويضعف من عاطفة الحب وقبول الذات لديهم (العتابي، 2000، ص5). لذلك جاءت هذه الدراسة من اجل بيان أهمية تمتع أعضاء هيئة التدريس بالجامعات بالأمن النفسي وانعكاسات ذلك على العملية التعليمية.

مشكلة الدراســـة:

يلعب عضو هيئة التدريس دوراً هاما في تشكيل شخصية وسلوك الطلبة في المرحلة الجامعية نظرا لأهمية هذه المرحلة في حياة الإنسان، لذلك فان نجاحه في عمله يرتبط بكيانه النفسي ومستوى إشباعه لحاجاته، ومن هذه الحاجات مستوى شعوره بالأمن النفسي. ويعد الشعور بعدم الأمن احد الضغوط النفسية التي تواجه أعضاء هيئة التدريس، واحد مسببات إحساسه بالخوف من المستقبل الذي يؤثر في دافعيته وينعكس سلباً على طلبته ومجتمعه فشعور المدرس بعدم الأمن والطمأنينة يدفعه إلى ممارسة أساليب غير تربوية في علاقته مع الطلبة فيلجا إلى أساليب تسلطية كي يدعم أمنه النفسي مستغلا سلطته في السخرية من الطلبة والتهديد بالدرجة أو الطرد من الصف، وتؤكد الدراسات التربوية على ضرورة أن يبقى المدرس بعيداً عن التعرض للخوف والقلق. لذلك فان الطمأنينة والأمن والتكيف الجيد لعضو هيئة التدريس يسهم في تعزيز الأجواء الأكاديمية والإبداعية لذاته وللطلبة في حين ان المدرس المنفعل والمكتئب والعدواني والمتعب يخلق توترات معوقة للإبداع والأجواء الدراسية. لذلك تهتم هذه الدراســـة ببحث العلاقة بيت جانبيـــن من جوانب الشخصية الأول يتعلق بالجانب الانفعالـــي ممثلا بالأمن النفسي، والثانـــي يتعلق بالجانب المعرفي ممثلا بمركز السيطرة (**Locus of control**)، والذي يعكس طبيعة إدراك الارتباط أو عدم الارتباط بين سلوك الفرد والحوادث اللاحقة.

أهميـــة الدراســـة:

تنبع أهمية الدراسة من الاعتبارات التالية:

أولا: قلة الدارسات التي تربط بين الأمن النفسي ومركز السيطرة لدى أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأردنية وهي محاولة علمية متواضعة للكشف عن العلاقة بين الأمن النفسي ومركز السيطرة.

ثانيـــا: إن شخصية المدرس تنطوي على جوانب معرفية وجسمية وانفعالية واجتماعية، والاهتمام بأي من هذه الجوانب يعد مدخلا لفهم الشخصية.

ثالثـــا: تكشف لنا الدراسة عن مسالة نظرية بحته، وهي علاقة الجانب الانفعالي للشخصية متمثلا في الأمن النفسي بالجانب المعرفي في الشخصية ممثلا بمركز السيطرة.

رابعـــا: تجرى الدراسة على أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات الذين يتعاملون مع أهم المرحل العمرية في حياة الإنسان هما نهاية مرحلة المراهقة وبداية مرحلة الشباب، اللتين تعدان من المراحل الحرجة في عملية النمو وتوافق الشخصية مستقبلا ويكون فيهما المراهق والشاب أحوج ما يكون إلى أناس يتفهمون طبيعة المرحلة التي يمر بها وإعداده للحياة للقيام بدوره على خير وجه، وهذا لن يتحقق ما لم يكن أعضاء الهيئة التدريسية يشعرون بالأمن والطمأنينة ويدركون نتائج الأحداث التي يتعرضون لها.

أهـــــداف الدراسة:

تهدف الدراسة الحالية إلى تحقيق الآتـــي:

1- قياس الشعور بالأمن النفسي لدى أعضاء الهيئة التدريسية بحسب متغير الجنس ومدة الخدمة.

المرحلة. الفروق في الشعور بالأمن النفسي لدى أعضاء الهيئة التدريسية تبعا لمتغيرات (الجنس. المرحلة. مدة الخدمة)

حـــدود الدراســـة:

تقتصر الدراسة الحالية على أعضاء الهيئة التدريسية في جامعات البلقاء التطبيقية في الكليات التالية (عجلون الجامعية، كلية الحصن الجامعية، كلية اربد الجامعية) لعام الدراسي 2009– 2010م.

التعريفـــات الإجرائيـــة للدراســـة:

أولا – الأمـــن النفســـي psychological security

مستوى الشعور بالأمن النفسي لدى عينة الدراسة كما تعكسه الدرجة على مقياس Maslow المكيف في هذا الدراسة.

أعضاء هيئة التدريس: هم أعضاء هيئة التدريس في كلية الحصن الجامعية وكلية اربد الجامعية وكلية عجلون الجامعية التابعة لجامعة البلقاء التطبيقية لعام الدراسي 2008– 2009م.

الإطـــار النظـــري والدراسات السابقة:

تتفق مختلف النظريات على أهميته إشباع الحاجات التربوية لأجل التوافق وإظهار الشخصية بمظهر الانسجام والتناغم في أداء وظائفها، وتعد الحاجة إلى الأمن **Need of security** شرطا لازما لتكامل الشخصية واتزانها وتناسقها في أداء وظائفها باتفاق منظري الشخصية إلا أنهم تباينوا في تفسيرهم للشعور بالأمن النفسي تبعا لتباين فلسفة كل منظر في تفسيره للسلوك الإنساني، وسيحاول الباحث تقصي بعض من تلك التفسيرات وكآلاتـــي:

أولا: اتجاه التحليل النفسي Psycho- analysis approach

ويتمثل بوجهة نظر سيجموند فرويد (sigmund freud) وألفريد ادلر (Alfred Adler) وكارن هورني (Karn Horny) وهاري ستاك سوليفان (Hary stak salivan) وارك فروم (Arik froom) (دافيدوف 1988، ص 582). وفقا لفرويد (Freud) تتكون الشخصية من ثلاث مكونات هي ألهو (Id) والانا (Ego) والانا العليا (Super Ego) وتتنافس هذه العناصر من اجل الطاقة النفسانية المتاحة والشعور بالأمن والطمأنينة يتحقق من خلال قدره الأنا على التوفيق بين مكونات الشخصية المختلفة أو في الوصول إلى حل للصراع الذي ينشأ بين هذه المكونات بعضها مع بعضها الأخر وفي الصراع الذي ينشا بينها وبين الواقع (هول ولندزي1971، ص 54-57) (فهمي، 1967، ص 125). ولكي يتحقق الشعور بالاطمئنان فان على الأنا أن يوفق بين مطالب ألهو والانا الأعلى وان نجح في هذه المهمة اتجهت الشخصية اتجاها سويا، أما إذا فشل الأنا في التوفيق بين تلك المطالب، اختل التوازن وعم الاضطراب في ثنايا الشخصية، وذلك من مهددات الشعور بالأمن والسلامة النفسية (الالوسي، 1990، ص381) (فهمي،1967، ص131). وبذلك فان الشخصية السليمة هي نتاج الانسجام بين ألهو والانا والانا الأعلى والتي تتمكن من التحرر من اللوم الاجتماعي والشعور بالإثم، وهي قادرة على إشباع حاجاتها وعلى القيام بالعمل المثمر (جورارد ولاندزمن، 1988، ص46-47).

ثانيا: الاتجاه السلوكي Behavioral Approach

يعتقد السلوكيون ان الشعور بالأمن النفسي يتم من خلال اكتساب الفرد عادات مناسبة تساعده على التعامل مع الآخرين ومواجهة المواقف

والتوافق مع البيئة ويرون في الإنسان تنظيما لعدد من وحدات صغيرة تمثل كل منها ارتباطا بين (مثير واستجابة) (Alberto, 1986, p84). ووفقا إلى لبافلوف (Pavlov) فان الفعاليات المعقدة هي مجموعه من الاستجابات المشروطة وكذا الحال بالنسبة لعدم الشعور بالأمن النفسي هو حصيلة أنواع خاطئة من روابط بين المنبهات والاستجابات أو أنواع خاطئة من التعزيزات وطبقا إلى مبدأ الاقتران الشرطي يتعلم الفرد الخبرات السارة والمؤلمة (Fontana,1981 ,p59) . ويشير دولارد وميللر (Dollard & miller) إلى أن عدم الشعور بالأمن النفسي هو استجابة لا توافقية متعلمة لصراعات تنمو في مراحل مبكرة و تعمم لمواقف مشابهة مستقبلا، كما إنهما يؤكدان على التاريخ التعزيزي للفرد وعلى إدراكه لمثيرات معينه يعتبرانها معجلة في شعوره بعدم الأمن (Raven & Rabin , 1983, pp 122-123).

ثالثا: الاتجاه الإنساني Humanistic Approach

لاقت نظرية ماسلو في التنظيم الهرمي للحاجات قبولا واسعا، موفقا بين الكلية الوظيفية النفسية والكلية الكلية وكذلك الدينامية وقد افترض ماسلو أن عملية انتظام الحاجات بشكل هرمي يتم على أساس أسبقية الإشباع وضرورته ودرجة إلحاحه وسيطرة تلك الحاجات على السلوك حيث يبدأ تأثيرها بشكل تصاعدي ابتدأ من قاعدة الهرم (Maslow,1970, p360). وضمن هذا الترتيب الهرمي تحكم الحاجات المختلفة علاقة ديناميكية، أي على الرغم من أن الحاجات الفسيولوجية هي الأقوى والأكثر من غيرها في درجة إلحاحها على الإشباع إلا أن حاجات اعلي في الهرم قد تسيطر على سلوك الفرد بسبب الحرمان الشديد من إشباع بعض الحاجات والذي يؤدي

إلى أن تطغي على سلوك الفرد بغض النظر عن موقعها في الهرم (توق وعدس، 1993، ص190).

وقد أعطى ماسلو اهتمام كبيرا للحاجة إلى الأمن فحين تشبع الحاجات الفسيولوجية الأساسية إشباعا كافيا تظهر الحاجة إلى الأمن ، وتتضمن شعور الفرد بالطمأنينة والاستقرار والحماية والنظام والتحرر من الخوف والقلق (شلتز، 1983، ص293). كما تتضمن إدراك الفرد أن بيئته أمنة ودوره غير محبط ويشعر فيها بندرة التهديد والقلق، والشعور بالأمن شرط ضروري من شروط الصحة النفسية (عبد الخالق، 1983، ص 248)، لذلك يسعى الأفراد لإحاطة أنفسهم ببيئة اجتماعية منظمة تشيع الاستقرار والاطمئنان (فطيم، 1996، ص52). إلى جانب سعيهم في الانتماء إلى الجماعة والاعتماد على النفس في أداء مهماتهم دون الشعور بضرورة الاتكال على الآخرين (الخالدي وشعبان، 1989، ص38).

إن عدم تحقيق إشباع الحاجة للأمن سينعكس سلبيا على إشباع الحاجات في المستويات العليا، فالحاجة إلى تحقيق الذات مثلا مشروطة بإشباع الحاجات التي تسبقها، ويؤكد ماسلو ان الأفراد الذين يفشلون في إشباع الحاجة إلى الأمن سيفشلون بالنتيجة في تحقيق ذاتهم، وتتجه شخصيتهم إلى الخوف من الآخرين واستخدام القوة الجسدية لإيذاء الغير ومحاولة السيطرة عليهم (Maslow ،1970 ،P312).

إن اختيار المهنة التي توفر الضمان والاستقرار والاطمئنان بعيدا عن المخاطر هي من الأساليب التي يسلكها الفرد لإشباع حاجة الأمن (دواني وديراني، 1983، ص48).

وقسم ماسلو الإعراض أو علامات الشعور – عدم الشعور بالأمن (التي أوردها في كراسة تعليمات اختباره النهائي لقياس درجة الشعور –

عدم الشعور بالأمن عام 1952) إلى إعراض أساسية وأخرى ثانوية، تتمثل الإعراض الأساسية بـــ (الشعور بالحب، والانتماء، والأمن) وهذه تمثل الجانب الموجب في حين (الشعور بالنبذ، والعزلة، والتهديد) تمثل الجانب السلبي، وعد هذه الإعراض ذات اثر دينامي في تشكيل شخصية الفرد، ومنها تنتج إعراض ثانوية نسبية حددها بأحد عشر عرضا لكل جانب.

ويشير روتر إلى أن الأفراد ذوي السيطرة الداخلية يتصفون بالتعاون، ويظهرون نظرة متفائلة للمستقبل، ويقاومون المغريات التي يمكن أن تؤثر فيهم، وهم أكثر تأثيرا في الآخرين (Rotter ,1966, pp12-15) كما يتسمون بالثقة العالية بالنفس، والطموح العالي، والتأثير في البيئة التي يعيشون فيها، ويكونون أكثر صحة ونشاطا (Joe 1971, pp114-119). ويتميزون بالنشاط الفعال والمحاولات الجادة في المحافظة على سلامتهم الجسمية والنفسية (Rotter ،1975 p 56).

وفيما يتعلق بأنواع السيطرة الخارجية، فقد أشار روتر (Rotter) وطلبته إلى أنواع متباينة هي :

- **الحظ أو الصدفة** (**Lack or chance**) ويشير إلى الاعتماد بان الكون غير قابل للتنبؤ، وان تأثيـــر المصادفة هـــي المسؤولة عن حدوث التعزيزات Rotter , 1962 , P47). ومن الجدير بالذكر أن الصدفة هنا لا تمثل الاحتمالية لها قواعدها وقوانينها.
- **القدر** (**Fate**) ويمثل اعتقاد أن الأفراد ليس بإمكانهم أن يغيروا مسار الأحداث كونها مقدرة سلفا، وقدرية روتر تشير إلى اتجاهات سلبية. اكتسبها الفرد من خبراته السابقة في أن قوى خارجية تحدد ما يلاقيه من تعزيز إيجابي أم سلبي (جابر وكفافي، 1987، ص 366).

- **سيطرة الآخرين ونفوذهم**، ويكون مركز سيطرة التعزيزات في أيدي أفراد أكثر قوة وتأثيرا من الأفراد، ولا يملك تأثيرا عليهم (Rotter ،1962 p 42).

من خلال استعراض متغيري الأمن النفسي ومركز السيطرة حسب الاتجاهات التفسيرية يمكن التوصل إلى أن تلك التفسيرات اتفقت نسبيا في أن كليهما يعدان من سمات الشخصية التي تتطور مع العمر وتشكيلات بفعل عوامل التنشئة الاجتماعية، وتستمر العلاقة بينهما أهميتها من كونهما يمثلان جانبين من جوانب الشخصية التي تتشكل بفعل عوامل أو مقومات يكمل بعضها البعض لتظهر الشخصية بمظهر الاتفاق والتكامل، فالشعور بالأمن النفسي والإدراك الواقعي لنتائج الأحداث هو حالة من تكامل الشخصية.

وخلاصة القول أن الدراسة النظرية لطبيعة العلاقة بين المتغيرين قد تجسد في محوريين أساسيين، حيث يرى بعض الباحثين ان اعتقاد الفرد بقبلياته في مواجهة أو تجنب التهديد أو الأحداث الضاغطة يشكل جانبا مهما في درجة شعوره بالأمن النفسي، فعندما تكون السيطرة كبيرة ويتعرض إلى موقف ضاغط أو مهدد فقد يبدو له أن الموقف اقل تهديدا مما هو عليه فعلا. إما في حالة عدم إيمان الفرد بسيطرته على الأحداث فانه يشعر بان الموقف أكثر تهديدا لأمنه النفسي عما هو عليه فعلا. أي أن شعور الفرد بالأمن النفسي يتأثر باعتقاد الفرد بقبلياته وقدراته أو لسيطرة الحظ و البيئة (Houston, 1972, p250).

بينما تشير وجهة نظر أخرى إلى أن شعور الفرد ذا السيطرة الداخلية بأنه يمتلك سيطرة مبالغ فيها وتتجاوز الإمكانات أو حدود الواقع، قد تجعله يتعرض إلى صراع أو احباطات وبالتالي عدم الشعور بالأمن النفسي عندما

يكتشف عدم قدرته في السيطرة على بعض الاحداث في البيئة (النيال، 1994، ص 566).

الدراســـات السابقـــة

اطلع الباحث على عدد من الدراسات السابقة المماثلة، إلا انه وبقدر اطلاعه لم يحصل على دراسات كافية بحثت العلاقة بين المتغيرين بشكل مباشر وقد أفاد من عدد من هذه الدراسات وقد وزعت علـــى محورين رئيسين هما:

أولا: الدراســـات التي تناولت الأمن النفســـي

قام اندرسون (Anderson ،1983) بدراسة هدفت بيان شعور المعلم بالأمن النفسي على اتجاهات طلبته نحو المدرسة وتكونت عينة الدراسة من 85 معلما ومعلمة 266 طالبا وطالبة واستخدم الباحث اختبار ماسلو للشعور – عدم الشعور بالأمن مقياس ليكرت المعدل للاتجاهات وبينت الدراسة أن هناك علاقة ذات دلالة إحصائية بين شعور المعلم بالأمن بين اتجاهات طلبته الايجابية نحو المدرسة.

, قام (دواني ودراني 1984) بدراسة هدفت إلى معرفة العلاقة بين النمط القيادي لمديري المدارس الإلزامية وشعور المدرسين بالأمن النفسي وقد تكونت عينة الدراسة من 64 مديرا و مديرة 427 مدرسا ومعلمة وقد استخدم اختبار(بفيفرpfeiffer) لتصنيف سلوك المديرين القيادي اختبار ماسلو للشعور عدم الشعور بالأمن وقد أظهرت الدراسة وجود علاقة بين نمط الإدارة وشعـــور المدرسين بالأمن النفســـي. عدم وجود اثر لمتغيـــر الجنس (مدير مديرة) والتأهل (جامعي– غير جامعي) في الشعور بالأمن النفسي لدى المدرسين والمديرين.

قام (العمري والسلمان 1996) بدراسة هدفت إلى الكشف عن درجة تحقيق حاجة الإحساس بالأمن لدى أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأردنية الرسمية، وبيان أثر كل من الجامعة والتخصص والرتبة الأكاديمية والجنس في ذلك. وتكونت عينة الدراسة من 273 عضوا تدريسيا في الجامعات الأردنية الرسمية واستخدم الباحثان اختبار ماسلو للشعور – عدم الشعور بالأمن ودلت الدراسة على وجود فروق ذات دلالة إحصائية في درجة تحقق الإحساس بالأمن لدى أعضاء هيئة التدريس تعزى لاختلاف التخصص والرتبة الأكاديمية وسنوات الخبرة والجنس.

واجري ساتونس (Suttons 1997) دراسة هدفت إلى بيان علاقة الشعور بالأمن النفسي وقبول الذات ت بأساليب التعامل مع الضغوط النفسية وتكونت عينة الدراسة من 180 مدرسا ومدرسة واستخدم الباحث اختبار ماسلو للشعور– بعدم الشعور بالأمن. ومقياس لأساليب التعامل مع الضغوط وقبول الذات إعداد الباحث ودلت الدراسة أن الأفراد ذوي الأمن النفسي العالي وممن يتمتعون بقبول الذات يبدون تعاملا أفضل مع الضغوط التي تواجههم في حين يلجا الأفراد ذوي الأمن النفسي المنخفض إلى أحلام اليقظة وتناول الكحول.

وقام راكس وايتال (Rakes & etal 2001) بدراسة هدفت إلى معرفة العلاقة بين وعي المعلمين لسلوكهم البنيوي وشعورهم بالأمن النفسي وتكونت عينة الدراسة من 130 من أعضاء الهيئات التعليمية وقام الباحثان بتصميم استبانه للمضامين البنيوية ومقياس **Wolin** 1999 للشعور بالأمن وبينت الدراسة وجود علاقة ذات دلاله إحصائية بين وعي عضو الهيئة التعليمية بسلوكه البنيوي وشعوره بالأمن النفسي وكذلك وجود فروق ذات دلاله معنوية في وعي أعضاء الهيئات التعليمية بسلوكهم البنيوي وشعورهم بالأمن النفسي تبعا

للجنس ولصالح الذكور.

قام (الحلو، 1989) بدراسة هدفت إلى معرفة العلاقة بين مركز السيطرة والتعامل مع الضغوط النفسية وقد قام ببناء مقياسين أحدهما لمركز السيطرة والأخر لأساليب التعامل مع الضغوط النفسية واستخدم الاختبار التأني معامل ارتباط بيرسون تحليل التباين الأحادي اختبار توكي معادلة فيشر التحليل العاملي وقد دلت الدراسة على وجود تفاعل ذي دلالة إحصائية بين مركز السيطرة (داخلي –خارجي) وأساليب التعامل مع الضغوط النفسية.

واجري (دروزه، 1993) دراسة هدفت إلى معرفة اتجاه مركز السيطرة وعلاقته بعدد من المتغيرات وتكونت عينة الدراسة 86 معلما واستخدم مقياس روتر لمركز السيطرة وبينت الدراسة ميل إفراد العينة إلى التوجه نحو السيطرة الداخلية و المدرسين الذكور اقل خارجية من الإناث.

وفي دراسة (توفيق وسليمان، 1995) التي هدفت إلى الكشف عن علاقة مصدر الضبط بالقدر على اتخاذ القرار وتكونت عينة الدراسة من 300 طالب وطالبة واستخدم الباحث مقياس روتر لمركز السيطرة واختبار القدرة على اتخاذ القرار وبينت الدراسة وجود ارتباط موجب بين القدرة على اتخاذ القرار ومركز السيطرة، عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية بين الذكور والإناث على اتخاذ القرار ومركز السيطرة.

واجري(الجبوري 1996) دراسة هدفت الكشف عن العلاقة بين الاغتراب ومركز السيطرة وتكونت عينة الدراسة من 540 عضو هيئة تدريس جامعي واستخدم الباحث مقياس روتر لمركز السيطرة العلاقة بين مركز السيطرة والتعامل مع الضغوط النفسية وتكونت عينة الدراسة من 300 من طلبة الجامعة وقام ببناء مقياسين أحدهما لمركز السيطرة والأخر لأساليب التعامل مع الضغوط النفسية وبيت الدراسة وجود تفاعل ذي دلالة إحصائية بين

مركز السيطرة (داخلي – خارجي) وأساليب التعامل مع الضغوط النفسية.

وقام (موسى والاكلبي، 1997) بدراسة هدفت إلى الكشف عن العلاقة بين الضبط الخارجي – الداخلي وكل من تقدير أداء المعلمين كما يدركه الطلاب وقلق الامتحان وتكونت عينة الدراسة من 200 طالب وطالبه في المرحلة الثانوية واستخدم الباحثان مقياس نويكي- ستريكلاند قائمة لتقدير أداء المعلمين اختبار قلق الامتحان ودلت الدراسة على وجود اثر دال إحصائيا لمتغير الجنس في قلق الامتحان. وجود أثر دال إحصائيا لمتغير توقعات الضبط في قلق الامتحان.

دراسة عثمان (1999) هدفت إلى قياس مستوى التوفيق المهني وعلاقته بموقع الضبط وتكونت عينة الدراسة من 272 مدرسا ومدرسه بمدينة تعز وقام الباحث ببناء مقياسين احدهما للتوافق المهني والأخر لموقع الضبط وبينت نتائج الدراسة ان ميل إفراد العينة إلى التوافق في مهنة التدريس وان معظمهم من ذوي الضبط الداخلي. وتوجد فروق ذات دلالة إحصائية في درجة التوفيق المهني بين المدرسين الذكور والإناث ولصالح الإناث.

مناقشـــة الدراســـات السابقـــة

من خلال العرض السابق للدراسات السابقة يمكن استنتاج الأتـــي:

تباينت أهداف الدراسات السابقة، فقد هدف بعضها بيان العلاقة الارتباطية بين كل من متغيري الأمن النفسي ومركز السيطرة والمتغيرات الأخرى، كدراسة **Sttuon** (1997) التي بينت علاقة الشعور بالأمن النفسي بأساليب التعامل مع الضغوط النفسية. وأسهمت دراسات أخرى في بيان تأثر كل من الأمن النفسي ومركز السيطرة بعدد من المتغيرات، ودراسة العمري والسلمان (1996) والتي كشفت عن اثر كل من الجامعة والتخصص والرتبة الأكاديمية عن الأمن النفسي لدى أعضاء هيئة التدريس في الجامعات

الأردنية وقد تعددت أنواع و حجوم الدراسات السابقة فبعضها اعتمدت عينات من أعضاء الهيئات التعليمية، كدراسة عثمان (1999)، ودراسة **Sutton** (1999)، ودراسة الجبوري (1996).

واستخدمت الدراسات السابقة أدوات مختلفة لتحقيق أهدافها، فمنها من استخدم المقاييس الجاهزة، وخصوصا مقياس ماسلو للشعور- عدم الشعور بالأمن النفسي كدراسة **Terry**(1995).

كما استخدمت أغلب الدراسات مقياس روتر لمركز السيطرة أما الدراسة الحالية فقد حددت الأداة في ضوء الأدبيات والدراسات السابقة .أ- مقياس ماسلو للشعور - عدم الشعور بالأمن النفسي والمعدل في هذا الدراسة.

إجـــراءات الدراســـة:

أولا: مجتمع الدراسة:

تكون مجتمع الدراسة من (320) عضو هيئة تدريس موزعين على ثلاثة كليـــات: كلية تابعة لجامعة البلقاء التطبيقية في منطقة شمـــال الأردن هي كلية الحصن الجامعية، وكلية عجلون الجامعية، وكلية اربد الجامعية للعـــام الدراسي 2009-2010م والجدول (1) يوضح حجم مجتمع الدراسة حسب الكليات والجنس.

جدول (1)

توزيع إفراد مجتمع الدراسة حسب الكلية والدرجة العلمية والجنس

الكليـــة	عدد أعضـــاء هيئة التدريـــس			عـــدد المدرسين	
	دكتـــوراه	ماجستيـــر	المجمـــوع	ذكـــور	إنـــاث
الحصـــن	65	51	116	99	17
اربـــد	39	68	107	66	40
عجلـــون	39	58	97	68	30
	143	177	320	233	87

2- عينة الدراسة:

اختار الباحث العينة بطريقة غير عشوائية، وبأسلوب ألقصدي الغرضي من الأفراد الذين يحققون أهداف الدراسة حيث تم اختيار (216) عضو هيئة تدريس من حملة الدكتوراه من الذكور وجميع أعضاء هيئة التدريس من الإناث وبنسبة تقدر67.5% من المجتمع الأصلي، بواقع (129) عضو هيئة تدريس من الذكور وبنسبة تقدر 59.284 %، وبنسبة من الإناث وبنسبة تقدر 39.726 ، وبنسبة ، وكما هو موضح في الجدول(2).

جدول (2)

توزيع عينة الدراسة وفقا للوحدات الإدارية والمرحلة الدراسية والجنس

الكليـــة	عدد أعضـــاء هيئة التدريس			عـــدد المدرسيـــن		
	ذكـــور	%	إنـــاث	%	المجمـــوع	%
الحصـــن	64	79	17	21	81	37.5
اربـــد	33	45.2	40	54.8	73	33.7
عجلـــون	32	51.6	30	49.4	62	28.7
المجموع	129	59.7	87	39.3	216	%100

أداة الدراســـة:

بما أن الدراسة الحالية تتطلب قياس الأمن النفسي ومركز السيطرة، لذلك كان من الضروري أن يستعين الباحث بالمقاييس التالية:

أولا: مقياس الأمن النفسي: اعتمد الباحث مقياس ماسلو للشعور- عدم الشعور بالأمن النفسي والمعرب من قبل(دواني و ديراني 1983) بعد تكييفه لمجتمع الدراسة وللمبررات الآتية:

أ- أن اغلب المقاييس التي تسنى للباحث الاطلاع عليها قد اعتمدت على مقياس ماسلو في بنائها.

ب- لما يتمتع به هذا المقياس من مؤشرات صدق وثبات عاليين مكنت من اعتماده وعلى نطاق واسع في المؤسسات التدريس وللمقارنة بين المجموعات المختلفة.

ج- يعد من المقاييس المتحررة من التحيز الثقافي فقد استخدم في ثقافات ومجتمعات مختلفة ومنها مجتمعنا وعلى المدرسين خصوصا وبنجاح، وهذا ما ينسجم وتوجهات الدراسة الحالي.

صدق مقيـــاس الأمـــن النفســـي.

أ- الصدق الظاهـــري: Face Validity

وقد تحقق هذا النوع من الصدق من خلال عرض فقرات المقياس وتعليماته وبدائله على مجموعة من الخبراء في التربية وعلم النفس، والأخذ بملاحظاتهم حول صلاحيتها وملاءمتها لمجتمع البحث.

ب- الصدق التلازمـــي: Concurrent validity

بهدف التأكد من صدق مقياس الأمن النفسي بشكل أدق فقد تم إيجاد العلاقة الارتباطية بينه وبين مقياس القلق الصريح لتيلور Taylor (Manifest Anxiety scale) والمترجم من الباحثان مصطفى فهمي، ومحمد احمد غالي، ويتكون من (50) فقرة منتخبة من مقياس مينسوتا متعدد الأوجه والتي يجاب عليها بالبديلين (نعم، لا) والذي يتميز بصدق عاليين (غالي، 1974، ص151-152). وقد طبق المقياسين في وقت واحد على(60) عضوا من أعضاء الهيئات التعليمية، وباستخدام معامل ارتباط بيرسون حيث بلغ معامل الارتباط بين درجات المقياسين (-0.79) وذلك يشير إلى أن الزيادة في درجات الفرد على مقياس الشعور بال، 1988 لنفسي يرافقه انخفاض في درجاته على مقياس تيلور للقلق الصريح وبالعكس، وبعد تربيع معامل الارتباط أصبحت قيمته (0.62) والـــذي يعبر عن نسبة التباين

المشترك بين درجات المقياسين (عود، 19888، 149-147) وتعد هذه الدرجة مقبولة في مقاييس الشخصية (عبد الخالق، 1089، ص148).

- ثبات الأداة Reliability

تم استخراج الثبات لمقياس الأمن النفسي

أ- طريقة التجزئة النصفية

حيث تم تقسيم فقرات المقياس وعددها 52 إلى مجموعتين تبعا للتصنيف الفردي والزوجي **Odd-Even** وتألفت كل مجموعة من (26) فقرة، وبعد حساب معامل ارتباط بيرسون اتضح انه (0.69) وبعد تصحيحه باستخدام معادلة سبيرمان – براون أصبح بعد التعديل (0.81) ويعد معامل الثبات هذه جيد مقارنة بمعامل ثبات ألنسخه الأصلية لاختبار ماسلو والذي يساوي (0.89) وكذلك مع معامل ثبات مقياس الصلاحي1995 والذي يساوي (0.76).

ب- إعـــادة الاختبـــار

حسب معامل الثبات بهذه الطريقة من خلال إعادة التطبيق لمقياس الأمن النفسي على العينة مؤلفة من (60) عضوا من أعضاء الهيئات التعليمية وبفاصل زمني (14) يوما بين التطبيق الأول و الثاني، وكان معامل ارتباط بيرسون(0.87) وعند مقارنته بالقيمة الحرجة لمعامل الارتباط وبمستوى دلالة (0.01) وتحت درجة حرية (0.59) اتضح انه ذا دلالة معنوية حيث كانت القيمة الجدولية لمعامل الارتباط (0.30) ويعد ذلك ثباتا جيدا يمكن الاعتماد عليه.

وبذلك فقد تم الحصـــول على مقياس للشعور بالأمن النفســـي له مؤشرات صدق وثبات يمكن الركون إليه في تفسير النتائج ولفقراته القدرة على التمييز. و بذلك فقد تم الحصول على مقياس للشعور بالأمن النفسي له مؤشرات صدق وثبات يمكن الركون إليه في تفسير النتائج ولفقراته القدرة على التمييز.

ثانياً: مقياس مركز السيطرة:

أولاً – بناء مقياس مركز السيطرة :

مرت عملية إعداد مقياس مركز السيطرة بالمراحل التالية:

1) مراجعة المقاييس والأدبيات السابقة ذات العلاقة تم تحديد بعدي المقياس وهما (1) البعد الخارجي (2) البعد الداخلي، ثم جزء إلى مجالاته لتشمل (جهود الفرد وقابلياته الشخصية) ممثلة للبعد الداخلي و(الحظ والصدفة والقدر وتعقد الحياة وسيطرة الآخرين) ممثلة للبعد الخارجي، بعد ذلك صيغت (50) فقرة تغطي مكونات المجالات وبواقع (25) فقرة البعد الداخلي و(25) فقرة للبعد الخارجي الملحق (6) وقد روعي في صياغة الفقرات ان تكون قصيرة وقابلة لتفسير واحد فقط (أبو علام وشريف، 134،1989).

2) أعداد التعليمات وبدائل الإجابة

اعتمد الباحث أسلوب ليكرت Likert وذلك لان هذا الأسلوب اعتمد في الكثير من بحوث ومقاييس مركز السيطرة مثل دراسة ((Caraham, 1980, p59) Caraham, 1980)، وفي الأسلوب المعتمد في هذا المقياس يطلب من المستجيب ان يسجل موافقته أو عدم موافقته على كل فقرة من خلال اختبار بديل من بدائل الإجابة الأربعة أمام كل فقرة، واقترح الباحث البدائل الآتية: (موافقا تماما، موافق، ارفض، ارفض تماما).

3) صلاحية الفقرات وبدائل الإجابة:

لغرض التعرف على صلاحية فقرات المقياس وتعليماته وبدائل الإجابة بصيغتها الأولية،عرضت على مجموعة من المختصين في التربية وعلم النفس وفي ضوء ملاحظاتهم عدلت صياغة بعض الفقرات وحذفت (4) فقرات وهي الفقرات (20،40،50) لأنها لم تنل موافقة المحكمين، وبذلك أصبح عدد فقرت المقياس (46).

4) مؤشرات صدق وثبات مقياس مركز السيطرة

أ- الصدق الظاهري: face validity

وقد تحقق هذا النوع من الصدق للمقياس الحالي من خلال عرضه على الخبراء والآخذ بآرائهم حول صلاحية فقرات وتعليمات المقياس.

2- الثبات Reliability

تم حســـاب معامل ثبات مقياس مركز السيطرة وكآلاتـــي:

أ- التجزئة النصفية Split –Hal

حيث تم تقسيم فقرات المقياس إلى مجموعتين تآلفت كل مجموعة من (23) فقرة، وقد تم التقسيم تبعا لتسلسل الفقرات (مجموعة الفقرات الفردية ومجموعة الفقرات الزوجية) وتبعا لتمثيل الفقرة للبعد الداخلي أو الخارجي، وبعد حساب معامل ارتباط بيرسون بين نصفي المقياس تبين انه(0.83)، ولما كان معامل الثبات المستخرج هو لنصف المقياس لذلك فقد تم تعديله باستخدام معادلة سبيرمان – بروان وأصبح بعد التعديل (0.83)، وبعد معامل الثبات هذه عاليا مقارنة بالدراسات التي بنيت مقاييس مركز السيطرة، كدراسة الحلو (الحلو، 1989، ص74).

ب-إعـــادة الاختبـــار Test-Retest

تم استخراج معامل الثبات بطريقة إعادة الاختبار على عينة مؤلفة من (60) عضوا من أعضاء الهيئة التدريسية وبواقع (30) مدرسا ومدرسه اختيروا عشوائيا وبفارق زمني (14) يوميا بين التطبيق الأول والثاني، إذ تعتبر الفترة من أسبوع إلى أسبوعين فترة مناسبة لإعادة الاختبار (الزوبعي وآخرون،1981، ص34) (Adams, 1969, p58) (أبو النيل ودوسوقي، 1986، ص25)

وبعد حساب معامل ارتباط بيرسون على البيانات اتضح انه (0،85) وعند مقارنته بالقيمة الحرجة لمعامل الارتباط (0،30) وبمستوى دلالة (0،01) وتحت درجة حرجة (58) وجد ان له دلالة معنوية، كما يعد ثباتا مقبولا إذا ما قورن بمعاملات ثبات إعادة الاختبار لمقاييس مركز السيطرة الأخرى كمقياس روتر Rotter ومقياس ديينس Deans (Lefcourt , 1979, pp157-160)

المعالجات الإحصائية: استخدم الباحث اختبار (كا^2) والاختبار التائي لعينتين مستقلتين و معامل ارتباط بيرسون ومعادلة سبيرمان والاختبار التائي لعينة واحد وتحليل التباين الأحادي.

نتائـــج الدراسة والاستنتاجـــات

أولاً- قياس الشعور بالأمن النفسي لدى أعضاء الهيئة التدريسية.

بعد تطبيق مقياس الشعور بالأمن النفسي المعدل على إفراد عينة الدراسة، جاءت النتائج كما هي موضحة بالجدول رقم (3)

جدول (3)

نتائج الاختبار التائي لعينة واحدة للفرق بين المتوسطين النظري والمحسوب في قياس الشعور بالأمن النفسي.

حجم العينة	المتوسط المحسوب	الانحراف المعياري	المتوسط النظري	القيمة التائية		مستوى الدلالة
				المحسوبة	الجدولية	
216	98,01	18,136	104	8,420	3,291	0,001

اتضح من الجدول السابق ان متوسط درجات الشعور بالأمن النفسي لديهم يساوي (01, 98) درجة، وبانحراف معياري مقداره (420, 18). ولدى مقارنة هذا المتوسط بالمتوسط النظري للمقياس والبالغ (104) درجة، باستخدام الاختبار التائي لعينة واحدة، تبن ان القيمة التائية المحسوبة (420،8) وهي ذات دلالة إحصائية عند مستوى (001, 0)، وان المستوى المحسوب لدرجات إفراد العينة اقل من متوسط النظري للمقياس مما يشير إلى أن أعضاء الهيئة التدريسية في محافظة اربد وعجلون لديهم شعور واضح بعدم الأمن النفسي. ويمكن أن تعزى هذه النتيجة إلى الأحداث الضاغطة التي تواجه الأفراد في مفردات الحياة اليومية، والتي تتطلب منهم توفير مستلزماتها، وما يتخلل ذلك من صراع بين النظام القيمي للفرد وبين إمكانياته الاقتصادية والنظرة الاجتماعية التي ترفع من درجات التوقعات المثالية لشخصية عضو هيئة التدريس في الجامعات، وخصوصا لدى أعضاء الهيئة التدريسية الذين تلقى على عاتقهم مسؤوليات وأعباء عائلية لا يفي بها دخل هذه المهنة، وقد تعود هذه النتيجة أيضا إلى مقارنة أعضاء الهيئة التدريسية أنفسهم مع اقرأنهم من مهن أخرى من حيث الجدوى الاقتصادية، وخصوصا بعد تراجع القيم المعنوية وبروز النظرية المادية التي طغت نسبيا على توجهات الأفراد وطريقتهم في التعامل مع تفاصيل الحياة اليومية.

فضلا عما سبق ربما يكون من الأسباب المؤدية إلى عدم الشعور بالأمن النفسي لدى العينة هو نمط الإدارة السائدة في كثير من جامعتنا والتي يغلب عليها الطابع الفردي، والتي لا تتيح فرصا متكافئة بين أعضاء الهيئة التدريسية مما يشعرهم بالإحباط والغبن، ويؤجج مشاعر الغيرة والكراهية، وبالتالي سينسحب ذلك على مستوى شعورهم بالأمن النفسي، إذ ان الأسلوب التسلطي الذي يمارسه كثير من رؤساء الأقسام الأكاديمية ورؤساء الجامعات والعمداء والذي يتصف غالبا بالتطبيق الحرفي للقوانين والإجراءات، وعدم أعضاء الحرية الكافية لأعضاء الهيئة التدريسية، وعدم تقدير الظروف الإنسانية والاجتماعية لهم وهو ما ان وجد نوعا من الاغتراب بين الإدارة الجامعية وبين أعضاء الهيئة التدريسية، وهذا ربما سينسحب على العلاقة بين الطرفين من جهة وبين المدرسين أنفسهم من جهة ثانية ويؤدي أيضا إلى شعور المدرسين بعدم الأمن وعدم الرغبة في تحمل المسؤولية. حيث تشير كثير من الدراسات إلى وجود علاقة بين أسلوب الإدارة المستبد وبين شعور الفرد بالأمن النفسي (دواني وديراني، 1984، ص 113) (الخالدي، 1990، ص59)، كما أن انعدام التعامل الديمقراطي داخل الكلية يعد من مهددات الأمن النفسي لمنتسبيها (الصلاحي، 1995، ص 70). وعلى العموم يمكن القول ان هذه النتيجة اتفقت مع دراسة الخالدي (1990)، والتي بينت أن نسبة (54%) من عينة الدراسة يشعرون بعدم المن.

ثانيـــا- معرفة الفروق في الشعور بالأمن النفسي لدى أعضاء الهيئة التدريسية تبعا لمتغيرات الجنس

لتحقيق هذا الهدف وفيما يتعلق بالشعور بالأمن النفسي لدى أعضاء الهيئة التدريسية تبعا لمتغير الجنس، فقد تم إيجاد متوسط درجات الذكور والإناث، حيث بلغ متوسط درجات أعضاء الهيئة التدريسية من الذكور (98,77) درجة في حين بلغ متوسط درجات الإناث (97,61) درجة، ثم استخدم الاختبار التائي لعينتين مستقلتين لإيجاد دلالة الفرق بين متوسطي درجات المجموعتين. اتضح عدم وجود فروق ذات دلالة إحصائية في الشعور بالأمن النفسي عند مستوى دلالة (0, 05) وكما مبين في الجدول (4).

جدول (4)

نتائج الاختبار التائي لمتوسط درجات الشعور بالأمن النفسي لدى أعضاء الهيئة التدريسية تبعا لمتغير الجنس.

البيانات الجنس	حجم العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	القيمة التائية		مستوى الدلالة
				المحسوبة	الجدولية	
الذكور	129	97,61	20,43	0,707	1,960	غير دالة 0,05
الإناث	87	98,77	18,60			

وقد يعود عدم الاختلاف في الشعور بعدم الأمن لدى الجنسيين من أعضاء الهيئة التدريسية، إلى ان الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والمهنية والعملية التي تتعرض لها الإناث لا تقل عما يتعرض له الذكور، بما في ذلك أنماط التنشئة الاجتماعية والعلاقات داخل المؤسسة الأكاديمية، قد اتفقت هذه النتيجة مع دراسة الخالدي (1990) والتي بينت عدم وجود فروق في الشعور بالأمن النفسي تبعا لمتغير الجنس.

ثالثا- معرفة الفروق في الشعور بالأمن النفسي لدى أعضاء الهيئة التدريسية تبعا لمتغيرات مدة الخدمة.

جاءت النتائج الخاصة بهذا السؤال موضحة بالجدول رقم (5)

جدول (5)

قيمة L.S.D لدلالة أقل فرق معنوي بين كل متوسطين من متوسطات درجات الشعور بالأمن النفسي لدى أعضاء الهيئة التدريسية تبعاً للمتغير مدة الخدمة.

حجم العينة	فئات متغير مدة الخدمة بالسنوات	الأوساط الحسابية	(1-3)	(4-10)	(10 فاكثر)	قيمة L.S.D	مستوى الدلالة
			92,67	95,83	105,003		
90	1-3	92,67	-	3,16	12,333	2,614	0,05
80	4-10	96,83	-	-	8,173		
46	أكثر من 10	105,003	-	-	-		

و يتضح من الجدول (5)

1-هناك فرق بدلالة إحصائية عند مستوى (0.05(بين متوسطي درجات الشعور بالأمن النفسي للأعضاء الهيئات التدريسية تتسع خدمتهم بين (31-) سنة و أقرانهم ممن تبلغ خدمتهم (10-4) سنة، إذ أن الفرق بين المتوسطين أكبر من قيمة L.S.D و هذا الفرق لصالح ذوي الخدمة (أكثر من 10) أي أنهم أكثر شعوراً بالأمن النفسي من أعضاء الهيئات التدريس ذوي الخدمة (10-1) سنة.

2- هناك فرق ذو دلالة إحصائية عند مستوى (0.05) بين متوسطي درجات الشعور بالأمن النفسي للأعضاء الهيئات التدريسية تقع خدمتهم بين (1-10)

سنة و (21 سنة فأكثر) إذ أن الفرق بين المتوسطين (12,333) أكبر من قيمة L.S.D(2,614)، و هذا الفرق لصالح أعضاء الهيئة التدريسية ممن خدمتهم (21 فأكثر أي أنهم أكثر شعوراً بالأمن ممن تقع خدمتهم بين (1-10) سنة.

ومن النظرة الإجمالية للجدول (5) تبين أن الشعور بالأمن النفسي يتناسب طردياً مع مدة الخدمة، ويمكن أن تعزى هذه النتيجة إلى أن عضو الهيئة التدريسية في بداية حياته المهنية يتعرض إلى مواقف لم يعهدها سابقاً و لا يمتلك الخبرة الكامنة لمواجهتها ومن ثم قد يتردد و يتوجس كثيراً قبل إيجاد الأساليب الملائمة للتكليف مع موافقة الجديد، كما أنه مازالت أمامه الكثير من الأهداف و المشاريع التي تتعلق بحياته الشخصية التي يخشى من عدم تمكنه من تحقيقها.

بالإضافة إلى ظروف محببة من العمل والشعور بالانتماء والمعاملة العادلة والتشجيع والتقدير من الآخرين لذلك فان عدم توفر مثل هذه الظروف يؤثر سلبيا في شعورهم بالأمن النفسي.

رابعا: – قياس اتجاه مركز السيطرة لدى أعضاء الهيئة التدريسية

لتحقيق هذا الهدف ثم تحديد اتجاه مركز السيطرة (داخلي خارجي) لدى عينة الدراسة من خلال الدرجة الكلية التي حصل عليها كل عضو من أعضاء الهيئة التدريسية، و الأساس في تحديد ذلك هو درجة المتوسط النظري للمقياس التي تساوي (115) درجة، فإذا أزدادت الدرجة الكلية للمدرس (115) درجة دل ذلك على أنه من ذوي السيطرة الداخلية، أما كانت درجته الكلية أقل من (115) أو يساويها دل ذلك على أنه من ذوي السيطرة الخارجية، و كما في الجدول(6)

جدول (6)

عدد أفراد عينة الدراسة ذوي السيطرة الداخلية و الخارجية و نسبهم المئوية.

العينة	ذوي السيطرة الداخلية	النسبة%	ذوي السيطرة الخارجية	النسبة
216	93	%43	123	%57

و من جدول (6) تبين أن عدد أعضاء الهيئة التدريسية ذوي السيطرة الخارجية (370) عضواً و هم سيشكلون بنسبة (57%) من أجمالي عينة الدراسة، وهذا يشير إلى أن أفراد عينة الدراسة بصورة عامة من ذوي السيطرة الخارجية، و للتحقق من صحة ذلك أستخدم الاختبار التالي لعينة واحدة لاختبار دلالة الفروق بين متوسط درجات أفراد عينة الدراسة في مقياس مركز السيطرة و المتوسطة النظري للمقياس، و كما بين الجدول (7)

جدول (7)

نتائج الاختبار التالي لعينة واحدة لإيجاد الفرق بين المتوسطين النظري والمحسوب في مقياس مركز السيطرة.

حجم العينة	المتوسط المحجوب	الانحراف المعياري	المتوسط النظري	القيمة التائية		مستوى الدلالة
				المحسوبة	الجدولية	
216	12,460	16,470	115	3,931	1,96	دالة 0,15

ومن الجدول (7) يتضح أن الفرق بين المتوسطين النظري والمحسوب ذو دلالة إحصائية عند مستوى (05 ،0) وان المتوسط المحسوب لدرجات أفراد العينة أقل من المتوسط النظري لمقياس مما يشير إلى ان أعضاء الهيئة التدريسية في محافظة اربد وعجلون بصورة عامة أكثر توجها نحو السيطرة.

ويمكن تفسير ذلك ان لثقافة المجتمع دورا هاما في تكوين مركز السيطرة لدى إفراد (lao ,1 ,77, p114) إذ أن الحماية المفرطة وخصوصا في المراحل الحرجة من نمو وغيرها من الأساليب التي لا تشجع على الاستقلال وخصوصا ما يتعلق بالإناث، لاسيما وأنهن يشكلن نسبة 66% من مجتمع الدراسة، وهذا من العوامل التي تدعم التوجه الخارجي لمركز السيطرة حسب اعتقاد الباحث.

ومما تقدم يتضح أن اتجاه مركز السيطرة لدى أعضاء الهيئة التدريسية يكون أكثر داخلية كلما زادت خدمتهم سواء عند الذكور أو الإناث أي أن مركز السيطرة يتأثر بالخبرة، ويعزو الباحث سبب ذلك إلى أن أعضاء الهيئة التدريسية من ذوي الخبرة الأكثر يتمتعون بفرص كبيرة في السيطرة على الظروف المحيطة بهم لما يتمتعون به من تصورات عن نتائج إعمالهم والمستمدة من تجاربهم السابقة والتي أتاحت لهم فرصة التدريب والتفاعل والتغيير بحيث أنهم يتمكنون من السيطرة على اغلب مسارات حياتهم ومستقبلهم مقارنة مع ذوي الخبرة القليلة.

خامسا:ــ العلاقة بين الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة لدى أعضاء الهيئة التدريسية

ولتحقيق هذا الهدف تم احتساب معامل ارتباط بيرسون بين الدرجة الكلية لإفراد العينة على مقياس الشعور بالأمن النفسي والدرجات الكلية على مقياس مركز السيطرة، وقد بلغ معامل الارتباط(0.56) وهو بدلالة إحصائية

عند مستوى (0,001) إذ كانت القيمة التائية المحسوبة لدلالة معنوية معامل الارتباط (17,206) اكبر من القيمة التائية الجدولية (3,291) وبدرجة حرية (α) وكما موضح في الجدول (8)

جدول (8)

معامل ارتباط بيرسون للعلاقة بين الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة لدى أعضاء الهيئة التدريسية

العينة ككل	معامل الارتباط بين الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة	القيمة التائية		مستوى الدلالة
		المحسوبة	الجدولية	
216	0,56	17,206	3,291	0,001

وتوضح هذه النتيجة ان هناك علاقة ارتباطيه موجبة بين الشعور بالآمن النفسي ومركز السيطرة لدى أعضاء الهيئة التدريسية، فكلما زادت درجة المدرس على مقياس الشعور بالأمن النفسي ارتقت درجته على مقياس مركز السيطرة والعكس صحيح. وتأتي هذه النتيجة متممة للنتائج الدراسات السابقة والأبيات التي تأكد على ارتباط موجب بين الخصائص الإيجابية كل ثبات الانفعالي والتقدير الإيجابي للذات وبين مركز السيطرة الداخلي ،وكذلك ارتباط طردي بين الاعتيادي والنظرة السلبية للحياة وبين مركز السيطرة الخارجي. (محمد، 1993، ص239).

وبافتراض أن أعضاء الهيئة التدريسية داخلي السيطرة يرون انسجاما بين ما يحدث لهم وبين سلوكهم الخاص فمن غير المستغرب ان يكون شعورهم بالأمن أعلى، كونهم يستخدمون المعلومات والخبرات التي تتوافر لديهم بفاعلية ،ولأنهم يتبنون نجاحهم أو فشلهم فأنهم سيظهرون جهدا متميزا في تحقيق الهدف ،وقدرة اكبر على المثابرة، واستمرار بذل الجهد، مما يؤدي

إلى أن يكون شعورهم اعلي بالأمن النفسي من خارجي السيطرة، مع الأخذ بالحسبان أن العلاقة هنا ارتباطيه وليست سببية. كما يمكن تفسير العلاقة بين المتغيرين بأن العوامل المحدودة لها تكاد تكون واحدة، فهما يتشكلان بفعل التنشئة اجتماعية وأساليب المعاملة الوالدية، وخبرات النجاح والفشل والظروف الأسرية والمدرسية، ومواقف الإحباط والصراع، وردود الفعل إزاء ذلك باعتبارها عوامل رئيسية في بناء الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة عند الأفراد .وتتفق هذه النتيجة مع نتائج دراسة (Heretic 1981) التي أشارت إلى وجود علاقة طردية بين مركز السيطرة الخارجي وبين العصاب النفسي (Hereic 1981p253).

ويبدو أن هذه العلاقة الارتباطية الموجبة بين الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة ، ظهرت لدى فئات متغيرات الدراسة أيضا وهي الجنس (ذكور – إناث) إذا كان معامل الارتباط بين الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة بدلالة إحصائية لا ن جميع القيم الثانية لدلالة معاملات الارتباط اكبر من القيمة الثانية الجدولية (3,2,1) عند مستوى دلالة ((6,601 والجدول (8) يوضح ذلك.

سادسا: العلاقة بين الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة لدى أعضاء الهيئة التدريسية تبعا لمتغير الجنس.

جاءت النتائج الخاصة بهذا مؤضحة بالجدول رقم (9)

الجدول (9)

القيمة الزائية لفئتين مستقلتين لدلالة الفرق بين معاملات الارتباط لفئـــات عينة الدراسة

فئات عينة الدراسة	حجم الفئة	معامل الارتباط	القيمة المعيارية لمعمل الارتباط	القيمة الثانية		مستوى الدلالة
				المحسوبة	الجدولية	
الذكور	127	0,38	0,400	3,306	1,96	0,05
الإناث	87	0,61	0,709			

ويتضح من الجدول (9) الأتـــي:

أ- إن معامل الارتباط الايجابي بين الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة عند الإناث اقوي مما هو عليه عند الذكور، إذا كانت القيمة الزائية المحسوبة لدلالة الفرق بين معاملي الارتباط (3,366) اكبر من القيمة الجدولية (1,96) عند مستوى (0,05).

ومما تقدم يبدو أن العلاقة الطردية بين الشعور بالأمن النفسي ومركز السيطرة تكون عند الإناث اقوي مما هي عليه عند الذكور، وقد يرجع إلى طبيعة المرأة من حيث كونها أكثر تحسسا للطريقة التي تعزز بها نتائج سلوكها، إذ أن الجانب الانفعالي لديها أكثر ارتباطا بإدراكها للتعزيز.

التوصيات والمقترحات

في ضوء النتائج التي توصل إليها البحث الحالي يوصي الباحث بما يأتي:

1- تعزيز الاهتمام بالمكانة الاجتماعية والنفسية، والتقدير الاجتماعي للأعضاء هيئة التدريس بالجامعة لتحقيق الأدوار المناط به على إكمال وجه.

2- إعادة البرنامج والدورات التدريبية لأعضاء الهيئة التدريسية أثناء الخدمة وخصوصا للمبتدئين في هذه المهنة.

3- ضرورة توجه الادارت الجامعية نحو سياسات وتعليمات أكثر مرونة ووضوح في التعامل مع أعضاء هيئة التدريس من اجل دعم الأمن النفسي وتعزز المسؤولية الذاتية لديهم .

5. إجراء دراسة مشابهة للبحث الحالي على عينات مختلفة في الجامعات الأردنية وإجراء مقارنات بين الجامعات في مستوى الأمن النفسي.

6. القيام بمزيد من الدراسات والبحوث الميدانية والتجريبية حول حاجات أعضاء الهيئة التدريسية من اجل زيادة مستوى الأمن النفسي.

المصـــادر

الأنصاري، عبد القادر رحيم (2001) قياس الضغوط المهنية لمدرسي المرحلة المتوسطة ومدرساتها بناء وتطبيق، كلية التربية جامعة البصرة رسالة ماجستير (غير منشورة).

توفيـــــق، سميحة كريم و سلمان عبد الرحمن، (1995)، علاقة مصدر الضبط بالقدرة على اتخاذ القرار (دراسة عبر ثقافية)، مجلة مركز البحوث التربوية جامعة قطر، العدد الثامن، السنة الرابعة.

ثورندايك، رو برت واليزابت، هيجن (1989)، القياس والتقويم في علم النفس والتربية، ترجمة عبد الله زيد الكيلاني وعبد الرحمن عدس، مركز الكتب الأردني.

جلال، سعد، (1985) القياس النفسي والاختبارات والمقاييس دار الفكر، القاهرة.

الخالدي، أديب وشعبان، نادية.(1989). الأمن النفسي والوعي الأمني لدى طلبة الجامعة المستنصرية، المؤتمر السنوي الثاني لكلية التربية الجامعـــة المستنصرية من 4-3 نيسان.

دافيدوف، لندا، ل،(1988). مدخل إلى علم النفس، ترجمة سيد الطواب وآخرون، مكتبة التحرير القاهرة ، الدار الدولية للتوزيع والنشر.

دروزة، افنان نظيره (1993). مركز الضبط للمعلم وعلاقته بالتحصيل الأكاديمي للطالب في المدارس الإعدادية لوكالة الغوث الدولية في منطقة نابلس، مجلة النجاح للأبحاث عدد 7.

الرحـــــو، جنان سعيد أحمد. (1994) و الأمن النفسي للمراهقين و علاقته بأساليب المعاملة الوالية، كلية التربية، أبن رشد، جامعة بغداد، رسالة ماجستير (غير منشورة).

رشدي، أحمد طعمه (1999). رمزي، و كفاياته، أعداده و تدريبه، دار الفكر العربي، القاهرة.

رمزي، طارق محمود. (1974). بناء مقياس للتكلي). لاجتماعي و المدرسي لطلبة المرحلة الثانوية في بغداد. رسالة ماجستير (غير منشورة).

الريحاني، سلمان.(1985). أثر نمط التنشئة الأسرية في الشعورالأردنية، لة دراسات الجامعة الأردنية، مجلد (12) العدد (11).

الزوبعي، عبد الجليل إبراهيم وبكر النفسية، لناشئ، إبراهيم عبد الحسن. (1989) بناء الاختبارات و المقاييس النفسية، وزارة التعليم العالي و البحث العلمي، دار الكتب للطباعة و النشر، جامعة الموصل.

صالح، قاسم حسين. (19 القياس، شخصية بين التنظير و القياس، مطابع التعليم العالي، بغداد.

الصلاحي، عبد الله محمد. (1995). الأمن النفسي لدى طلبة كلية التربية جامعة صنعاء وعلاقته بالتحصيل الدراسي، كلية التربية، جامعة المستنصرية، رسالة ماجستير (غير منشورة).

الصوفي، عبد المجيد رشيد (1985). اختبار كا ^{2} و استخداماته في التحليل الإحصائي دار النضال للطباعة و النشر، بيروت.

عبد الرحيم، أحمد يوسف.(2001). أستخدم أعضاء هيئة التدريسية بكلية التربية بجامعة السلطان قابوس موجهات نظرية البنوية في تصميم للتعليم، مجلة اتحاد الجامعات العربية (39) الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية.

عثمان، نجاح عبد الرحمن محمد. (1999). التوافق المهني و علاقته بموقع الضبط لدى مدرسي المرحلة الثانوية في اليمن، كلية التربية أبن الهيثم، جامعة بغداد رسالة ماجستير (غير منشورة).

العجيلي، صباح حسين و الطريحي التربوي، ين و حمادي، حسين ربيع. (2001) مبادئ القياس و التقويم التربوي، مكتب أحمد الدباغ، بغداد.

علي، الهام عباس حسن.(2001). الصحة النفسية و علاقت الثانوية، لضبط لدى الطلبة المرحلة الثانوية، كلية التربية، أبن رشد جامعة بغداد، رسالة ماجستير(غير منشورة).

العمايرة، محمد حسن.(2000). أصول التربية التاريخية والاجتماعية والنفسية ، ط2 دار المسيرة.

كفانـــي، علاء الدين. (1989). تقدير الذات في علاقته بالتنشئة الوالية والأمن النفسي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت.

المومني، محمد الصمادي، احمد (1995). اثر الجنس في المستوى التعليمي والاقتصادي في مفهوم الذات ومركز الضبط لدى المعوقين حركيا مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد (11) عدد (2).

النواب، ناجي محمود ناجي (1991). بناء مقياس للقلق العصابي لدى طلبة الجامعات، كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد، رسالـــة ماجستيـــر (غير منشوره).

نجـــــم، نادية خلف. (2002). مراقبة الذات والقلق وعلاقتهما بالأداء المدرسي لدى طلاب الصف السادس الإعدادي، كلية الأدب الجامعة المستنصرية، أطروحة دكتوراه (غير منشورة).

Ajzen, Icek,(2000) Perceived Behavioral Control , Self-Efficacy, Locus of Control and Theory of Planned Behavior in Press ,Journal of

Applied Social Psychology ,University of Massachusetts,

Amherst.

Bichler,Report ,F.(1974)Bsychology Applied to Teaching ,Boston.

Bishop , Joseph ,L.(1970).The Relationship of Faculty Members perceived sense of security –insecurity to the instructional innovation in the community college, dissertation Abstract I,Vol 32,M5..

Cronbach,L.J.(1960).Essentials of Psychological Testing .Harper and Row Publishers. New York

Derksen, J.,(1995).personality Disorders clinical and treatment Based on D.sm Ivan (CD) (10) chichester, John Viley & Sous.

Doherty,W.J.(1983).Impact of Divorce anlocus of control orientation in Adult women, A longitudinal study ,Journal of personality and social psychology ,vol.44,No4.

Halpin ,G. & et.al ,(1985) . Teacher as Related to locus of control sex and age , The Journal of expermental Education , vol (53). no(53)

_____& others .(1987).Locus of control.As Amodifier of rhe Relation ship Between stressors and moods .Journal personality and

Klinger,D.O.(1980).public personal management context and strategies prentice-Hall Inc –Englewood cliffs.

Maslow,A.H.(1968).Toward Psychology of Being .New york,van Nostrad.

Meng-Chyum Cityn.(1992).puplil control Ideology Locus of control ,Effect in students study Habits and Attitudes ,Jouranal of Education and psychology Volume 15,1

Misto,A.A,& Garmon ,M(1981).Locus of control and Development Gain Demonstrated by Risk infants,Journal of Psychology

Social Psychology Vol.41.N

Olsen, J.M & Ross.M.(1985),Attribution Research past contribution current trends and future prospect in harrey J .H & weary ,G (eds) Attribation academic press

Packard Richard ,D & others.(1995).Profssors collabovating on bulding and clasroom management skills ,major reform program Paper prentecl al ,the Annual meeting of the American Association of school Adinistrations,CA

دائرية الزمن و دلالته في روايات إبراهيم الكوني

الدكتورة: وردة معلم
قسم اللغة و الأدب العربي
جامعة 08 ماي 1945- قالمة

الملخـــص:

يمثل الزمن الدائري مستوى من مستويات الكتابة عند الروائـــي إبـــراهيم الكوني، فهو يعكس اهتمامه المثير والمدهش بالفضاء الصحراوي الممتد من السودان شرقا إلى الجزائر غربا، و من تونس شمالا إلـــى مـــالي والنيجـــر وبوركينافاسو جنوبا، و ترتبط فكرة دائرية الزمن التي تشكل جوهرا أساسيا في الروايات الكونية بالواقع الفيزيائي لهذا الفضاء السحري الغامض، كمـــا ترتبط بالتاريخ الذهني و النفسي والاجتماعي لقبائل الطوارق، مـــن دون أن أنسى الأسطورة التي يبني على أنقاضها هذا الروائي أفكاره و رؤاه، و قـــد انعكس كل ذلك على طبيعة الحدث الروائي الذي يتناول تناقضـــات الحيـــاة الصحراوية بكل تفاصيلها من خلال هذه الدائرية المؤثرة تأثيرا كبيـــرا جـــدا على البنية السردية لأعماله، و من هنا يأتي توقفي عند هذا الموضوع الـــذي اعتبره محوريا لقراءة أعمال إبراهيم الكوني.

1- تعريـــف الزمـــن:

أ- لغـــة:

تحيل كلمة الزمن في معاجم اللغة العربية على معان كثيرة، فقد جاء في القاموس المحيط، « الزمن اسم لقليل من الوقت وكثيره، والجمع أزمان وأزمنة وأزمن .. »[1]

و أما في المعجم الوسيط فقد ورد بمعنى « أزمن بالمكان: أقام به زمنا، والشيء طال عليه الزمن، يقال، مرض مزمن وعلة مزمنة، والزمان: الوقت قليله و كثيره، ويقال السنة أربعة أزمنة، أقسام وفصول ...والمتزامنتان كحركتان دوريتان تتفقان في زمن الذبذبة و الطور....»[2].

كما جاء في معجم مقاييس اللغة بالمعنى الآتي: « الزمن هو أصل يدل على وقت من الوقت من ذلك، والزمان هو الحين قليله و كثيره، ويقـــال زمـــان وزمن، والجمع أزمان و أزمنة، قال الشاعر:

وكنت امرأ زمنا بالعراق عنيف المناخ طويل التغن »[3]

وجاء في أساس البلاغة« خلا زمن فزمن، وخرجنا ذات الزمين، و أزمن الشيء، مضى عليه الزمان فهو مزمن. و من المجاز: أزمن عن عطاؤك: أبطأ علي »[4].

و فيما يخص هذه المساءلة المعجمية المتعلقة بمادة (ز م ن) يمكن تسجيل الملحوظات الآتيـــة:

تدل كلمة زمن على: الوقت و الدهر والمرض والعاهة، و هي أهم المدلولات التي اتفقت عليها المعاجم العربية القديمة و الحديثة.

ب- اصطلاحـــا:

ينهض الزمن بدور هام في حياتنا لذا كانت عناية الفلاسفة وعلماء الاجتماع والنفسانيين والأدباء والفولكلوريين به كبيرة وعظيمة، فلقد أدرك

كل أولئك الدارسون أن الزمن إنما يعني الوجود بكل ما يحتويه منذ بدء الخليقة أين كان يسود الظلام إلى مرحلة تشكل العقل البشري أين حل الضياء مكان الظلمة، فبين المرحلتين: هناك الزمن الحاضر والزمن الماضي، وهناك الإنسان الذي يتطلع إلى المستقبل، وفق خطية زمنية تخضع كلها لقوى الطبيعة ومظاهرها المختلفة، وعندنا نحن المسلمين نقول إنها تخضع لحكمة أراد الله لنا أن نعيش وفقها.

وإذا أردنا أن نضع سؤالا عن تاريخ الزمن، لقلنا إن تاريخه مرتبط بتاريخ ظهور الإنسان، هذا الإنسان الذي تحسس ذاته، والأشياء من حوله، فأقام معها تصالحا قوامه الزمن، الذي توصل إلى قياسه وفق دورات الطبيعة، فهي التي ساعدته على وعي ذاته وإدراكها، وهي التي نبهته إلى الزمن الكرونولوجي، الذي غدا في مرحلته الأولى موصولا بالزمن الأسطوري، ذلك الزمن الذي رأى من خلاله الإنسان الأول العالم، وهو يخضع لقوى الطبيعة المختلفة، فكانت الأساطير و الملاحم أولى المراحل الزمنية، الموصوفة بالعجائبية والغرائبية. كان الزمن الأسطوري زمن البدايات، وزمن مغامرة عقل الإنسان الأول، هو الزمن الذي مهد للتاريخ الإنساني أن يستمر فيسجل ويدون، ذلك أنه لولا الزمن الأسطوري لما وجد الزمن التاريخي أو الزمن الخارجي، لأن الزمن بمعناه الداخلي والخارجي هو « روح الوجود الحقة ونسيجها الداخلي، فهو ماثل فينا بحركة لامرئية حين يكون ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا، فهذه أزمنة يعيشها الإنسان وتشكـــــل وجوده. بالإضافة إلى أن الزمن الخارجي أزلي لا نهائي يعمل عمله في الكون والمخلوقات ويمارس فعله على من حوله »[5].

فمنذ فترة مبكرة جدا من التاريخ الإنساني، أدركت الشعوب والحضارات القديمة حقيقة الزمن فراحت تصوره بمختلف مظاهره التي

مكنتها من قياسه، ومن ثمة إدراك مسألة قصره وطوله، والحقيقة أن هذه الشعوب لم تختلف في عد الزمن مسألة إنسانية بالدرجة الأولى، ومعنـــاه لا وجود للإنسان بدون الزمن ولا وجود للزمن بدون الإنسان، فوجود أحدهما مرتهن بوجود الآخر.

قد تفتقر لغات بعض الشعوب إلى الصيغ الزمنية، كما قد تختلف النظرة إلى الزمن والطريقة التي يقسم وفقها، إما باستخدام التقاويم الشمسية أو القمرية أو استخدام الساعات الرملية التي وجدت عند اليونانيين القدامى..... ولكن من المؤكد أن شعوب العالم القديم اتفقت على عد الزمن دائريا.. « وهذا التصور ربما ناجم أيضا، أو مستمد من الكون نفسه الذي هو بالتالي دائري، أو كما يقول **comford** من دوران السنة أي القرص »[6].

والذي لا شك فيه، أن هذا التصور، إنما نتج عن الأهمية التي اكتساها الزمن في حياة الإنسان، فتواتره على شكل فترات منتظمة، ولد لديه فكرة التناغم المتكرر التي، « أصبحت فيما بعد بعدا أساسيا وجوهريا لتقييم الزمن وقياسه، فتاريخ هذه الفكرة يعود إلى الأسطورة المتعلقة بالقمر أور **(ur)** في إحدى الحضارات القديمة التي كانت تعبد القمر، لان المراحل القمرية (من هلال وبدر وقمر) مثال واف وجلي للتكرار المستمر لهذه الظاهرة من جانب ومن جانب آخر، فهو أي القمر يمدنا بوحدة قياس للزمن من السنة الشمسية »[7].

وقد حاول أرسطو التأكيد على حقيقة دورانية الزمن، وذلك عندما عرف الزمن بقوله إنـــــه « عدد أو سلسلة موجودة في تصورنا نحن لأجزاء الحركة سابقة وأخرى لاحقة، أي لبعـــــد أو قبــل »[8].

كما نلحظ أن تصور أرسطو للزمن قائم أساسا على النزعة الذاتية التي تؤكد انه وثيق الصلة بالإنسان، فوجود الإنسان شرط ضروري لوجود فكرة

الزمن، الذي هو خاصية إنسانية حتى وان اختلف في طريقة فهمه من شعب لآخر.

و استمر الجدل حول فكرة الزمن، ففي القرون الوسطي كان الخلاف قد تمحور حول اتجاه الزمن أهو خطي أم دائري، « ونتيجة ذلك وقع علماء وباحثو علم الفلك والتنجيم تحت تأثير المفهوم الدائري للزمن بينما كان أتباع المفهوم الخطي هم طبقة المال ورجال الاقتصاد الذين قادهم الأمر أخيرا لأن يطلقوا على الزمن مال »[9].

وأما في القرن التاسع عشر الذي عرف اختراع الساعة البندولية فقد شهد تغير النظرة للزمن، وقد أحدث هذا الاختراع انقلابـــا عظيما في مفهوم الزمن.

ومع بداية العصر الحديث توسع النظر إلى الزمن، فلم يعد مرتبطا بالتصورات الدينية ولا بقضية الموت و لا الطبيعة بل توسع المجال أكثر للاهتمام به، وامتدت مجالاته لتشمل جميع الضروب المعرفية، من فلسفة وعلم النفس والرياضيات والفيزياء والأدب فتعددت بذلك دلالاته و اختلفت معانيه، و كل ذلك مرتبط « بحسب ما تفهمه الشعوب منه و ما تراه من توظيفات ممكنة له، و عن ذلك نشأت دلالاته و اختلفت و تنوعت»[10].

2- تمظهـــرات دائرية الزمن في روايات إبراهيم الكوني:

تقوم فكرة دائرية الزمن على الديمومة التي تعد أهم ثيمة من ثيمات الكتابة لدى إبراهيم الكوني و هي مستمدة من تصور الشعوب القديمة للزمن فقد عدته متكررا، أي أنه يقوم على فكرة التتالي و الدوران التي وجدت لها أساسا صلبا فـــي روايات هذا الكاتب الذي يبنـــي بدايات أحداث رواياتـــه

من أحداث نهاياتها فاستحال بعد ذلك الزمن الدائري محور مشروعه الروائي، محورا تلتقي عنده كل خصائص الكتابة لديه.

إن المتمعن في كتابة " إبراهيم الكوني" الروائية يجد أن الصحراء تشكل الموضوع الرئيسي فيها فهو يعتمد على تراثها اعتمادا مطلقا جعل الرواية عنده تعاش، و الصحراء تروى بكل مظاهرها حتى المتناقضة منها، وقد انعكس الفضاء الصحراوي المثير تارة، و الغامض تارة أخرى، على طبيعة الحدث ذي الطابع التكراري بشكل عام، و على تشكل الزمن بصفة خاصة حيث أخذ هو الآخر صفة الدائرية، وكلاهما ينبع من خصوصية المكان الصحراوي « حيث تنطلق الأحداث و الشخوص كي تعود إليه في زمن دائري، يتكون من مستويات زمنية عدة يتقاطع عبرها نظام الحياة البدوي القائم على الترحال الدائم، ووقائع الصراع القبـــــلي و أحداث الغزو الخارجي »[11].

و يصبح الزمن الدائري في هذا العالم جزءا لا يتجزأ من رؤية الكوني، حيث يحاول في مشروعه الروائي الضخم معالجة جدل الحياة و تناقضاتها المستمرة من خلال هذه الدائرية المنعكسة و المؤثرة تأثيرا كبيرا جدا على البنية السردية لأعماله.

لقد طعم الكوني هذه الدائرية المرتحلة دوما و الحاملة هم الإنسان اليومي بتجارب مستقاة من صلب الواقع الذي تحياه شخصياته الروائية، فتجربة السحرة و الكهـــان و رياح القــبلي الحارقة، و الشمس الحارة، والقمر المنير، و الودان المقدس، و أزهار الرتم الخالدة، و شعائر و طقوس الـــولادة، و ميلاد المهري، و مواسم الحل و الترحال، وقوافل التجار العائدة من تمبكتو و كانو، وغيرها، كلها تجارب تؤكد على وجود جدل عنيف تعيشه الشخصية الكُونية، طرفاه الولادة و الموت، لان الزمن عند الكوني كما تطلع

عليه رواياته يحاول أن يتقدم بالاتكاء على التجارب السابقة لكنه يفشل ويصر على العودة مرة أخرى إلى نقطة الانطلاق، حيث تكون الحياة دوما قابلة للتجدد و الانبعاث.

و تعيش هذه المفارقة كل الشخصيات دون استثناء، ولعل السؤال الذي نود طرحه في هذا المقام هو لماذا قوض الزمن الكُوني الحياة وحاصرها بهذا الشكل؟. هل يرجع الأمر إلى طبيعة الزمن الدائري، حيث أن البداية فيه تكون نهاية له؟ أم أن طغيانه على الحاضر الروائي جعل من الشخصية تستسلم و تذعن لمصيرها بإرادتها، فتموت موتة العنقاء حيث من رمادها تولد عنقاء أخرى و هكذا؟ وهل أن سطوة الزمن الدائري تؤكد على أن الشخصية عنده تقوم بدور أم هي مجرد وظيفة لا تخرج عن وظيفتي الميلاد و الموت ؟

في الرواية الكُونية يجري الزمان كما لم يجر أبدا، حيث تمر الأيام والأسابيع و الشـــــهور، و الليل و النهار متعاقبان دوما، و الشمس و القمر قبتان من قبب السماء. تندفع تحتهما الحسناوات في ليالي اكتمال القمر بدرا، و يرافقهن الإمزاد بصوته الشجي الذي لم يكف يوما عن عزف مرثية الوجود، و ترقص المهاري على أنغام الصبايا فتتفتح الأعشاب بعد غياب طويل فتظهر حينئذ الطلحة و يزهر الرتم المقدس فيتجدد الحلم، و لا يفوت الشباب الفرصة لاختيار القرينات في ليالي الســـــمر، وهكذا في تكرار متواصل لا يكف الكون الصحراوي عن التوالد، طالما أن كل مظهر من المظاهر السابقة هو نقطة بدء لحياة جديدة لا تلبث أن تنهي حلقاتها الواحدة تلو الأخرى، لأن النذير القديم يقول أنها ستعود و إن هددتها رياح القبلي القاسية أو جرفتها السيول العارمة، أو انقطع الرزق من السماء، فلا بد أن تأتي العلامة، « بعدها جرى الزمان كما جرى من قبل، وكما سيجري من

بعد و تدفقت مياه وفيرة في قيعان الوديان، وقالت الشاعرات أشعارا شجية وعرفت القبيلة الأوبئة أيضا، فمات معمرون، و ولد أبناء كثيرون، و قرأ العرافون النبوءات في عظام القرابين، فتململت القبيلة و تهيأت لتبديل مكان أقامت فيه أكثر مما ينبغي، لأن الحكماء رأوا في الاستقرار خيانة للعهد القديم، و قالوا أن الرجال إذا أقاموا في المكان طويلا صاروا عبيدا للمكان مثل أهل الواحات »[12].

والذي لا شك فيه، أن هذا التصور، إنما نتج عن الأهمية التي اكتساها الزمن في حياة الإنسان الصحراوي، فتواتره على شكل فترات منتظمة قد تثبت على حال واحد طيلة أيام السنة، ولد لديه فكرة التناغم المتكرر التي شكلت جوهرا أساسيا في الروايات الكُونية، بحيث عكست مفهومه للزمن الذي أتى دائريا منسلخا من الواقع الفيزيائي الذي تتميز به الصحراء، وخارجا من رحم الأسطورة.

ولهذا ارتبطت فكرة دائرية الزمن الكُوني بالقداسة النابعة من الطبيعة؛ المسؤول الأول عن التصـــورات والأحاسيس والمشاعــر والاعتقادات والسلوكات، و بالأخص تلك التي سنها لهم الناموس و حفظها لهم الكتاب الضائع إنهي، فتتواشج الطبيعة و الناموس الذي يمثله العرف الاجتماعي في التحام أبدي بحيث لا نصبح نفرق بين أي من القانونين يسود، و أيهما المنتج الفعلي لهذا العالم السحري الغامض، الذي تستجيب فيه قبائل الصحراء لهذه الدائرية التي يغلف فيها الزمن الحياة، و يطبعها بطابعه الخاص، فلا تهتم بعد ذلك كائنات الصحراء إن هي تنفست صهد القبلي، أو ارتوت من أنفاس الشمال الندية أو حتى توشحت بنسمات الصباح العابرة التي ستترك لفحات الشمس تعبر و تمر لتحـــــرق مرة و مرات و إلى ما لانهاية، من دون أن يكترث الخلق بقسوة الهبة الإلهية «مع حلول العشية وتزحزح القرص

الملتهب عن العرش في قلب السماء مودعا بالعودة في الغد لإتمام مهمته في إحراق ما لم يستطع إحراقه اليوم، يحشـــــو أسوف ذراعيه في رمل الوادي، و يبدأ في التيمم لإنجاز صلاة العصر »[13].

لم تشل دائرية الزمن حركة الشخصيات، فهي تعيش وتأكل وتسافر وتعشق وتفعل و تنفعل و تتعبد، لكنها محكومة بهذه الدائرية، متواصلة معها، متماهية فيها، ويكشف هذا التماهي عن خصوصية الطبيعة الصحراوية، المنتج الفعلي لكـــل هذه الأحاسيس، « و قد يكـــون إحساسنا بالعودة الدورية التي توحد البداية والنهاية آتيا من الطبيعة – الأيام والفصول والسنين التي تهيئ نموذجا للتصورات عن موت الإنسان وعودته إلى الحياة »[14].

وكدليل على صحة هذا التصور أقدم هذه الأمثلة، ففي رواية "واو الصغرىّ قتل الساحر العراف بمدينته القديمة فــ« قعقع الرعد بعنف واحترق الأفق بالبروق، فالتفت الناس ليروا أن جحافل غيم قاتم قد بدأت تغزو الصحراء من جهة الشمال »[15].

ينجح الكوني، وفقا للقانون السابق، في إيهام القارىء بأن موت العراف كان السبب الرئيس لقعقعة الرعد، فتكون علة هذا الأخير هي فجيعة القبيلة في العراف، ابن السماء، وذلك بعد جفاف طويل حل بمضاربها، وقد كان هذا الوضع كافيا للاقتناع بوجود علاقة بين دائرية الزمن (موت العراف/ أمطار / جفاف، (موت ؟) /أمطار / جفاف) و موت العراف.

و يزداد الاقتناع أكثر عندما نعلم أن تفسير نبوءة العذراء كانت بعد مقتل العراف مباشرة، و كانت تعنيه عندما أشارت إليه بكلمة غراب، و بمجرد معرفة معنى النبوءة انهمرت الأمطار التي هي علامة على تحقق النبوءة كما اعتادت القبيلة أن ترى في العلامات السماوية إشارة على صحة التفسير.

و بهذا يمكن عد تراث هذه القبائل الذي تلعب فيه الأوهام الدور الأكبر، حلقة رئيسية من حلقات دائرية الزمن الذي يصبح معناه موصولا بفكرة الانتماء إلى الأسلاف، و ينبغي أن أشير إلى أن العراف كان صديقا للزعيم والأكابر الذين يمثلونهم و هم من أهل الخفاء، وهذا الأمر يؤكد على أن «وجود هذه المجتمعات خارج الزمن الواقعي، و داخل زمن أسطوري دوري مغلق لا تسمح فيه بوصول أي مؤثر خارجي يجعلها بالضرورة عائمة في الزمن الأسطوري الخالص، بحيث يمكن للقارئ أن يستخلص أن هذه القبيلة كان يمكن أن توجد بالطريقة نفسها قبل ألف عام أو بعد ألف عام دون الإحساس بارتباك أو خلل»[16]

و يتكرر المشهد نفسه في رواية " نزيف الحجر "، حيث كان يمكن أن يقتل الراعي أسوف بالطريقة نفسها منذ آلاف السنين دون إحداث خلل في تركيبة الرواية السردية، و لا في قوانين الصحراء، و الدليل هو أن قتل قابيل آدم أسوف شبيه بحادثة قتل الساحر للعراف، والجريمتان معا شبيهتان بقتل قابيل أخيه هابيل، و يكمن الاختلاف الوحيد في علة القتل، فهي بالنسبة لقابيل الكوني سببها وفاء أسوف للطبيعة التي اقتصت من جلاده و عاقبته بالجنون.

و أما بالنسبة لشخصية الساحر في رواية "واو الصغرى" فهي مطالبته بدين قديم له عند العراف، ولما رفض هذا الأخير سده استحق القصاص.

ويؤكد الدَين والنبوءة بمفهومهما الرمزي(رواية واو الصغرى) و أسوف المتحد مع الودان (رواية نزيف الحجر) على العودة المتجددة إلى الزمن الأسطوري –الذي هو أحد ملامح الزمن الدائري – بحيث يصبح هذا الزمن هو البؤرة الحقيقية المشكلة لدائرية الزمن المستدعاة من خلال الإحالة إلى أحداث تاريخية بعينها مستمرة في الحاضر، مندغمة فيه على الرغم من أن وجودها الحقيقي هو في الماضي البعيد الممتد لآلاف السنين، فالنزيف القديم

مستمر، إذن، « استمر نزيف الحجر على اللوح المحفوظ في حضن الرمل، لم يلحظ القاتل كيف اسودت السماء و حجبت السحب شمس الصحراء، قفز مسعود في السيارة، أدار المفتاح في اللحظة التي بدأت فيها قطرات كبيرة من المطر تصفح زجاج اللاندروفر، و تغسل الدم المصلوب على جدار الصخرة»[17].

و بهذه الإحالة المتكررة تكون الأحداث التاريخية هي مستوى من تلك المستويات المشكلة لدائرة الزمن عند الكوني، وتكون في الوقت نفسه الإحالة إلى تراث الأجداد (الودان / النبوءة)، من خلال تلك الحلقة التي يفردها الكوني دوما في رواياته، دليل حضور قوي على النبع الأول، على الانتماء للأم القديمة في غبطة و سعادة دائمتين، و قد عبرت عنهما شخصية أثيرة عند الكوني: « فليعلم مولاي أن كل ما نفعله، منذ انبثقنا من الخفاء، غايته العودة إلى الوراء، إلى الخفاء الذي أنجبنا، عشق النساء، التغني بالحنين، قول الأشعار، الخروج إلى الغزوات، استدعاء القرناء، لا نبغي في الحق، من هذا كله إلا تحقيق أمر واحد، نحاول أن نخفيه عن أنفسنا: الفرار من الصحراء و الوصول إلى البر الأول »[18]

لهذه الاعتقادات المترسخة في الوجدان الصحراوي فإن الزمن في الرواية الكُونية يعد شخصياته بكل شيء، بالحلم، و الفرار، و الضياع، والفشل، و القتل، و بالفجور، والمتعة، وبالمستحيل أيضا فيتزوج وان تيهاي من ابنته، و إيمري من محبوبته، والزعيم المتوفـــى بالعـــذراء، لكن الزمن لا يلبث أن ينتكس عل عقبيه، لأنه لا بد أن يعود إلى المضان الأولى، لهذا تقتل الحفيدة وان تيهاي في رواية "عشب الليل " انتقاما لجسد الأنثى، ويرحل إيمري في" فتنة الزؤان" بأمر من زوجته، التي تعلم بأنه خان مجتمع الشعر بعدما ادعى الانتماء إليه. و أما زعيم "واو الصغرى" فيبقى حيا في النفوس

على الرغم من موته... فهل معنى ذلك أن شخصيات الكوني تعيش مأساوية الزمن الدائري؟ وهل أن حضور هذا الزمن بهذه القوة هو حضور و تجسيد لأزمة الزمن بمعناه الحديث حيث نهاية الشخصية التراجيدية؟ و هل حقا أن تلك الشخصيات تعيش ما يسمى بفقدان الشعور بالماضي؟ فهل هي لعنة الجغرافية، عندما يصبح لها لسان تتكلم به؟ أم هي لعنة الجسد الصحراوي المتحول إلى طقس تضحوي شبيه بطقوس القرابين الوثنية؟ أم هي لعنة الجد مندام الذي أكل اللقمة الحرام، فضيع نفسه والصحراويين من بعده؟.

تحمل دلالات الزمن الدائري مقاربات لهذه الأسئلة ذات الطابع الوجودي، و أولها أن هذا المجتمع الذي نحن بصدد التقرب منه يعيش ملحمة كَونية بكافة تفاصيلها، بظاهرها و باطنها، حاضرها و غائبها، معقولها و لا معقولها، فـ« لا يوجد فرق بين الفعلي و الرمزي في الصحراء، و هذا التداخل بين الثنائيات المتقابلة يلغي الزمن بمعناه الحديث، و يحوله إلى زمن قابل للتحديد والوصف إلى قوة مجهولة حاضرة دائما، الزمن دائرة تغلف الحياة نفسها، و بالنتيجة يجعل هذا التكرار المتواصل و البدء الأبدي من الحياة البدوية حياة بلا زمن، لأن أي زمن هو نقطة بدء جديدة لزمن سابق»[19].

و هذا المعنى لا يلغي بدوره فكرة التواصلية أو الاستمرارية لأن الكوني يعيشها بعودته المستمرة إلى ماضي أجداده، هذه العودة التي نفسرها بإعادة النظر في قيم هذا المجتمع الغارق بدوره في قيم الأبدية، و الروائي يبعث و يجدد الأمل فينا من خلال هذه " العودة المتكررة إلى الحدث الواحد " الذي يلتقط فيه قضية الصراع الحضاري الذي يظهر في شكل نزاعات بين القبائل و الطرق الصوفية تارة و بين العوالم الإنسية و اللاإنسية تارة أخرى.

و قد انعكست هذه الصراعات على البناء الزمني للرواية الكُونية، حيث حاول الروائي تجريب هذا الشكل الذي نتجت عنه رؤية زمانية خالصة تحمل « وجهات نظر مختلفة تمثل المنظور الزماني للجماعة في وعيها المكثف باللحظات الفارقة في تاريخ القبيلة من ناحية، فيما نلفي الحدث نفسه من منظور شخصـــية أو أكثر من الشخصيات المشاركة في الفعل القصصي بصياغة مغايرة من موقع زمني آخر »[20].

و أما عن المقاربة الثانية للأسئلة السابقة فهي شديدة الصلة بالمقاربة الأولى، وهي تظهر في شكل استرجاعات هي دليل حضور قوي على دائرية الزمن. و قد نتج عن استخدام هذه التقنية استخدام أفعال ماضية كثيرة جدا، حملت، هي الأخرى، جدلا عنيفا بين الماضي و الحاضر الذي يبدو حضوره باهتا و خافتا، و تظهر الاستباقات –القطب المعاكس للاسترجاعات– بدورها هذا الخلل المنعكس على البنية السردية للروايات، غير أن الزمن الدائري الذي يستخدم كرؤية و تقنية في الوقت نفسه يتفوق على المفارقة التي يحققها الزمن السردي (الاسترجاع و الاستباق) و يصبح قوة ضاغطة تنفتح مرة وتنغلق مرات، و «هذه الحركة لا شك أنها تتسم بالنكوص حول نفسها ومن ثم تسم الزمن بالدائرية »[21].

و لعل في عدم اهتمام إبراهيم الكوني بتحديد أزمنة رواياته، يرجح هيمنة فكرة دائرية الزمن، التي نحرص على القول بأنها تحاول إلغاء مفهوم البطل الملحمي، لأن تكرارية الزمن و الحدث معا تشدد على القول بأن شخصيات الكوني الغارقة في تراث الأسلاف تؤدي أدوارا مهيأة له مسبقا ما دامت الفكرة تقوم على نقطة بدء جديدة على زمن سابق حسب تعبير سعيد الغانمي، و سيستمر هذا الدور ما دام مجتمع القص البدوي معنيا بالبحث عن "واو"

الجنة المفقودة، وهذا الأمر يتنافى مع مفهوم الرواية الملحمية اللصيقة بالتناقضات التي أفرزتها المدنية.

و في الحقيقة واجهتني، في قراءاتي الأولى للكوني عدة أسئلة، أهمها متعلق بحقيقة أبطاله و طبيعتهم، و كنت حينها أبحث عن بطل جاهز بمواصفات معينة يكون على شاكلة مصطفى سعيد أو متعب الهذال أو وديع عساف... حتى أرفعه إلى مصاف هؤلاء الأبطال، لكن شخصيات الكوني أربكتني، وجعلتني أترجل حافية بحثا عن مواصفات أبطاله فماذا وجدت؟، وجدت ودانا ينقذ إنسانا فيكتسب صفة البطل، و أبلقا يفضله صاحبه على زوجه، و أوتار إمزاد ترفع الحاضرين إلى موطن الرؤى السماوية، وقصيدة تشبه طلاسم السحر، تحول المشلول إلى محبوب و المحبوب إلى مشلول، وترفاسا يبعث بآكله إلى الجحيم لأنه بالغ في أخذه فأناله العقاب ... وإذا بالرواية الكُونية تختلف بناء لتتماثل على المستوى الدلالي الذي قد تضيق به استدارة الزمن أحيانا، كما قد تتسع به أحيانا أخرى، لهذا السبب يفضل الكوني« اعتماد الديمومة الزمنية و الاستدارة واستعادة الأصل المنفتح و سردية المعنى و الحال و التخييل والتجريد و الإيحاء على نسبية الزمن و خطية التتابع و السيرورة و سردية المكان بأشيائه وتفاصيله والتذكر و المطابقة "[22].

و كتابه كهذه تضع نفسها خارج التنميط الذي ساد الرواية العربية، و تعطي لنفسها الدليل على أن القضية عند الكوني ليست مجرد لعبة سردية و إن أتقنها بامتياز، بل هي أركيولوجيا الكتابة الباحثة عن التاريخ و الذاكرة و اللحظة الراهنة، وهذا سيسقط بدوره مفهوم الحتمية التاريخية التي تعني أن كل شي لا بد أن يتقدم إلى الأمام، بالضرورة، لان الحضارة اليوم تتراجع و لا بد للرواية أن تتراجع هي الأخرى، و لكن نحو بحث عن شكل جديد

يتناسب و منحى الكتابة عند الكوني الذي لم يجد بأسا من تحويل عقارب الساعة، فجعلها تنحرف عن اتجاهها و تأخذ الاتجاه المغاير تماما، ولم يؤثر هذا الوضع على منحى كتابة تنتمي زمنيا إلى فوضى حضارية يعيشها العالم بأسره وهذا لأن« جميع الاتجاهات تتماثل تقريبا في الفضاء اللامحدود»[23].

لقد بدا للكثيرين من قراء الكوني أنه معني بكتابة المغامرة أو ما يسمى بالكتابة السحرية لكنني أرى أن اختيار الكوني الصحراء كموضوع رئيسي في كتاباته ينم عن توجه و عقيدة و تشبث منه بتراث أجداده الطوارق، تشبث بالحياة الأولى، و بالطفولة الإنسانية حيث تبرز رحلة الإنسان الأولى مع العالم الذي يحيط بها، رحلة توصف بالبراءة حيث ان الكل منشغل فيها بلقمة العيش و مجابهة الخطر بالوسائل البدائية كأن تكون رقصة، أو أغنية، أو تعويذة، أو طلسما، و انعكس هذا الفضاء السحري والعجيب على فهم الكوني للزمن و إدراكه له إدراك المتبصر والعارف بحقيقة الكون ذاته يقول: « فـــي أوان الطفولة الذي نستشعر فيه الأيام أعواما، يتجلى إغواء الزمان، وفي أوان الشيخوخـــة الذي نستشعر فيه الأعوام أيامـــا، يتجلى خبث الزمـــان »[24].

و إزاء هذه الحقيقة المرعبة تتوجه لغة الزمان و منطقه و أنطولوجيته نحو التخلي عن مادية العالم المعاصر، لأن التخلي بالفقد أهون من الهزيمة نفسها، واقتصاص الصحراء من أبنائها أهون من اقتصاص الإنسان من أخيه الإنسان، لذا فالصحراء تضيق و تتسع و العاقبة لمن تخول له نفسه معاداتها أو يحاول أن يستولي عليها، و الصحراء بهذا المعنى هي الوجود، هي فردوس العالم أو روحه، و العالم بغيابها صحراء، إنها معادلة صغيرة ولكنها ذات دلالة كبيرة جدا، هذه الجدلية بين الظاهر و ما وراء الظاهرة هي سر إبداع الكوني، و هي التي جعلت بداهة الزمن الدائري يوصف بأنه المعبر

الحقيقي لهذه الروح التي تدخل في صراع مع البدن(يتجلى هذا الصراع في رواية ملكوت طفلة الرب سيرة أنا الكوني)، وهذا هو جوهر القضية جوهر الصراع الذي يتخذ من كل مظهر من مظاهر الصحراء مأوى له كأن يكون زهر الرتم مثلا« و لكن الرعاة يقولون أن للزهو سرا آخر، يقولون إن الزهور تأسرنا لأنها تعيدنا إلى الماضي، إلى الزمان الميت، ولا تنفينا في وقت مجهول، آت، كما تفعل كل الكائنات التي تستبد بنا، و لكنها تبتسم لنا وتمن علينا بعطرها، و تغوينا لكي تعيش، لكي تستمتع بالوقت الوحيد الذي نملكه، بالومضة، بالغمضة الخاطفة، خاطفة و لكنها حقيقية لأنها حاضرة، ولأنها الحياة التي عجزنا في نيلها، يضيف الرعاة فيؤكدون أن هذا سر ولع الصحراوي بالزهور، كل الزهور، أما الحنين، أما الوجع الذي يثيره زهر الرتم في صدور العشاق فهو مثله مثل الغناء مثل عبير الترفاس من طبيعة أخرى، لأنه مستعار من تراب أرض أخرى، من تراب ذلك الوطن المفقود الذي قدر للصحراويين ألا يدخلوه ما لم ينتحلوا أجراما أخرى ليس لها طبيعة الأبدان أجراما لا تتسلط عليها الذاكرة و ليست عاجزة عن الالتئام بدنيا الخفاء »[25].

إذن، تتجلى حقيقة الزمان الدائري في حقيقة الصحراء نفسها، في بشرها و نباتاتها و أزهارها و حيواناتها، و في كل شيء تدب فيه الروح لأن الحياة فيها تحتكم بصفة عامة إلى قانون الاستدارة التي تعبر عنه ثنائية الحياة والموت التي تختزل التقسيم العادي للزمن (ماض، حاضر، مستقبل)، و في الوقت نفسه تخلص هذه الكائنات من ربقته، و بسبب هذه الازدواجية يبدو الزمن الدائري مرة في صورة المعتدي السالب لكل المظاهر الجميلة في الحياة، و في صورة المانح لها مرات أخرى. يقول الكوني: « زمان الصحراء، أيضا زمان موقوف، زمان معطل، زمان جامد، زمان موجود،

زمان حاضر، زمان خالد لأنه استطاع أن يأسر أركان الزمان الثلاثة (الماضي، الحاضر، المستقبل) و حشرهم في معقل واحد. هذه الأعجوبة التي أبدعتها الصحراء هي سر افتتان الخلق بالصحراء، هذه الأعجوبة جعلت من البعد الميتافيزيقي للزمان بعدا وجوديا، بعدا حقيقيا، لأول مرة في تاريخ التساؤل عن ماهية الزمان، فاستطاع الإنسان، بهذا الإنجاز، أن يسترجع هويته الضائعة،: الحرية »[26] فمنذ فترة مبكرة جدا من التاريخ الإنساني، أدركت الشعوب والحضارات القديمة حقيقة الزمن فراحت تصوره بمختلف مظاهره التي مكنتها من قياسه، و بالتالي إدراك ماهيته الإنسانية، (الزمن خاضع للفعل الإنساني).

والحقيقة أن الطوارق، كما يصورهم الكوني، لم يختلفوا عن هذه الشعوب في عد الزمن مسألة إنسانية بالدرجة الأولى، ومعناه لا وجود للإنسان دون الزمن، ولا وجود للزمن دون الإنسان، فوجود أحدهما مرتهن بوجود الآخر، لذا راح الكوني يستعيد هذه الحقيقة ليجعل منها قانونا للعبة سردية تجمع بين المتناقضات، فمن جهة هناك الزمن الدائري والزمن الخطي و الزمن الأسطوري، و من جهة أخرى هناك الزمن الداخلي والزمن الخارجي، ذلك أنه لولا الزمن الأسطوري، مثلا لما وجد الزمن التاريخي أو الزمن الخارجي، لأن الزمن بمعناه الداخلي والخارجي هو « روح الوجود الحقة ونسيجها الداخلـي، فهو ماثل فينا بحركة لامرئية حين يكون ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا، فهذه أزمنة يعيشها الإنسان وتشكـل وجوده. بالإضافة إلى أن الزمن الخارجي أزلي لا نهائي يعمل عمله في الكون والمخلوقات ويمارس فعله على من حوله »[27].

لكن هذا الفهم الحصيف للزمن لا يكتمل عند الكوني لذا شيد في صحرائه المجازية ما يثبت البعد الميتافيزيقي للزمان الدوري – الذي يلف

ويطوق كل أنواع الزمن المذكورة–، وقد وجده في حقيقة أخـــرى مروعـــة، وجد بعد الزمان المفقود في المكان، فلا يمكن للكوني أن يتصـــور أحـــدهما بمعزل عن الآخر، فهما متصلان، مندغمان، متشابكان، متـــداخلان، ويقـــدم كاتبنا كعادته حكاية تروي قصة هذا الالتحام الأبدي، ففـــي "واو الصـــغرى" يبني عاشق حجارة الصحراء دارا للقرابين، قبابها و أبوابها و جدرانها و كل شيء يظهر فيها يأخذ شكلا دائريا: « بدا العاشق، أخيرا في تشييد البنيـــان، شذب الصخور و سوى ألواح الصلد، و تحولت الحجارة بين يديه قطعا مـــن عجين فكان أهل النجع يرمقونه بإعجاب و هم يرونـــه ينهمـــك فـــي صـــنع الأحجار بلهفة عاشق حقيقي، و تحول الإعجاب إلى دهشة عنـــدما أبصـــروا قيام أبنية متداخلة ثلاث قباب دائرية جليلة، شيد فوق الضريح بيتا مستديرا، ذا قبة مستديرة، وابتنى بالجوار بيت العذراء، وجعل بينهمـــا بابـــا مقوســـا، دائريا أيضا ... باب نقوس، مستدير و جدران مستديرة و شعفة مستديرة في الأعلى لم يكن البنيان أعجوبة لأن سلالة العابرين اعتادت أن تتجنب الأبنيـــة و لم تعرف في سبيلها إلا قبور العابرين، وأضرحة الأولين و لكن الحكمـــاء أكدوا أنهم لم يروا للبنيان مثيلا حتى في أكثر الواحات، رفاهة و ترفا، فغاب عن العقلاء أنفسهم، الشبه الخفي الذي استعاره جرم البنيـــان مـــن أضـــرحة أسلافهم و قبور أجدادهم و هو جرم أرجعه القوم إلى افتتان عاشق الحجـــارة بالجسم الدائري و إيمانه الغريب باستدارة كل جسم خفي »[28].

تظهر مجموعة من السمات الأسطورية لهذا المـــزار الدائري الـــذي يأخذ اسم دار القـــرابين، و يمكـــن النظر إليه مـــن مســـتويين: شـــكلي ومعنوي.

و أما عن المستوى الشكلي فتمثله الطريقة الدائرية التي بنـــي بهـــا المزار، وهي تستند إلى فلسفة عميقة جدا ترى في الاستدارة أصلا لكل شيء بما فيها البناء الذي يمثله المزار.

تمنح إذن الصفة الدائرية للمزار خواصا أسطورية مســتوحاة مــن اعتقاد الباني باستدارة الكون بكل مكوناته، و قد تمكن من إقناع أهل القبيلــة بصحة اعتقاده عندما أوصله بأهل الخفاء اللذين لهم سلطة قوية جــدا علــى عقولهم وأفئدتهم .

وأما عن المستوى المعنوي فهو الآخــر مــنح لــدار القــرابين ســمات أسطورية، قربتها من دور العبادة من خلال طقوس تضحوية كانــت القبيلــة تمارسها عند ضريح الزعيم الذي كان يرسل النبوءات على لســان العــذراء التي زفت له في موكب مهيب .

و قد كانت القبيلة تذبح عنزة سوداء فور تلقيها النبوءة، و هو الأمــر الذي يضعني أمام عبادة وثنية لوجود قرابين و أضاحي حيوانيــة تطــورت بمرور الأحداث و أصبحت أضاحي إنسانية (موت العراف و موت الحفــار واختفاء عاشق الاستدارة)، و هذه الإشارة الدينية منحت للمكان الذي تتواجد فيه جثة الزعيم صفة القداسة، كما منحته تأشــيرة للتواصــل مــع الســلطة المركزية الممثلة هنا بأهل الخفاء الذين منحوا بدورهم إمكانيــة أو فرصــة تمثيل واحة "واو" القديمة، أي أن المكان يصبح هنا حاملا لسمات الفضــاء الأسطوري الغائب الذي يعمل الروائي على التأسيس له على مراحل شــكلت حلقات متواصلة، تغير على إثرها نمط عيش قبيلة "واو" من حياة اللااستقرار إلى الاستقرار حول موارد الماء بالقرب من ضريح الــزعيم الــذي حــول المضــارب إلى واحة منحها أهلها اسم "واو" الصغرى تيمــــنا و تبركــــا بـــ "واو الكبرى"، الجنة القديمة، قال لهم أماما: « سموا الواحــة تان أمغار،

ما أنبل هذا الاسم، ما أبهى هذا الاسم، ردده طويلا و ترنح طويلا، و تغنى بالأنين طويلا، لم يخف الأكابر بهجتهم بالاسم و لكنه اسم بقي على شفاههم وحدهم لأن تجار القوافل، و ملل العابرين كانوا قد نقلوا اسم واو الصغرى إلى أبعد الأوطان منذ زمن بعيد »[29].

يكتسي هذا الشاهد أهمية بالغة من حيث إن عنوان الرواية فيه حقق مهمة إنجاز الفضاء المفقود بالاعتماد على قانون النقائض، فـ"واو" المحلوم والموعود بها تبقى مركزا بإضافة صفة الكبرى التي تكشف عنها صفة الصغرى، والتي تكون بالتالي نسخة مصغرة عنها، أقل منها مكانة وشأوا، فقد رجع الراوي إلى مدلولات "واو" السابقة، عندما عبر عن انتكاسة الحلم الصحراوي القديم الذي تحولت فيه – بغياب واو– الحياة إلى خواء على الرغم من الرخاء الذي ساد الواحة الجديدة، يقول الراوي واصفا ومخبرا:« وكثيرا ما يتخاطب التجار الأقدم عهدا بالأسفار متعجبين: مررنا بهذه البقعة مرارا وعرفنا فيها خلاء قاسيا مميتا، فهل نجرؤ بعد هذا على القول بأن السماء كفت عن الجود بالمعجزات؟ ألا يعني أن الخفاء إذا نظر بعين الرضا إلى سلالة جعل لها من لا شيء سببا للرخاء »[30].

ثم يعبر الراوي في خطابات واصفة عن سخطه على مجتمع الواحة يقول: « سكن ديار الواحة صناع وتجار وغانيات وصعاليك (...) بدءوا يجذبون بعضهم مع الزمن على عادة الأغراب ويلتئمون في عصابات ومجاميع ما لبثت أن استفزت بمسلكها وطباعها السكان الأصليين، فوقعت منازعات وتولد فتن واشتعل فتيل الخلاف »[31].

و انعكس الوجه الجديد للواحة المستنسخة على نفوس الخلق الذين لم تتلاءم طباعهم مع الاستقرار فهل هو الشوق إلى السفر، ألا يصاب الخلق بالنحول عندما يبتعدون عن الأوطان؟، ألم يصب أماما سليل الخفاء بالنحول

أيضا؟، يقول الراوي: « وفي السنوات الأخيرة عندما ركنت القبيلة إلى الأرض وارتضت النوم تحت الجدران واستطاع القوم أن يلحظوا التبدل في أجسامهم وفي نفوسهم رأوا أن معمرهم المبجل قد سبقهم في تحولهم وبدأ ينهار لأول مرة في عراكه البطولي مع الزمان، ازداد نحولا وتيبست جلدته على العظم، واشتد في أطرافه الهزال وبدأ يتلاشى ويتبدد، ولم يبق من جسمه إلا لفافة اللثام والثوب الفضفاض»[32] .

إنها، إذن، ملحمة متكاملة للزمان الدائري، بنياتها منسجمة ولغتها ضاربة في القدم، و قصتها راسخة في كل العقول، تلك، إذن، كانت المطالب الشرعية في كتابة "إبراهيم الكوني" كونها أرادت أن تكون تعبيرا صادقا عن التاريخ الذهني و النفسي و الاجتماعي و الأسطوري لقبائل الطوارق النبيلة.

الهوامــش:

1- الفيــروز بــادي: القاموس المحيط (ز م ن)، ضبط و توثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، (دط)، (دت).

2- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط (ز م ن) ج1، المكتبة الإسلامية للطباعة و النشر و التوزيع، استانبول، تركيا،(دط)، (دت).

3- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة باب الزاي و الميم، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420، 1999.

4- الزخشري: أساس البلاغة (ز م ن) تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، لبنان (دط)، (دت).

5- مها حسن القصراوي: الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص13/14.

6- عبد اللطيف الصديقي: الزمان أبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية الدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1996/1415، ص19.

7- المرجع نفسه: ص21.

8- المرجع نفسه: ص10.

9- المرجع نفسه: ص26.

10- أحمد طالب: مفهوم الزمان و دلالته في الفلسفة و الأدب بين النظرية والتطبيق، دار الغرب للنشر و التوزيع، (دط)، 2004، ص09.

11- اعتدال عثمان، قراءة استطلاعية في أعمال الكوني، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، المجلد السادس عشر، العدد الرابع، ربيع 1998، ص288.

12- إبراهيم الكوني: فتنة الزؤان، الرواية الأولى من ثنائية خضراء الدمن، المؤسسة العربية للدراســات و النشر، بيــروت، لبنــان، ط1، 1995.، ص183. ص 183.

13 - إبراهيم الكوني: نزيف الحجر، دار التنوير للطباعة و النشر، ط3، 1992، ص7.

14- والاس مارتن: نظريات السرد الحديثة، ترجمة حياة جاسم محمد، المجلس الأعلــى للثقافة، القاهرة، جمهورية مصر العربية، دط، 1998، ص113.

15- إبراهيم الكوني، واو الصغرى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط2، 1999، ص.177

16- سعيد الغانمي: ملحمة الجدود القصوى، (المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني) المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص.56

17- إبراهيم الكوني، نزيف الحجر، ص.147

18- إبراهيم الكوني، عشب الليل، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص.64

19- سعيد الغانمي: ملحمة الحدود القصوى (المخيال الصحراوي في أدب إبراهيم الكوني)، ص.162

20- اعتدال عثمان: قراءة استطلاعية في أعمال الكوني، ص.239

21- سعيد سليمان – توظيف التراث في روايات نجيب محفوظ- ص 260.

22- مصطفى الكيلاني: زمن الرواية العربية، كتابة التجريب، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، دط، 2003، .194

23- المرجع نفسه: ص.197

24- إبراهيم الكوني: نصوص الخلق، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص.158

25- إبراهيم الكوني: فتنة الزؤان، ص.86

26- إبراهيم الكوني: في طلب الناموس المفقود، نصوص، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص.218

27- مها حسن القصراوي: الزمن في الرواية العربية، ص13/.14

28- إبراهيم الكوني: واو الصغرى، ص11/.112

29- المصدر نفسه: ص250.

30- المصدر نفسه: ص242.

31- المصدر نفسه: ص243.

32- المصدر نفسه: ص248.

دور الأستاذ في إنجاح عملية التعليم

الأستاذة: فوزية عساسلة
قسم اللغة و الأدب العربي
جامعة 8 ماي 1945– قالمة

الملخـــص:

عرفت اللسانيـــات الحديثة عدة فـــروع، تناول كل فرع منها جانبـــا من جوانب اللغة، ومنها اللسانيات التطبيقية التي تعالج موضوع التعليمية، حيث أفاض الدارسون فيها حتى ظن أنه خير ما عالجت اللسانيات على الإطلاق. أردنا في هذا المقال التطرق إلى موضوع التعليم، خاصة الأستاذ لعدّه الركيزة الأساسية فيه، والإجابة عن بعض الأسئلة أهمها: ما هي المؤهلات التي وجب توفرها في الأستاذ حتى يؤدي المهمة الموكلة إليه؟ كيف يمكنه التعامل مع طلبته ليرغبهم في المادة المقدمة، ويمنع أو يقلل من التسرّب نحو الخارج؟ هل من واجبه الالتزام بكل القوانين البيداغوجية حتى يكون ناجحا، أم لشخصيته دور في كسب الرهان؟ هل يكمن الإشكال في البرامج المقررة، أم في كيفية تخطيطه لها؟

مقدمـــة:

لإنجاح رسالة التعليم وجب الاهتمام برسم السبل الفعّالة سواء على مستوى القسم أو الأستاذ أو الطالب. وبعدّ الأستاذ ركيزة أساسية في هذه العملية لقوله عليه أفضل الصلاة والسلام: كلكم راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته" وجب الاهتمام به، ورسم السبيل القويم له. سنحاول خلال بحثنا هذا الإجابة عن أسئلة ظلت تشغل بالنا وهي كالآتي:

– ما هي المؤهلات التي يجب توفرها في الأستاذ حتى يؤدي مهمته التعليمية على أكمل وجه؟ كيف يمكنه التعامل مع طلبته، ليرغّبهم في المادة المقدمة؟ هل عليه أن يطبق القوانين المدرسية، حتى يكون ناجحا في هذا المجال، أم أن لشخصيته دورا فعالا في كسب هذا الرهان؟ هل يمكنه أن يمنع التسرّب المدرســـي؟ أو يقلل منه؟ هل يكمن الإشكال في البرامـــج المقررة أم في كيفية التخطيط لها؟

جعلتنا هذه الأسئلة نبحث في تراثنا علّنا نجد الإجابة الشافية ، فعثرنا على زاد وفير، انتقينا منه نماذج نضنها كفيلة بالإجابة على كل المشاغل التي طرحناها: كابن المقفع وابن رشيق وابن خلدون؛ إذ اهتم هؤلاء بقضية التعليم مفصحين عن الشروط التي وجب توفرها في المعلّم، وكيف يمكنه التعامل مع المقرر، فاتخذناهم مدارس نسير على نهجهم، محاولين دعم ذلك كله بما توصّل إليه باحثو علم النفس وخبراء التربية والتعليم في عصرنا الحديث، ضاربين لكل ذلك أمثلة من واقع مدارسنا.

1– مدرسة ابن المقفـــع: وجدنا في كتاب البيان والتبيين ما يشفي غليلنا في مجال التعليم، وانتقينا نصا تناول فيه ابن المقفع موضوع البلاغة

وشروطها، وينبغي على كل أستاذ أن يعرف هذه الشروط ويطبقها حتى يتمكن من أداء مهمته كما فرضها تعالى شأنه ووصّى بها نبيه الكريم يقول: " **البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنهـــا ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون فـــي الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا... ومنهـــا ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا... وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ... وقيل له: فإن ملّ السامع الإطالة؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم ...**"[1].

يحيلنا النص إلى نقاط عديدة، تهم الأستاذ أولا، وكأن ابن المقفع يضع إصبعه على مواطن الألم في عملية التعليم، إن هو لمسها أنار الدرب وأوضح الهدف. فهذه النقاط هي بالضبط ما يجب توفره في الأستاذ حتى يملك قلوب الطلبة، ويحببهم في المادة المقدمة، ويرغّبهم في الاجتهاد وربما التفوق والإبداع. وهي كما يلي: (السكوت، والاستماع، والإشارة، والحديث، والجواب، والتنويع، والوضوح، والمقام). وسنقوم فيما يلي بشرح كل نقطة على حدة:

أ- **السكـــوت:** سكوت الأستاذ من حين إلى آخر لا بد منه عند ابن المقفع، وهذا إما للفصل بين أقسام الدرس حتى لا يختلط الأمر على الطلبة، أو إعطاء الفرصة لهم كي يسألوا ويستفسروا عمّا غمُض؛ لأن طرح الأسئلة في حينها يعطي الأستاذ فرصة التعرف على درجة استيعاب الطلبة ما يقوله، ويمكّنهم من معرفة الأجوبة قبل الانتقال إلى نقاط أخرى؛ مثل إلقاء أستاذ الأدب الجاهلي درسا الشعراء الجاهليين، وتطرقه لقضية الانتحال، وذكره

لمن تكلموا فيها ي العصر الحديث كطه حسين. فعليه أن يسكت فترة بين العنصر والآخر حتى يتمكن الطلبة من استيعاب العنصر الأول، وتحضير أذهانهم للعنصر الثاني منه، وربما خطر لطالب أن يسأل عن مفهوم الانتحال، لأنه مصطلح جديد بالنسبة إليه، فلا يمكن للأستاذ أن ينتقل إلى غيره من النقاط حتى يشرح للطالب ما معنى الانتحال في اللغة، وكيف استُخدم مثلا عند طه حسين؛ أي الإضافة والإنقاص في بعض القصائد الجاهلية، كنسيان الروّاة جزء من أجزاء بيت ما في القصيدة، فيلجأون إلى إكمالها حسب أساليبهم الخاصة بما يتماشى والبحر والقافية، لكن الناقد المتمرّس يمكنه معرفة ما هو أصلي في النص وما أضيف إليه نتيجة ظروف مختلفة. وربما خصص الأستاذة فترة من زمن الحصة لشرح هذه القضية، وربما ذكر نماذج من التراث العربي، لأن الطالب لا يمكنه الانتقال بذهنه إلى التطبيق دون أن يفهم الجانب النظري من الدرس. وربما طرح الأستاذ علـــى الطلبة أسئلة لينظر إن كانـــوا قد فهموا هذا القسم من الدرس أم لا؟ وربما سكت لفترة حتى يستدركوا ما فاتهم من المعلومات فيثبتوها، لأن البرامج التعليمية مرتبطة بعضها ببعض، ولا يمكن للطالب أن يفهم درسا تاليا دون أن يستوعب الدرس الذي قبله.

ب- الاستمـــاع: يوجب ابن المقفع توفر هذا العنصر لدى المتكلم (الأستاذ)، لأن التكلّم دون الاستماع لما يقال، يجعل صاحب الرسالة خارج نظام التواصل الذي تحدث عنه رومان جاكبسون[2]، وتكون العملية ذات طرف واحد، ومن ثم لا نجاح للرسالة التعليمية، ولا وصول للإبلاغ الذي هو هدف الإنسان قبل كل شيء. ومثاله: تحدث الأستاذ عن أجهزة التواصل الحديثة، فلا بد أن يترك مجالا للطلبة حتى يناقشوا هذا الموضوع ، فيستمع

إليهم، ويشعرهم بأنهم يأتون بجديد لا يعرفه، فيشجعهم على طرح ما في أذهانهم، وإبداء آرائهم، والتناقش فيما بينهم، وكأن كلا منهم رئيس في الحصة. بعد التأكد مما تحمله أذهان هؤلاء، يعطيهم الأستاذ ما هو أفضل، ليضيفوه إلـــى ما يعرفـــون، فيصححوا مفاهيمهم. كقوله مثلا: إن أجهزة الاتصال كالتلفاز والمذياع وغيرهما وسائل مهمة في حياة المجتمع، لكن الحذر واجب، لأنها سلاح ذو حدين. فكما يمكنها النفع ، فبإمكانها الضرر، وعلى الطالب أن يعرف ما يعود عليه بالفائدة، ويترك ما يضرّه، وعليه أيضا نقد ما فيها بحكمة وفطنة. فسكوت الأستاذ لفترة من الزمن ليس عيبا على الإطلاق، بل هو فرصة جيدة للطالب حتى يعبّر ويتعلم من أخطائه، ويحس بالثقة في نفسه.

ج- الإشـــارة: عدّها ابن المقفع وسيلة مهمة للإبلاغ؛ على الأستاذ أن يشير إلى مراجع تساعد الطلبة على التوسع في الدرس المقدم إليهم؛ كالأنترنيت، والاستماع لمحاضرات الملتقيات الخاصة بمجال تمرنهم، ومكتبات داخل معهدهم أو خارجه، فالوقت المحدد للحصة الواحدة لا يكفي للإسهاب في كل الموضوعات، فإشارة الأستاذ أمر يدفع الطلبة إلى توسيع دائرة العلم وإخراجها من مقاعد الدراسة إلى ما هو أوسع، أو يعود بهم إلى دروس سابقة ومواد أخرى لها صلة وطيدة بالدرس المقدم، فيكون للطالب الفرصة أكثر في الربط بين مختلف المواد المقررة، ولا يتيه ويشرد ذهنه بين هاته وتلك. إضافة إلى أن الأستاذ الذي يتحرك باستمرار، مراقبا طلبته، ملقيا نظرات على كراريسهم، محيلا إياهم إلى دروس سابقة ليتصفّحوها، أمر يدفعهم إلى الانتباه والتركيز أكثر، كما يردعهم عن الاهتمام بغير الدرس. فهناك " مجموعة من التلاميذ يعجزون عن اللحاق ببقية زملائهم في تحصيل

واستيعاب المقررات الدراسية، وكثيرا ما تتحول تلك المجموعة – لدوافع شتى– إلى مصدر شغب وإزعاج للمعلم وللمدرسة ككل، مما يسبب اضطرابا في العملية التعليمية. وذلك لما يعانيه المتأخرون دراسيا من مشاعر النقص وعدم الكفاءة، والشعور بالعجز عن التحصيل الدراسي في مستوى تحصيل رفاقهم، فيحاولون التعبير عن هذه المشاعر السلبية بالسلوك العدواني، والغياب، والهروب من المدرسة، أو الانتماء إلى جماعات الأشرار ..." [3].

نعلق على هذا المثال، لنقول إن للأستاذ دورا كبيرا في احتواء هذه الفئة من الطلبة والسيطرة عليهم، لأنهم مختلفون من حيث إمكاناتهم المادية والنفسية والجسمية والاجتماعية، ولا بد له مراعاة كل ذلك، ومحاولة التوفيق بين جلّ الطلبة إن لم نقل كلهم، وخلق جو من التعاون والتآلف بينهم، وربما ساعد بعضهم بعضا، وتمكنوا من تحمل المسؤولية مع أستاذهم، فاجتمعوا كقوة واحدة يدرسون معا، ويطالعون ويبحثون، ويكتشفون ويبدعون، ويجعلون من مقاعد الدراسة مكانا يتشوقون إليه ولا ينفرون منه، والأستاذ في كل هذا موجه ومرشد وقدوة، فهو المصحح لأخطائهم، والمنبه إلى الأخطار المحيطة بهم، فينمي فيهم روح البحث والمثابة، والتميز، والنجاح، وتحدي الصعاب، ونيل الأهداف دون كلل أو ممل. فالأستاذ في هذه الحال بمثابة المرشد الذي يوجه الطلبة إلى أهدافهم من الطريق الصحيح، فإشاراته مهمة لا غنى عنها، ولا يمكن لشيء أن يعوّض مكان الأستاذ مهما تبلغ التكنولوجيا من تطور.

د– التحـــدث: إن تبادل أطراف الحديث الفعّال مع الطلبة مهم للغاية، لأن ظن الطالب دائما هو ابتعاد الأستاذ عنه. فتقرّبه منه وإبعاد العنف عنه، يُرجع للطالب ثقته بنفسه، ويحمّسه إلى تقليد أستاذه، الذي ما هو إلا طالب جاد، ومثابر، وطموح إلى النجاح الفعّال، ولا بد للطالب أن يسلك طريقه،

وينحو نحوه، ويحاول الفوز دون أن يخشى الفضل أو العثرات القليلة، بل يحاول جاهدا تجاوزها والتفوق عليها بعزم وإصرار، هدفه الوحيد الوصول إلى ما يصبو إليه: من تفوق، ورفع لمستواه عن كل ما يوقعه في الهاوية، ومثال ذلك: تقسيم الأستاذ الحصة إلى عدة مراحل، فكلما انتقل من مرحلة إلى أخرى، توجه إلى الطلبة ليخرج بهم إلى موضوع يهمهم: كالنصيحة؛ أي الابتعاد عن الرذائل، وتحسين السلوك، وإعطائهم صورة عن المستقبل، وكيفية النجاح في حياتهم العادية والدراسية. فالتفوق والنجاح في السنة الحالية يدفعهم إلى النجاح فيما بعدها من السنوات، وأن مستقبلهم سيكون زاهرا، وأن تخصصهم سيحملهم إلى العمل في مناصب مهمة: كركوب الصواريخ لترغيبهم في الاهتمام بالعمليات الحسابية، أو إلقاء محاضرات مهمة لكونهم أساتذة مشهورين، وكتابا مغمورين، ما يترتب عليه اهتمامهم بتحسين لغتهم، والابتعاد عن الأخطاء التي تعيب أساليبهم ، وعليهم المداومة على القراءة للكتب رفيعة المستوى، كما سيكونون أمهات وآباء، مما يحببهم في تعلم السلوك الحسن، والتحلي بالصفات الحميدة، ليكونوا قدوة فيما بعد، وتشجيع الأستاذ إياهم على مواصلة الدرب باجتهاد ورغبة، دون أن يخشوا الصعاب. هذا الحديث يرسخ – لا محالة – في أذهانهم لأنهم في فترة التعلم.

هـــ- الاحتجـــاج: التعليم العالي صراط علمي لا يعترف بالعشوائية، فالأستاذ الناجح يدرب طلبته على التسلّح بالحجة والمنهج، كي يبلغوا مرماهم؛ أي المساهمة في دفع عجلة التعليم إلى الأمام، فيكونوا في المقدمة: يناقشون ويحاورون ويثبتون نجاحاتهم في القسم أولا، والامتحان ثانيا، والعالم أجمع، لأنهم قوّاد المجتمع. من أجل ذلك لا بد للأستاذ أن يكون في مستوى هذا التحدي، ويكون قدوة داخل القسم من خلال أسئلته البنّاءة، وأجوبته

الموثقة بالحجة. ومثاله دفع الطلبة إلى القراءة المتواصلة للكتب المهمة، ليكوّنوا ثقافة واسعة، ويجيبوا على كل سؤال يخطر ببالهم، فلا يكون اعتمادهم على الأستاذ فحسب، بل يكون لهم الدور الفعّال في عملية التعلّم. وإن كان الأستاذ هو الركيزة الأساسية في هذه العملية، إلا أن نصائحه للطلبة لا غنى غنها، فإن هم تسلحوا بالعلم الوافر، فلا يخشون من الأسئلة بعد ذلك. كما أن الأستـــاذ إذا قدّم الدرس فلا بد أن يكون منطقيا فـــي كل ما يقوله، ولا بد أن يحترز من الخطأ الذي يقلل من قيمته أمام طلبته، ولا بد أن يحضّر الدرس جيدا قبل الحصة، حتى يتجنب الإحراج أمامهم، وأخطاؤه المتكررة، توقعه في مشاكل عديدة، وتنقص من ثقة طلبته به، فالأستاذ الجيد هو من يحسن التعامل معهم، وإن حصل الوقوع في الغلط، فلا يحبطهم، بل يعدهم بالبحث وإياهم من أجل هدف أسمى هو العلم النافع، فالحصول على الأجوبة الجاهزة، يعلّم الطلبة الكسل والتواكل، ويدني مستواهم التعليمي، ويسهم في تأخر عجلة التعليم. إضافة إلى أن نجاح الأستاذ يكمن في تقديم المعلومات الصحيحة لطلبته استنادا إلى علم صحيح، فيدلهم على المصادر التي نقل منها معلوماته، ويكون أمينا في عمله، ولا يدّعي معرفة كل شيء، بل يعلّمهم أن الإنسان ناقص بطبعه، والبحث المتواصل يدفعه إلى الكمال.

و- الجـــواب: على الأستاذ أن يكون متسلحا بعلم واسع كي يجيب عما يستغلق لطلبته، الذين يرون فيه القدوة والمثل الأعلى، وما دام الهدف الأول للتعليم تلقين الطلبة المناهج العلمية للوصول إلى الحقيقة، فعلى الأستاذ أن يقدم لهم الأجوبة النافعة الشافية حينا، ويدفعهم دفعا مشجعا إلى البحث في الكتب مختلفة المعارف أحيانا أخرى، كي يتعلموا البحث الجاد الذي يرضي تطلعاتهم، فيكون بذلك قد ضرب عصفورين بحجر واحد: تنمية روح البحث

والاكتشاف فيهم أولا، والاعتماد على الذات في قطف الثمار ثانيا. ومثاله: سؤال أحد الطلبة عن أصل الشعب الجزائري؛ إن كان عربيا أم أمازيغيا؟ فيحتار الأستاذ في الإجابة الدقيقة عن هذا السؤال، وربما يأخذ الجواب منه وقتا يتجاوز ما حدده للحصة من زمن، فيفسد البرنامج الذي رسمه لدرسه، والحل هو إحالـــة الطلبة إلى كتب متخصصة في التاريـــخ، مثل: كتـــاب "المقدمـــة " لابن خلدون وغيره، ولا سيما الجزء الذي اهتم فيه بتاريخ المغرب العربي، فيكون الأستاذ قد وجّه الطلبة إلى مراجع يمكنهم الاستفادة منها والإجابة عن تساؤلاتهم، وربما عرفوا أكثر مما سيفيدهم به في وقت ضيق. وربح الوقت المخصص للدرس في تفسير موضوعات أخرى أهم، وحكمة الأستاذ مهمة جدا في هذا الإطار، إذ أجوبته المقدمة والموفية للغرض لا تعطي الفرصة لإثارة الشغب داخل القسم، وتفويت الفائدة، وربما أراد الطلبة المشاغبون الخروج عن الموضوع بطرح أسئلة تعجيزية لإضاعة الوقت فيما لا يجدي نفعا، لذا على الأستاذ أن ينتبه إلى هذا الموضوع، ويصرفهم بلطف إلى ماهو أهم.

ز- **التنويـــع:** إن في تنويع الأستاذ لأسلوبه بين الشعر والحكم والقصص التاريخية التي تتعلق بالدرس، أمر يدفع الملل عن الطلبة، ويحدد نشاطهم، وينمـــي خيالهم، ويرفع من مستواهم العلمـــي. وتكرار هـــذه الموضوعات يرسخ – لا محالة – في أذهانهم؛ لحبهم إياها، وإعجابهم بها، فيقلدوها ويبتعدوا بأساليبهم عن السذاجة والركاكة. ومثال ذلك ما جاء على لسان الرشيد، حين دفع بابنه "محمد الأمين" إلى أحد المدرسين فقال: "يا أحمرُ إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيّرْ يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة. كن له بحيث وضعك أمير المؤمنين: أقرئه

القرآن الكريم، وعرّفه الأخبار، وروّه السُّنن، وبصّره بمواقع الكلام وبَدْئِه"[4]. ينبّهنا هذا النص إلى أهمية قراءة القرآن وحفظه، لكنه غير كاف، بل لا بد من تدعيمه برواية الأشعار؛ لمقارنة لغة الشعر بلغة القرآن الكريم، ومعرفة أخبار السلف: كيفية عيشهم وتعاملهم فيما بينهم، وهو ما يسمى فـــي أيامنا بـــ " التراث الشعبي"؛ إذ إن معرفته تربط الطالب بماضيه، كما أن لمعرفة السنة النبوية تفسير لما جاء في المصحف من إجمال وتحديد ...إلخ، إضافة إلى معرفة صفات البليغ من حسن ابتداء وحسن تخلّص أمر لا بد منه، ومعرفة اللغة وقواعدها شيء لا غنى عنه في كل علم.

كما نجد لابن قتيبة نصا في مقدمة كتابه " أدب الكاتب " ما يدعم هذا الموضوع يقول: " **لابـــد [لكل واحد] من النظر في جُمل الفقه، ومعرفة أصوله من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وصحابته – رضوان الله عنهم–، ولا بد له – مع ذلك– من دراسة أخبار الناس، وحِفظ عيون الحديث؛ ليدخلها في تضاعيف سطوره: متمثلا إذا كتب، و[واصلا] بها كلامه إذا حاور**"[5].

ومحتـــوى هذا النص: أن من ضرورات الحياة معرفة الإنسان لعلوم كثيرة: من حديث شريف، وأخبار وغيرها بغية تدعيم كلامه بها، لأن الكلام دون أدلة وبراهين علية ومنطقية وتاريخية كالفراغ. ومنه فالأستاذ والطالب على حد سواء كل بحاجة إلى تنويع كلامه بشتى العلوم والاختصاصات، حتى لا يكون كلامه تافها، وبما أن الأستاذ قدوة لطلبته فعليه أن يُدخل في تضاعيف كلامه شيئا من الشعر، وقطع نثرية من الخطب المشهورة، وأحاديث نافعة، وأمثالا وحكما قوية ...إلخ، فيتعلمها الطالب ويحذو طريق أستاذه ويعلّمها غيره والحصيلة جيل ملئ السنابل.

ح- الوضـــوح: لا يتسنى للأستاذ إبلاغ رسالته دون وضوح؛ إذ كيف يفتح كل مغلق، ويدفع كل غموض دون تفسير وتحليل وإيضاح؟ فإذا كان دور الطالب البحث وتحضير الدروس، فإن دور الأستاذ يتجلى في تذليل الصعاب وهداية الطلبة إلـــى سبل النجاح. لذا وجب أن تكون دروسه واضحة لا غموض فيهـــا؛ سواء تعلّق الأمر بالأسلوب الذي يطرح به أفكـــاره، أو الأهداف المرجوة من وراء المادة المقدمة، وهذا لا يكـــون إلا لمن أوتي موهبة وحسا مرهفا، ورغبة ملحّة في التعليم.

ومثاله خوف الطلبة من بعض المواد لصعوبتها أو بعدها عن رغباتهم وميولهم، ودور الأستاذ مهم هنا، إذ الموهبة سبيل لنجاحه، فيقرّب المادة من طلبته، ويبسّطها ويضرب أمثلة مشوّقة من الواقع، ويدخل أذهانهم من أقرب الطرق، فينطلق بهم من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المركّب؛ لأن استدراجهم نحو الأصعب مهمة غير سهلة، وعليه أن يبذل قصارى جهده في تذليل الصعاب، وتدريب الطلبة علـــى مواجهة ما لا يحبون، ليصلوا إلـــى ما يشتهون. ومثال ذلك أن الوارد على ألسنة تلاميذ السنة النهائية، شعبة العلوم الدقيقة، صعوبة موضوع الدوال، وأجد نموذجا من الأساتذة الذين ذللوها، ودرّبوا طلبتهم على الشجاعة والمواجهة، ونموا فيهم روح البحث والتحليل، فزادوا شهيتهم حين طلب منهم – برفق مرغّب –: تغدّوا بدالة، وتعشوا دالة، وناموا وعلى وسادتكم دالة، فتبع الطلبة نصيحة أستاذهم في الحل، فأصبحت الدوال رفيقهم الدائم، فدفعهم تشجيعه على تحليلها باستمرار، فأضحت مأكولات شهية، لا يفوّتون الفرصة إلا واجتمعوا حولها، وجلسوا على كرسي ليرتاحوا وهي بين أيديهم، وكأنهم لا يمكنهم الاستغناء عنها، هذا

هو النموذج الحق للأساتذة الناجحين، الذين يولّدون طلبة ناجحين أيضا، وما أحوج مدارسنا إلى هؤلاء.

ي- المقـــام: يسهم الأستاذ بفعالية في بلوغ الطالب أعلى مراتب المعرفة، وفي المقابل هو مسئول عن رعايته النفسية والتربوية، وهي مهمة صعبة توجب على الأستاذ استعمال الأسلوب المناسب في المقام المناسب؛ فإذا خرج الطلبة عن حدود الاحترام والأدب مال الأستاذ إلى أسلوب يمنعهم من التمرد وخلق الفوضى داخل حجرات الدرس. ولا بد له من اتخاذ الأسلوب الذكي الذي يعود بهم إلى الصواب، دون أن يخرجهم من قاعات الدرس ليلتفتوا إلى ما هو أخطر (الشارع)، ومسؤولية الأستاذ تزداد حدة حينما يعلم أنه مسئول كل المسؤولية عن هذا المصير.

وإذا جمعنا كل ما سبق من وسائل مساهمة في إنجاح عملية التعليم، التي تحدث عنها ابن المقفع، فإن خبراء التعليم في العصر الحديث، قد أجملوها في شروط الدرس الناجح والمتمثلة في النقاط التالية:

أ- ضرورة تحضير [الأستاذ للدرس] ذهنيا وكتابيا قبل موعده. وهذا ما يتيح له الفرصة للاستعداد وتنفيذ خطته التي رسمها أولا، والبرنامج المقرر ثانيا.

ب- بـــدأ [الدرس] بتمهيد طيب، يثير اهتمام [المتعلمين]، ويشوقهم إلـــى ما يريد [المعلم] قوله. والأستاذ الجيد هو من يستطيع استقطاب الطلبة جميعهم بشتى مستوياتهم (المادية، والفكرية، والاجتماعية...إلخ) .

ج- تلوين [المعلم] صوته ارتفاعا وانخفاضا، بل سكوتا أحيانا، وذلك حسبما يتطلبه الموقف التعليمي. لأن الصوت المنخفض طوال الحصة يتيح فرصة النوم للطلبة أحيانا، فيخلقوا الفوضى نتيجة الملل وعدم التركيز أحيانا أخرى.

كما أن الصوت المرتفع طوالها يبعث الخوف في قلوبهم، وظن الظنون المختلفة بأستاذهم (مستبد، ومغرور ...إلخ). لكن تنويع الصوت بين هذا وذاك يدفع عن الطلبة الملل، ويثير اهتمامهم من حين إلى حين ن خاصة عند شرود أذهانهم نحو موضوعات أخرى. وبعدّ الصوت أحد المنبهات التي يتبعها الطلبة فقد وجب إعطاؤه حقه من لدن الأستاذ.

د- التوقف أحيانا لإثارة نوع من الحوار والمناقشة والاستفسار، لأن مثل هذا الأسلوب يعيد للطلاب نشاطهم، وشرود أذهانهم.

هـــ- مراعاة الفروق الفردية بين الطلاب، ويعلّق أحد الأساتذة على هذا الموضوع بقوله: يجب ألا ننسى أن [الطالب] المتأخر دراسيا، يجب النظر إليه على أنه [طالب] مثل غيره، [فهو] يحاول أن يحقق ذاته، ويشبع حاجاته وأهدافه، لكن حسب قدراته وإمكاناته الأسرية والاجتماعيـــة والاقتصادية، وما يتلقاه من رعاية وتوجيه واهتمام"[6]، ويثير هذا النص قضية الطلبة المشاغبين؛ حيث إن بعضهم يملكون من الذكاء والفطنة ما يؤهلهم إلى النجاح والتفوق، لكن ظروفهم المادية والاجتماعية، وقلة الاهتمام بهم ورعايتهم يقلل من عزيمتهم، ويدفعهم إلى التوجه نحو مجالات أخرى، فيبتعدون عن الدراسة، وربما توجهوا إلى العمل خارج مقاعد الدراسة، مما يقلل من وقتهم المخصص لها، فينقص بدوره من جهودهم ونجاحاتهم.

و- ضرورة التأكد من فهم الطلاب لكل فكرة قبل الانتقال إلى غيرها أمر مهم جدا، لأن الانتقال بهم دون الانتباه إلى استيعابهم يعود إلى الأستاذ وحده، لأنه المسيّر للحصة، والمسئول عن طلبته.

ز- تحسين [الدرس] بالدعابة والفكاهة المنشطة للطلاب؛ بحيث تكون الدعابة مرتبطة بموضوع [الدرس][7]. ويجب انتباه الأستاذ إلى أن الدعابة التي تخرج بالطلبة عن الموضوع، تشتت أفكارهم، فلا يفرّقون بينها وبين الدرس ويعتبرون الأمر واحد، فاختلاط المعلومات لديهم يبعدهم عن الهدف المنشود. في حين أن الدعابة التي تدعّم الدرس وتقويه تسهم في تفسيره وبسطه هي المقصودة في هذا العنصر.

ومن بين الخبراء المتخصصين في هذا المجال " كليم "[8] الذي أجرى دراسة على ثلاثة آلاف تلميذ، لمعرفة رأي التلاميذ في مدرّسيهم، وقد قام سيد محمد خير وزميله بتلخيص نتائجها، وأورداها في كتابهما[9]، وذكرا أنها تتلخّص في أربع صفات:

أ- الشرح المنظم للدرس يمكّن الطالب من استيعابه بسهولة. لأن خلط العناصر يؤدي به إلى الفهم الخاطئ، ومراجعة الطالب لدروسه تكون مفيدة إذا كانت الدروس منظمة، وهذا لا يتأتى للطالب إلا إذا علّمه أستاذه ذلك، وعكس العملية سيؤدي به إلى التذبذب والفشل.

ب- إحساس التلاميذ بحب المدرّس إياهم أي تشجيعه الدائم، وعدهم كأبنائه، وخوفه المستمر عليهم، ونصحه الدائم إياهم يشعرهم بالأمان والطمأنينة، ويرغّبهم في الدروس، ويبعث فيهم روح المثابرة والفوز، وإتباع النصائح عن قناعة.

ج- القدرة على حل مشاكلهم. لا بد أن يشعر الطلبة بالحماية والرعاية من قِبل أستاذهم، لأنه قدوتهم، وملجؤهم حين يحتاجون إليه. فهو المذلل صعوباتهم، حتى يتمكّنوا من بلوغ القدرة على التفوق على مشاكلهم وحلّها

بأنفسهم، ولا بد له أن يدربهم على اجتياز مرحلة الخوف، والوصول إلى التحدي. ولا يمكنهم ذلك إلا إذا وضُح لهم السبيل الصحيح.

د- الحيوية والنشاط: فالأستاذ الجاد المثابر والطموح، يبعث في طلبته الحياة والعمل الدءوب، فهو يوجههم إلى أهدافهم، ويبين لهم أساليب النجاح، ولهم أن يتبعوها دون كلل، والحصة الناجحة تعود إلى الأستاذ الذي يحسن تسيير الأمور وقيادة النشء.

وحين أجرى " كليم " هذه الدراسة على أولياء الأمور، وجد أنهم اتفقوا على ست صفات للأستاذ الناجح وهي:

أ- المظهر اللائق: يختلف مظهر الأستاذ عن مظهر الفنان أو الرياضي، فالأستاذ مميز في مهنته، ومميز في مظهره، فلا هو عصري إلى أقصى حد، ولا هو مهلهل مثير للسخرية، فعليه أن يعلّم طلبته احترام العلم، وأنهم ممثلوه، ولا بد أن يمثلوا عقيدتهم الإسلامية وثقافتهم العربية وتاريخهم الحافل بالعلماء المشاهير، دون أن يسنوا التفتح بما يرضي توجهم الديني والحضاري.

ب- الشرح الجيد: للأستاذ طريقته الخاصة في بسط الدروس لتلاميذه، وكم هي كثيرة صور أساتذتنا الأجلاء، الذين تركوا فينا بصمات لامعة، حين شرحوا لنا الدروس، ولا تزال راسخة في أذهاننا حتى الآن .

ج- النشاط والدعابة: فالمزج بين الجد والهزل أمر مهم في حياة الطالب والأستاذ معا، لان مهنة التعليم شاقة والاهتمام بجانب دون آخر يجعل منها كائنا مشوها، والجمع بين هذا وذاك أمر لا بد منه.

د- السلوك القويم: لا بد للأستاذ أن يتسلح بالأخلاق الحميدة: إن هو وعد وفى، وإن عزم وصل، وإن مدح صدق، وإن وبّخ أصلح... إلخ.

هـــ-احترم الذات: على الأستاذ أن يتميز من غيره باحترام نفسه، واحترام طلبته؛ حيث لا يترك لهم المجال ليتمردوا عليه، ولا يتجاوز حدوده معهم حتى يعصون ويغضوا الطرف عنه وعن بضاعته. ولا يمكن التفريق بين التعليم والتربية لأنهما وجهان لعملة واحدة.

و- التقوى والإيمان الصحيح، والأمانة، والصدق في العمل، والتواضع، وعدم التكبّر والاحتيال، والصبر والتسامح، والحماسة للعمل، والإقبال عليه، والعفّة، واحترام الذات والخلق القويم[10]. وهذه أمهما.

2- مدرســـة ابن رشيـــق: في أثناء تصفحنا لكتابه العمدة، وجدناه يتبع طريقة واحدة في عرض أفكاره لقرائه (الطلبة)، فعددناها منهجا خاص بـــه في إبلاغ رسالته، المتمثلة في تعليم فنون القول للراغبين فيها، ونعرض فيما يلي أحد نصوصه لنستنتج منها طريقته في التلقين يقول: " قال أبو عثمان الجاحظ: أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجـــزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفـــرغ إفراغا واحدا، وسُبك سبكا واحدا، فهو يجـــري علـــى اللســـان كما يجري الدهان. وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سماعه، وخفّ محتمله، وقرب فهمه، وعذُب النطق به، وحلي في فهم سامعه، وإذا متنافرا متباينا عسر حفظه وثقل على اللسان النطق به، ومجّته المسامع، فلم يستقر فيها منه شيء. وأنشد الجاحظ قال: أنشدني أبو العاصي قال: أنشدني خلف:

وبعْضُ قَريضِ القومِ أبناءُ عِلَّةٍ يُكِدُّ لِسانَ الناطق المتحفِّظِ

والناس مختلفوا الرأي في مزاوجة الألفاظ: منهم من يجعل الكلمة وأختها كقول البحتري:

تَطيبُ بمَسْراها البلادُ إذَا سَرَتْ فَيَفْعَمُ ريَّاهاَ ويَصْفُو نَسيمُها

ومنهم من يقابل لفظين بلفظين، فيقع في الكلام تفرقة وقلة تكلف: فمن المتناسب قول علي بن أبي طالب (ض): " أين من سعى واجتهد، وجمع وعدّد، وزخرف ونجّد، وبنى وشيّدْ فاتبـــع كل لفظة ما يشاكلها وقرنهـــا بما يشبهما ". ورأيت من علماء بلدنا من لا يحكم للشاعر بالتقدم، ولا يقضي له بالعلم، إلا أن يكون فـــي شعره التقديم والتأخير، وأنا أستثقل ذلك من جهـــة ما قدمت، وأكثر ما نجده في أشعار النحويين.

لم يَضِرْهَا والحَمْدُ للهِ شيءٌ وانْثَنَتْ نحوَ عَزْفِ نَفْسِ ذهول

فإن القسم الآخر من هذا البيت ثقيل؛ لقرب الحاء من لعين، وقرب الزاي من السين.

ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيا بعضه على بعض، وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير، إلا في مواضع معروفة، مثل الحكايات وما شاكلها، فإن بناء اللفظ على اللفظ أجود هناك من جهة السرد، ولم [أستحسن] الأول على أن فيه بعدا ولا تنافرا، إلا إن كان كذلك فهو الذي كرهت.

حسن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولا، وعليه المدار، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولديـــن، لكن وقع فيه هذا النـــوع الذي سمـــوه صنعة من غيـــر قصد،

ولا تعمّل، لكن بطباع القوم عفوا، واستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره، حتى وضع زهير الحوليات على وجه التنقيح... فهو يضع القصيدة ثم يكرر نظره فيها، خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك، والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض حتى عدوا من فضل صنعة الحطيئة حسن نسقه الكلام بعضه على بعض"[11].

من هذا النص نخلص إلى أن ابن رشيق يحدد طريقة التعليم كما يلي:

أ- على المدرّس أن يستأنف درسه بتمهيد منطقي، ويتمثل في تحديد المفاهيم العامة للدرس، حتى يضع الطالب في صلب الموضوع، كقول الجاحظ: " أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا، وسُبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجـــري الدهان ". وإذا عرف الطالب كُنه الموضوع انتقل به ابن رشيق (الأستاذ) إلى المرحلة الثانية والمتمثلة في: شرح المفهوم إن كان غامضا، والتعليق عليه سواء بطرح مجموعة من آراء العلماء، أو بإبداء رأي خاص به حتى يكون قريبا من طلبته. ويرجّح ابن رشيق تعليقا خاصا بالمدرّس فيقول: " إذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سماعه، وخفّ محتمله، وقرب فهمه، وعذُب النطق به...".

ب- يؤكد صاحب العدة على أن المفاهيم وحدها غير كافية، بل لا بد لها مما يدعّمها، وذلك بالأمثلة التي تقرّب الفهم، وتفتح كل مغلق كذكره للجاحظ على لسان شاعر:

وبعْضُ قَريضِ القومِ أبناءُ عِلَّةٍ يُكِدُّ لِسانَ الناطق المتحفِّظِ

ج- ويضيف القيرواني أن الانفراد بالرأي لا يفيد الطالب؛ بل لا بد من الإكثار من الآراء المختلفة للعلماء حتى يتسع مجال معرفته، ولا تنغلق عليه دائرة العلم، وعلى المعلّم ألا ينحاز لعالم دون آخـــر، بل أن يذكر ما أمكنه من الآراء المختلفة، ويكون نزيها فـــي ذلك، هدفه الأسمى هو التعليم. يقـــول: " والناس مختلفوا الرأي في مزاوجة الألفاظ: منهم من يجعل الكلمة وأختها، ومنهم من يقابل لفظين بلفظين ...".

د- ولا ينسى ابن رشيق في كل نقطة أن يدعّم ما يذهب إليه بالحجة البيّنة، يقول على لسان البحتري:

تَطيبُ بمَسْراها البلادُ إذَا سَرَتْ فَيَفْعَمُ ريَّاهاَ ويَصْفُو نَسيمُها

وعلى لسان علي بن أبي طالب (ض): " أين من سعى واجتهد، وجمع وعدّد، وزخرف ونجّد، وبنى وشيّدْ فاتبع كل لفظة ما يشاكلها وقرنها بما يشبهما ".

هـــ- وينبّه إلى قضية تكافؤ الفرص في الاستشهاد، فلا يمكن للمدرس أن ينحاز للعلماء القدامى ولا المحدثين، بل عليه الانتقاء من هؤلاء وهؤلاء حتى يكون للطالب فكرة شبه كاملة عن الموضوع. يقول: "والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط

المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض حتى عدوا من فضل صنعة الحطيئة حسن نسقه الكلام بعضه على بعض".

و- ويعد ابن رشيق أن في تلاحظ العلوم فائدة كبيرة: كعلم الأصوات من مخارج وغيرها – في هذا الموضع – وعلم الصرف من ألفاظ وما يقابلها، وعلم النحو من تقديم وتأخير، وعلم البديع من تزيين أطراف الكلام وأطراف المعاني، يقول: " [ينظر] العرب في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض حتى عدوا من فضل صنعة الحطيئة حسن نسقه الكلام بعضه على بعض" .

وبهذا يرسم ابن رشيق طريقة مثلى للأستاذ كي ينجح في تقديم مادته العلمية إلى متعلّميه وهو ما لا يستغنى عنه علماء التربية في العصر الحديث؛ إذ يعلمون الطالب تعدد الآراء والاستشهاد بالأدلة والبراهين يمزجون- مثلا – في مقياس الفلسفة آراء كثيرة لعلماء من مختلف الثقافات والمعتقدات؛ إذ لدراسة موضوع " الحرية " فقط يستشهد الأستاذ لطلبته بآراء علماء مسلمين (كعلي بن أبي طالب والغزالي...إلخ)، وآخرين غربيين (كسارتر و إميل دور كايم ...إلخ)، حتى يعلم الطالب مدى ثراء العلم، واشتراك العلماء في تناول الفكرة الواحدة بالتحليل والتدقيق، دون الانحياز إلى هذا أو ذاك، بل كلهم علمـــاء يحاولون الاجتهاد من أجل العلم لا غيـــر. و حين يتكلمون عن التدرج في تناول الأفكار في مقياس النحو، استأنفوا ذلك بإعطاء مفهوم عام للموضوع كتعريف الفصل والوصل، ثم إعطاء أمثلة عن ذلك كثيرة ومتنوعة، ثم شرحها، واستنتاج القاعدة بعد أن يُستوفى الشرح والمقارنة بين مختلف الأمثلة المُعطاة... إلخ .

3- مدرسة ابـــن خلدون: تحدث في مقدمته عن موضوعات متعددة ، تهمّ المعلم والمتعلم على حد سواء، وفيما يلي نص له يوضح يه كيفية تعامل المدرس مع المادة التعليمية، كي تصل إلى أذهان الطلبة سليمة وصحيحة، يقول: " اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج. يُلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، يقرَّب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويُراعى في ذلك قوة عقله، واستعداده لقبول ما يرد له ملكة ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأت لفهم الفن، وتحصيل مسائله. ثم يُرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هناك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن ، فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شدَّ، فلا يترك عويصا ولا مهما ولا مغلقا إلا وضّحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد "[12].

من أجل نجاح الأستاذ في تبليغ رسالته إلى متعلّميه، يجعل ابن خلدون شرطا مهما هو التدريج؛ إذ لا يمكن إلقاء المعلومات أو البرامج دفعة واحدة، أو بطريقة عشوائية، لا تخضع للتنظيم والدراسة المحكمة، فالتخطيط ضرورة لابد منها، لأن الفن – كما يذهب ابن خلدون- لا بد له من خبير يدرّسه، ويُنْعِم النظر فيه، ويخرجه بما يتناسب مع قدرات المتعلم العقلية والنفسية، حتى ينسّق برنامجه الدراسي وفقها، ويتدرج به من البسيط إلى المركب، ومن السهل إلى الصعب.

ينبه علماء النفس التربويين غلى مسألة التدريج؛ فعدّوها مسلكا ناجحا للمعلم، وقسموها إلى مراحل: التدرّج من البسيط إلى المركب (كالجملة

الاسمية المتكونة من مبتدأ وخبر مفردين، بعدها المبتدأ والخبر المركبين كتكون الخبر من جار ومجرور أو ظرف زمان أو مكان وهكذا ...إلخ)، ومن السهل إلى الصعب فالأكثر صعوبة (كتدريب الطالب على فهم النصوص العلمية الخالية من التأويلات إلى النصوص الأدبية التي تحتاج إلى بعض نظر وتحليل عميق)، ومن المحسوس إلى المجرّد (كالبدء بالحقيقة ثم التطرق إلى المجاز لأنه أكثر تعقيدا منها)، ومن المعلوم إلى المجهول (كالتطرق إلى الجملية المبنية للعلوم ثم المبنية للمجهول التي تجتاح إلى أكثر تأملا وتأويل) ، ومن الأمثلة إلى القاعدة، ومن الكل إلى الجزء (كفهم الفكرة العامة من النص ثم التدرج إلى الأفكار الأساسية واحدة تلو الأخرى[13]. وينبه ابن خلدون – قبلهم – الأستاذ إلى تقسيم الفن إلى عدة أبواب، وكل باب إلى عدة مسائل، وإلقاء هذا الأخير على عدة مراحل، وتوضيحه كما يلـــي:

أ- إلقـــاء مسائل من كل باب هي أصول فيه؛ إذ لابد أن يملي الأستاذ البرنامج على طلبته أولا، فيناقشهم فيه إجمالا، ليختبر معلوماتهم المسبقة عنه. وتكون أول حصة من الدراسة بمثابة الاختبار الذي يقيّم من خلاله أذهانهم، والطريقة التي يجب التعامل بها معهم إن كانوا متفوقين أو متوسطي التفوق، وتكون المناقشة عامة تشكل كل محاور البرنامج، للتعرف على المادة أولا، والاستعداد النفسي والعقلي إلى الخوض في غمارها طيلة العام الدراسي ثانيا.

ويذهب علماء النفس المحدثون إلى أن أهم نظريات التعلم : نظرية المجال **Théorie du champ**، التي يعدّ أصحابها اجتماع كل العوامل أمرا مهما في التعلم ، فلا يمكن أن ينفصل جزء منها عن الآخر، وأن اجتماعها على منوال واحد يعطي المجال صورته وشكله الكامل ن وأن كل تبديل في أحد تلك

العوامل يغيّر من صورة المجال الحقيقية، وعلى ذلك فمن العبث عند التعلّم تحليل الوضع، بل علينا النظر إليه ككل متماسك[14]. وإذا ضربنا مثالا عن هذه النظرية فإن الطالب بحاجة إلى معرفة الصورة الكاملة عن مادة علم الدلالة عامة، ثم هو بحاجة إلى معرفة مأتاها؛ إذ هي فرع من فروع اللسانيات، حتى لا تختلط عليه العلوم لقربها الشديد بعضها ببعض، ثم عليه معرفة بوادرها الأولى عند علماء العربية، ثم كيف تناولها علماء الغرب، وإذا حُدِّدت مفاهيمها العامة، وأُعطِيت صورتها الكاملة، ومدى التقائها مع بقية المواد، استطاع الطالب أن يفقه ما نوع المادة التي يدرُسها فيزيد بذلك استيعابه مختلف أقسامها. فمن دون هذا التمييز لا يمكن له مواصلة الدرس، إذ إن بعض الطلبة أو جلهم يدرس المواد موزعة مشتتة لا يعرف الفرق بينها وبين غيرها، وربما أصابه الملل وعدم الرغبة في متابعة الدروس، وأصابه التشتت الذهني عندما يلقى شبها أو تقاربا بين مادة وأخرى، وكأنه يعيدها ذاتها، فيصاب بالحيرة وعدم التركيز. لذا وجب رسم صورة كاملة للطالب عن المادة لكشف لثام الغموض عنه.

يعدّ ابن خلدون أن الملكة في هذه المرحلة تكون ضعيفة وجزئية، لكنها مهمة وضرورية لا يمكن حصول الملكة دونها، وأنها بمثابة لقاء التعارف بين الأستاذ وأذهان الطلبة.

ب- تكرار العملية أمر واحد لديه من بداية الفن إلى نهايته. لكن تميّز هذه المرحلة من سابقتها يكمن في التركيز والشرح والإيضاح والتوقف عند دقائق الأمور، وبسطها، ومقارنتها بما يخالفها حتى تتميز منها، وتستقل عنها في أذهان الطلبة، فيتم كشف الخلط الذي يعتريها لديهم. هذه العملية تكون على مدى مراحل السنة الدراسية؛ درسا تلو الآخر، وعلى الأستاذ أن يقف عند كل

درس، وعند كل نقطة منه، ليزيد استيعاب الطلبة إياه، وتكون معلوماتهم أوسع مما زوّدهم به في بداية العام، والفرصة سانحة لهم أيضا بالاستفسار والمناقشة والتعاون فيما بينهم من ناحية، لأنهم حضّروا للدرس من قبل الموعد، وعِلمهم بكنهه، وبين الطلبة والأستاذ من ناحية أخرى لأنه محور عملية التعليم، فهو المرشد والموضح كل غموض.

وقد تناول هذا الموضوع علماء النفس، ووضعوا نظرية أخرى للتعلم سمّوها نظرية الترابط **Théorie de l'association**. يقول أصحاب هذه النظرية بعملية التحليل الجزئي؛ أي فك الشكل العام إلى عدة عوامل، فيدرَّس كل عامل على حدة[15]. وبعد عملية التفكيك تتم الدراسة الجزئية لكل قسم؛ أي تقسيم البرنامج إلى عدة دروس، وتحليل كل درس على حدة، تفكيكا ومناقشة وفهما جيدا.

ودعما لذلك نجد علمـــاء النفس التربويين ينبهون إلـــى أن الأستاذ الناجح لا بد له أن يتّبع الطريقة التالية في حصته:

- صياغة الأهداف [المرجوة من الدرس أول الحصة].

- تلخيص محتويات الدرس في نقاط على السبورة.

- المراجعة في نهاية كل درس وبداية الدرس اللاحق له[16]. وعليه فتكرار هذه العملية في كل حصة ، يجعل الطريقة معلومة لدى الطلبة، فهم يتوقعون مراحلها، ويحضّرون لها مسبقا: نفسيا وذهنيا، فهم – إن استطعنا القول – مجهّزون آليا لها، فيصبحون كمسيرين حقيقيين للحصة، وتدريب الطلبة على التخطيط والتنظيم والاستعداد، وهو البناء الحق لأذهانهم، والابتعاد بهم عن العشوائية والفوضى.

ج- المرحلة الأخيرة من التلقين عند ابن خلدون، هي مرحلة الملكة الحقّة، أو ما يسميه بـــ " وجه التعليم المفيد "، وتتميز بالعودة مجددا إلى تكرار العملية من بدايتها إلى نهايتها، وهي ما يعرف لدينا بالمراجعة العامة؛ إذ يسعى المعلّم إلى اختبار ما استحوذت عليه أذهان الطلبة، فيصحح مفاهيمهم، ويختبر معلوماتهم من خلال التمارين الكثيرة، والمعقدة حتى يكشف عن معضلاتهم فيهوّنها ويمحوها ، ويحصل بذلك استيعابهم للمادة فهما وحفظا من ناحية، واطمئنان الأستاذ لأدائه مهمته من ناحية أخرى، فتحصل الفائدة لكليهما .

ومنه فابن خلدون لا يعترف بانفصال كل نظرية عن النظريات الأخرى، بل ينبه إلى ضرورة تكامل كل النظريات من أجل هدف واحد هو حصول التعليم المفيد. فاجتماع جهود العلماء ووجهات نظر كل واحد منهم أمر لا بد منه لخدمة العلم بالدرجة الأولى.

الخلاصـــة: من خلال ما سبق نقول: إن كلا من ابن المقفع وابن رشيق وابن خلدون سعوا إلى وضع منهج تعليمي يسهم في نجاح رسالة المعلّم؛ فإذا كان الأول قد وضع شروطا خاصة وجب توفرها في الأستاذ كي يبلّغ مهمته التعليمية، فقد وضع الثاني والثالث سبيلا منظّما لحصول المعرفة المفيدة، فكل منهم مدرسة تكمل الأخرى، وهذا هو فن التعليم بعينه.

ومنه يمكننا القول: إن الأستاذ الناجـــح لابد لـــه من الاطـــلاع على كل ما تعلّق بالتعليم، سواء عند علمائنا القدامى الذين تخصصوا في ميدان التعليم، أمثال ابن خلدون في " المقدمة "، أو ابن رشيق في " العمدة "، أو ابن قتيبة في " أدب الكاتب " ، أو سيبويه في " الكتاب " ...وغيرهم، أو علماء النفس والتربية المحدثين، والإلمام بشتى النظريات التي تساعده على استيعاب الطلبة، وكيفية التعامل معهم من دون النسيان بأنهم مختلفون في قدراتهم وسلوكهم. الأمر الذي يسهّل عليه إيصـــال مادته المعرفية دون حواجـــز، كما أن لعلم الاجتماع دورا مهما في إمداد الأستاذ بكمية هائلة من المعلومات التي تفتح أمامه مختلف المستويات عند الطلبة (محدودي الدخل أم أغنياء، ماكثون بالأرياف أم بالمدن ... إلخ) من دون أن ننسى نظريات الاتصال التي توفّر له وسائل تمكنه من المحافظة على حبل التواصل بينه وبين طلبته. والأمر الواجب التنبيه إليه هو شخصية الأستاذ؛ إذ هو محور عملية التعليم، ولا بد له من أساليب خاصة تساعده في أداء مهمته النبيلة، وقد حددها العلماء في نقاط عدة أهمها: المظهر اللائق، والحيوية، والنشاط، واحترام الذات، والتقوى، والإيمان الصحيح، ومراعاة الفروق الفردية بين الطلاب، وطريقة عرض المعلومات. والأهم من كل هذا وذاك مراعـــاة المثل القائـــل " لكل مقام مقال ".

الهوامـــش:

[1]– الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق درويش جويدي، ج1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، سيدا ، بيروت، 2003، ص 79.

[2]– أنظر: محمد الحناش، البنوية في اللسانيات، الحلقة الأولى، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1988، ص 192، نقلا عن محـــاولات في علم اللغة العام، ط1963، ص 214.

[3]– بشير معمرية، مظاهر السلوك اللاتوافقي لدى التلاميذ المتأخرين دراسيا من وجهة نظر المعلمين والأساتذة، دراسة ميدانية بمدينة باتنة، مجلة منتدى الأستاذ، إصدار المدرسة العليا للأساتذة، قسنطينة، الجزائر، ع1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، أفريل 2005، ص9.

[4]– ابن خلدون، المقدمة، ضبط وشرح وتقديم محمد الاسكندراني، (دط)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2006، ص 496.

[5]- ابن قتيبة، أدب الكاتب، اعتنى به وراجعه درويش جويدي، ط1، المكتبة العصرية صيدا بيروت، 2002، ص 19-20.

[6]- بشير معمرية، مظاهر السلوك اللاتوافقي لدى التلاميذ المتأخرين دراسيا من وجهة نظر المعلمين والأساتذة، مرجع سابق، ص 10.

[7]- أنظر: فؤاد حسن أبو الهيجاء، أساسيات التدريس مهاراته وطرقه العامة، ط1، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2001، ص 182-183-184.

[8]- أنظر: فؤاد حسن أبو الهيجاء، أساسيات التدريس ومهاراته وطرقه العامة، مرجع سابق، ص 23-24.

[9]- أنظر: سيكولوجية التعليم بين النظرية والتطبيق، ص 154-155-156، نقلا عن المرجع السابق.

[10]- أنظر: المرجع نفسه، ص 31-32-33.

[11]– ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، ط5، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، 1981، ص 255-258-261-262-129.

[12]– ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص 490.

[13]– أنظر: فؤاد حسن أبو الهيجاء أساسيات التدريس ومهاراته وطرقه العامة، مرجع سابق، ص 23.

[14]– أنظر: حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (دت)، ص 172.

[15]– انظـــر: حنفي بن عيســـى، محاضرات في علم النفس اللغـــوي، مرجع سابـــق، ص 171.

[16]– أنظر: محمود مسني، علم النفس التربوي للمعلمين، دار المعرفة الجامعية، الأزريطة، مصر (دت)، ص 385.

النص السردي – نحو سيميائيات الجسد

الدكتور: مختـــار بادي
معهـــد الآداب واللغـــات
جامعـــة بشـــار

الملخــص:

إن الجسد الذي يقدم في الروايات ليس جسدا واقعيا، بل هـو تمثيـل رمزي للجسد عبر اللغة، وما دمنا قد دخلنا إلى رحـاب اللغـة فـإن بـاب الاختيار ينفتح أمامنا على مصراعيه، فالكاتب يستطيع أن يختـار تصـورا خاصا للجسد، كأن يجعله وسيلة للتعبير عن العلاقة الملتبسة بالوطن، ومن ثم يستند إلى مجموعة من الأفكار الإيديولوجية وهذا ما يحدو الكاتب إلى اختيار لغة بعينها تتناسب مع هذا الاختيار. يتضح هذا جليا – فـي روايـة وليمـة لأعشاب البـحر " للكاتب السوري حيـدر حيـدر، وروايـات " ذاكـــرة الجســد– فوضى الحواس – عـابر سـرير " للكاتبـة الجزائريـة أحـلام مستغانمي. و" سيدة المقام " للروائي الأعرج واسيني، إنـه أكثـر الركـائز الجمالية لشعرية الخطاب.

مدخـــل إلـــى تضاريـــس الجسد:

يقول النحات جوزف بويس:

" لقد أوجدت نحتا اجتماعيا وأعطيته بعدا اجتماعيا بعـــدما أدركـــت المبدأ التشكيلي المتجلي فيه"[1].

أصبح الجسد كما كان منذ عصر النهضة (بصفة خاصة) – يتبـــوأ موقعا هاما ضمن اهتمامات المبدعين والنقاد والمحللين في شـــتى مجـــالات الإبداع، وانطلاقا من الأهمية التي تكتسبها هذه الموضوعة عَـــنَّ لنا القيـــام بحفريات تبتغي من خلالها الكشف عن أسرار الجسد خاصـــة فـــي المتـــون السردية.

لعل أكثر العلوم التعبيرية التصاقا بالمظاهر الخارجية للأشياء هـــي الفينومينولوجيا التي اهتمت بالجسد من حيث اعتباره غلافـــا ماديـــا لـــدواتنا ودليلا لضمان حضورنا في العالم، كما أن نظرية العقـــد الاجتمـــاعي التـــي ظهرت وتطورت في القرن السابع عشر (النظرية القائمة على المساواة بين الأفراد وعلى مشاركتهم الحرة في إنتاج نظام سوسير – سياسي) حـــررت الإنسان من ذاته وأصبح سيدا لجسده ولمكانـــه بعـــد أن ظـــل الإقطـــاعيون يمارسون هيمنة مطلقة على أجسام الأقنان ويتمتعون بحق حياتهم وموتهم [2].

إن الاعتراف بتحرر الجسد تم بصفة خاصة بعد ظهـــور المجتمـــع المدني على يد " سبينـــوزا – وجون حال روسو– وهويس – " هذا المفهوم الذي لعب دوراً أساسيا في تحرير الأجساد التي صارت تصـــارع الأجســـاد

---

[1] – د. محمود أمهذ: الفن التشكيلـــي المعاصر، التصويـــر 1870م– 1970م، لبنان 1981م ص 144.

[2] – الحياة الثقافية (ندوة الجسد والفلسفة) عدد، 66–1993م.

التي تجري عليها الدراسات والتجارب الفيزيائية الرياضية، كما أن النظـــرة الاقتصادية اللبيرالية، بدورها دعمت هذا المفهوم بـــالتركيز علـــى الجســـد البشري كقدرة على الإنتاج.

أما الأبحاث الأدبية والفلسفية التي تناولت بالدرس والتحليل " الجسد " كقضية و كإشكالية .... فقد أسالت الكثير من الحبر، وزوبعة في دواة النقـــاد نذكر من بينها على سبيل التمثيل مصـــنف " ميششـــيل فوكـــو " الموســـوم: "المراقبة والمعاقبة " الصادر عام 1975م. والذي بين فيه الإجراءات القمعية والسلطوية التي تمارسها بعض الأنظمة على الجسد لإرغامه على نهج سلوك معين يسوده الامتثال والانضباط، وفي مؤلف آخر لنفس الرجـــل " فوكـــو " محتفى بـــ: " تاريخ الجنون في العهد الكلاسيكي " صدر قبل الكتاب الســـابق بأربعة عشر سنة 1961م " يشخص المجنون بذلك الذي يأتي جسده باشـــياء مخالفة للمألوف، أو بذلك الذي لم يعد جسده منتجا.

لكن في المنجز السيميولوجي نلفي الجسد بناء رمزيا انطلاقـــا مـــن تعبيره عن تمثيلاتنا السيكولوجية والثقافية. أو نتيجة إنتاج تاريخي وثقافي في إيديولوجي ولا يماري عاقل في أن حضارة الصورة (أعني حضارة الجسد) ذلك الجسد المثالي المغالي الذي ينبغي أن نرغب فيه إلى درجة الاســـتيلاب في رغبة ليست رغبتنا أصلا وهذه الموضوعة لفتت انتباه رولان بازط، وهو يدرس سيميائية جسد الإشهـــار، وخرج بنتيجة مؤداها أن عارضة الأزيـــاء – أو عارضة الجسد – لا تعوض جسدها حقا ولا جمالها وإنما شكلا محضا أو نموذجيا ضبطه بصفة مسبقة ومجردة حيث ينحل المحسوس فـــي الـــدال كما يقول.

إن لغة الجسد، تعد من جانب لغة عالمية بإمكانها سد فوارق ثقافيـــة لا فضل لعربي على عجمي أو العكس إلا بالفحولة، لقـــد اقتطفنـــا العبـــارة السابقة من كتاب " الاستشراق جنساي " (تذكير الأنا وتأنيـــث الآخـــر)[3]، للكاتب التركي " إرفن جميل شل " والذي نقله إلى العربية " عدنان حســـن " وقدم له الشاعر الراحل " ممدوح عدوان " حيث سعى صاحب الكتـــاب إلـــى تظهير الرؤية الغربية إلى الشرق في ملمح أساس من ملامح الاستشراق هو الملمح الجنسي إذ استنفر الغرب الأوربي كل ما يمتلكه من وسائل وتقنيات – علمية وفكرية متطورة من أجل التشديد على حقه في غزو " الآخر " الشرقي ما دام هذا الآخر متخلفا وراكدا وغير قابل للتطور. كان لا بد تبعا لذلك من إقامة كل أشكال التمييز بين " الأنا " الأوربية والأخر الهمجـــي والبربـــري وهو تميز يتصل بالحضارة والثقافة والقدرات العقلية كما يتصـــل بـــالجنس والجسد وما يحيط بهمـــا من طقوس واستيهامات وأحـــلام. فلسفتهم أن كـــل ما هو خارج عن الفضاء الأوربي يعتبر غريبا وغامضا وينبغي استكشـــافه وسبر غوره: عالم يصور بأناس غير أسوياء، هم في أمس الحاجة إلى إعادة تأهيل وركوب موجة التطور حتى عن طريق الإكراه الذي لا محجة تـــؤدي إليه سوى الاستعمار والغزو بجميع أشكاله.

الإيديولوجيـــا الجنساويـــة "L'ideologie Sexiste "

إن البعد الجنسي الإيروتيكي جسده الرحالة الغربيون كمـــا لاحظـــت الباحثة " أليسون بلنيت " أن كتاب الرحلات في القرن التاسع عشر استخدموا في أغلب الأحيان الصور والاستعارات الجنسية التـــي تـــنم عـــن المنزلـــة

---

[3] – ارفن جميل شك: الاستشراق جنسيا 02: تذكير الأنا ة تأنيث الآخر – ترجمة عدنان حسن – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – سورية، المقدمة.

الذكورية القاقعة للمستكشفين الأوائل بغية فتح العوالم الخطيـــرة المجهولـــة واختراق البلدان التي توزع خصوصيتها بالتساوي بين الأرض والنساء.

فالأرض هناك " عذراء وشرسة " والمستعمر ذكر فحـــل وعاشـــق مرغوب بحماسة ومروض لجموح النساء الأصـــليات. أمـــا أهـــل الأرض (الأهالي) من الذكور فهم إما مغتصبون حيوانيـــون أو مخنثـــون غنّيـــــنون رجولتهم غير مكتملة. مما يحول الفاتح الغربي إلى منقد أو مخلص .

أما الباحث " إيرك ليد" فيرى أن اقتصـــار الرحالـــة والمستكشـــفين الغربيين على الرجال من دون النساء هو الدلالة الأبرز على فحـــولة الغرب وشعوره بذلك على الأقل من دون النساء هو الدلالة الأبـــرز علـــى فحولـــة الغرب أو شعوره بذلك على الأقل " فالأماكن الموطوءة تصـــبح امتصاصـــا للغريب الشاب داخل أرض مؤنثة متأصلة ".

لكن هذه النظرة إلى الشرق لم تتولد من مجرد رغبة البلد " الفاتـــح " في تأنيث الآخر المفتوح، بل غذتها بقـــدر أو بـــآخر الجغرافيـــا المتصـــلة بالصحاري اللاهبة للأجساد السمر المفلوحة بوهج الشمس، كما زودتها بدماء جديدة التراجم والمؤلفات التي تزخر بالإثارة والمتبلات الشبقية الحادة كمـــا يحده في تضاعيف "ألف ليلة وليلة" هذه الضفيرة ساهمت كمـــا ذهـــب إليـــه "ميشيل فوفكو " في تبيان الخيط الأبيض من الأسود من أَلْهُنا والهُنَاك، عـــن طريق الاختلافات المضخمة والمدفوعة إلى حدودها القصوى بـــين " أنـــا " الغرب المتطاوس النرجسي المعجب بإنجازاته وتقدمه الفكري والتقني وبـــين آخر لايمكنه بأية حال من الأحوال أن يعرب عن أناه كما يجب، إنما يُنـــظر إليه بصفته عالم الحريم والمخصيين والراقصات والمحظيـــات والحمامـــات العامة وأسواق الرقيق والنخاسة والعجائبية التي يَعـــج عالم ألف ليلة وليلـــة. وكل هذه الروافد تصب في محيط الضرورات السياسية والإيديولوجية.

إن الشرق لم يرد التحية بمثلها للغرب المتباهي بفحولتـــه حيـــث أن الذكورة الغربية تجد في حضورها المادي والجسدي المباشـــر فـــي الشـــرق وعالمه السحري ما يشفي غليلها ويجعلها بنجوة عن رصف الأدلة والبراهين الرمزية الأخرى، لأن الأسباب تكمن في أن الذكورة الشرقية المهيمنة علـــى المستويات السياسية والعسكرية والثقافية لا تجد من يمد لها يد العون وهـــي تخوض معرفة إثبات وجودها عدا فحولتها الجنسية والغرائزية الصرف.

لقد شعر الكتاب المستشرقون وهم يخوضون هذه المعركة بالذات بأن الله تغمدهم برحمته وشملهم بعنايته، حيـــث حققـــت أجســـادهم بـــالمتبلات والبهارات وكل ما يمت بصلة للشهوة والشبقية من قريب أو بعيد في جغرافيا الحضور الشمسي، ولم يتركوا لخصومهم الغربيين سوى أجساد مخنثة وباردة كالثلج الذي يحيق بهم من كل الجهات. إن مؤلف " شرق / غـــرب، ذكـــور وأنوثة " للكاتب السوري " جورج طرابيشي " يعتبر التعبيـــر الأمثـــل عـــن انقلاب السحر على الساحر من وجهة نظر شرقية، كما نلفي الكاتب السوداني " الطيب صالح " في موسم الهجرة إلى الشمال يحمل بطله مصـــطفى ســـعيد على مقاومة شعوره بالهامشية والضعف إزاء الغرب من طريـــف فحولتـــه المشرقية التي تحول الغرب إلى موطئ أنثوي، نفس الوتر عزف عليه توفيق الحليم في "عصفور من الشرق " ومواطنه " سهيل إدريـــس " فـــي " الحـــي اللاتيني ".

فـــي عملية الكـــر والفر هذه، والصـــراع الأبدي بين شقي الأرض المتناحريـــن لا يسمع المرء أن يسجـــل أي فضل لغربـــي على أعجمي، أو العكس إلا بالفحولة.

النص الســـردي نحو سيميـــات للجسد:

ليس الجسد في التصور الإنساني جسدتً واحداً، إذ تتفاوت في تمثيله حين نصوغه أو نعبر عنه في الفن والأدب، أو حتى حين نحاول أن نتأمله بوصفه ظاهرة، ومن تم يصح أن نقول إنه جسد متعدد، أو بالأحرى نقول تأثرا بالروح الصوفي – إنه " جسد اعتقادات ".

إن الجسد الذي يقدم في الروايات ليس جسدا واقعيا، بل هـــو تمثيـــل رمزي للجسد عبر اللغة، وما دمنا قد دخلنا إلى رحـــاب اللغـــة فـــإن بـــاب الاختيار ينفتح أمامنا على مصراعيه، فالكاتب يستطيع أن يختـــار تصـــورا خاصا للجسد، كأن يجعله وسيلة للتعبير عن العلاقة الملتبسة بالوطن، ومن ثم يستند إلى مجموعة من الأفكار الإيديولوجية وهذا ما يحدو الكاتب إلى اختيار لغة بعينها تتناسب مع هذا الاختيار يتضح هذا جليا – فـــي روايـــة وليمـــة لأعشاب البـــحر " للكاتب السوري حيـــدر حيـــدر، وروايـــات " ذاكـــــرة الجســـد– فوضى الحواس – عـــابر ســـرير " للكاتبـــة الجزائريـــة أحـــلام مستغانمي. و" سيدة المقام " للروائي الأعرج واسيني.

وقد ينشغل الكاتب بالجسد بوصفه وسيلة للتعبيـــر عـــن العلاقـــات الوجودية بالكون والآخر، وربما يستند إلى مصادر عرفانية تؤدي من ثم إلى الإفادة من اللغة في جانبها العرفاني، وهذا ما يتجلى فـــي روايـــة " التبـــر " للكاتب الليبي إبراهيم الكوني، وقد يحرص الكاتـــب علـــى الاعتمـــاد علـــى الميثولوجيا في بناء نصه، ومن ثم يكـــون الجسد معتمدا على لغـــة خاصـــة تمتح من الأدب العجائبـــي، مثلما حدث لدى عزت القمحاوي فـــي روايتـــه " مدينـــة اللذة ".

لقد شهدت السنوات الأخيرة اهتماما من جانـــب البـــاحثين العـــرب بالجسد على نحو خاص، ولكنه على أية حال ضئيل، إذا ما قـــورن بـــالولع الشديد بالجسد في الروايات العربية في القرون الأخيـــرة، ومـــن الدراســـات الجادة الجديدة في هذا السياق دراسة الباحثية التونسية " عروسية النـــالوتي " حول " تمثلات الجسد من خـــلال الرواية التونسية المعاصرة "[4]

تناولت فـــي الفصـــل الأول: اســـتعارات الجســـد، والثـــاني جســـد الاستعارات، وتحت " استعارات الجسد " تعرض الباحثة موضوعين، أولهما: نسبة حضور الجسد في الروايات وسلم تراتب أجزائه، وثانيهمـــا: تمـــثلات الجسد الذكوري والأنثوي ومرجعياتها، وتحت " جسد الاستعارات " تعـــرض موضوعين هما تمثلات الجسد اللغوي، والنص الأدبي بوصفه جسدا لغويا.

ومن الدراسات كذلك ما يهتم بفكرة جزئية يتم تتبعها فـــي سيـــــاق بعينه، وهذا ما قام بن " إلهام سليم " في بحثها المحتفى " مفهوم الجسد عنـــد بلزال "[5].

وفيه ترى الباحثة أن " بلزاك " كان مشغولا بـــبعض الموضـــوعات الفلسفية التي تجلب في كتاباته، ومن هذه الموضـــوعات اســـتنزاف الطاقـــة الجسدية، حيث تشير الكاتبة إلى تبني بلزاك فكرة أن الطاقة الجســـدية التـــي يزود بها الإنسان محدودة، ومن تم فـــإن عليـــه أن يســـتثمرها الاســـتثمار

---

[4]– عروسية النالوتي: قراءة في تمثلات الجسد من خلال الرواية التونسية المعاصرة، سبتمبر 1993م، بحث مقدم إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة تونس الأولـــى، لنيل شهادة الكفاءة، إشراف: حمادي صمود.

[5] – إلهام سليم: مفهوم الجسد عند هونوريه دي بلزاك: قراءة في رواية الجلد المسحور، مجلة الدراسات العربية، بيروت، عدد 07– مايو 1990م.

الأمثل، حيث إن الحياة الكثيفة المفعمة بالفعل الجســدي والتأمــل الفكــري والشعور المفعم بالحيوية محكوم عليها بالنهاية السريعة.

هذه الفكرة تتبعها الكاتبة في إبداعات " بلزاك " مركزة على روايــة الجلد المسحور " **La Peau du chagrin** " 1830م.

لقد تجرد الكاتب " معجب الزهواني " وهــو يتوســل بخصوصــية الرواية العربية من خلال فحص التعبير عن الجسد، كونــه – أي الجســد – ركيزة الخطاب الثقافي العام في مؤلفه المعنون " تمثلات الجسد في نماذج من الرواية العربية المعاصرة "[6]، منقبــا في ثلاث روايات هي:

" ذاكــرة الجسد " لأحلام مستغانمي، و" نجمـــة أغســطس " لصنـــع الله إبراهيم، و " نزيف الحجر " لإبراهيم الكوني. هــذه الحفــريات التي قام بها في هذا المتون أسفرت عن أنها تقــدم تمثــيلات محــددة للجســد فروايــة " أحلام مستغانمي " تقدم تمثيلا للجسد الثقافي الاجتماعي، أما رواية " صــنع الله إبراهيم " تمثيلا للجسد الفردي المستقل عن كون المجتمع، أمــا روايــة إبراهيم الكوني " فتقدم تمثيلا للجسد الطبيعي الكوني. وكانت ســلال فاكهــة عملية التنقيب تلك أن الدرس النقدي – في موضــوعة الجســد – بضــاعته مجزاة لسببيــن:

أ– محدودية المجــال النصــي.

ب– إنه بحثي جديد لا يزال ينتظر من يفترع عذريتــه، نظــرا لعتمتــه وإشكاليته.

---

[6]– معجب الزهواني: تمثلات الجسد في نماذج من الرواية العربية المعاصرة، مجلة فصول، مج 16– عدد 04 ربيع 1998م.

كما أن الباحثة " نعمة خالد " نحت نفس المنحى " المعجب الزهواني – وهي من المهتمات بالنقد النسوي – في ورقة قدمتها في فعاليات مـــؤتمر "مرور مائة عام على تحرير المرأة العربية " الذي التأم بالقاهرة في أكتـــوبر 1998م تعرضت فيها إلى " تمثيـــلات الجســـد " نبيل سليمان نموذجاً مـــن خلال ثلاث روايات.

إننا لا نكاد نعثر في خطابنا النقدي حول الرواية علـــى اهتمـــام لـــه خطره في صُـــوّره المتعددة، ولنفترض جدلا أن الجسد أثار الاهتمام، فغالبا ما نلفيه اهتماما مختزَلا في صورة من صـــوره، هـــي صـــورة – الجســـد الرغبوي الشهوي – الخاص بالمرأة تحديدا، والذي يقدم في صورة عراجين من الشهوة والشبقية تسيل لعاب القارئ الصلصال، وهذه النتيجـــة توصـــل إليها " معجب الزهواني " في الدراسة السابقة، حيث ترد تلك الكنايـــات فـــي سياق النظر في " حركة تحرير المـــرأة " أو " النقـــد النســـوي " أو " نقـــد الإيديولوجيا الأبوية " في الثقافة العربية.

ومن الدراسات الجادة في هذا الاتجاه نشير إلى دراسة الناقد السوري " جورج طرابيشي " المعنونة " شرق وغرب؛ رجولـــة وأنوثـــة " ودراســـة الباحث السعودي " عبد الله الغدامي " الموسومة " المرأة واللغة " إضافة إلـــى دراسة لمجموعة من الباحثين والباحثات تحت عنـــوان " الجســـد الأنثـــوي " نشرت في عام 1991م بالدار البيضاء.

إن الجسد يقوم بدور شديد الفعالية في خلق النص وتأويله، إلا أنه لم يحظ بالعناية الكافية في الأبحاث النقدية المستشهد بها سابقا.

صـــورة الخطاب المتعلق بالجسد:

إن دراسة الجسد في الرواية العربية المعاصرة، يفترض معها ابتداء أنهـــا تنطلق من منظور "**Perspective** " حديث لا يُشغل من الجسد بهيئتـــه

الخارجية وما يتعلق به من أغراض، بل يشغل به بوصـــفه تمثـــيلا ثخيليـــا لا يستقر على حالة واحدة بل هو كل لحظة في شأن.

إن الجسد ليس شيئا تمتلكه، بل هو علامة على كينونتنا، فيـــه ومـــن خلاله نتعرف وجودنا في العالم[7].

تحتاج كل القطاعات التراثية الثقافية العربية المختلفة إلى أن يـــدرس فيها مفهوم الجسد دراسة متعمقة، بوصف ذلك المفهوم جوهريـــا فـــي فهـــم الوعي واللاوعي الجمعي لدى العرب[8].

كما ينبغي قراءة النصوص قراءة عمودية، والوقوف على ما تحبـــل به من دلالات، وعدم إغفال المسكوت عنه منها " **Le Non- dit** " كالإيقونات سواء أكانت رسما أو نحتا أو غيرهما. ضف إلـــى ذلـــك حتميـــة دراســـة النصوص المكتوبة وغير المكتوبة، والإفـــادة مـــــن الإبـــداعات الشـــعبية، وإخضاع النصوص العربية لعملية فحص دقيقة لفهم طرائـــق العـــرب فـــي التعبير الإيمائي للجسد [9].

الجسد في الخطاب الروائي المعاصر:

تتبدى مركزية الجسد في الخطاب المعاصر في ذلك الاهتمام الكبيـــر به في المعرفية المختلفة على نحو لافت، فهناك اهتمام كبير به في الخطـــاب النفسي والاجتماعي والفلســـفي والبيولـــوجي والإثنولـــوجي والاقتصـــادي والتربوي والأنثروبولوجي ....فضلا عن الخطاب النقدي. ويشير إلى ذلـــك

7- انظر : Jonathan Millere. The Body in question, Jonathan cape, London, 1978, P.14

8 – علي زيعور: اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت. الطبعة الأولى عام 1991 م– ص 112.

9 – يمكن الباحث أن يقيد في هذا السياق، من فقه اللغة، مثل فقه اللغة للثعـــالبي ولســـان العرب لابن منظور نظر لما يحتويانه من نصوص حاسمة.

أحد الباحثين بقوله إن حساسية ما بعد الحداثة تكشف عن تحول عن المعرفة إلى الخبرة، وعن النظرية إلى الممارسة، وعنى العقـــل إلـــى الجســـد [10]. ويلاحظ في مختلف الخطابات أمران، أزلهما الحرص على بحث الجسد فـــي الجذور المعرفية داخل كل حقل معرفي، والآخر تداخل الخطابات المختلفـــة المتعلقة بالجسد.

فإذا كانت الفلسفة الظاهراتية – في بعض تصوراتها – ترى الجســـد مركزا للوجود من حيث إنه يمكن إدراك العالم كما يمكـــن بـــه إدراكـــــنا لذواتنا، فإن السيميولوجيا – " **Semiologie** "– في بعض تصوراتها – ترى العلاقات الاجتماعية علاقات بين أجساد أساسا. وإذا كـــان علـــم التشـــريح ووظائف الأعضاء والوراثة تجعل الجسد محـــور اهتمامهـــا، فـــإن العلـــوم الإنسانية تحرص على أن تأخذ نتائج تلك العلوم للتحرك إلى أبعد منها، نظرا لافتقار هذه العلوم إلى بعض الأدوات التصورية الخاصة، ولبقائها في حدود المعرفة التجريبية الضيقة[11].

يمكن القول إن الفلسفات القديمة – حتى الأرسطية التي تجعل النفس صورة لجسم عضوي يملك الحياة بالقوة – لم تعتـــرف للجســـد بقيمة مقابلة أو مكملة للنفس. وحتى الفلسفة الديكارتية لا تعده أكثر من آلة تحتـــاج إلـــى اكتشاف قوانينها، في مقابل النفس التي تمثل وحدها الذات.

وهكذا فإن معظم الفلسفات حتى ديكارت تنطق من ثنائية تجعل النفس والجسم جوهرين متميزين، أما سبينـــــوزا فإنه يراهما صـــفتين مختلفتـــين

10- انظر: Roy Boyne: The art of the Bdy in the discourse of Postmodernity in Mike Featherstone and others (ed): The Body, Sage publications, London, 1991, P. 281.

11– جـــلال الدين سعيد: فلســـفة الجسد، دار أمية للنشر، تونـــس، الطبعة الأولى، عـــام 1993م.، ص 05 وما بعدها.

لجوهر واحد هــو الله، فهــما شيء واحــد يتصور تارة من جهــة صــفة الفكر، وأخرى من جهة صفة الامتداد[12].

ويبدو أن التفكير الفلسفي في الجسد قد وقع بين شقي رحى النظــرة الثنائية والنظرة الواحدية، حيث كانت النظرة الثنائية غالبا ما تقابل بــرفض تال من الفلاسفة يرى في النفس والجسد شيئا واحد، وربما كانت الظاهراتية أول فلسفة تربط ربطا وثيقا بين الجسد والــنفس، علــى أســاس أن الجســد الظاهراتي ليس مجرد موضوع من موضوعات العلم، ولا هو أداة من أدوات الشعور والوعي، بل على أساس أنه الأول والأصل، وأنــه جســد معــيش يقتضي كل سلوك له وكل وظيفة من وظائف إدراكا لمعنى ما وموقفــا إزاء المحيط الذي يوجد فيه.

أما اهتمام الاجتماع بالجسد فيكاد ينحصر في الاهتمام بــه بوصــفه كيانا عضويا (كما في نظرية بارسونز عن الفعل الاجتماعي) كيانا معبرا عن الحاجة والطبيعة (كما في نظــرية ماركس) أو كيــانا حــاملا للذات (كما في التفاعيلة الرمزية) أو كيانا حاملا لطاقة الرغبة (كما في الفرويدية)

ويبدو أن المشكلة التي تبلور علم الاجتماع حولها هــي مشكلة التحكم في الجسد وضبطه، فكل مجتمع تواجهه مهمات أربع:

1- إعادة إنتــاج سكانه عبر الــوقت.
2- التحكم في أجساد سكانه عبر المكان.
3- كبح الجسد الداخلي (الرغبات) من خلال النظم.
4- حضور الجسد الخارجي في الحيز الاجتماعي.

12 – فلسفة الجسد: مرجع سابق. ص 12.

وفي ضوء هذه المهمات لا تكون عملية تنظيم المجتمـــع ســـوى تنظـــيم للأجساد –داخليا وخارجيا – عبر الزمان والمكان، ومن ثم فإن تحليل هـــذه الأبعاد الأربعة يفتح الباب أمامنـــا مباشـــرة إلـــى تحليـــل نظـــم المجتمـــع وإيديولوجياته[13].

إن الجسم صدى للتاريخ والمجتمع؛ فعاداته وقوانينه وأمراضه لا تفسرها الفيسيولوجيا وحدها، ولا ينفع فيها الطب الجسدي وبالأحرى النفســـي. إنهـــا غارقة في التاريخ، مشدودة إلى السياسة. فسوء التـــنفس والتغذيـــة، ووهـــن الجسم وخَـــوَرُهُ وحتى شحوبه ونحافته– لا تعود بالضـــرورة إلـــى الطـــب والفسيولجيا، إنها لا تجد تفسيرها إلا في القيم الأخلاقيـــة والسياســـية التـــي غرسها المجتمع، واقتضاها النظام، وألزمها التاريخ [14].

وإذا كان الجسد حسب عبارة " ميرلو بونتي "، هو " المنظومة الرمزيـــة العامة للعالم "، فإن المجتمع الذي ينحت رموزه فيه عن طريق المؤسســـات التربوية المختلفة التي تجعل من أجساد الأفراد أجســـادا خاضـــعة مطيعـــة. ويمكن القول بأن مجتمع يطبع قوانينه في جسد المواطنين، لكـــن ذلـــك يـــتم بطرق مختلفة باختلاف المجتمعات البدائية كانت لا تـــزال تطبـــع علامـــات خاصة على أجساد أفرادها الذين ينتقلون من سن المراهقة إلى سن الرشـــد، وهذه العلامات تتمثل في جروح وندبات يتعذر محوها، وهي تقـــوم بـــدور "الذاكرة الاجتماعية " وتجعل كل فرد لا ينسى حدوده ووضعه بوصفة فـــردا ينتهي إلى جماعة ما.

---

13 – أحمد زايد: الجسد والمجتمع؛ استكشافات في النظرية الاجتماعية – مجلة إيداع عدد 9، سبتمبر 1997م.

14 – عبد السلام بن عبد العالي: ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، الطبعة الأولى 1994م، الدار البيضاء المغرب، ص 116.

صحيح أن مجتمعاتنا المتحضرة، لم تعد تعمد إلى مثل هذه الممارســـات البدائية، لكن لها طرقا ووسائل أخرى أنجع من الطرق القديمة.فمنذ القـــرنين الثامن عشر والتاسع عشر أصبح الهدف المنشود للمجتمعات الغربية– فـــي المدرسة وفي العمل وفي الجيش ... إلخ – هو الحصول على أجساد طيعـــة منقادة قابلة للاستعمال والتحويل والإكمال.

الغاية إذن تحقيق نوع من " التشريح السياسي للجسد " يسمح يجعله ينتج أكثر وأحسن، كما يسمح في الوقت نفسه بإخضاعه للسلطات القائمة والفئات الحاكمة، لقد أصبحت هذه الأخيرة تبث قيمها في الأوساط الشعبية وتروجهـــا بطرق خفية مستترة، لأنها طرق تقوم على مظاهرة أكثر ديمقراطية، إن صح التعبير، بمعنى أن ترويض الجسد والفرد أصبح يتحقق عن طريق مؤسسات متنوعة كالمـــدارس والمعاهـــد وثكنـــات الجـــيش والمصـــانع والمعامـــل والمستشفيات ... إلخ. إن الغاية القصوى من هذا الجهاز الذي سماه " ميشال فوكو " "بميكروفيزيا السلطة " حصر الجسد في بعد واحد هو البعد الإنتـــاجي بحيث يصبح الإنسان الآلي أحسن نموذج للجسد، ولنا في فيلم " العصـــــور الحديثة " " لشارلي شابلن " أصدق صورة لذلك. و بالإضافة إلى هذا البعـــد الأدبي والإنتاجي للجسد لن يغيب عنا بعده الاستهلاكي، لاسيما أن الجسد في المجتمع الغربي المعاصر يمثل قوة عمل ورأس مال حي، كما أنه تميمة من جهة كونه موضوع استهلاك.

لقد بين عالم الاجتماع " ج. بودريار " أننا نعيش في عصرنا هذا ظاهرة جديدة تتمثل في المنزلة التي أصبحت عليها الأشياء التي نســـتهلكها، أي أن هذه الأشياء لم تعد ذات قيمة تبادلية وذات قيمة استعمالية فحسب، بل أصبح أيضا فيه قيمة اجتماعية رمزية، وأصبحت بمثابة علامات أو إشارات يحفـــل بها مجتمع الاستهلاك المعاصر. ومن هذا المنظور لا يكون الشـــيء المـــبهم

حقا في هذا المجتمع استهلاك أشياء لأجل استهلاكها من جهة كونها علامات تميز الأفراد بعضهم عن بعض، وتضع حدودا بين الفئات الاجتماعية. هــذه الأشياء هي إذن علامات وظيفية، ويمكن القول مع " بودريار " أننا أصــبحنا لا نستهلك أشياء بقدر ما نستهلك علامات ورموزاً وعلى هذا فإن الجسد يجد نفسه وسط خضم من العلامات والرموز التي يفرزها المجتمع، وهي تحولــه هو الآخر إلى شبكة من العلامات والرموز[15].

ويمكن القول إن هناك طريقتين متباعدتين – في الظاهر – يعكسان رؤى الحداثة تجاه جسد الإنسان؛ الطريق الأول طريق الشك في الجســد وأبعــاده نظرا لهشاشته، والثانية طريق خلاص الجسد عبر تمجيده، وصياغة مظهره ومحاولة تحقيق أفضل صور الإغراء له، والهوس بالشكل والرفاهة والإبقاء على الشباب وفي الحالتين تَم فصل الجسد عن الإنســان. وهكــذا نلاحــظ " الصيغة الحديثة للثنائية تعارض بين الإنسان وجسده، وليس بــين الــنفس أو الروح والجسد كما كان الحال في الماضي[16].

ويكشف موقف الحداثة من الإعاقة الجسدية عن موقــف مرتبــك مــن الإنسان؛ فالحداثة تحتفي بقوة الفرد، ومن ثم فإن المعوق يصبح في نظرهــا مربكا لتلك الرؤية، لأن " الإنسان المعوق يذكر بهشاشة الوضع البشري التي يصعب الدفاع عنها، وهذا ما يُرفض الحداثة بإصرار أن تدركه[17].

15– جلال الدين سعيد – فلسفة الجسد – مرجع، ص 95–97.

16– دافيد لوبروتون: أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ترجمة: محمد عرب صاصيلا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، عام 1993م، ص 222.

17 – المرجع نفسه، ص 137.

تم ارتباك آخر في رؤية الحداثة يتعلق بخطاب تحرير الجسد، فمن ناحية هناك اهتمام بالتعبير عن الجسد واحتياجاته، والسماح بتعريته في بعض السباقات، ولكن الجسد – في مقابل ذلك – ينحو أن يتزايد التزامه بالقواعد الاجتماعية، كما تتناقص فرص المشاركة الجماعية الحميمية التي كانت متاحة في الماضي في الكرنفال على سبيل المثال؛ " فالمفهوم الحديث للجسد هو نتيجة للبنية الفردية للميدان الاجتماعي، ونتيجة لانقطاع التضامن الذي يمزج الشخص بالجماعي وبالكون عبر نسيج من الاتصالات التي يستقيم بها كل شيء " [18].

هذا كله يعني أن هناك إحساسا قويا بحضور الجسد، بدون أن يصبح جزءا من العالم كما هو الحال في المجتمعات البدائية، ومن ثم فإنه يصبح ثقيلا في سياقات كثيرة ــ بهذا المعنى يمكن القول إن " تحرر الجسد لن يكون فعليا إلا عندما سيختفي هَمُّ الجسد [19].

الجسد في عالم الأدب &استعارات الجسد &جسد الاستعارات

حينما ندخل إلى عالم الأدب والنقد، فإننا نُشغل من الجسد بمستوى التعبير حيث إن الجسد في الحياة إنما هو مَعَبِّرٌ عن نفسه مُعَبِّرٌ عنه في آن، أي أنه علامة الإنسان أو الدال والمدلول في صعيد واحد. وحين نتواصل مع الأداء الأدبي يكون علينا أن نتأمل مستوى أبع هو التعبير عن العلامة ذاتها، فالجسد– كما يقول ميرلو بونتي – موطن ظهور التعبير، كما أن كل استعمال للجسد إنما هو تعبير أصلي وأولي [20]، ومن ثم فإن استعمال الجسد في الأدب إنما هو تعبير ثانوي.

---

18 – المرجع نفسه، ص 137.

19 - المرجع نفسه، ص 14.

20 – فلسفة الجسد: مرجع سابق، ص 22.

إن العلوم تدرس الجسد بوصفه ظاهرة حاملة لما هـــو بشـــري، وتتجـــاوز الخطابات الإنسانية ذلك إذ تدرس الجسد بوصفه وجوداً في العـــالم منظـــوراً إليه بوصفه كيانا جسميا ونفسيا، يرتبط بعلاقات اجتماعية. و يتحرك الخطاب النقدي خطوة أخرى إذ يدرس ذلك الجسد المتعين بوصفه قد تم التعبير عنـــه جماليا عبر الخطاب الأدبي.

هناك إذن جسد عضوي، وهناك جسد اجتماعي و معيش، وهناك جسد متخيل أو جمالي.

عند الحديث عن الجسد داخل النصوص- وهذا يكون أكثر وضوحـــا فـــي التأمل التأويلـــي – إنما يكـــون الكلام عنه بوصفه جسداً تم ترميـــزه، أو بوصفه علامة ذات معانٍ متعددة، ومن ثم فإن ما نستطيع أن نعرفه عـــن الجسد ليس سوى تمثيلاتنا له [21].

وإذا كان علماء الأنثربولوجيا يهتمون بالكيفية التي يمكن لنا بهـــا أن ننظم مكان معيشتنا سواء على المستوى الخاص (البيوت التي تقوم ببنائهـــا ونعيش فيها.... إلخ)، وعلى المستوى العام (العمارة ومكان العمل ... إلخ) فإن الأدب (وخصوصا المسرح) يأتي ليفيد من هذه الشـــفرات الســـلوكية بالنسبة للمكان، على درجة أنها تفيد في قيامها بدور دينامي مهم في تنظـــيم الحدود بين المتفرج والمؤدي، وهذا يؤثر كذلك في إنتاج المعنى في ســـياق عرض ما [22].

---

21 – انظر: Donne Wetton (ed): Body and Flesh, Blackwell, Oxford, 1998, P.4.

22 – انظـــر: جورج سافونا وإلين ستون: المسرح والعلامات، ترجمة، سباعي السيـــد: س مسرح، عدد 13، أكاديمية الفنون، الطبعة الأولى، ص 159.

إن الجسد في الأدب يتميز بأنه يتجلى من خلال الجدل بين الطبيعـــة والثقافة وهنا يأتي دور البروكسيما (أو البونيه أو علم البون أو علم المسافة **(proxemics)** وهو العـــلم الذي يـــدرس أســـاسا المسافة بين شخصـــين أو أكثـــر، وواضع أســـســـه هو الأمـــريكي إدوارد هول **Edward Hall.**

يميز هول بين ثلاثة أصناف بونية رئيسية، وهي المقوم الثابت **Fixed Feature**، ويشمل التشكلات المعماريـــة، والمقوم شبـــه الثابت، **Semi Fixed Feature**، ويشمل الوحـــدات القابلة للتحرك كالأثاث والإضـــاءة والأدوات المستخدمـــة يوميـــا... إلخ والمقوم غيـــر الشكلـــي **Feature Informal**، ويشمل علاقات البعد والقرب بين الأفراد، وقد قسم "هـــول" المسافـــات إلـــى أربـــع؛ هـــي: المسافة " الحميمة " **(Intimacy)**، (الاحتكاك الجسدي وأوضاع اللمس عن قرب) والمسافة " الشخصية " **Personality** (1.5– 4أقدام) والمسافة " الاجتماعية " **Soliality** (4–12قدما) والمسافة " العلنية " **Publicness** (12–25 قدما)، وينقسم هذا التدرج كذلك إلى "قريبة " و" بعيدة " لينتج عن ذلك ثماني درجات تعمل لقياس جدلية حوار الجسد مع الجسد[23].

لكن تلك العلاقات يجب قراءتها في سياقها الخاص، فالحميمية تـــدل على علاقة قوية إما أن تكون إيجابية (الحب، والعلاقات الحميمة)، وإما أن تكون سلبية (العنف والعدوانية).

---

[23] – كير إيلام: سيمياء المسرح والدراما، ترجمة: رئيف كرم، المركز الثقافي العربـــي، بيروت الطبعة الأولى 1992م، ص 102.

إن الحميمية في حد ذاتها تحمل تناقضا؛ فهي علامة غامضة إلى حد بعيد، ولا يُكشف عن غموضها إلا إذا كان هناك أسباب أو علامات أخـــرى توجه التفسير[24].

ويلتفت " إدوارد هول " إلى أهمية الكينزياء مـــن خـــلال علاقتهـــا بالتقاطع الثقافي، وما يمكن أن ينشأ من سوء فهم بـــين أصـــحاب الثقافـــات المختلفة، بسبب الجهل بالتعبير الجسدي لدى الآخـــر، ومـــن الطريـــف أن "إدوارد هول " يخص اليابان والعالم العربي معا بفضل مـــن أحـــد أبحاثـــه الرائدة، سماه " العلاقات البونية في سياق التقاطع الثقافي. اليابـــان والعـــالم العربي "؛ يتعرض فيه – فيما يتعلق بالعالم العربي – للسلوك العام ولمفاهيم الخصوصية، والمسافات الشخصية، وطرق التعبير بالوجوه عند تلاقيها[25].

تعـــد حركة الجســـد بوصفهـــا وسيطا اتصاليـــــا موضـــوع علـــم (أمريكي أساسا) معاصر للبونية تقريبا وهو " الكينزياء " أو علـــم التعبيـــر بالجسد " **Kinesics** "؛ وهو العلم الذي يدرس الجسد وسيطا تواصليا، ويعـــد عالـــم الانثربولوجيا الأمريكي " راي بيردويســـتل " " **Ray Birdwhistell** " أهـــم رواده.

وقد اكتشفت " الكينزياء " أن كل ثقافة تختار مـــن مـــادة الحركـــات الممكنة عددا محدوداً. فمن بين عشرين ألفا من تعبيرات الوجـــه قـــد يوجد – تبعا لرأي الباحثين – اثنان وثلاثون حركة منها فقط يجـــري اســـتخدامها

---

[24] - انظر : Edward T.halli : The silent Language. Fawcett World Library New York. 1959, P. 9-13.

[25] - انظر : Edward T.halli : The Hidden dimension Anchor Booke. New York 1969, P. 23-40.

حاليا في السلوك الكينزي الأمريكي. وقد سمى " بيردوبستل " هذه الوحـــدات المميزة وحدات التعبير الجسدية **(Kinemes)** واستطاع أن يبين منها خمسين أو ستين وحدة تعمل في النسق الأمريكي تضاف إلى تعبيرات الوجه، منهـــا ثلاث هزات للرأس، وحركتا ميل جانبيتان للرأس، وواحدة لشـــنق الـــرأس، وواحدة لتنكيس الرأس وحركات الحاجب والجفون والأنـــف والفـــم والـــذقن والوجنتين... إلخ. و تتركب من هذه الوحدات وحدات أكثر تعقيدا هي أشكال الحركة **(Kinemorphs)** التي يمكن أن يتركب أن هناك علاقات بين مركبات أشكال الحركة **(Complex Kinemorphic Constructions)** تشابه العلاقات في الجملة النحوية اللفظية[26].

إن السلوك الكينيزي وكذلك السلوك البوني – فيما يرى باحث آخـــر هو " رونالد أرجيلاندر " – ليسا سوى وســـيلتين مـــن وســـائل التواصـــل الإنساني، ومن ثم فإن لهما قواعد ملتزمة، ولكن هذه القواعد تتميز بأنها غير ظاهرة على السطح بل تبقى مختفية[27].

ويبدو أن الكينزيائيين يربطون بين الأصل البيولوجي للغة المنوطـــة وللتعبير بالجسد. فيشيرون إلى أن كل شيء عالمي عادة ما يكون بيولوجيـــا وليس حضاريا. وكذلك الكينزياء فإن من الظاهر أنها تقع في مكان ما بـــين البيولوجي والأنثروبولوجي. إنها نظام اتصال، أو نظام تواصـــل، وبعـــض عناصر هذا النظام يختلف من حضارة إلى أخرى. وهم يمثلون لذلك بسلوك التحية في بعض وجوهه، وبعض الأوضاع والإيماءات التـــي تعبـــر عـــن اللاأدرية وعدم المعرفة، وبعض الإيماءات التي تبدر من الآباء تجاه ســـلوك

---

[26] – سيمياء المسرح والدراما: مرجع سابق، ص 101.

[27] - سيمياء المسرح والدراما: مرجع سابق، ص 101.

أبنائهم، حينما يولونهم عناياتهم، واستجابات الأطفال، والاستجابات تجاه أناس متأملين. إنك حينما تحيي أحد الأشخاص، فإن ما تفعله يختلف من حضـــارة إلى أخرى، فكل حضارة تحدد ما يكون عليك أن تفعله، إن كنـــت ستصـــافح باليد، أو إن كنت ستحيي، أو إن كنت ستقوم بمعانقـــة الآخـــر، أو إن كنـــت ستضع يديك معا مثلما يفعل بعض المصلين، كما يختلف مـــا يمكنـــك قولـــه حينما يُحَيُّوكَ في غينيا الجديدة، وذلك بالمعانقة بأيد مفتوحـــة، تمـــر علـــى الفخذين والردفين وعلى منطقة الأعضاء التناسلية. المسألة إذن هي أن كـــل هذه الاختلافات في الإيماءات والتلويح بالأيدي تستخدم في الســـياق نفســـه. ولكن في حضارات مختلفة، ولكن في حضارات مختلفة، ولكن هـــل هنـــاك شيء مشترك بينهما؟ هل هناك – حقا – اختلافات في اختصاصـــات تلـــك الإشارات؟ إن كل هذه التّحِـــيات يتم تأديتها بأيد مفتوحـــة، فهـــي يمكـــن أن تصبح شيئا عالميا مشتركا بين كـــل النـــاس. ويمكـــن بالدراســـة المتأنيـــة للاختلافات الحضارية والعناصر المشتركة اكتشاف البنية الكامنة وراء تلـــك التنوعات[28].

وقد ركز " مايكل أرجايل " في كتابه " التواصل الجسدي " على بحث الجذور الثقافية والبيولوجية للتواصل عبر الجسد، والأغراض التي يقصد ذلك التواصل إلى تحقيقها؛ كالتعبير عـــن المواقـــف الشخـــصية أو تشـــجيع الآخـــر، أغير ذلك[29].

---

[28] – انظر : Rickel Twersky "On Kinesics Analysis. A Discussion with Daniel N. stern, " The Drama Review, P. 119.

[29] - راجع: Michael Argyle: Bodily Communication, Methuen, London, 1975.

المشكلة فيما يتعلق بوجهة نظر " بيردويستل " – وبعض من تـــابعوه – أنه يحاول إقامة تماثل مطلق مع اللغة، وهذا يجعل بحثه عرضة لشـــكوك اللسانيين، ولكنه يؤكد أنه ليس هناك توافق مباشر بين الوحـــدات الكينزيـــة والوحدات اللسانية، بل فحسب وجود تماثل أعم بين نسقي اللغـــة والحركـــة النحويين عموما. الفرق الأهم بين نوعي الوحدة على حد تعبير كينزياني آخر هو " دانيال ستيـــــرن " **(DANIEL Stern)** أن اللغة رمـــزية في الأساس، ومن ثم تعد الكلمات وحدات دالة أولاً، أما مركب أشكال الحركة " فإنه يقوم أولا بوظيفة فيسيولوجية وعلمية. وقد أدى ربط نسق التعبير الجسدي بنســـق التعبير اللغوي ببعض الباحثين إلى اقتـــراح أن يدرسا معا تحت مصـــطلح " ما وراء اللغة **Paralanguage)** [30]. ولكن يعترف الباحثون في الكينزيـــاء بتعذر وضع قائمة " بالمعجم " الإيمائي يمكننا بواسطتها إنشاء بدائل كينزيـــة وفقا للحاجة [31].

وهكـــذا – كما يقـــول ستيـــــرن – نوعـــان مهمـــان للدراســـات الكيـــنزية، أحدهما يهتم بالشخص في حد ذاته إذ يرســـل الإشـــارات التـــي تتواصل مع الآخرين، والآخر يهتم بالعلاقة التفاعلية بين مرسل الإشـــارات ومتلقيها .

ويمكننا أن نلاحظ أن هناك ارتباطا بين المنجز الحركي الثقـــافي الإنســـاني (التعبير الحركي من وجهة نظر الثقافة والمجتمع) والمنجز الحركي المعبـــر عنه إبداعيا، و مثل هذا التصور ينطبق على المسرح والرواية، فهما ليســـا

---

[30] – سيمياء المسرح والدراما، المرجع السابق، ص 110 وما بعدها.

[31] – انظر : Rickel Twersky "On Kinesics Analysis. A Discussion with Daniel N. stern, "The Drama Review, P. 119 .

تخيلا منبتا عن المصدر الثقافي الاجتماعي، بل يتم الاعتماد علـــى الشـــفرة الاجتماعية والثقافية في خلق الشفرة الابداعية، أو ما يسميه " أمبرتـــو إيكـــو **Amberto Ecco** " " التشفير الثانوي " [32].

وعلى هذا تكون بعض المبالغات المجازية في الرواية – بل كل مـــا يبتعـــد عن المعتاد في الواقع– نوعا من التشفير الثانوي الروائي الذي يتوطأ عليـــه المبدع والمتلقي، ويتطلب من المتلقي إعادة قراءته وتأويله. و لاشك فـــي أن الروائيين يتفاوتون في الاهتمام بتلك الإيماءات التي تظهر في سرد الأحداث خصوصا كما تظهر أثناء الحوار، وهكذا كله يحتاج من القارئ إلـــى انتبـــاه دقيق ليتمكن من تلقي الخطاب جيدا.

إن تفسير التعبيرات الجسدية لا يدعي أن عناك معنى واحدا مطلقا لكـــل تعبير جسدي، بل يجب بحث كل تعبير داخل سياقه الخاص، على أن يقتـــرن ذلك بملاحظة التعبيرات الجسدية الأخرى المصاحبة، إذ تتنوع معـــاني أيـــة رسالة تبعا لحشد من العناصر، منها – على سبيل المثال – السياق الثقـــافي والبيئي، والعلاقة بين أطراف عملية التواصل، وقوة الرسالة وأمدها، وما إذا كان قد تم تلقيها بوصفها متعمدة أو غير متعمدة إلى غير ذلك [33].

فإغماض العين قد يعني سياق إلغاء لآخر، لكنه في ســـياق اقتـــراب حميم قد يعني احتـــواء للآخر بعد أن تم جمعه وتكثيفـــه والامـــتلاء بـــــه. ومن ناحية أخرى فإن هناك تعبيرات ذات معنى خاص لمرسلها، قد يرســـلها إلى نفسه دون غيره، مثل البكاء في غير حضرة الآخرين.

---

[32] – كير إيلام: سيمياء المسرح والدراما، مرجع سابق، ص 82 وما بعدها.

[33] – انظر: mark Knapp: Nonverbal Communication in Human Interaction, Halt, Rinhard and Wiston New York. 2nd (ed), 1978, P. 254.

وهناك تعبيرات قد لا يفهمها سوى متلق بعينـــه مثـــل القبلـــة بـــين المحبين، دون حضور آخرين، فقد تكون اعتذارا أو إغراء أو اعترافا بشيء أو وعدا.... الخ.

ويلتفت " شتيرن" إلى توالي الحركات والسكنات في الكلام فيبين أنه عندما يتكلم الناس في لحظة ما من المحادثة قد يغيـــر أي شـــخص موقفـــه (مكانه) أو يغير جمله أو يقوم بحركة ما ويتبعه الآخرون؛ هذا التغير غالبـــا ما يدل على تغيير في طبيعة الأحداث الجارية بين المتحاورين أو المتحدثين فهي ليست مجرد حركة، ولكنها حركة حدثت في سياق جعل لها معنى مميزا جدا، هذا المعنى غير منصوص عليه، ولكنه إشارة حددت آخر نـــوع مـــن الأحداث وبدء نوع آخر، فاصل أو حاجز بين نوعين من التبادل. ولدراســـة هذا النوع من التبادل لا يكون التركيز على هيئـــة أيـــة حـــــركة بعينـــــها ولكن- لي أقصى تقدير – يكون التركيز علـــى التغيـــــير فـــي الحـــــركة والوقفة، والتعبير، والترتيبات، وأي نوع من التواصل تحدثه هذه التغيـــرات في سريان الأحداث بين اثنين أو أكثر من الناس [34].

إن الجسد المجازية، يشكل مع الكتابة تواطؤا أساسيا أدرك القـــدماء خطورته فصارعوه، وإن لم يصرعوه[35]، إلا أنهم فتشوا جيوبـــه الداخليـــة التي تحتضن المخبوء ومن إحدى هذه الجيوب انبهروا بغمزة عـــين شـــبقية أنبأتهم بأنهم دخلوا في لعبة الهيمنة، هيمنة لغة الجسد والسلطة.

[34]: انظر : Rikél Twersky op. cit P.115

[35]: فريد الزاهي: الحكاية والمتخيل – دراسات في السرد الروائـــي والقصصـــي – إفريقيا الشرق 1999م، ص 45.

- فاكهـــة المقـــال وسلال الخاتمـــة-

إن الإيديولوجية الجنساوية " **L'ideologie Sexiste** " فـــي المشـــهد الروائي تتوسل بالجسد أفقا سرديا، كونه في بعده الايروسي كما يرى ســـعيد بنكراد هو البؤرة التي تكون عالم النص الروائي، كما أنه الشكل الذي تنطلق منه وتلتقي عنده كل الأشكال، وهو أيضا وأساســـا الشـــكل القـــار القابـــل لاستيعاب سلسلة من الأفعال والأوصاف التي تحيل بهذا الشكل أو ذاك على قيمة (قيم) هي الأساس الذي تقوم عليه ممكنـــات الكـــون الـــدلالي وســـبل تحققه[36].

يعتبر الجسد في العمل الفني ركيزتا من أكثر الركائز الجمالية تعبيرا عن التشكلات الدلالية وتأسيسا لشعرية الخطاب[37]، الحبلى بعراجين الشهوة الحمراء التي تتغيا الأماكن الأكثر إثارة لتأجيج الرغبة فـــي قـــراءة الفعـــل الإنساني عبر (مقتضيات الجسد الحسية) بحيث يكون مادة الســـرد الأولـــى والأخيرة.

تأثيث المتون الروائية بموضوعة الجسد، يعزى إلى حضوره المكتف في حياة الناس، في الأحلام، وفي السياسة، والأخلاق، والسلطة، كل الأمـــور تتمحور حول الجسد ولا شـــيء يوجد خارج ما تثيره الكلمـــات والأوضـــاع أو ترسمه الأفعال من صور " للذة " لا تنتهي عند نقطة بعينها [38].

لكـــن ماذا ينتـــج عن غيـــاب الجســـد؟

---

[36] : سعيد بنكراد: النص السردي – نحو سميائيات للإيديولوجيا – الطبعة الأولى 1996 – دار الأمان – الرباط المغرب: ص 111.

[37] : المساءلة: مجلة اتحاد الكتاب الجزائريين العدد الأول، ربيع 1991، ص: 125.

[38] : النص السردي: مرجع سابق، ص 111.

يذهب سعيد بنكراد إلى أن غياب الجسد ينتج عنه غيـــاب الروايـــة لسببين اثنين: – يكمن الأول في أنه إذا كان بالإمكان التخلص مـــن بعـــض الشخصيات الرجالية دون الإخلال ببناء النص، فإنه يستحيل فعل ذلـــك مـــع شخصية نسائية واحدة دون أن تنهار الرواية.

ويعود الثاني إلى أن الخطاب في كليته مؤسس على " دورة كلامية " تقود من " أنا " مذكرة تؤسس على مهام انطلاقا من أنـــت " مؤنثـــة، إن أي إخلال بهذا " النظام التلفظي" هو إخلال بنظام القيم المبثوثة في النص [39].

من هنا كان الجسد موضوعا للسرد، وموضوعا للوصف وموضوعا للاستذكار والاستباق والاستيهام، وموضوعا للغة أيضا، فمنه تخلق لنفســـها تركيبا جديدا لا يدرك إلا في علاقته بما يتولد عن هذا الجسد من " هـــزات " و" إيماءات "و " آهات " حيث يصبح للكلمات قضيب وفروج.

وهذا ما نعاينه في المثل الروائية التي تؤثث بهكذا موضوعة حيـــث تضرب صفحا عن تركيبها المألوف كي تتزيا بتركيب يخلط بـــين اللفظـــي والبدني، ليقرأ اللفظي انطلاقا من التركيب الذي يقدمه البدني [40].

إن الجسد كنص مغلق ينطوي على سمات أو بنيات تخييلية ذات بعد مجازي واستعاري بحيث تكون وثيقة الصلة باللغة، أما الجسد كـــنص مـــن خلال علاقته بالواقع والحياة والتاريخ فإنه ينطوي أو يتضمن علـــى بنيـــات أنتروبولوجية لا تنفك تؤثر في سلوكيات المجتمع، وعلى علاقاتـــه الداخليـــة (اللغة) والخارجية (الواقع) وقد تتعاضد بنيات الداخل والخارج لتفضي فـــي

---

[39] : المرجع السابق: ص 112.

[40] : المرجع نفسه: ص 113.

النهاية إلى بنية جسدية قائمة باعتبارها أبرز العوامل المـــؤثرة فـــي إنتـــاج المعنى[41].

في المحصلة على المتلقي الحصيف أن يميز بين جسد الاســـتعارات واستعارات الجسد وهو ينهب تضاريس المتن الروائي حتى يقف على مواطن الفتنة التي قال عنها الجاحظ العظيم في حيوانه " أعلم أن فتنة القول أشد من فتنة المال والنساء "

[41] : محمد الحرز: شعرية الكتابة والجسد، دراسات حول الوعي الشعري والنقدي مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الأولى، 2005- ص 14.

قـــــائمة المصـــــادر والمـــــراجع

القــرآن الكريـــــم.

1- المصـــــــادر:

* أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقـــي المصـــري: لسان العرب – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – دار صادر – الطبعـــة السادسة 1417 هـــ – 1997م بيروت، لبنان.

2- المـــــراجع:

1- د. محمود أمهذ: تافن التشكيلي المعاصر – التصوير 1870 م- 1970م – لبنان 1981م.

2- ارفن جميل شك: الاستشراق جنسيا، تذكير الأنا، تانيث الآخر: ترجمـــة، عدنان حسن اتحاد الكتاب العرب دمشق سورية.

3- علي زيعور: اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظـــي فـــي الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى عام .1991

4- جلال الدين سعيد: فلسفة الجسد، دار أمية للنشر، تونس، الطبعة الأولـــى عام .1993

5- عبد السلام بنعبد العالي: ثقافة الأذن وثقافة العين، دار توبقال، الطبعـــة الأولى 1994، الدار البيضاء المغرب.

6- دافيد لوبروتون: انثروبولوجيا الجسد والحداثة، ترجمـــة محمـــد عـــرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيـــروت الطبعـــة الأولـــى، 1993.

7- جورج سافونا، وإلين ستون: المسرح والعلامات، ترجمة: سباعي السيد، س، مسرح I عدد 13 أكاديمية الفنون- الطبعة الأولى.

8- محمد الحرز: شعرية الكتابة والجسد- دراسات حول الـــوعي الشـــعري والنقدي، مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الأولى عام 2005، بيروت لبنان.
9- سعيد بنكراد: النص السردي نحو سيميائيات للإيديولوجيا، الطبعة الأولى 1996، دار الأمان الرباط، المغرب.

3- المجـــلات والدوريـــات:

1- الحياة الثقافية (ندوة الجسد والفلسفة) عدد 66- 1993م.
2- إلهام سليم: مفهوم الجسد عند أونوري دي بلزاك: قراءة في رواية الجلد المسحور، مجلة الدراسات العربية، بيروت عدد 07 مايو 1990.
3- معجب الزهواني: تمثلات الجسد فـــي نمـــاذج مـــن الروايـــة العربيـــة المعاصرة، مجلة فصول، مج 16، عدد 04 ربيع .1998
4- أحمد زايد: الجسد والمجتمع، استكشافات في النظرية الاجتماعية، مجلة ابداع عدد 09، سبتمبر .1997
5- المساءلة: مجلة اتحاد الكتاب الجزائريين العدد الأول، ربيع 1991.

قـــائمة المراجـــع باللغة الأجنبية:

1- Jonathan Millere: The Body In question, Jonathan cape London 1978.
2- Roye Boyne: The art of the Body In the discourse of posmodernity in mike, Featherstone and others ed the Body, sage publications London 1991.
3- Donne Wetton. ed Body and Flesh, Blak Well. OXFORD 1998.
4- ED Ward T. halli: The silent language. Fawcett wald library. New York 1959.
5- Ricket Twersky "on Kinesics Analysis, a Discussion with DANIEL. N. Sttern. The Drama Review. "
6- Michael Argyle: Bodily Communication, Methuen London 1975.
7- Mark. Knapp: Now Verbal communication in human Interation Halt, Rinhard and wiston new-York 2nd (ed) 1978.

تشكيلات المقاطع الصَّوتيَّة وتعليلاتها اللغويَّة في المباني الإفراديَّة ــ الصِّيغ الذَّاتيَّة نموذجا ــ

د. سعاد بسناسي
قسم اللغة العربية، وآدابها
جامعة السانيـــة وهران

الملخَّـــص:

يعتبر الاسم موضوعًا للدَّراسة والبحث، بُذِلَتْ فيه الجهود، وتعبـــت فيـــه العقول، وتواصل فيه التَّفكير؛ والأسماء هي تعبير مختصر عن صيغٍ ذاتيَّـــة. وكلُّ صيغة ذاتيَّة، هي عبارة عن مجموعة مـــن الصَّـــوامت والصَّـــوائت، ومجموع الصَّوامت مع الصَّوائت هو ما يُشكِّل مقـــاطع صـــوتيَّة بمختلـــف أنواعها، وتقسيماتها و تلويناتها. وإنَّ تشكيلات المقـــاطع الصَّـــوتيَّة للصِّـــيغ الذَّاتيَّة، تحتاج إلى تعليلٍ لغويّ لمبانيها و أصواتها؛ وذلك مـــا يســـعى هـــذا الموضوع إلى تحليله وتعليله.

تمهيـــد:

لقد لقي موضوع الاسم، اهتمام الباحثين في مجمل مستويات اللغـــة، ونجد البصريين والكوفيين اتّفقوا على تقديم الحديث عن الاسم بدل الفعـــل أو الحرف "[1817]"، وعلّتهم في ذلك أنَّ الاسم يستغني بنفسه عن الفعل؛ لأنَّ الفعل فرع، ولا يستغني عن الاسم. فلمَّا كان الاسم هو الأصـــل، ويســـتغني عـــن الفعل، والفعل فرع عليه، ومفتقر إليه كان الاسم مُقدَّماً عليه"[19]" وهذا التَّقــدُّم المقصود، يكون في الوجود والوظيفة، ثم في الرتبة.

ذوات الأسمـــاء

وانطلاقًا ممَّا سبق، نقول إنَّ الذَّات مفهومٌ يُطلق على كــلِّ موجــود فـــي الوجود، منها: المادِّي كالإنسان والحيوان والنَّبات والجماد؛ ومنها الحسِّي من كل ما تدركه الحواس، ومنها المُتصوَّرات العقلية ومنها المُتخيَّل؛ ومن ثمـــة، فالذَّات هي موجود مقيس، يشغل حيِّزا من الفراغ، على حــدِّ قـــول رجـــال التَّوحيد"[20]" وتوجد في المقابل، أسماء لا يمكـــن التَّعبيـــر عنهـــا لرفعتهـــا، وعظمتها كذات الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّه هو القائم بذاته، وذاته لا يقوم بها إلاَّ القديم"[21]" ومن هنا، فإنَّ أسماء الله الحسنى لا يُعبَّر عنها بالذَّات.

والاسم في المفهوم العام، هو حقيقة الموجود بما هو موجود، فكلُّ اسم هو علامة دالَّة على مسمَّى بذاته "[22]" والاسم، هو الذي يميِّز الموجود ويخصِّصه، وإن كنَّا نتحدَّث عن الذَّوات، فإنَّنا في حقيقة الأمر، نقصد الحديث عن أسماء هذه الذَّوات. و كلُّ اسم يجب أن يقترن بمسمَّى يدلُّ عليه، وذلك رغم وجـــود الاختلاف في أصل اشتقاق هذا المسمَّى؛ و تتَّفق معظم الآراء على أنَّ الاسم علامة للمسمَّى كيفما كان نوعه.، وكيفما كان عدد مكوِّناته، ومنه يكون البدء بمكوِّنات الصِّيغ الذَّاتيَّة الثلاثيَّة؛ لتحليل مبانيها وكمياتها الصَّوتيَّة.

مكوِّنـــات الذَّاتيـــات

الصِّيـــغ الثلاثيَّـــة

إنَّ دراسة الصِّيغ الحدثيَّة ــ (الأفعال) ــ ترتكز أساسا على الأوزان وحركة عينها؛ أمَّا دراسة مباني الصِّيغ الذَّاتيَّة، فتقوم من خـــلال تشـــكيلاتها الصَّوتيَّة، وذلك أنَّ اللغويين لم يخصِّصوا للذَّوات أوزاناً كالذي خصَّصوا بـــه الحدثيات. ويتحدَّث (سيبويه) عن مكوِّنات الذَّوات، فيرى أنَّه ليس في الـــدنيا اسم أقل عددا من اسم على ثلاثة أحرف، ولكنَّهم قد يحذفون ممَّا كان علـــى ثلاثة حرفا، وهو في الأصل له ويردُّونه في التَّحقير والجمـــع "[23]" وإن كنـــا نلاحظ، زيادة في صوامت الصِّيغة على مجموع أصـــولها أثنـــاء التَّحقيـــر، والجمع مثل (رجل، رجيل، ورجال).

واتَّفق معظم اللغويين، على أنَّ أصل الصِّيغ العربيَّة ثلاثي، وذلـــك علـــى اختلاف أنواعها، حرف يبتدأ به، وحرف تحشى به الكلمة، وحـــرف يوقـــف عليه"[24]" ومن آراء المحدثين حول أبنية الأسماء، أنَّ الأصل الثلاثـــي، هـــو النَّواة الأساسيَّة "[25]" وإن وجدت آراء تخالف هذا؛ فإنَّ الأغلبية تجمـــع علـــى ثلاثيَّة أصول الصِّيغ.

وجاء في (متن الشَّافية) عن أبنية الاسم الثلاثي، أنَّه للاسم الثلاثـــي المجرَّد عشرة أبنية، والقسمة تقتضي اثني عشر، سقط منهـــا فُعِـــلٌ وفِعُـــلٌ استثـــقالاً وجُعِلَ الدُّئِلُ منقولاً، والحِبُك إن ثبت فَعَلَى تـــداخل اللغتـــين فـــي حرفـــي الكلمة، وهي فَلْسٌ كَتِفٌ عَضُدٌ حِبْرٌ عِنَبٌ إِبِلٌ قُفْلٌ صُـــرَدٌ عُنُـــقٌ"[26]" وجميـــع ما جاء به صاحب المتن، هي أمثلة دون ذكر موازينها.

مع أنَّ المباني الثَّلاثة الأولى معلَّلة صوتيًّا، فالصِّفة الأولى مضمومة البداية مكسورة الوسط، وهي مقبولة في أصلها لمجيئها على هيئة الماضـــي

المبني للمجهول، والثَّانية منعدمة في أصل العربيَّة لمجيئها على صيغة (فِعُل) التي قال فيها سيبويه: « ليس في الكـــلام حـــرف أولـــه مكســـور والثـــاني مضموم"[27]" وإن وجد في مثل (السِّئونَ) فهو إمَّا شاذ أو غير عربي؛ والتَّعليل الصَّوتي لهذه التَّركيبة المورفولوجيَّة، أنَّ النَّاطق بها ينتقل من أسفل إلى أعلى متصعِّدًا وهو ثقيل مستقبح.

و الملاحظ، أنَّه في الحديث عن الأفعال، يقول الدَّارسون (أوزان الأفعال) وحينما يتحدَّثون عن الأسماء يقولون (أبنية الأســماء) ولا يــأتون للأســماء بأوزان ثم يقيسون عليها؛ وإنما يأتون بمواد ويقيسون عليها أســماء أخــرى تشبهها، وتوافقها في الوزن، أي في عدد الصَّوامت، وترتيب الصَّوائت.

وما جاء به (ابن الحاجب) من أمثلة وأدرجها ضمن الأسماء، ليســت كلهــا أسماء ذوات، بل فيها نظر؛ إذ نجد العنوان يشير إلى أبنية الأسماء، وهو في تعريفه وتمثيله لها يقحم معها الأوصاف، وكأنَّ الذَّوات لم تحقِّــق لــه مــادَّة كاملة، فلجأ إلى الأوصاف وأضافها إليها، وجعل لها عشرة أبنية، وإن كانت القسمة تقتضي اثني عشر، فقد أعطى لصامت صدر الصِّيغة الذَّاتيــة ثلاثــة صوائت (الفتحة والكسرة والضمَّة) باستثناء السكون وذلك لتعذُّر الابتداء به، ولعينها أربعة صوائت (فتحة وكسرة وضمَّة ثم ســكون) وبــإجراء عمليَّــة ضرب، يكون مجموع الصِّيغ اثني عشر صيغة، تغيَّر شكلها وتشكيلها، وكذا دلالتها بتغيُّر أصواتها بتأثير عوامل الصَّوت في نطقها.

ودليل تحويل الصَّوت للصِّيغ الذَّاتيَّة، وتأثيره فيها هو إقرار الصِّيغ التي سهُل نطقها، في مثل: (فَعْل نحو فَلْسْ، وفَعَلْ نحو فَرَسْ، وفَعِلْ نحو كَبِدْ، وفَعُلْ نحو عَضُدْ، وفِعْلْ نحو عِدْلْ، وفِعِلْ نحو إبِلْ، وفِعَل نحو عِنَبْ، وفُعْــلْ

نحو قُفْلْ، وفُعُلْ نحو قُفُلٌ)"[28]" وهنا جعل صاحب النَّص، لكلِّ اسم وزنًا سابقًا له، خلافًا لما رأيناه في النَّص السَّابق.

وفي المقابل سقط منها (فُعِل، وفِعُل) لثقل النُّطق بهما؛ لأنَّ الخـــروج من الكسرة المستفلة المنخفضة إلى الضمَّة ثقيل لاستعلائها، ولم يذكر (ابـــن الحاجب) صوائت لام الصِّيغ الذَّاتيَّة؛ لأنَّه اعتبر اللاَّم صوتًا يُوقَف عليه، فهو دائما في الصِّيغ المذكورة منوَّن؛ ولكنَّه أهمل التَّنوين ورجَّح الجانب الصَّرفي على النَّحوي، في حين أنَّ التَّنوين هام وأساسي في الصِّيغ الذَّاتيَّة، لأنَّه يلوِّن ويغير شكل الصِّيغ ومادتها، ولتحليل التَّشكيلات الصَّـــوتيَّة للأبنيـــة الذَّاتيَّـــة الثلاثيَّة، نُدرج فيما يأتي جدولاً موضحا لها؛ بدءاً بالفتح، فالضم، والكســـر، والتَّنوين والمكرور"[29]" ثمَّ السكون.

جـــدول التَّلوينـــات الصَّوتيَّة للثلاثـــي

المكوِّنات	الصِّيغ	الصوائت	الفتحات	الضمَّات	الكسرات	التنوين	المكرور	السكون
ثلاثيَّة	عشرة	30	07	05	05	10	00	03
النِّسبـــــــــة			%23,33	% 16,66	%16,66	%33,33	% 0,0	%10,0

مع مكوِّنـــات الجدول

يظهر في هذا الجدول، شيوع التَّنوين وتقدُّمه على غيره، متبوعًا بـــالفتح، وتوافَقَ صائتا الكسر والضَّم، وتأخَّر السكون الذي لم يعتبره اللغويون صائتًا، وشيوع التَّنوين هنا، أمر مهم بالنَّظر إلى قوالب الصِّـــيغ ومكوِّناتهـــا، ومـــن

المتَّفق عليه أنَّ الذَّوات لا يدخل السكون أواخرها، وما جاء هنا، جـــاء فـــي وسط الصِّيغة الحدثيَّة، وصائت وسط الصِّــيغة مجالـــه الحـــدثيات، وغيـــر السَّاكنات الأواسط هنا، فيها نظر عند المورفولوجيين العرب، وهناك قاعـــدة تذهب إلى أنَّ: كلّ اسم ثلاثي ساكن الوسط، يجوز تحريكه، وتسكينه، ويصبح في جميع الصِّيغ الذَّاتيَّة الثلاثيَّة وجهان: الحركة والسكون؛ والسكون ضـــرب من التَّمكين.

ومن أسماء التَّنوين اللاَّحق بالذَّوات، تنوين التَّمكين؛ وهو علامـــة للأمكـــن عندهم، والأخف عليهم، وتركه علامة لما يستثقلون"[30] وإذا شاع التَّنوين هنا، فمعناه غلبة الخفَّة على الثِّقل، وإذا قلنا بهذا، يكون قد انتفى عن السكون صفة الخفَّة الموصوف بها عند معظم اللغويين، وهذه نظرة جديـــدة فـــي كميـــات الصَّوائت ووظائفها، بل وحتى في تصـــنيفها؛ لأنَّ الســـكون لا يعـــدُّ مـــن الصَّوائت العربيَّة في الدِّراسات العربيَّة؛ وحديث التَّنوين ووظيفته، يتَّضـــــح في موضوع التَّراكيب بأكثر من هذا.

ولا ننساق مع الصَّوائت هنا كثيرا، لأنَّ الذَّوات لا تعمل فيها الصَّوائت عمل الصَّوامت، وإن كان للصَّوائت تأثير عليها، فهو دون مكوِّناتها من الصَّوامت، وإذا كان التَّنوين موقعه نهايات المباني الذَّاتيَّة، فإنَّ الصَّوامت العاملـــة فـــي تحديد المباني موضعها النِّهايات غالبًا، وفي الوقف عليهـــا بالســـكون إزالـــة للصَّائت من نهاية الصِّيغة الموقوف عليها.

وسنُقدِّم لهذا جدولاً توضيحيًّا، يعبِّر عن شيوع الصَّوائت مـــن التَّشـــكيلات الصَّوتية الذَّاتيَّة الثلاثيَّة، ومن بعده يأتي ذكر لوحة إحصائيَّة إجماليَّة للمقاطع الصَّوتيَّة لهذه الصِّيغ؛ ثمَّ تحليل المجاميع والنِّسب التي توصَّلنا إليها من كـــلِّ هذا، ويكون البدء بالرَّسم التَّوضيحي، فيما يلي"[31]:

جــدول صوتيــات الثلاثـــي

الصيغة اللغوية	الميزان العروضي	الميزان الصرفي	التقطع اللغوي	ف	غ	م ف	م غ	ق	س	ط
صَقْرٌ	فَعْلُنْ	فَعْلٌ	صعص/صعص						02	
جَبَلٌ	فَعَلُنْ	فَعَلٌ	صع/صع/صعص	02	01				01	
قُفْلٌ	فُعْلُنْ	فُعْلٌ	صعص/صعص		02				02	
جِذْعٌ	فِعْلُنْ	فِعْلٌ	صعص/صعص		02				02	
كَبِدٌ	فَعِلُنْ	فَعِلٌ	صع/صع/صعص	02	01			02	01	
رَجُلٌ	فَعُلُنْ	فَعُلٌ	صع/صع/صعص	02	01			02	01	
صُرَدٌ	فُعَلُنْ	فُعَلٌ	صع/صع/صعص	02	01			02	01	
أُذُنٌ	فُعُلُنْ	فُعُلٌ	صع/صع/صعص	02	01			02	01	
عِنَبٌ	فِعَلُنْ	فِعَلٌ	صع/صع/صعص	02	01			02	01	
إِبِلٌ	فِعِلُنْ	فِعِلٌ	صع/صع/صعص	02	01			02	01	
المجاميع			27	14	13	0	0	14	13	0
النِّسب				51,85	48,1	0	0	51,8	59,2	0

مع مكوِّنات الجدول

اشتمل هذا الجدول على أحدَ عشر واديًا، الأربعة الأولى منها للحروف، والباقية للأرقام والأعداد. واختصَّت الحروف بالدَّلالة على الأسماء الثلاثيَّة من الذَّوات، وما يعادلها من الموازين المكوَّنة من الصَّوامت والصَّوائت.

ومن هذه النَّظرة الأولى، تظهر الوظائف الصَّوتيَّة عاملةً موجِّهـــةً مؤسِّســـةً للموازين؛ وتبقى الأرقام في مجال اللغة الشَّارحة المعبِّرة عمَّـــا جـــاءت بـــه الصَّوامت والصَّوائت.

ونقول قبل التَّحليل، إنَّ الرَّمز العددي في حساب المفردات والجمل يعطينـــا القيمة الخفيَّة، وذلك بتعويض القيم العدديَّة إلى حروف مساوية لهـــا، نحـــو: (20،400،01،02) المساوية صوتيًّا لصيغة (كتاب)؛ فهل نســـتطيع إيجـــاد رموز صوتيَّة تعطينا الأصوات الغائبة؟ مثلا المقـــاطع الصَّـــوتيَّة التَّاليـــة: (صع/صعع/صعص) إذا حاولنا إيجاد الصِّيغة المساوية لها؛ فإنَّنا نقـــع أمـــام عدَّة صيغ احتماليَّة، قد تكون: (كِتَابٌ أو رِمَالٌ أو جِمَالٌ أو لِبَـــاسٌ) فالصِّـــيغ كثيرة، والمقطع الصَّوتي، يعطينا عدَّة احتمالات، والمقطع الشِّعري كذلك مثل الصَّوتي في وجود هذه الاحتمالات، فتفعيلة (فَاعلُنْ) تشترك فيها صيغ عدَّة، نحو: (مَالِكٌ أو شَاهِدٌ أو سَالِمٌ...) وغيرها من الصِّيَغ على الوزن نفسه.

ونرى بضرورة التَّوصُّل إلى مقطع مناسب، يعطينا الصَّوت الغائب (الشَّفرة)، فلا المقطع الصَّوتي ولا الشِّعري يعطيان لنا هذا؛ لأنَّ المقطـــع هـــو وعـــاء صوتي قابل لعدَّة احتمالات ومختلف التَّوقُّعات التي تختلـــف فـــي دلالاتهـــا، وتتَّفق من حيث كميَّتُها الصَّوتيَّة التي تعبِّر عن فكرة؛ لأنَّ المقطـــع يســـاوي فكرة ويُعبِّر عنها.

وبالرجوع إلى وديان الجدول الإحصائي السَّابق الذِّكر، بحسب رتبه وترتيبه، يظهر في أوَّله وادي الذَّوات بالوزن والتَّعيين والتَّمثيل، وقد اختيرت هذه الأسماء؛ لتكون متطابقة مع موازينها الصَّوتيَّة، وما يلفت الانتباه هنـــا، أنَّ الموازين يراعى فيها دائما مطابقتها للموزون؛ ولكنَّها هنا على غير ذلك؛ إذ يتم اختيار اسم الذَّات المتطابقة مع الميزان، وكأنَّ الميزان صـــار ســـابقًا

للموزون، وما ذلك إلاَّ أحكام مُسبقة يترتَّـــب عنهـــا إقصـــاء أســـماء ذوات، واعتبارها غير عربيَّة أو شاذَّة عندما تختلف بنيتها وتشكيلها عـــن المقيـــاس الصَّوتي المتَّخذ من أجل قياسها.

وجاء بعد كل اسم ثلاثي ثلاثة وديان تزنه، وتؤكِّد مدى مطابقة هـــذا الاســـم للمقاييس الصَّوتيَّة، وأصبح كلُّ اسم ذاتي ثلاثي المكوِّنات لا يكتسب شرعيته إلاَّ بعد أن توافق عليه الموازين الصَّوتيَّة الثَّلاثة التي هي: الميزان الشِّـــعري بتفعيلاته، والصَّرفي بصوائته، واللغوي بمقاطعه؛ وما خالف هذه المـــوازين وتخلَّف عنها يتنحَّى عن مجال الاستعمال الرَّسمي.

وبالنَّظر إلى صوامت التَّشكيلات العاملة فيما سبق، فقد اختيرت على أساس المطاوعة والليونة في المعاملة مـــع الصَّـــوائت؛ ومـــن المعلـــوم أنَّ للتَّشكيلات الصَّوتيَّة في المباني المورفولوجيَّة ثلاث حالات، سمَّاها اللغويون المتمكَّن الأمكن، والمتمكِّن غير الأمكن، وغير المـــتمكِّن وغيـــر الأمكـــن، والأوَّل منها هو الذي يتعامل مع كلِّ الصَّوائت إفـــرادًا وتكريـــرًا، وسَّـــموه المنصرف وهو المنوَّن أيضًا.

وبالرجوع من جديد إلى أسماء الذَّوات الوارد ذكرها من قبل، نجـــدها كلهـــا منوَّنة مصروفةً فهي من المتمكِّن الأمكن، وتكرَّر التَّنوين في جميـــع وديـــان الجدول شكلاً ونطقًا، وظهرت النُّون معبِّرة بغنَّتها عن تمكُّن جميع مـــا ورد من الأسماء، والتَّنوين نون ساكنة منطوقة غير مرقونة عند اللغويين؛ ومـــن هنا، فهي وسط بين الصَّوامت والصَّوائت، أو لنقل: التَّنوين هو الصَّوت الذي يجمع بين الصَّامت والصائت؛ وهو علامة التَّمكـــين، ومـــن نظـــرة أخيـــرة للجدول، يظهر أنَّ التَّنوين الذي هو صورة صوتيَّة منطوقة مرســـومة، هـــو

علامة التَّمكين؛ ومن هنا أيضًا، نقول الصَّوت هو العامل الموجِّه المخصِّص للمبنى المورفولوجي.

ويُعبَّر عن التَّنوين عند التَّقطيع اللغوي، بالمقطع المغلق (صــعص) كالباء المنوَّنة في (كتابٌ) أو إغلاق المفتوح (صعصص) كالوقوف على كلمة (بحر) بالسكون؛ وباستنطاق نهايات أرقام الجدول، يمكن أن نصف تشكيلات الذَّوات الثلاثيَّة البناء بأنَّها رباعيَّة الأوصاف في ترتيبهــا؛ وجــاءت علــى التَّنظيم الآتي: المتوسِّطة، فالمفتوحة، وبعدها القصيرة، ثمَّ المغلقة، فقد احتلَّت المقاطع المتوسِّطة الرتبة الأولى، وجاءت المغلقة في الرَّابعة، وهذه الرُّتــب حــدَّدها الصَّوت بمقاطعه اللغويَّة؛ وهذا جميعه فــي التَّشكيلات الثلاثيَّـــة، وقد يكون فيما فوقها متطابقًا معها أو مخالفًا لها، وعامل الصَّوت هنا، يكمن في سقوط الأوزان الثَّقيلة النطق؛ وجميعه هو ما سيظهر لاحقًا؛ ومــن بعــد هذا، يأتي حديث أبنية الأسماء الرباعيَّة وتحديد عامل الصَّوت في توجيههــا، وتلويناتها المختلفة.

مكوِّنـــات الرباعـــي:

للصِّيغ المورفولوجيَّة الذَّاتية الرباعيَّة أربعة أبنية، قــال فيهــا ابــن الحاجب: (وللرُّباعي خمسةٌ: جَعْفَرٌ، زِبْرِجٌ، بُــرثُنٌ، دِرْهَــمٌ، قِمَطْــرٌ، وزاد الأخفش نحو جُخْدَبٌ)"[32]" وجاء صاحب هذا النَّص، بأمثلة للأسماء الرباعيَّة؛ أمَّا أوزانها فهي: (فَعْلَلٌ، وفِعْلِلٌ، وفُعْلُلٌ، فِعْلَلٌ، فِعَلٌّ + فُعْلَلٌ) وهــذا الــوزن الأخير، ذكره (الأخفش) وبه يكون عدد أوزان الصِّيغ الرُّباعيَّة ستَّة.

تكرَّرت الكسرة أربع مرَّات في الصِّيغ الآتية: (دِرهمٌ) في موقعيَّــة البدايــة، ومرَّتين في (زِبرِجٌ) حيث جاءت فاؤها ولامها الأولى مكسورتين، و(قِمَطرٌ) كُسرت فاؤها كذلك؛ ثم تليها الضمَّة ثلاث مرَّات، في: (بُرثُنٌ) مرَّتين وفــي

(جُخدَبٌ)؛ وفاقت الفتحة مجموع صائتي الضمَّة والكسرة؛ حيث بلـــغ عـــدد الفتحات في الصِّيغ الرباعيَّة خمسا، واحتلَّت بذلك الصَّـــدارة، وبقـــي نـــزاع الشُّيوع بين الكسرة الدَّقيقة الرَّقيقة التي فاقت الضمَّة هنا، وتـــأخَّرت بـــذلك الضمَّة عنها التي يقال عنها، إنها دليل القوَّة والثَّبات في المباني الموفولوجية، وبخاصة الحدثية منها.

ويكمن دور عامل الصَّـــوت، وتوجيهـــه لشـــكل ودلالـــة الصِّـــيغ المورفولوجيَّة الذَّاتية الرباعيَّة، في عدم توالي أربع حركـــات فـــي صـــيغة واحدة، نحو الفعل الماضي (كتَبْتُ) المسند إلى المفرد المتكلِّم، حيث سُـــكِّنَت الباء وحقُّها النَّصب، وذلك لدفع كراهة توالي أربع متحركات"[33] مع وجـــود هذا التَّتابع في مثل هما (كَتَبَتا) ويهدف كل تنظيم صوتي إلى تحقيق الانسجام بين المكوِّنات، وإن وردت أمثلة من هذا النَّوع، فهي متغيِّرة عـــن الأصـــل. ونخلص من ذلك، إلى أنَّ الرباعي من الصِّيغ الذَّاتيَّة، لابدَّ من إسكان ثـــاني صوامته أو ثالثها، وتعليل ذلك صوتي؛ يتمثَّل في تحقيق الانسجام والتَّـــوازن بيـــن المكوِّنات، وتحقيـــق تكامل نطق الصِّيغـــة، الذي يحصل بالزِّيـــادة أو النقصان، كما رأينا مع المد سابقا.

والملاحظ، أنَّ هذه الأوزان تعدَّدت أشـــكالها؛ لاخـــتلاف صـــوائت صوامتها، وما يلفت الانتباه فيها، أنَّ فاءها غلب عليها صائت الكسرة ـــ من بعد الفتحة الحيادية الشائعة في غالب الأحوال ـــ لأنَّ كمية الكسرة في حـــدِّ ذاتها، أقوى من غيرها، كما أنَّ كثيرا من الصِّيغ تمال عند النطق بها نحـــو الكسر"[34] وسنتطرَّق إلى الشَّكل، ومختلف الكمِّيات الصَّوتيَّة في موضعها من هذا البحث؛ ولتحليل التَّشكيلات الصَّوتية للصِّيغ الذَّاتية الرباعيَّة، هذا تلخيص لمكوِّناتها ـــ كما رأينا مع الثلاثيَّة ـــ في الجدول الآتي:

جدول تشكيـــلات الرباعي

عدد المكوِّنات	الصِّيَغ	الصّوائت	الفتحات	الضمات	الكسرات	التنوين	المكرور	السكون
رباعية	06	24	05	03	04	06	01	05
النسبة			%20,83	%12,5	%16,66	%25	%4,16	%20,83

وقفـــة مع الجـــدول

يظهر من مكوِّنات الجدول السَّابق للتَّشـــكيلات الصَّـــوتيَّة للـــذَّوات الرباعيَّة، أنَّ مجموع صوائتها الإجمالي (*24*) صائتًا، شاع فيهـــا التَّنـــوين، مقارنة ببقيَّة الصَّوائت؛ وبلغ مجموعـــه ســـتة صـــوائت مكـــرورة، بنســـبة (*25* %)؛ حيث حافظ على رتبته التي وجدناه عليها في الثلاثيات، ومن بعده الفتحة والسُّكون في رتبة واحدة بمجموع خمسة صوائت؛ مـــع أنَّ التَّنـــوين والسكون يلتقيان في التَّركيز الصَّوتي؛ ومن هناك، قالوا في التَّنوين (هو نون ساكنة). ومن بعدها الكسرة، فالضمَّة ثمَّ المكرور.

ومن هذه الرُّتب والمجاميع، تظهر أهمِّية السكون من بين الصَّـــوائت العربيَّة؛ من خلال ما شغله من مساحة في مجال الذَّوات، بالرَّغم من غيابـــه في موازين الحدثيات، وغياب الإشارة إلى دلالاته في الصِّـــيغ والتَّراكيـــب، وفي الصِّيغ الخمسة الأولى كان موقع السكون منها مع الصَّامت الثَّاني، وفي الصِّيغة السَّادسة مع الصَّامت الثَّالث، وسبقته الكسرة في صيغتين والضـــمَّة

كذلك، وجاء مسبوقا بالفتحة في صيغة واحدة؛ وبعد تقديم الجـــدول السَّـــابق بمكوِّناته وأعداده، هذا تلخيص لشيوع الصَّوائت من تشكيـــلات الرباعــــــي، في الرَّسم الآتـــي:

جدول المقاطع الصَّوتيَّة للرباعي

أوزان الرباعي	التقطيع الصوتي	نوعية المقاطع				كميات المقاطع		
		ف	غ	مف	م غ	ق	س	ط
فَعْلَلٌ	صعص/صع/صعص							
فِعْلِلٌ	صعص/صع/صعص	01	02			01	02	
فُعْلُلٌ	صعص/صع/صعص	01	02			01	02	
فِعْلَلٌ	صعص/صع/صعص	01	02			01	02	
فَعْلِلٌ	صعص/صع/صعص	01	02			01	02	
فِعَلٌّ	صع/صعص/صعص	01	02			01	02	
المجموع	18	06	12	00	00	06	12	00
	النسبة	%33,33	%66,66	%0	%0	%33,33	%66,66	%0

رأي فـــي الجدول:

تكوَّن الجدول السَّابق من حيث عدد خاناته وتقسيماته، وعناوينه كســـابقه المرسوم في إحصاء المقاطع الصَّوتيَّة للصِّيغ الثلاثيَّة"[35] عدا خانة المقـــاطع العروضيَّة، ومع اختلاف المكوِّنات الدَّاخليَّة طبعًا؛ حيث بلغ مجموع المقاطع الصَّوتيَّة للصِّيغ الرباعيَّة (18) مقطعًا، وكان عدد المقاطع المغلقة من حيـــث مجموعُها ونسبتُها ضعف المقاطع الصَّوتيَّة المفتوحة، بمجموع (12) مقطعًـــا

وبنسبة قدرها (66,66 %)، ومثلها المقاطع المتوسِّطة من حيث الكـم فـي المجموع والنِّسبة، وانعدمت المقاطع المزدوجة بنوعيهـا المفتوحة والمغلقـة من حيث النَّوع، كما انعدمت المقاطع الطَّويلة من حيث الكم.

وعلى أساس مراعاة المراتب والمواقع، فإنَّ جميع موقعيات الوسط احتلتهـا مقاطع قصيرة، وجاءت وسطا بين مقطعين متوسِّطين؛ فكان المقطع القصير هو الوسيط، وهو موطن التلاقي بين مقطعين متوسِّـطين، وبهـذا التَّوزيـع الصَّوتي لكميات المقاطع، يتحقَّق للتَّركيبة المورفولوجيَّة الرباعيَّة انسـجامها باعتدال مكوِّناتها.

وإذا عدنا إلى العامل الصَّوتي فيما ورد من مقاطع، وفيما انعدم منها، فإنَّـه يقودنا إلى مبدأ الخفَّة والانسجام الصَّوتي، وكذا مراعاة مبدأ الاقتصـاد فـي الجهد؛ ودليل ذلك خلو هذه الصِّيغ من المقاطع المزدوجة؛ أي المركَّبة لثقـل النطق بها، وشاعت المقاطع المغلقة، ومن بعدها المفتوحة، ثـمَّ المتوسِّـطة؛ وهذا حديث أبنية الصِّيغ الذَّاتيَّة الخماسيَّة.

تشكيلات الخماســي:

للصِّيغ الذَّاتيَّة الخماسيَّة أربعة أبنية، ذكرها (ابن الحاجـب) فـي قولـه: (وللخماسي أربعة: سَفَرْجَلٌ، قِرْطَعْبٌ، جَحْمَـرِشٌ، قُـذَعْمِلٌ)"[36]" وإن حيـدنا صيغة (فَعلِلٌ)"[37]" التي أتت صفةً؛ لأنَّه ذكر أمثلة، ولم يـأت بـأوزان، فقـد استدرك هذا الأمر صاحب (فتح اللَّطيف) وذكر الأوزان وألحقهـا بأمثلـة، ورغم هذه الإضافة المسجَّلة؛ فإنَّه كان يمزج بين الذَّوات والأوصاف. وذلك ما سجَّلناه في حديث (ابن الحاجب) عن أبنية الصِّيغ الذَّاتية الخماسـيَّة، ممَّـا جعلها خمسة أبنية، وهي في الحقيقة أربعة للسَّبب المذكور سابقًا.

وما نشير إليه في حديثنا عن أبنية الصِّيغ الذَّاتية الرباعيَّة والخماســيَّة، أنَّ فيها نظرًا، سيما ما يتعلَّق بعدد كلِّ نوع، ويرى (الأسترأبادي) فــي شــرحه للشَّافية اعتمادًا على الحساب، والتَّقليبات الاشتقاقيَّة أنَّه كان ينبغي أن يكــون للرباعي خمسة وأربعون بناء، وذلك بأن تضرب ثلاث حالات الفــاء، فــي أربع حالات العين، فيصير اثني عشر، تضربها في أربع حالات اللاَّم الأولى أن يكون ثمانية وأربعين، يسقط منها ثلاثة لامتناع احتمال السَّاكنين؛ وكــان حقُّ أبنية الخماسي أن تكون مائة وأحدا وسبعين"[38]".

ومن هنا نقول: لو تحقَّق هذا العدُّ الحسابي لإثبات كلِّ هذه الصِّــيغ، لكان شكل الصِّيغ أكثر ممَّا ورد سابقًا، وحينها يلعب العامل الصَّــوتي دورًا هامًّا في توجيه نطقنا؛ للتَّفريق بين كلِّ هذه الصِّيغ؛ ولكن ما جاء به شــارح الشَّافية، كان مجرَّد احتمالات ولم تتحقَّق استعمالاً.

وجاءت فاء هذه الصِّيغ المورفولوجيَّة، متنوِّعة الصَّــوائت: بــالفتح والضَّم والكسر، مفتوحة في (فَعَلِّلٌ نحو سموألٌ) ومضمومة في (فُعَلِّلٌ نحــو خُزَعْبَلٌ) ومكسورة في (فِعْلَلٌ نحو قِرطعبٌ)، وبالنَّظر لصــوائت كــلٍّ مــن العين، واللاَّم نجد التَّساوي كذلك؛ للعين فتحتان، وللاَّم كسرتان، مقابل سكون واحد للعين، وغياب الضمَّة هنا.

وفيما ذكرناه من الصِّيغ، تظهر وظيفة الصَّوت بارزة فــي توجيــه الأداء ورفع اللبس، فقد جاءت التَّلوينات الصَّوتيَّة مميزة لكــلِّ صــيغة عــن أختها، فالصَّوامت خمسة في كلِّ بناء؛ ولكن مواقع الصَّوائت هي التي نوَّعت هذه التَّشكيلات وميَّزت بينها.

وهناك من يرى، أنَّ أصل الصِّيغ الذَّاتيَّة، ثلاثــي أو ربــاعي؛ أمَّــا الصِّيغ الخماسيَّة، فهي أسماء مُعرَّبة، ولا توجد في الأصــل العربــــي"[39]" ومثال ذلك: (إسماعيل، وإبراهيــم، وطــالوت، وجــالوت) ووُجــد فــــي

الاستعمال ما يخالف هذه القاعدة، بدليل ما ذكرناه مـــن أمثلـــة عـــن أبنيـــة الخماسي، الذي تكون مجموع صوامته أصليَّة لا زيادة فيها، وهـــذا جـــدول تلخيصي لتشكيلات الصِّيغ الخماسية.

جـــدول تشكيلات الخماسي

عدد المكونات	الصيغ	الصوائت	الفتحات	الضمات	الكسرات	التنوين	المكرور	السكون
خماسية	*04*	*20*	06	02	03	04	03	02
النسبة			%30	%10	%15	%20	%15	%10

مع المكوِّنات

لقد بلغ مجموع الصَّوائت في الصِّيغ الخماسيَّة عشرون صائتاً (20)، وشاع فيها صائت الفتحة مقارنة ببقيَّة الصَّـــوائت، وكـــان مجموعهـــا (06) ونسبتها (30%)، ومن بعدها التَّنوين بمجموع (04) ونسبته (*20%*) وكانت موقعيته آخر الصِّيغ الأربع، ثمَّ الكسرة والمكرور في رتبة واحدة وبمجموع واحد (03) بنسبة (15 %)، ومن بعدهما الضمَّة التي كانـــت أقـــل شـــيوعًا فتكرَّرت مرَّتين بنسبة (*10%*) واحتلَّت موقعيَّة البداية مـــن صـــيغتين مـــرَّة واحدة في كلٍّ منها؛ ومما يلاحظ هنا، أنَّ شيوع الصَّوائت في أبنية الثُّلاثـــي والرُّباعي والخماسي، كان يتقدَّمها في الغالب الفتحة والتنوين والكســـرة ثـــم السكون. ووجدنا في كلِّ بناء صدارة الكسرة عن الضمَّة ــ عدا تســـاويهما في الثلاثية ــ وللتَّذكير؛ فإنَّ مجموع الكســـرات والضـــمَّات فـــي الثلاثـــي والرباعي والخماسي كالآتـــي:

جدول صوائت الصِّيغ

الصِّيغ	الكسرة	الضمَّة
الثلاثية	05	05
الرباعيَّة	04	03
الخماسيَّة	03	02
المجموع	12	10

جدول المقاطع الصَّوتيَّة في الخماســـي

أوزان الخماسي	التقطيـــع الصوتـــي	نوعيـــة المقاطع الصوتية				كميـــات المقاطع		
		ف	غ	م ف	م ق	ق	س	ط
فَعَلَّلٌ	صع/صعص/صع/صعص	02	02			02	02	
فُعَلَّلٌ	صع/صعص/صع/صعص	02	02			02	02	
فَعْلَلِلٌ	صعص/صع/صع/صعص	02	02			02	02	
فِعْلَلٌّ	صعص/صعص/صعص		03				03	
المجموع	15	06	09	00	00	06	09	00
النِّسبة		%40	%60	%00	%00	%40	%60	%00

وقفـــة ورأي

لقد أشرت من قبل، إلى أهمية المقطع الصــوتي باعتبـــاره الوحـــدة القاعدية للغة، ولم أتوسع في ذلك، انتظارا لتتمة الحديث عن جميع كميـــات الصيغ الذاتية، من الثلاثية حتى الخماسية، وميزت الذاتية على أســـاس أنهـــا عنصر الإسناد، والتقى بُعد الصيغة الذاتية مع المقطـــع، باعتبارهـــا وحـــدة الإسناد، والمقطع وحدة البناء.

ولما كان المقطع الصوتي كميات متتابعات، فهو يمثل سلسلة كلامية، متآلفة الحلقات متتابعة متناسقة معبرة عن خلفية فكرية. في إفراد أو تركيـــب ويحمل كل تركيب منها خصائص تعكس الصورة الذهنية والدلالات المرتبطة في السياقات اللغوية، وسياقات الحال، وفق تنوعات صوتية منتظمة"[40]" ومن هنا، كان المقطع وحدة فكر وتفكير، قبل أن يكون وحدة صوت وتصويت.

ومن هذا المنظور، تكون المقاطع الصَّوتيَّة شحنات فكريَّة مرسلة من النَّاطق إلى المتلقِّي، مؤثِّرة على جهازه العصبي بنوعيـــة مـــا تحملـــه مـــن صوائت وصوامت، ومن هذا المنظور، عرَّف (الفارابي) المقطع بأنَّـــه كـــل حرف غير مصوِّت، أُتبِع بمصوِّت قصير، ويسمَّى هذا بـــالمقطع القصـــير، والعرب يسمونه الحرف لمتحرك، وكل حرف لم يتبـــع بصـــوت أصـــلا"[41]" وحركات المقاطـــع وسكناتهـــا، هي انعكاســـات لخلجات الـــنفس والفكـــر. ومن هنا، بات من الممكن إقامة العلاقة بين كميات المقـــاطع ونوعهـــا مـــع خلفيات ما تحمله من دلالات.

وفي هذا الجدول الذي يجمع مقاطع الخماسي، نسجِّل حضور نوعين من أربعة، هما المفتوح والمغلق، وغاب مزدوجا الانفتاح والانغلاق، وفـــي الكميات حضر نوعان أيضا هما القصير والمتوسِّط، وغاب المقطع الطَّويل.

وفي ما بين الكم والنَّوع حضر أربعة وغاب ثلاثة، ومع ذلك حصل التَّوافــق في الحضور بين النَّوع والكم، وهو حضور المفتوح والمغلق القصيران فـــي النَّوعيات، والقصير والمتوسِّط في الكميات. ومـــن هنـــا حصـــل التَّوافــق والانسجام في مقاطع الجدول المخصَّص للصِّيغة الخماسيَّة الذَّاتيَّـــة؛ وتبقـــى ظاهرة الانسجام تنتظر التَّعليل.

من الملاحظ، أنَّ مقاطع الجدول لا تعبِّر عن ذوات مـــع أنَّهـــا فـــي موضوعها ومجالها، وإنَّما تعبِّر عن موازين الذَّوات التـــي كانـــت أربعـــة، والمقاطع الحاضرة أربعة، والميزان ينتظر منه التَّساوي في ما يوزن به، وقد حصل هذا التَّوازن والتَّوافق هنا، في العدد والنِّسب التي تساوت فيها نهايات الخانات، وكانت خلاصة وصفها في ما هو آت.

لقد شاعت المقاطع المغلقة من حيث نوعُها، من خلال مجاميع ونسب المقاطع الصَّوتيَّة للصِّيغ الذَّاتيَّة الخماسيَّة، بمجمـــوع (90) ونســـبة بلغـــت (60 %)؛ وكان عدد المقاطع المفتوحة (06) بنسبة (40%) وغابت المقاطع المزدوجة بنوعيها. أمَّا من حيث الكميَّة؛ فشاعت المقاطع المتوسِّطة وماثلـــت المغلقة من حيث المجموع والنِّسبة، ومن بعدها القصيرة بمجمـــوع ونســـبة يماثلان ما رأيناه مع المقاطع المفتوحة، وانعدمت المقاطع الطَّويلة.

الهوامـــش:

[18-1] ـ ويمكن تقديم حديث الأسماء عن الأفعال، من وجهة نظر دينية؛ لأن الله تعالى علَّـم آدم الأسماء أوَّلا، وهذه نظرة خاصة بصاحبها، محمد متولي الشعراوي، في كتابه أسـئلة حرجة، وأجوبة صريحة؛ حيث يقول: (إنَّ منشـأ العلـم الأسـماء...أي أنَّ أي إنسـان لا يستطيع أن يبدأ التَّعلم إلاَّ إذا عرف معاني الأسماء تماما كمـا علَّـم الله آدم... مبتـدئًا بالأسماء). ص 183، دار العودة، بيروت.

[19] ـ أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ص 84، تحقيق مازن مبـارك، ط 4، بيروت، (1402هج/ 1982م).

[20] ـ أبو زيد القيرواني، الثمر الداني، ص 9، شرح وجمع صالح عبـد السـميع الآبـي الأزهري، مطبعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغايـة، (1987م). وعـن الذات يقول (عبد القادر عبد الجليل) هي ما: " شغلت حيزا في الطبيعة ". علم الصـرف الصوتي، ص 262، ط 1، عمان، (1998م).

[21] ـ أبو زيد القيرواني، الثمر الداني، ص 12.

[22] ـ مكي درار، مقال خلفيات التقاطع بين الأسماء والألقاب والكنى، ص 79.

[23] ـ سيبويه، الكتاب، ج 3، ص 322، س 2.

[24] ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، ج 1، ص 55، تح، عبد الله درويش، مط، العاني، بغداد، ط1، (1967م).

[25] ـ عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، ص 44. وقـام بدراسـة إحصـائية باستخدام الكمبيوتر، في معجمه الجيم والكمبيوتر، توصَّل إلى أنَّ: "عدد الجذور الثلاثيـة بلغ 2931 جذرا بنسبة 80,93 *%*؛ والجذور الرباعية 647 بنسبة *17,97* %، والجـذور الخماسية 39 بنسبة *1,08* %" نفسه، ص 44، بتصرف.

[26] ـ ابن الحاجب، متن الشافية، ج 1، ص 35. و ينظر، ابن جني، التَّصريف الملـوكي، ص 04/03، تصحيح، وشرح، محمد سعيد بن مصطفى النعسان الحمـوي، ط 1، مـط، شركة التَّمدن الصناعية، مصر.

[27] ـ سيبويه، الكتاب.ج 4، ص 146. س 12. وقال في موضع آخر: (ليس فـــي الـــدنيا حرف أوله مكسور وثانيه مضموم).

[28] ـ عمر بن أبي حفص الزموري، فتح اللطيف فـــي التصريف على البسط والتعريـــف، ص 61.

[29] ـ آثرنا ذكر مجموع التنوين والمكرور: (التضعيف)، حتى يكتمل الحساب من جهـــة، ولأهمية التَّنوين كما ذكرنا من جهة أخرى، ولنا عودة إليه، من خلال تحليـــل مكوِّنـــات الجدول، وكذلك أهمية السكون جعلتنا ندرجه؛ قصد تحليله.

[30] – سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 22.

[31] ـ و نشير إلى أنَّ الرمز (ف) هو مقطع مفتوح، و(غ) مغلق، و(م/ف) مزدوج الانفتاح، و(م/غ) مزدوج الانغلاق، و(ق) قصير، و(س) متوسط، و(ط) طويل، وأنَّ هذه الرمـــوز ستتكرر في جداول هذا الفصل، وغيرها بهذا الشكل.

[32] ـ ابن الحاجب، متن الشافية، ج 1، ص 47. والزموري، فتح اللطيف، ص 59.

[33] – محمد محي الدين عبد الحميد، شرح الأجرومية، ص 75.

[34] ـ مكي درار، الوظائف الصوتية والدلالية للصوائت العربية، ص 125.

[35] ـ ينظر تفصيل الحديث عن المقاطع وتقسيماتها عند، ديفيد ابر كرومي، مبـــادئ علـــم الأصوات العام، ص 55 وما بعدها، ترجمة وتعليق محمد فتيح، ط 1، (1988 م).

[36] ـ ابن الحاجب، متن الشافية، ج 1، ص 47.

[37] ـ الزموري، فتح اللطيف، ص 60.

[38] ـ رضي الدين الأسترأبادي، شرح الشافية، ج 1، ص 47.

[39] ـ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبويـــة، ص 229، دار الكتـــاب العربي، بيروت، لبنان، (د. ت).

[40] – عبد القادر عبد الجليل، هندسة المقاطع الصوتية، وموسيقى الشعر العربي، ص،47، مط، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط، 1، (1998م).

[41] – أبو نصر الفارابي، الموسيقى الكبير، ص،10 ،75، تح، وشر، غطاس عبد الملـــك خشبة، مراجعة وتصدير، محمود أحمد الحفني، دار الكاتب العربـــي للطباعـــة والنشـــر، القاهرة.

أقنعة التاريخ وهموم الحاضر في المسرح الشعري العربي

الدكتور: إسماعيل بن اصفية
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار– عنابة

الملخص:

المميز في علاقة المسرح الشعري بالمجتمع افتقاره إلى المباشرة في التناول والطرح، فالمسرحيات التي استمدت مادتها من واقع الحياة المعاصرة ومشكلاتها قليلة حيث ظل التناول يتم عبر أقنعته التاريخ ورموزه التي اتخذت معادلا موضوعيا لقضايا العصر لأن الغاية من استحضار التاريخ ليست معالجة أحداثه معالجة فنية أو تناوله بطريقة أكاديمية، بل اتخاذه وسيلة فنية أو قناعا لطرح المشكلات المعاصرة على المستويين الاجتماعي والسياسي بأسلوب فني غير مباشر. قوامه الإثارة والتلميح و التداخل والتقابل عوضا عن التقرير والتوضيح والمباشرة.

و يفترض إعطاء الحادثة التاريخية بعدا معاصرا، أن يتجاوز الكاتب التعامل الحرفي لتلك الواقعة، ويرتبط بها في عضوية تامة ليخلق الترابط والانسجام العضوي بين الواقع والحلم،

ومما ميز هذه المسرحيات التي بنيت على وقائع تاريخية واصطحبتنا إلى الماضي البعيد، أنها لم تتركنا في سراديبه، وإنما تبعث في قلبه وجسمه دما جديدا يجعلنا نتنفس من رئته حرارة ما نؤمن به وما ندافع عنه، وذالك

لأن كتابها استطاعوا تحريك الحدث التاريخي وزحزحته وأخرجوه من إطاره الضيق وحملوه أبعادا جديدة هي رؤية الحاضر والتطلع إلى المستقبل. فما أن يزال القناع التاريخي حتى يترأى لنا الواقع العربي بكل آلامه وجراحاته.

بين المسرح الشعري والتاريخ

يعد المسرح أقدم وسيلة تعبير عرفتها الإنسانية، إنه الفن الأول الذي رافق الإنسانية منذ فجر حياتها عبّر عن آلامها وأحلامهـــا، وقـــدّم صـــورة عـــن معتقداتها وفترات إخفاقها ونجاحها، ومن الثوابت الأساسية التي رافقت هـــذا الفن عبر تاريخه الطويل أنه ظل وثيق الصلة بـــالمجتمع يتنـــاول قضـــاياه ويسعى إلى التعبير عن مشكلاته، وبما أن المسرح فـــن إنســـاني وظـــاهرة اجتماعية، فإنه قد تأثر سلبا وإيجابا بما يصيب المجتمعات من تغير، فكان أن عرف مراحل تطور وازدهار، وفترات ضعف وانحطاط حيث خضع إلـــى العوامل ذاتها التي تصيب بنية المجتمع.

وارتبط حضور قضايا المجتمع في المسرح بمدى الوعي الاجتماعي والسياسي للكاتب وإدراكه لتلك المشكلات ودرجة الالتزام، وتبعا لطبيعة العلاقة المتمثلة في ذلك الارتباط الوثيق بين المسرح والمجتمع، أو لنقل بين الكاتب المسرحي وهموم مجتمعه، ولم يخرج شعراء المسرح العربي عن هذا التقليد الذي طبع المسرح العالمي وشكل أحد معالمه، حيث وثّق كتابه صلتهم بمجتمعاتهم، وسعوا إلى التعبير عن قضاياها سواء أكان التناول مباشرا أو عبر أقنعة التاريخ ورموزه وشخصياته، وهو الاتجاه الغالب في حركة التأليف للمسرح الشعري العربي.

وإذا كان أهم ما ميز هذا الفن في المراحل الأولى لتشكله نزعته الإصلاحية وهدفه التهذيبي، حيث اتخذ أداة للتعليم والتثقيف ونشر القيم والفضائل وإشاعتها بين الناس، وتبعا لذالك لم يستحضر الكتاب من التاريخ إلا صفحاته المشرقة وأحداثه الجسام.

والمميز في علاقة المسرح الشعري بالمجتمع، افتقاره إلى المباشرة في التناول والطرح، فالمسرحيات التي استمدت مادتها من واقع الحياة المعاصرة ومشكلاتها قليلة، حيث ظل التناول يتم عبر قنوات التاريخ وأقنعته ورموزه التي اتخذت كمعادل موضوعي لقضايا العصر، لأن الغاية من استحضار التاريخ ليست معالجته معالجة فنية، أو تناوله بطريقة أكاديمية، بل اتخاذه وسيلة فنية أو قناعا لطرح المشكلات المعاصرة على المستويين الاجتماعي والسياسي بأسلوب فني غير مباشر. ولذلك فهي لا تتعقب أحداثه (تعقبا زمنيا ولا تنظر إليه في تفاصيله وجزئياته، بل تأخذ منه بقدر ما يلقى ضوء على الرؤية الفنية المطروحة، ويفسر الأحداث والشخصيات ويعين على فهمها)[1].

ومعالجة أحداث الحاضر من خلال القناع التاريخي أسلوب من التفكير بالماضي اعتمده عدد من المؤلفين في المرحلة المعاصرة قوامه الإثارة والتلميح والتداخل والتقابل عوضا عن التقرير والمباشرة.

وحين يتحول التاريخ إلى قناع فإنه من الخطأ أن يحاسب الكاتب على أنه لم يتقيد بوقائع الحادثة أو تفاصيل الشخصية، لأن غايته التعبير عن تجربة أو فكرة تتصل بالحاضر، ولكنها تتخذ التاريخ وسيلة للتعبير عنها، وتبعا لذلك فهو يستوحي الحادثة استحياء عاما، ثم ينطلق بفكرة في افتراض أحداث وابتكار شخصيات وإضافة وقائع ضمن ذلك الإطار التاريخي العام،

ليحمّل هذا التاريخ – الذي استحضره واصطنعه – فكرة أو ليسقط عليه قضية استمدها من واقــعه الحياتي، وما أن يزال القناع التاريخي حتى يتراءى لنا الواقع العربي بكل آلامه وجراحاته.

ويفترض إعطاء الحادثة التاريخية بعدا معاصرا، أن يتجاوز الكاتب التعامل الحرفي لتلك الواقعة، ويرتبط بها في عضوية تامة ليخلق الترابط والانسجام العضوي بين الواقع والحلم، وحين يتم ذلك يمتد خيط التاريخ ليصل الحاضر عبر أدوات فنية فتتحقق الملائمة بين حقيقة الماضي وحرية التخيل.

وإذا كان معظم شعراء المسرح العربي قد استمدوا مضامين مسرحياتهم من التاريخ بمختلف مراحله وحقبه تبعا لذلك التقليد الفني الذي ميّز المسرح العالمي، ولاعتبارات مختلفة كالتأثر بالمدارس المسرحية من كلاسيكية ورومانسية، وسهولة التشكيل الفني، لأن التاريـــخ (يمد الكاتب بالأحداث والوقائع ويساعده على خلق هيكل المسرحية ويعفيه من مشقة الخلق والإبداع). إلا أنه يجب أن لا نجهد أنفسنا ونبحث في تلك النصوص الأولى عن هموم ذلك الواقع ومشكلاته، فمثل هذه القضايا لم تكن من أولوياتهم إلا ما جاء عرضا، فالهدف من العودة إلى التاريخ لا يخرج عن كونه إحياء أمجاد الماضي والإشادة بأبطاله، والكشف عن مناقبه للناشئة واستغلال ذلك الإطار لتصوير القيم والمثل العليا وتعليمها أي لغايات تربوية وأهداف تثقيفية.

ومثل غياب الرؤية المعاصرة للواقعة التاريخية إحدى العيوب التي سجلها النقد على العديد من شعراء المسرح العربي أمثال شوقي وعزيز أباظة وعدنان مردم بك وسليمان العيسى وغيرهم من المسرحيين الذين ظلوا أسرى أحداث التاريخ تحكمهم وتتحكّم فيهم، فلم يستطيع الكثير منهم نفخ

روح الحياة في تلك الوقائع القديمة التي انتخبوها، وحالت قدراتهم الفكرية دون تطويع تلك الرموز التاريخية وجعلها تمس واقـــع الإنسان المعاصـــر أو تتجاوب مع مشكلاته.

وامتد هذا القصور ليشمل عددا غير قليل من المسرحيات النثرية العربية الأولى التي لا نعثر فيها إلى ما يشير إلى واقع الكاتب، أو يسهم في التعبير عن مشكلات معاصرة، أو يعبّر عن فكرة لخدمة الحاضر انطلاقا من منظور تاريخي، وأخفق أيضا بعض شعراء المسرحية المعاصرة في تجاوز حرفية الحادثة التاريخية، وفشلوا في الربط بين تلك الأحـــداث الماضيـــة وما يطرحه الواقع المعاصر من تحديات، فلم يستطع عدنان مردم بك أن ينفخ روح الحياة في" الحلاج " بطل مسرحيته ويجعله يحمل هموم إنسان هذا العصر ومشكلاته، مع إقرارنا بنجاحه في اختيار الشخصية التي ارتبطت في الذهن بأنها رمز للإنسان الثائر على الظلم والقهر المؤمن بمبدئه الرافض لإغراء السلطة وتهديداتها، فظل حريصا على تتبع تفاصيل حياته وجزئياتها، ولم يزحزحه من صوفيته أو يخلص من شطحاته، وهذا خلافا لصلاح عبد الصبور الذي وظف الشخصية ذاتها وأضاء من خلالها الحاضر، فجرد الحلاج من أردية الصوفية وخلع عنه الخرقة، و دفع به إلى رحم الحياة وجعل منه أنموذجا لكل إنسان مثقف – في أي زمان ومكان- يؤمن بشرف الكلمة وقدسية المبدأ والتضحية بالحياة من أجل المبدأ، ويبدو أن القائمين على شؤون المسرح- خلال الستينـــات – أدركوا البعد الفكري للمسرحية فحالوا دون تجسيدها على خشبة المسرح.

ومن المسرحيات الشعرية المعاصرة التي فشلت في التعامل مع الأحداث الماضية بعيون العصر مسرحية (الأيام السبع الطوال) لخالد محي

الدين البراد عي[2]، الذي فشل في إقناع قرائه بأن هموم بطله هي بعض همومنا (إن المسرحية لا تومض ولا توحي بأي مشابهة بين حياة أبي القاسم الفردوسي معاصرا لنا يعيش بيننا ويفكر بما نفكر به، ظلت هموم الفردوسي رهينة التاريخ، وظلت القضية التي عاشها قضيته وحده)[3].

وللدلالة على غياب الرؤية المعاصرة للواقعة التاريخية نسأل ما حظ مشكلات العصر وهموم الإنسان العربي المعاصر في تلك النصوص التي قدمها معظم شعراء المسرح العربي، إذ لا أثر لذلك الواقع إلا من خلال القناع التاريخي ورموزه، على أن هذا لا يعني أن شعراء المسرح ظلوا لا صلة لهم بواقع مجتمعاتهم، بل عبّروا عن ذلك من خلال أقنعة التاريخ ورموزه، وحين تسقط تلك الأقنعة ونوازن بين أحداث الماضي (التاريخ) والحاضر، يتجلى الواقع العربي بكل جراحاته وأوجاعه، حينها نتأكد أن هذا المسرح لم يكن مجافيا للواقع أو بعيدا عنه، لأن المعالجة تتم انطلاقا من توظيف الرموز ومن خلال عملية الإسقاط والمماثلة.

الست هـــدى وبداية الطرح المباشر لمشكلات العصر

وعلى نحو ما كان شوقي رائدا في الكتابة المسرحية وأمير فن القول وحائزا على تاج الإمارة فيه، كان رائدا أيضا في التناول المباشر لبعض مشكلات العصر، وكانت (الست هدى) أول مسرحية إلتفت فيها إلى بعض قضايا العصر وطرح الموضوع دون قناع تاريخي، وتتمثل في السعي وراء المرأة الثرية طمعا في مالها ومالها فقط، فقد تزوجت السيدة "هـــدى" هذه العجوز المتصابية الثرية عشر رجال مختلفي الثقافة والمكانة والطباع، والكل قصدها من أجل مالها وأملا في أن يرثها، فلا تكاد تدفن أحد أزواجها أو

يحصل طلاق بينهما حتى يفد عليها آخر لا حبا فيها ولا رغبة في جمالها بل في مالها وجواهرها وأراضيها الزراعية وهي تعـــي ذالك:

وتلك فداديني الثلاثون كلما تولى رجال جئتني برجال
لولا فداديني وغلاتهـــا ما طاف إنسان على بابـــي
بها تزوجت ومن قطنها كفنت أزواجي وخطابـــي
ولولا المال ما جـــاءوا أذلاء إلـــــى بـــابـــي [4]

وهي تحكي لجارتها وصديقتها زينب كيف فشل الجميع في الظفر بثروتها، حتى بلغ الذين اقترنت بهم عشرا من مختلف طبقات المجتمع وشرائحه، من الصحفي إلى المقاول إلى المحامي ففقيه البلدة وآخرهم السيد العجيري أحد وجهاء الريف وأعيانه الذي ما إن تأكد من وفاتها حتى أبدى غبطته لكونه الوارث الوحيد لثروتها، ويتوافد عليه الأصدقاء وبعض المقربين منه لا لتعزيته بل لتهنئته ، فيجدونه قد لبس حريرا وسعد بوفاتها، فيخاطب نفسه معبرا عن نشوة الانتصار والظفر.

العجيزي (لنفســـه):

المال صار يا عجوز مالي وأصبح البيت وما حوى لي
من بعد عشـــــــــــــ ـــــرة مـــن الرجـــال
نعـــم رجـــال كثيـــر ماتـــوا بحســـرة مالك
كنت الموفق وحـــدي لمّـــا ظفـــرت بذلك [5]

وظل يمني نفسه ولكن فرحته تتحول إلى أسى وحسرة، حين يعلم أن زوجته قد أوصت بمالها لأوجه خيرية حدّدتها في وصية سلمتها للأغا، وأشهدت عليها مفتي القطر وقاضي الإسلام، وتبين في الوصية التي قرئت بحضور الأغا والمفتي والزوج وشيخ الحارة، أنها أوصت بذهبها وحليها إلى

بعض جاراتها وبناتهن وهذا كرد جميل لأنهن خدمنها بإخلاص وصدق، وحين يسأل الزوج عن أراضيها الزراعية يخبره بأنها جعلتها وقفا لبيت الله، وبقيت (الست هـــدى) النص المسرحي الوحيد الذي ابتعد فيه شوقي على مغاوير التاريخ وارتبط فيه بواقع أمته وعبّر عن بعض مشكلاته.

أوراق الخريف والتحول نحو هموم المجتمع

طرح لعزيز أباظة طرح في مقدمة مسرحية (أوراق الخريف) هذه القضية على شكل سؤال مفاده هل يمكن علاج مشكلات الحياة المعاصرة وإنطاق شخصيات هذا الواقع شعرا؟ وكانت الإجابة بأن ذلك ممكن فالتف إلى الواقع في (أوراق الخريف) التفاتة يشوبها الحذر ويطبعها الخوف فقال في مقدمتها: (خرجت في هذه المسرحية عن مأثور ما التزمته في مسرحياتي السابقة، إلا في صورة واحدة هي أنها كتبت شعرا... كنت أستمد مسرحياتي من التاريخ القديم مستهدفا إلى جانب الأمل في إجلاء البطولات والحضارة الإسلامية،.... فكنت أعالج الحاضر في أنماط من الغابر، ولكنني اختصرت الطريق في هذه المسرحية وأخذت سمتي إلى الموضوع المعاصر)[6].

عرض عزيز في هذه المسرحية إلى بعض التقاليد الاجتماعية والتي تحول دون اقتران المرأة بمن تحب، فالمسرحية تحكي قصة امرأة أحبت في شبابها، ولكن التقاليد والأعراف تحرمها من الزواج بالرجل الذي أحبته لفقره وتجبرها على الزواج بآخر غني لا تربطها به إلا عقدة الزوجية فأخلصت لواجبات الزوجية، وبعد عشرين سنة من الفراق تلتقي به وتسعى إلى خلق حبال التواصل من جديد، غير أن قطار العمر والالتزامات الأسرية تحول دون ذلك.

وتقدّم المسرحية صورة لكفاح الطبقة الفقيرة في سبيل تحسين وضعها الاجتماعي وحفاظها على القيم والأخلاق، فمهيب الذي رفضته أسرة وداد لفقره، يصبح أحد الأثرياء وشريكا لقاسم دون أن يدري أنه زوج وداد المرأة التي أحبها وحرم من الزواج بها، وحين يعود من الشام ويتم اللقاء يسعى كل منهما إلى إحياء ذلك الماضي، وتطلب وداد الطلاق من زوجها وتبدي استعدادا للتضحية بكل شيء في سبيل أن تعيش حياتها وحين يعلم مهيب أن ذلك سيهدم مستقبل أسرتين يختفي من حياتها ويعود ثانية إلى الشام، ولكن سفره واختفاءه يؤجل هذا الوضع ولكنه لا يقضي عليه في ظل إصرار وداد على التضحية بأسرتها في سبيل البحث عن سعادتها المفقودة[7].

وباستثناء هذه التجربة فلا يعرف لعزيز أنه اقترب مـــن الواقـــع أو تناول بعض همومه تناولا مباشرا، وكانت (غروب الأنـــدلس) الـــنص الأول الذي اتكأ فيه على التراث واتخذ من غرناطـــة وأحـــداثها قناعـــا لـــبعض مشكلات مصر حين لمس (شبها بين ظروف الحياة في مصر في ذلك العهد وبين تلك الأحداث المريرة التي مرت بها إمارة غرناطـــة... فهـــي تحمـــل مضمونا اجتماعيا تمثل في تصوير مساوئ الحياة فـــي مصـــر ومفاســـدها، ويحس قارئ المسرحية بصفة خاصة أن المؤلف كان يلح إلحاحا شديدا على إبراز جوانب الحياة الفاسدة في المجتمع المصري، بل يحس أنه إنمـــا كـــان يتحدث في كل لحظة عن مظهر من مظاهر الحياة المصرية ذاتها ولكن فـــي القرن العشرين، ولذلك يكاد الإنسان ينسى أن هذه المسرحية تمثل لنا آخـــر عهد العرب بأسبانيا، ويخيل إليه أنها تُصوّر_لنا أحداثا مصرية وشخصـــيات مصرية)[8].

وكان طه حسين سباقا إلى أن عزيز اتخذ من أحداث غرناطة (الماضي) معادلا موضوعيا لأحداث اجتماعية وسياسية مرت بها مصر(الواقع) وعبّــر عن ذلك في تلك المقدمة التي صدّر بها المسرحية، وذهب إلى أنها مصرية الموضوع والأحداث والتصوير والأداء وان اتخذت من غرناطة وإحداثها منطلقا، فقال: ((وأكاد أعتقد، وما أظن أن الشاعر يخظئني فيما اعتقد، أنه لم ينس نفسه ولا وطنه ولا مواطنيه، ولعله ذكر مصر والمصريين وما وقع لهم في هذه الأيام الأخيرة، أكثر مما ذكر غرناطة وأهلها وما جرى عليهم من الأحداث))[9].

قناع التاريخ وثنائية السلطة والمعارضة قي مسرح الشرقاوي

ولم يخرج عبد الرحمان الشرقاوي عن هذا التقليد الفني الذي طبع حركة التأليف للمسرح الشعري حيث ارتدى في جميع مسرحياته الأزياء التراثية، وتوارى خلف ستائر التاريخ، إلا أنه سعى دوما إلى تجاوز الحدث التاريخي ليظل على اتصال بهموم الواقع وقضاياه، وتجلى الارتباط بالمجتمع مع نصوصه الأولى، فعرض في مسرحية (الفتى مهران)، ومن خلال القناع التاريخي إلى دور الثائر المعاصر الذي يسعى إلى تحقيق العدل الاجتماعي لمواطنيه وخطر المساومة في الإجهاز على الثوار، ومع تاريخية الحدث إلا أن المسرحية فسّرت فور صدورها (تفسيرا مباشرا يقرن بعض جزئياتها ببعض الجزئيات المقابلة لها في الواقع ففهمت حرب "السنـــد" في المسرحية على أنها رمز لحرب جيش مصر في اليمن وجماعات الفتوى ليست سوى تنظيمات الشيوعيين المصريين الذين اتفقت قياداتهم على حل نفسها والانضمام فرادى إلى الاتحاد الاشتراكي بتنظيماته العلنية وغير العلنية)[10]، وسبق لمحمود أمين العالم وأن ذهب إلى أن المسرحية تسعى إلى علاج

بعض مشكلات الواقع من منظور تاريخي: (إن الفتى مهران ليست مجرد مسرحية تاريخية، وإنما هي مسرحية معاصرة رغم أن موضوعها مستمد من التاريخ، تعرض بالرمز لقضايا اجتماعية وفكرية حية) [11].

ومن القضايا التي ظلت تؤرّق الشرقاوي افتقار معظم الأنظمة العربية إلى الشرعية، وغياب مبادئ الحرية والديمقراطية، وما اتصفت به تلك الأنظمة من قهر وقمع وتسلط، أثقلت كاهل المواطن والوطن، وللتعبير عن هذا الهم الوطني والقومي الذي ظل يشغله، عاد إلى التاريخ العربي واختار أهم فتراته اضطرابا وصراعا على السلطة، واتخذها معادلا موضوعيا للتعبير عن الواقع، إيمانا منه برسالة الكاتب ودور الأدب في التغيير الاجتماعي والسياسي والفكري وذلك في مسرحيته (ثـــأر الله)[12] التي أدان فيها – ومن خلال القناع التاريخي – الأنظمة غير الشرعية وعزف على وتر في قمة الحساسية السياسية بل هو السياسة عينها، حيث تطرح المسرحية في شقها أو جانبها السياسي شرعية السلطة وطبيعة النظام وموقف الرعية منه، كما تطرح من جهة أخرى طبيعة الأحزاب المعارضة وموقفها من السلطة غير الشرعية، وطبيعة العمل السياسي لإحباط الأنظمة الدكتاتورية المتسلطة.

إن رفض الحسين (رضي الله عنه) مبايعة يزيدا وعدم الاستجابة لنصائح أهل بيته وبعض أتباعه، مرده أنه لا يريد أن يقر نظاما سياسيا غير شرعي، وليرسّخ في الثقافة السياسية والدينية فكرة البيعة التي ظلت تسير الدولة، وهي أشبه بالانتخابات في حياتنا المعاصرة، وليؤكد – من خلال ذلك الموقف– أن الخليفة أو الملك أو الحاكم الذي يأخذ البيعة أو الانتخاب من الناس وهم له كارهين أو خائفين أو طامعين ليس بحاكم ولا يجب أن تسلم له

قيادة الأمة[13]، وحين ثار– وهو عنوان الجزء الأول من المسرحية – على السلطة الأموية ورفض طاعتها وحاربها، فلم يكن ذلك حبا في الخلافة ولا رغبة أو طموح شخصي، وإنما يسعى إلى إقامة خلافة على أساس من السياسة الشرعية التي تجعل الخلافة للأجدر والأصلح حتى ولو كان عبدا حبشيا[14]. ولا شك أن يزيد لم يكن لا بالأجدر ولا الأصلح لما عرف عنه من انغماس في الملذات واستهتارا بالقيم والانصراف عن الأمور الجادة. ويسعـــى الحسين من خلال رفضه البيعة إلى القضاء على ذلك الفهم الجديـــد الذي سنه معاوية للسلطة حين جعلها وراثيـــة أو هرقلية – كما قال عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق ردا على بعض رجال معاوية الذي جاء المدينة يطلب بيعة يزيد وليعيد لها معناها الإسلامي (مبدأ الشورى) ويسعـــى إلى تثبيتـــه.

وتبعا لمعيار المماثلة والمطابقة وخلق الإيهام بالواقع والسعي إلى التخلص من الجو التاريخي واقترابا من الواقع السياسي المعاصر، تصبح شخصية يزيد التاريخية ومن ورائها الأسرة الأموية الحاكمة رمزا أو معادلا موضوعيا لكل نظام سياسي يفتقد الشرعية، ويقوم على أساس من البطش والترغيب والترهيب، فهو لم يطرح نفسه لرأي الشعب بصورة ديمقراطيـــة أو ما يعرف في النظام السياسي الإسلامي بالمبايعة.

وبالمقابل يصبح الحسين رمزا أو معدلا موضوعيا آخر لكل تنظيم سياسي معارض، يرفض التسليم بسياسة الأمر الواقع ويعلن الثورة والتمرد على مثل تلك الأنظمة السياسية الاستبدادية ليعيد الحكم إلى طبيعته وهو أنه نظام يقوم على الشورى (الديمقراطية) لا الوراثة.

وحفلت المسرحية بمواقف أخرى تفسّر طبيعة مثل تلك الأنظمة وتعاملها مع خصومها، أبرزها تهديد الوليد بن عتبة والي المدينة (السلطة) للحسين (المعارضة)، حيث استدعاه وطلب منه البيعة وخيره بين اللين والشدة، ومن تلك الصور مشهد استشهاد الحسين والتنكيل به وببعض أبناء البيت الشيعي وأتباعه وجميعها إشارة صريحة إلى كيفية تعامل الأنظمة الاستبدادية مع المعارضة.

وأشارت المسرحية إلى لجوء العديد من مثل هذه الأنظمة الاستبدادية إلى خلق ما يمكن تسميته بواجهة الديمقراطية الزائفة أو الشكلية، حيث تنشئ أحزابا وتنظيمات موالية لها لتكون ستارا تمارس من ورائه ديكتاتوريتها وطغيانها وتضلل به شعوبها، على نحو ما يشف عنه الحوار الذي أجراه على لسان عدد من أتباع الحسين عقب شيوع موت معاوية بن أبي سفيان حيث عبر سعيد وبشر عن ارتياحهما لهذا النبأ ويتهمان معاوية بأنه زيف قاعدة الشورى:

أســـد: قد كان يشاورنا في الأمر.

بشر: ليستكمل أبهة الحكم

أنتم آفتنا الكبرى

كنتم شكلا للشورى، كان رضاكم يسبقكم

لم تفتح أفواهكم أبدا إلا لتقول :نعم

سعيد أخالف أحد منكم رأيا لمعاوية ثم نجا؟

أأنتم من ملّك [15].

ومن هذه المواقف أن يزيد (وهو رمز هذه السلطة) لا يظهر إلا في المنظر الخامس من المسرحية، وهو الموقف الذي يمكن أن يفسّر على أن

الاهتمام بشؤون الرعية أمر غير ذي أهمية بالنسبة ليزيد ومن هم على شاكلته من الحكام، ونزداد قناعة بهذا التفسير حين نعلم أن المنظر الذي ظهر فيه خليفة المسلمين تمثل في لهوه مع جارية في قصره يترجاها ويستعطفها، يطلبها فتعاكسه.

يزيد: سابقيني من جديد يا فتاتي القبرصية

الجارية: لا أنا غاضبة يا سيدي

أنت فضلت علي الفارسيات وسمراوات مصر

يزيد: أنت والله أحب الناس إلي

"متـــوددا " لا تقولي سيدي

فلتناديني يزيد...! (أشد توددا)

إنما الليلة لك .[16]

فأي خليفة هذا الذي يستعطف جارية وينكّل بأكابر القوم ووجهائهم ويسترخص دماء المسلمين ويعيش بعيدا عن مجتمعه في دائرة ضيقة تتشكل من جواري وبعض الانتهازيين من أثرياء العرب، مشهد كل مل فيه ينذر بانهيار السلطة وضياع حق الأمة. وبالمقابل بدت شخصية الحسين أكثر اتزانا واقترابا من الشعب، فألقت بظلالها على بقية الشخصيات، وإن طغت عليها الأخـــلاق والقيم في معركة غير متجانسة، لأن السياسة فـــن الممكن لا تعترف بالأخلاق والشرف.

أكّد الشرقاوي من خلال التضحية النبيلة التي قدمها بطل المسرحية في وجه طغاة العصر (أن الدماء التي تسيل في سبيل الحق في العصر الحديث- وفي أي عصر- لا تضيع هدرا، وأنه لا بد من قرابين وشهداء يضحون بدمائهم الزكية حتى تظل شجرة الحق نضرة وباقية مهما صوح

هجير الظلم والبغي أفنانهما، حتى وإن لم يتسن لأولئك الذين يروونها بدمائهم أن يستظلوا بظلالها. وليرفع هذه التضحية في وجه كل القوى الباغية التي تحاول أن تسحق الإنسان وتدوس على كل قيمة نبيلة، ويرفعها أيضا لأولئك الذين يعيشون في ذل ومسكنة ورعب دائم استبقاء لحياة ذليلة تسحقهم فيها قوى البغي وتهدد إنسانيتهم وكرامتهم وتضرب عليهم الذلة والمسكنة، يرفعها لهم مثلا وضيئا مشرقا يهتدون به، وكلما أدلهمت ظلمات الخطوب وأطبقت دياجي البغي فإن تضحية الحسين وآله تشرق وسط هذه الظلمات تهدي إلى الطريق، وتقود إلى الخلاص.)[17].

وهكذا استطاع الشرقاوي بحس درامي كبير ورؤية فكرية نافذة أن يحوّل التاريخ بشخوصه وأحداثه إلى واقع سياسي معاصر ويعبّر- من خلال القناع التاريخي- عن الحاضر، لاسيما وأن المسرحية صدرت في فترة اشتدت فيها سلطة الفرد وتعاظم التفرد بالسلطة، وهُمّشت غالبية قوى المجتمع بدعاوى مختلفة، وتعامل مع التاريخ بحاسة المبدع وسعى إلى توظيفه لا ليعيد إلى الذاكرة الجماعية جراحات الماضي وآلامه، بل للتعبير عن بعض مشكلات العصر، وعلّل ذلك بقوله: (لم أكن أعني بالتاريخ فيها إعادة نشر وقائع مض، أو إعادة صياغته أو إعادة تفسيره، التاريخ بالنسبة لنا هو واقع اجتماعي مضى، وترك آثاره وبصماته على النفسيات وعلى واقعنا الراهن... فما يجري في التاريخ يمكن أن يمتد أيضا إلى المستقبل، وهناك لحظات في التاريخ لها ومضها الخاص، ومن هنا تلمع جاذبيته أمام الكاتب المعاصر، وهذه اللحظات بالذات تشعرك أنك تعبّر عن واقع تعايشه، وأنك تستنبط منه رؤى المستقبل، وتمنحك إحساسا خارقا بالثقة بقدرة الإنسان على أن يهدم واقعه الفاسد ويبنيه من جديد) [18].

سعـــى في هذه الثنائيـــة ــ ومن خلال أقنعة التاريخ ورمـــوزه ــ أن يسقط التراث على أخطر القضايا في الواقع العربي المتمثلة فـــي ثنائية السلطة/ المعارضة، فجعل من يزيد رمزا لكل نظام سياسي معاصر لا يقوم على أساس من الاختيار الحر، ومن الحسين رمزا للمعارضة التي تأتي تزكية نظام سياسي يفتقد إلى الشرعية، وليؤكد من خلال هذه التضحية النبيلة في وجه طغاة العصر أن إقامة العدل والحق ومحاربة الظلم يتطلب التضحيات الجسام.

معين بسيسو وهموم الثورة المحاصرة

وعـــاد معين بسيسو[19] في مسرحيته الثانية (ثورة الـــزنج) إلـــى الماضي البعيد (القرن الثالث الهجري) واستحضر أحـــداث وأجـــواء تلـــك الثورة، ليتخذ من هذا الحدث التاريخي قناعا لإسقاط مجموعة مـــن الأحكـــام على الثورة الفلسطينية، ومن خلال تـــداخل الأزمنـــة واخـــتلاط الحاضـــر بالماضي تصبح المسرحية مشكلة من مستويين: الأول واقعي حقيقي، وهـــو المستوى الذي تشغله الشخصيات المعادية للثورة الفلسطينية وكل الثـــورات، والثاني تاريخي تجري أحداثه في القرن الثالث للهجرة حين انـــدلعت ثـــورة الزنـــج [20].

وتوجز المسرحية رسالتها المعاصرة وبعدها الحاضر في سطور قليلة على لسان بطلها عبد الله بن محمد فيهجم على المتاجرين والمزيفين الذين يهرولون مسرعين، ويضرب عيدان القفص فيحطمه ويصرخ بأعلى صوته:

عبد الله بن محمد " يخاطب أتباعه من الزنج ": انطلقوا الآن...

كونوا ما شئتم.

زنجا في القرن الثالث للهجرة
أو زنجا في القرن العشرين...
إن عليكم أن تنطلقوا الآن...
لا يستأذن عبد من قيصره...
كي يعلن الثورة... (21)

لقد تحولت ثورة الزنج لدى معين إلى وسيلة فنية وظّفها لتكون أداة إيضاح وإضاءة للثورة الفلسطينية ومعادلا موضوعيا لها، لاسيما وأن صدرت المسرحية صدرت في فترة اندلعت فيها المقاومة، وتأجج حس الثورة وتعاظم معنى الفداء والتضحية، ولكن أصواتا شكّكت في صدق الثورة وجدواها وسعت أخرى إلى تزييفها، على نحو ما زيّف مؤرخو السلطة وشعراء البلاط ثورة الزنج وألبسوها الثياب التي أرادت لها السلطة، مع أنها كانت أهم الحركات الثورية التي عرفها التاريـــخ العربي، إلا أنها وصفت وانطلاقـــا مما كتبه بعض مؤرخي السلطة، الذين وصفوها بأنها حركة تمرد وشغب، وماذا يمكن لنا أن نتوقع من مؤرخي الدولة والأنظمة السياسية حين يؤرخون لانتفاضة شعبية ضد النظام القائم، فلو كانت تمرد وانتفاضة لما استطاعت أن تدوم أكثر من عشر سنوات، ولم يخمد لهيبها إلا بعد أن استخدمت الدولة العباسية كل الوسائل المتاحة لتصفية هذه الثورة من ترغيب وقمع وترهيب، على نحو ما تسعى وسائل الإعلام الحديثة في هذا العصر إلى تزييف عدد من الثورات ومن ثمة تزييف التاريخ وعقول الناس.

فـــي حين كـــان الدافـــع الأساســـي للثورة الفلسطينية تحريـــر الأرض من المغتصب، أما المطالبة ببقية الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فهذا أمر مؤجل إلى إن تحسم القضية الأساسية.

وفي سبيل إعطاء الحدث التاريخي دلالة معاصرة لجأ الشاعر إلى تداخل الأزمنة بين الحدثين، الماضي الذي رمز له بثورة الزنج في القرن الثالث، والحاضر الذي تمثله الثورة الفلسطينية، وتبعا لذلك تتحوّل البصرة إلى نظير لفلسطين، والزنج رمز آخر لشعب فلسطين، وعبد الله بن محمد الذي فتح قفص الزنج وأشعل فتيل الثورة وقادها رمز للثائر الفلسطيني الـــذي يعلن أمام الجمهـــور ومن فوق الخشبة لا وصايـــة لأحد على الثورة إلا أصحابها:

سنؤلف نحن الآن....وسنخرج
لن يخرج أحد بعد الآن لنا[22]

وعبّر عن استمرارية الثورة والتواصل بين أجيالها من خلال ذالك المشهد الذي تطلب فيه وطفاء من عبد الله أن يختار اسما لحملها فيخاطبها بقوله:

سيظل الزمن يلد .....
ولأجل يعلمه إلا الله .....
يلد المعتمد بأمر الله
وسيلد المعتمد الزنج....
وسيلد الزنج.....
أكثر من عبد الله بن محمد... [23].

وبما أن وطفاء هي رمز لفلسطين، فإن المحاولات المتكررة لإجهاضها وإسقاط الحمل، لا يعدو أن يكون معادلا موضوعيا آخر عن تلك المحاولات التي سعت إلى إفشال الثورة، وعلى نحو ما تعرضت له ثورة الزنج من تشويه ومسخ من لدن مؤرخي السلطة ومرتزقة الفكر و عبدة الدينـــار والدرهم، تتعرض الثورة الفلسطينية – هي الأخرى– إلى التشويه من لدن

هذا الإعلام المضلل، فهذا التواصل بين الرمز والمرموز له جعل الحديث عن الثورة الأولى حديثا عن الثانية.

لقد كان حرص الشاعر على الربط بين الثورتين وإيجاد القواسم المشتركة، قوامه أنه اتخذ الأولى بديلا رمزيا للثانية، ومن خلال هذا القناع التاريخي وتلك الرموز المبثوثة في المسرحية أبان المؤلف عن أوجاع الحاضر وآلامه (مأساة فلسطين) والتي تناظر من بعيد الماضي وآلامه الذي مثلته ثورة الزنج.

صلاح عبد الصبور وأزمة البطل المتقف:

كان صلاح عبد الصبور ــ هو الآخر ــ من أبرز الأسماء المسرحية التي اتخذت التاريخ منطلقا للتعبير عن أحداث العصر، حيث أغرم في شعره الغنائي والدرامي بالبحث في دفاتر الماضي (التاريخ) وتقليب صفحاته، أملا في الوقوف على حادثة أو شخصية تكون معادلا موضوعيا لبعض مشكلات الحاضر، باعتبار أن الإنسان هو نقطة البداية والنهاية في هذه الأعمال، وهـــو ليس مسئولا عن حاضره ومستقبله فحسب بل عن ماضيه أيضا، ومن هنا كان الحرص على الربط بين الماضي والحاضر، أو لنقل بين الواقع والتاريخ حتى تترابط في نفسه أحداث العصر.

وضمن هذه الرؤيا في التعامل مع التاريخ لغايات فكرية أو جمالية، جرد شخصية الحلاج بطل مسرحيته من الكثير مما عرف عنها واشتهرت به، فأسقط عنه دور الصوفي الذي يلبس الخرقة ويأبى الاندماج مع المجتمع ومع الحياة والناس، واستبعد بعض التهم الدينية من كفر وزندقة وقول بالحلول وغيرها من مواد الإدانة التي حضرتها السلطة العباسية مع زبائنها

وفقهائها ومثقفيها وسعت إلى تجريمه من خلالها، واستعبد الكثير من الأخبار المضطربة والروايات المتناقضة، لأنه لا يسعى- من خلال استحضاره لشخصية الحلاج - أن يعيد إلى الذاكرة سيرة هذا المتصوف أو يسرد بعضا من صفحا حياته، بل يريد أن يطرح ومن خلال القناع التاريخي إشكالا معاصرا يتمثل في دور المثقف وموقفه من الظلم الاجتماعي والسياسي والقهر الفكري، أزمة الإنسان المثقف الذي يؤمن بدور الكلمة وثقل الرسالة وشرف الجهاد وحيرته بين الكلمة والسيف، هل يرفع قلمه (صوته) أم سيفه في وجه الظلم والجور؟. وبعد موازنة بين رفع الصوت ورفع السيف اختار عن قناعة و رضى الكلمات لتكون سيفا له، لأن السيف يصبح موتا أعمى إذا حملته كف عمياء كما قال لبعض أنصاره.

الحـــلاج:

لا أملك إلا أن أتحدث
ولتنقل كلماتي الريح السواحه
ولأثبتها في الأوراق شهادة إنسان من أهل الرؤية
فلعل فؤادا ظمأنا من أفئدة وجوه الأمة
يستعذب هذه الكلمات
فيخوض بها في الطرقات [24].

وهذا الدور الذي أسنده إلى الحلاج (المثقف المعاصر) أكده الكاتب في التذييل الذي أرفقه بالمسرحية، وضمنه في كتابه حياتي في الشعر، حيث ذكر أن المسرحية تناولت دور الفنان في المجتمع وكانت إجابة الحلاج هي أن يتكلم ويموت[25]: (ليس الحلاج عندي صوفيا فحسب ولكنه شاعر أيضا والتجربة الصوفية والتجربة الفنية تنبعان من منبع واحد وتلتقيان عند الغاية ذاتها،

وكان عذاب الحلاج طرحا لعذاب المفكرين في معظم المجتمعات الحديثة وحيرتهم بين السيف والكلمة... وكانت مسرحيتي معبّرة عن الإيمان العظيم بالكلمة الذي بقي نقيا لا تشوبه شائبة وهو الإيمان بالكلمة)[26].

وتجلى تطور شخصية الحلاج و التزامه الاجتماعي في عزمه علـــى الخروج من عالم الصوفية والالتحام بقضايا الناس، فخلع جبة الصوفي حـــين رأى أنها تعرقل هذا الدور الاجتماعي، ونزل إلى الساحات والأماكن العامـــة يحث الأمة عن أمور حياتها، عن الجوع، عن الفقر والظلم والحب والعـــدل والقهر، وحين رأت السلطة العباسية انشغاله (التزامـــه) بقضـــايا مجتمعـــه واستجابة الناس له كادت له كما تكيد سلطات هذا العصر إلى كل مثقف أبى الدخول تحت مظلتها، وقرر أن يكون مستقل الفكر يمارس وظيفتـــه ويبلـــغ رسالته تجاه أمته ومجتمعه.

ومن خلال المقارنة بين التهم التي وردت في العديد مـــن المصـــادر التاريخية ، وبين تلك التي تضمنتها المسرحية، نلاحظ أن الكاتب أسقط كـــل التهم التي ليس لها طابعا سياسيا أو اجتماعيا، حيث اهتم بـــالحلاج كرجـــل اجتماعي أكثر (من اهتمامه به دينيا وصوفيا، بدليل أن الحلاج كـــان يـــدافع عما نسب إليه من اتهامات سياسية طوال أربعة عشر صفحة، أما دفاعه عن الاتهام الديني "الزندقة" فاستغرق جملة واحدة لسؤال بن سرج: هـــل تـــؤمن بالله، قال هو خالقنـــا وإليـــه نعود)[27]. وهو الـــرد الـــذي جعـــل القاضـــي الشافعي محمد بن سريج يغادر المنصة ويأبى المشاركة في تلـــك المحكمـــة الصورية تملقا للسلطة.

وهذا التعديل والتحوير للمادة التاريخية يتماشى مع البعد الفكري للمسرحية التي ركزت على الجوانب الاجتماعية والسياسية في حياة الحلاج،

الذي اتخذت سيرته ونضاله معادلا موضوعيا لعلاقة السلطة بالمثقف الملتزم الذي اتخذ الكلمة سلاحا، والدعوة إلى التغيير منهجا، والإصلاح الاجتماعي والسياسي هدفا، إنه رمز للمثقف الذي وازن بين رفع الصوت ورفع السيف فاختار الكلمات سيفا له:

وهكذا تعامل الكاتب مع السيرة الذاتية للحلاج، واكتفى بخطوطها العامة، أما تفاصيل الحادثة وجزئياتها فتصرف فيها تبعا لحاجات النص الفكرية والجمالية، فلم يتكئ على التاريخ إلا من حيث كون الحلاج صوفيا أرقته قضايا المجتمع وأبدى تضمره من فقر الفقراء وجور الحكام، فنزل إلى ساحات بغداد و حاراتها ومساجدها يعظ الناس ويؤدي في رسالة، فكان أن جازتـــه السلطة العباسية كما تجازى كل من تمرد علـــى نواميس الدولة (مما لاشك فيه أن الحلاج كان مشغوفا بقضايا مجتمعه، وقد رجّحت أن الدولة لم تقف ضده هذه الوقفة إلا عقابا على هذا الفكر الاجتماعي)[28].

ولأن التاريخ في هذا النص لا يعدو أن يكون قناعا شفافا توارى خلفه الكاتب من أجل التعبير عن حادثة أو طرح وجهة نظر، وتبعا لذلك فمن حق المبدع أن ينسب إلى الشخصية التاريخية (من الأقوال والأفعال ما لم يسجله التاريخ وما لا يتعارض مع وقائعه المعروفة لكي يبرز معالم تلك الشخصية كما يدركها هو وكما يريد أن ينقلها على المشاهد بتفسير جديد ورؤية متفردة، يلتفت إلى بعض الوقائع دون بعض من ناحية، ويضيف وقائع مبتكرة من ناحية ثانية تؤكد هذا التفسير وتلك الرؤية)[29]. ذلك أن غاية المبدع حين يستحضر وقائع التاريخ لا يكمن في مدى إخلاصه لتلك الوقائع وتتبع تفاصيلها وتمحيص جزئياتها، فتلك مهام عالم التاريخ الباحث عن الحقيقة المجردة بغية تدوينها وإشاعتها بين الناس، أما غاية المبدع فتكمن

في مدى انسجام ذلك الحدث الذي انتخبه من التاريخ وتوافقه مع الرؤية الفكرية للنص.

وكلمـــا أمعنا في قراءة النص وتتبع جزئياتـــه بدأ الجو التاريخـــي في الانحسار والخفوت بل والذبول، وملامح واقع معاصر جديد يتشكّل، وذلك من خلال تقريب الكاتب لبطله من الواقع، حيث نزع عنه خرقته الصوفية خوفا من أن تلهيه عن مشاكل مجتمعه، ودفع به إلى رحم المجتمع ليمارس دوره في التغيير، وحين آثر_الحلاج نزع الجبة والنزول إلى ساحات بغداد وأحيائها وأزقتها للوعظ والإرشاد (أداء الرسالة) يخيف السلطة وتحدث المواجهة، ولاشك في أن سجنه وتعذيبه ومحاكمته الصورية ثم صلبه إدانة صريحة من الكاتب لمثل تلك الأنظمة السياسية التي تمارس القهر ضد أولئك المثقفين الذين آثروا الكلمة على السيف وآمنوا بدورهم في التغيير.

ومع إعلان أبو عمر عن صلب الحلاج يسدل الستار على إحدى مهـــازل مثل تلك الأنظمة التي يمثلها فقهاء السلطة وشهود الدينـــار والدرهم- في أي زمان ومكان - ضد كل صوت يعلو ليعري واقع الحياة، والسؤال الذي يطرح من المسئول عن مثل تلك الجرائم؟ أهو السياف الذي رفـــع السيف؟ أم الحاكم الظالم الذي وضـــع السيف في يد بعض زبانيتـــه؟ أم أولئك الصامتون الذين جيء ببعضهم إلى المحكمة فصمتوا؟ أم شهود الدينار والدرهم الذين جاءت بهم السلطة؟ أم هؤلاء الذين لا يبالون؟ وكأن القضية لا تعنيهم قد يقول البعض إن الجميع شارك في نسج مثل هذه الجرائم.

لقد تحوّل الحلاج لدى صلاح عبد الصبور إلى شخص آخر غير ذالك الذي حدثتنا عنه كتب التاريخ ومصنفات علماء التصوف، إنه حلاج

العصر الحديث يحمل ملامح إنسان هذا العصر ويعيش مشكلاته، إنه شاعر يلتزم بقضايا مجتمعه، ويتّخذ منها موقفا واضحا ومحددا فيتكلم ويموت.

وعليه فإن هذا الاختيار قوامه التماثل بين الماضي (الدور التاريخـــي للحلاج) والحاضـــر (الدور المنوط بالمثقف المعاصر)، وإيمـــان كل منهما بشرف الكلمة وعبء المسؤولية، ذلك أن جوهر التاريـــخ وحقيقتـــه قد يفقد – كما يقول علي أحمد باكثير– معناه إذا لم يعبّر عن حركة التاريخ المستمر نحو عصرنا، هذا الاحتيار (يتوقف بالضرورة على رؤية الكاتب لعصره وملابساته وظروفه السياسية والاجتماعية وما يتفجر فيها من قضايا وهموم، وبالتالي فإن الاختيار ليس عشوائيا، بل يعتمد على وجهه من وجوه المماثلة أو التشابه البنائي ــ من وجهة نظر الكاتب ــ بين الأحداث والوقائع التي يختارها والأحداث التي يستشرفها في واقعه المباشر، بحيث تصلح المادة الدرامية وعاء أو قناعا لرؤية العصر الذي يعيشه الكاتب)[30].

ومن خلال هذا التعدد في الأبعاد مابين الماضي والحاضر، والعام والخاص، والرمز والمرموز له التي أباحها القناع التاريخي ينفذ الكاتب إلى رؤية معاصرة، عن طريق الإيحاء بالتماثل بين هذه الظروف، وكل ظروف تشبهها في أي بيئة أخرى، ففهم الحاضر يتم من خلال ما حدث في الماضي وتقويم ما يقع اليوم قياسا على ما وقع بالأمس.

وبناء عليه فإن استحضار التاريخ في هذه الكتابات الإبداعية، لا يراد به لذاته وليس غاية في حد ذاتها بل أصبح أشبه بالجسر الذي يعبر من خلاله الكاتب إلى الضفة الأخرى بغية الإطلالة على قضايا العصر فالتاريخ في هذه النصوص (ليس تاريخا وكفى بل هو الحاضر من خلال الماضي وهو الماضي مفسرا بمنطق الحاضر، ومن ثمة تكتسب الأحداث

والشخصيات في مثل هذا اللون الدرامي معاني رمزية لا يعجز المتلقي عن ربطها بالواقع ومعطياته)[31].

إن الماضي في هذه المسرحيات أشبه بقاعدة انطلاق لمعالجة مشكلة من مشكلات العصر الراهنة، فالـــذي حدث في الماضي له علاقة وتأثيـــر في الحاضر والمستقبل على أساس أن الماضي هو الأب الشرعي– إن جاز التعبير– للحاضر، وإنسان اليوم بفكره وخبراته هو ثمرة أفكار وتجارب الإنسان منذ الخليقة.

وليس بوسع كل كاتب عاد إلى التاريخ واستحضر وقائعه أن يتلمس قضايا العصر ومشكلاته من خلال القناع التاريخي الذي ارتداه، فيرى الحاضر من خلال الماضي ويفسر الماضي بمنطق الحاضر، فمثل هذه الرؤية انعدمت في العديد من المسرحيات الشعرية التي عجز كتابها عن نفخ روح العصر في تلك الشخصيات أو الأحداث، فلا أثر للواقع العربي ولا صدى لمشكلاته في مسرحيات شوقي وعزيز أباظة وسلمان العيسى وعدنان على نحو ما أشرنا إلى ذالك في الصفحات السابقة.

إن إعطاء الحادثة التاريخية بعدا معاصرا يتطلب أن يتجاوز الكاتب التعامل الحرفي مع الواقعة، ولا يأخذ منها إلا بالقدر الذي يلقي الضوء على الرؤية الفكرية للمسرحية، وبقدر ما يساعد على تفسير أحداث النص وسلوكيات شخصياته أو يعين على فهمها، ويرتبط بها في عضوية ليخلق التلاؤم والترابط العضوي بين الماضي والحاضر، أو الواقع والحلم حيث يمتد خيط التاريخ ليصل الحاضر، وهو ما عجز عنه شوقي وأتباعه الذين لم يستطيعوا نفخ روح الحياة في تلك الوقائع التي استحضروها من التاريخ

القديم، وحالت قدراتهم الإبداعية دون تطويع تلك الرموز التاريخية، وجعلها تمس– بطريقة غير مباشرة – واقع الإنسان المعاصر.

ومما ميز هذه المسرحيات التي بنيت على وقائع تاريخية واصطحبتنا إلى الماضي البعيد، أنها لم تتركنا في سراديبه، وإنما تبعث في قلبه وجسمه دما جديدا يجعلنا نتنفس من رئته حرارة ما نؤمن به وما ندافع عنه، وذالك لأن شعراءها استطاعوا تحريك الحدث التاريخي وزحزحته وأخرجوه من إطاره الضيق وحملوه أبعادا جديدة هي رؤية الحاضر والتطلع إلى المستقبل.

ومن خلال العينات السابقة نلاحظ تناول المسرحية الشعرية لقضايا العصر ومشكلاته فاهتمت بقضايا السلطة والمعارضة والعدل والالتزام والحرية والواجب والهم الوطني والقومي، ووضع شعراؤها أنفسهم في قلب الحياة وانطلقــوا يعبرون عنها ســواء أكان ذالك التناول والطرح مباشــرا أو عبر أقنعة التاريخ ورموزه.

التقنيـــات المعتمـــدة:

ومن الأدوات الفنية التي يستعين بها المؤلف ليخلق الإيهـــام بـــالواقع والتخلص من الجو التاريخي، والربط بين الماضي والحاضر بإعطاء الحدث المنتخب دلالة معاصرة، التجريد والتعميم، فلا يســـمي جميـــع الشخصـــيات بأسمائها المعروفة، ولا يحدد أحداثة أو يحصرها في بيئة محددة ولا يربطها بزمن معين، وبهذا يمكن له أن يخرج من الجو التاريخي ويجعـــل الحـــدث صالحا لكل زمان ومكان، وهي التقنية التي اعتمدها صلاح عبد الصبور في أكثر من نص مسرحي، ففي (مأساة الحـــلاج) ســـاهمت طريقـــة انتخـــاب الشخصيات وتعميم الأمكنة والاتكاء على معيار المماثلة والإيحاء في جعـــل ذلك الماضي البعيد معادلا موضوعيا للحاضر القريب، حيث تصادف القارئ

في المنظر الثالث من المسرحية ثلاث شخصيات نكرة غير محددة، لا تحمل اسما بل صفات تتشكل من: فلاح، وواعظ، وتاجر، تتحاور فيما بينها حـــول مشروعية القانون الذي يفرض على صاحب كل بيت أن يدفع دينـــارا لبيـــت المال لكي يثبت حق الملكية، وهي أشبه ما تكون بالضريبة على العقار فـــي هذا العصر، ويسأل أحدهم صاحبه: هل وجهاء بغداد وأصحاب الأمر والنهي فيها يدفعون إلى بيت المال أيضا مثلنا، وتلك إحدى مشـــكلات العديـــد مـــن الأنظمة الاقتصادية في عالمنا العربي، حيث لا يدفع الكثيـــر من أصـــحاب الثروة ما تفرضه القوانيـــن أو يتحـــايلون عليهـــــا، فـــالفلاح والتاجـــــر والواعـــظ شخصيات نمطية وغير محددة وليس لها ما يربطها ببيئة معينـــة (مما يخرجها عن انتمائها للعصر العباسي لتصبح شخصيات عامة يمكـــن أن توجد في أي بيئة أو مجتمع تتماثل شخصياته بظروفها العامة معها) [32]

ومن مبدأ التماثل والنمطية قلنا – في الصفحات السابقة – أن يزيد في مسرحية (ثأر الله) للشرقاوي رمزا أو معادلا موضوعيا لكل سلطة غير شرعية، والحسين واتباعه رمز – هو الآخـــر– لكل حزب سياسي معارض يسعى وبوسائل سلمية إلى إسقاط مثل تلك الأنظمة التي تفتقد إلى الشرعية والتنكيل الذي لقيه الحسين وأتباعه صورة عن تعامل مثل تلك الأنظمة الاستبدادية مع المعارضة.

ومن الوسائل الفنية الأخرى التي يعتمدها الكاتب في الانتقال من التاريخ إلى الواقع والحد من تأثير الجو التاريخي وجعل المسرحية تحظى بالقبول عمومية القضية التي تعرض لها وطبيعتها والظروف التي قدّمت فيها، لأن العدل والحب والحرية والمساواة قضايا إنسانية عامة سواء بمنطق التاريخ أو بمنطق العصر، وتبعا لذلك فهي تمنح الكاتب مرونة أكثر فيما

يريده مباشرة أو يوحي إليه، فمثل هذه القضايا تلقى الاستجابة في كل عصر وفي كل مكان.

كما أن عدم تحديد المكان الذي تجري فيه الأحداث بدقة والاعتماد على مبدأ التجريد والتعميم، والاكتفاء بإطلاق كلمة قرية أو مدينة أو حي أو ساحة، وإنطاق الشخصيات بلغة ليست بالغريبة أو المهجورة، باعتبارها لغة الأمة وتراثها الوجداني في كل العصور لا لغة إقليم أو لهجة قطر أو منطقة، عامل آخر يسهم في تقريب الحدث التاريخي من الواقع ((وهذه الإطلاق سواء بواسطة الشخوص أو الكلمات أو حتى بالمشاعر الإنسانية يخرج العمل من دائرة ظروفه الخاصة بالنسبة لعصره أو شخصيته ليلحقه بالدائرة الإنسانية العامة وبذلك تبرز القيمة المستقلة للنص)) [33].

وإذا كان المشترك بين جميع شعراء المسرح العربي تلـــك العلاقـــة الحميمة التي ظلت تشدهم إلى التاريخ حيث استلهموا وقائعه وأحداثـــه، ولـــم يعرف الكثير من الشعراء مصدرا آخر غيره، إلا أنهم تفاوتوا فـــي الغايـــة من الاستحضار والتوظيف وتفاوتوا أيضا من حيث الإخفاق والنجاح، فهناك من أقبل عليه وهو يحمل هموم واقعه ومشكلات مجتمعـــه وأمكـــن لـــه أن يضيء ذلك العصر بواسطة الماضـــي، ففســـّر مشكلات الحاضـــر بمنطق الماضي، وتداخلت الأزمنة في عدد من النصوص لدرجة يصبح الحديث عن أحدهما حديثا عن الآخر، وتحول التاريخ إلى قناع شفاف أطل منـــه الكاتـــب على بعض أزمات العصر والمجتمع فانطلق من الماضي وتشـــبث بـــالتراث لمواجهة الحاضر، وهناك من كانت تلك غايتـــه ولكـــن قدراتـــه الإبداعيـــة والفكرية حالت دون أن تجعل ذلك الماضي حاضرا والتـــاريخ واقعـــا، فلـــم يستطع أن يمتد خيط الماضي ليصل الحاضر، وصنف ثالث من هؤلاء الذين

أغراهم المسرح الشعري، ظل مسرحهم بعيدا عن هموم الإنسان العربي ولم يستطع كتابه مبارحة كهوف التاريخ ومغاراته، فظلوا أسرى لوقائعه وأحداثه، وكأن الغاية من توظيف التاريخ تكمن في إعادة التسجيل الحرفي لتلك الوقائع دون موقف فكري وجمالي معاصر.

إن التطور الذي شهدته المسرحية الشعرية وما صاحبها من تنوع في التجارب وثراء في المناهج وتطور في الأدوات الفنية، لم يحل دون توظيف التاريخ الذي يبقى المصدر الأول للكتابة الإبداعية، وأقوى الأدلة على تجذر علاقته بالمسرح وإن شهد توظيفه تطورا من ملامحه أن الاهتمام لم يعد منصبا حول جزئيات الحادثة أو الشخصية التاريخية وتفصيلاتها، وتخلى الكتاب عن الغايات التعليمية والأهداف التربوية وتجاوزوا مرحلة تسجيل الأحداث وتوثيقها، وفقد التاريخ تلك القداسة التي ظل يتمتع بها لدى الجيل الأول من شعراء المسرح وكتاب الرواية، حيث أسقط عنها جيل المعاصرين صفة التبجيل وتعاملوا مع أحداثه من منطلقات فكرية وفنية، وفي سبيل ذلك تصرفوا في وقائعه بالحذف أو الإضافة والتحوير، وربما اقتصر هذا المسرحي أو ذاك على بعض جزئياتها أو مناخها العام، لأن المادة التاريخية في هذه الأعمال لا تعدو أن تكون وسيلة فنية أو قناعا لطرح المشكلات المعاصرة على المستويين الاجتماعي والسياسي بأسلوب فني غير مباشر.

المراجـــع و الإحـــالات:

(1) محمد فتوح أحمد، في المسرح المصري، مكتبة الشباب القاهرة 1985، ص157.

(2) خالد محي الدين البرادعي: كاتب سوري يكتب الشعر والنثر له العديد من المسرحيات الشعرية والنثرية منها: العرش والعذراء، المؤتمر الأخير لملوك الطوائف، دمر عاشـــقا، السلام يحاصر قرطاجنة، النبوءة، الزهرة والسيف، جزيرة الطيور، أبوحيان التوحيـــدي، الإمبراطور زمسكيس، الجراد. وله مصنفات أخرى في الشـــعر الغنـــائي والمســـرحية النثرية والكتابات النقدية.

(3) خليل الموسى، المسرحية في الأدب العربي، اتحاد الكتـــاب العـــرب دمشـــق 1997، ص84.

(4) أحمد شوقي، مسرحيات شوقي، ج1، موفم للنشر الجزائر1993، ص364.

(5) المصدر نفسه، ص 302.

(6) عزيز أباظة، الأعمال المسرحية الكاملة مج 2، الهيئة العامة القاهرة 1995، ص13.

(7) محمد مندور، مسرحيات عزيز أباظة، دار نهضة مصر القاهرة، ص29.

(8) عز الدين إسماعيل الأدب وفنونه، دار الفكر العربي القاهرة 1983، ص190.

(9) عزيز أباظة، الأعمال المسرحية الكاملة، المجلد الثاني.

(10) فـــاروق عبد القادر، ازدهار وسقوط المسرح المصري، دار الفكر القاهرة، ص137.

(11) محمود أمين العالم، الوجه والقناع في مسرحنا المعاصر، ص108.

(12) أثارت هذه المسرحية حفيظة شيوخ الأزهر، حين نشرت على شكل حلقات في مجلة روز اليوسف، حيث اعتبرها بعض الأزهريين ديوان هجاء وتطاول علـــى الشخصـــيات الإسلامية وإثارة للفتن والجراحات، وسعى إلى الحيلولة دون طبعها، وحين نشـــرت أول مرة أجبر الشرقاوي على وضع رأي الأزهر على غلافها.

للتوســـع راجـــع:

شوقي قاسم المسرح الإسلامي، ص354وما بعدها. وآخر ما طالعتنا به بعض الصـــحف عن هذا الصراع كان مع نوال السعداوي التي أصدرت نصا عنوانه الله يقدم استقالته.

(13) محمد فتوح أحمد، البطل في المسرح المصري، مخطوط رسالة ماجســـتير، المعهـــد العالي للفنون الدرامية، القاهرة، ص183.

[14] المرجع نفسه، ص184.

[15] عبد الرحمان الشرقاوي، الحسين ثائرا. شهيدا، ص13.

[16] المصدر نفسه، ص450.

[17] علي عشري زائد ،استدعاء الشخصية التراثية في الشعر العربي، ص259.

[18] حسن محسن، المؤثرات الغربية في المسرح المصري، ص 477.

[19] شاعر ومسرحي فلسطيني معاصر، يعد أفضل من مثـل المسـرح الشـعري فـي فلسطين، من مسرحياته: شمشون ودليلة، مأساة جيفارة، ثورة الزنج، العصـافير تبنـي أعشاشها بين الأصابع، الصخرة، محاكمة كليلة ودمنة. وله مجموعـة مـن الـدواوين الشعرية.

[20] علي الراعي، المسرح في الوطن العربي، ط1 المجلـس الأعلـى الكويـت 1980، ص246.

[21] معين بسيسو، الأعمال المسرحية، دار العودة، بيروت 1979، ص 139.

[22] المصدر نفسه، ص 146.

[23] المصدر نفسه، ص 173.

[24] صلاح عبد الصبور، الديوان، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، ص214.

[25] لما كانت هاتان الكلمتان هما محور هذا العمل وبعده الفكري، فإن الكاتب قسم المسرحية وخلافا للتقليد الفنية جزأين حمل الجزء عنوان الكلمة، وحمل الثاني عنوان الموت، في حين أن التقاليد تقسم المسرحية إلى فصول والفصل إلـى مشاهد أو مناظر وهو النظام الذي سار عليه في بقية مسر حباته.

[26] صـلاح عبد الصبور، حياتي فـي الشعـر، دار إقـرأ للنشـر بيـروت 1981، ص 166.

[27] سيد علي إسماعيل، أثر التراث في المسرح المصري، ص 214.

[28] صلاح عبد الصبور، الديوان، المجلد الأول، ص607.

[28] عبد القادر القط، من فنون الأدب (المسرحية) ، ص 52.

[30] سامية حبيب، دلالة المقاومة في مسرح عبد الرحمان الشرقاوي، ص29.

[31] سعد أبو الرضا، الكلمة والبناء الدرامي، ص 108.

[32] المرجع نفسه

أسلوبية الانحراف في شعر أمل دنقل

الدكتور: بلقاسم دكدوك
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي

الملخـــص:

يعد شعر (أمل دنقل) بيئة خصبة للدراسات الأسلوبية، لما يتميز به من كيفيات متنوعة في توظيف اللغة توظيفا خاصا، فقد كثرت في شعره طرق التعبير والتصوير، وتعددت ظواهره الأسلوبية وخصائصه اللغوية والجمالية، على مستوى تركيب النص أو تركيب الجملة، مما أضفى على شعره خصوصية معينة، ووهبه مذاقا مميزا. وقد حاولت في هذا المقال أن أحدد مفهوم الانحراف وتجلياته في شعر أمل دنقل عبر ظواهر تصويرية معينة، يعد الانحراف أساسها البنائي والفني، ومن ثم رصدت كيفيات توظيفه (الانحراف) جزئيا وكليا.

نـــص المقـــال:

يعد الانحراف الأسلوبي أحد الأسس اللافتة التي تقوم عليها العملية الشعرية بشكل عام، إذ إنه يشكل في النص منطقة براقة منبهة لوعي المتلقي ولزيادة حساسيته تجاهه، مما يسهم في عبوره النص عبورا جماليا موفقا.

ويأخذ الانحراف في البحث الأسلوبي دورا بارزا، إذ إن بعض النقاد قد عرف الأسلوب بأنه(انحراف)، على نحو ما نلحظ عند جان كوهن

– على سبيل المثال – إذ يقول: "الأسلوب كل ما ليس شائعا ولا عاديا ولا مطابقا للمعيار العام المألوف، ويبقى مع ذلك أن الأسلوب كما مورس في الأدب يحمل قيمة جمالية، إنه انزياح بالنسبة إلى معيار، أي أنه خطأ، ولكنه – كما يقول – برونو أيضا (خطأ مقصود). إن الانزياح إذن مفهوم واسع جدا يجب تخصيصه، وذلك بالتساؤل عن علة كون بعض أنواعه جماليا، والبعض الآخر ليس كذلك "[1].

فالانحراف شأنه شأن أية ظاهرة أسلوبية يجب أن يكون موظفا توظيفا قصديا، لا أن يرد في النص ورودا بريئا، نحو الأخطاء اللغوية المختلفة، فهذه الأخطاء مثلا، تشكل في جوهرها ضربا من الانحراف اللغوي، لكنها غير مقصودة، وغير موظفة توظيفا جماليا، وهذا ينأى بها عن دائرة البحث الأسلوبي. وقد يكون الانحراف انحرافا لغويا عاديا، غير الأخطاء اللغوية، لكنه غير مقصود أيضا، وغير موظف توظيفا جماليا مؤثرا في النص، أو غير منتج للخط الدلالي فيه، فهو عندئذ لا يكون ظاهرة أسلوبية أيضا، حتى لو كان هذا الانحراف ذا ألق فني وهاج في النص، وهو في هذه الحال أدعى أن يعد نوعا من التعالي اللغوي.

ولا يفهم الانحراف إلا في ضوء المعيار الذي يقاس عليه، فنحن لا نميز القصير إلا في طباقه مع الطويل، ولا الصغير إلا في طباقه مع الكبير، من هنا فإن الانحراف يرتبط ارتباطا وثيقا بقضية المعيار. ولعله من المفيد في هذا الصدد أن نقف على جملة من آراء النقاد حول هذه القضية.

يرى جان كوهن أن (لغة النثر العلمي الإخبارية) التي تشكل درجة صفر للشعرية تشكل معيار الانزياح الأساس الذي تبناه أغلب الاختصاصيين، فلغة النثر هي اللغة الشائعة، واللغة الشعرية هي انحراف عن هذه اللغة[2]. فالانحراف في مفهومه هو: كل عبارة تستخدم في غير موضعها، فعبارة

(السفن في البحر) هي عبارة عادية، أما عبارة (الحمائم تمشي على السطح الهادئ)، ويقصد بها السفن، فهذا هو الانحراف. وفي موضع آخر من كتابه (بنية اللغة الشعرية) يرى كوهن أن المعيار يرتبط (بالنحو والمنطق والعادة والمألوف).. فاللغة الشعرية هي انحراف عن قواعد قانون الكلام[3]، والمعيار في ضوء هذا المفهوم يرتبط بقضيتين؛ الأولى (الصحة النحوية)، فالتركيب المعياري يشترط أن يكون مطابقا لقضايا النحو و التركيب السليم بترتيبه المألوف، أما الخطاب الشعري فهو انحراف عن هذا المعيار، وهو خطاب ناقص النحوية، بالمقارنة مع النثر. أما القضية الأخرى، فهي: (الصحة المنطقية)، أي القبول المنطقي للتركيب، فمثلا جملة (الشجرة تهمس) مقبولة نحويا لكنها مرفوضة منطقيا، لأن فعل الهمس لا يتصاحب مع غير العاقل (الشجرة)، فهي صورة من صور الانحراف إذن.

وبذلك تصبح كل صورة، أو تركيب يخرج عن قواعد النحو أو المنطق أو العادة أو المأنوس عند الناس مظهرا من مظاهر الانحراف الأسلوبي. وهذا قد يوحي بإحساس جان كوهن بعدم القدرة على وضع معيار ثابت تقاس عليه الانحرافات. وقد تبنى عدد من الدارسين مفهوم كوهن للانحراف والمعيار[4].

وإذا كان كوهن، ومن حذا حدوه من النقاد، قد اتخذ من لغة النثر العلمي، وقواعد النحو والمنطق والإلف والعادة معيارا تقاس عليه الانحرافات، فإن ثمة فئة من النقاد قد شعرت بالصعوبة الحقيقية لتقنين مثل هذا المعيار، إذ نظرت هذه الفئة من النقاد للمعيار بوصفه (نموذجا افتراضيا وهميا) تحكمه النسبية والذاتية والحساسية الشخصية لكل ناقد تجاه النص.

فشكري عياد، مثلا، رأى أن ما يمكن أن يعده قارئ ما انحرافا ذا دلالة، قد لا يكون كذلك عند قارئ آخر، لأن منشأ هذا الانحراف عند هذا القارئ

يعود إلى تلقي النص بنوع من (القلق القرائي)، ذلك لأن جهازه اللغوي مطالب بأن يتكيف مع الشروط الخاصة بالنص،" والإحساس بهذا القلق واكتشاف أسبابه يعني اكتشاف التصور الكامن وراء القطعة. ومن ثم نقول: إن القراءة الأسلوبية ليست إلا تدريبا للقدرة الطبيعية على القراءة. وما نسميه اختيارات وانحرافات ليست إلا توضيحا لأسباب القلق التي يشعر بها القارئ حين يجابه بطريقة خاصة في استعمال اللغة"[5].

من هنا يرى عياد أنه لا يوجد قانون ثابت للانحراف؛ مما يبيح لكل شاعر، أو ناقد أن يضع، أو يفترض قانونه الخاص الذي لا يشترط فيه إلا أن يكون الكلام فيه قادرا على التوصيل. ولما كان علم الأسلوب، في مفهوم عياد يساوي علم الانحراف، والانحراف هو خروج على القانون، فإنه يخلص إلى نتيجة تفيد أن علم الأسلوب بشكل عام، لا ينطوي على أية قوانين، كما هو الشأن في العلوم الوصفية[6].

أما عبد السلام المسدي فيرى أن المشكلة، أو المآخذ التي وجهت إلى نظرية الانحراف، تكمن في صعوبة تحديد النمط المعياري في التعبير، لأن هذه مسألة نسبية تحكمها الثقافة، والذوق، والتجربة، والحساسية، والموقف[7]. وقد تبنى هذا الموقف أيضا رجاء عيد، الذي رأى أنه لا يمكن الوصـــول إلى معيـــار ثابت للانحراف حتى مع محاولة اللجـــوء إلى الإحصاءات، لتحديد متوسط إحصائي تقاس عليه الانحرافات، وذلك بسبب كثرة النصوص وتعدد منازعها وخصائصها[8].

وهكذا يمكن ملاحظة نوعين من الانحرافات؛ الأول: اتخذ معايير خارجة [9]، عن بنية النص في قياس الانحراف، يمكن حصرها فيما يلـــي:

1 – معيار لغة النثر العلمي الإبلاغية التي تشكل درجة صفر بالنسبة للشعرية.

2 – معيار القواعد اللغوية التي تحدد الاستعمال السليم للغة.

3 – معيار القواعد النحوية والصرفية والعروضية.

4 – معيار تكلف قواعد إضافية جديدة على هذه المعايير مثل التزام القافية في شعر التفعيلة، مثلا[10].

5 – معيار الإلف والعادة والاستعمال المشترك العام، أو النمط المأنوس عند الناس.

6 – معيار المنطق أو الدين.

أما النوع الآخر فقد اتخذ معياره انطلاقا من النص نفسه[11]، حيث تكون الانحرافات، هنا، داخلية تقاس بالنسبة إلى (البنية اللغوية السائدة) في النص، حيث تشكل هذه البنية (السياق الأسلوبي العام) للنص، ويتحقق الانحراف عندما يلجأ الشاعر للابتعاد – الانحراف – عن هذا السياق بدرجات، قد تزيد أو تقل: سموا أو هبوطا، سلبا، أو إيجابا، نحو ظهور عنصر غير منتظر في النص، فيشكل هذا العنصر خروجا مقصودا على (السياق الأسلوبي السائد) في النص، فيحقق هذا الخروج المفاجأ والدهشة للمتلقي، كأن يوجد – على سبيل المثال – نص تسوده البنية الحوارية ثم تكسر هذه البنية، فجأة، بظهور بنية سردية تؤدي غرضا جماليا ما في النص، أو نحو وجود في النص تسوده القافية، ثم يتحلل فجأة منها لغايات جمالية أيضا.

إذن فالناقد هو الذي يلحظ (البنية اللغوية السائدة) في النص، ثم يفترضها نموذجا معياريا تقاس عليه الانحرافات، وبذا تكون البنية اللغوية السائدة، أو السياق الأسلوبي العام للنص هو الثابت، وسائر المتغيرات الأخرى الموظفة توظيفا قصديا، هي انحرافات أسلوبية تشكل مناطق براقة

في النص، لا يستطيع المتلقي تجاوزها دون الوقوف عندها، وتأملها، وبذلك تتحقق الظاهرة الأسلوبية.

و هكذا يصبح لكل ناقد حرية الخيار، في أن يحدد معياره الداخلي في النص ويفترضه نموذجا معياريا، أو أن يحدده من خارج النص، من أحد المعايير الخارجية المشار إليها آنفا، ويجعله نموذجا معياريا تقاس عليه سائر المتغيرات الأسلوبية، أو الانحرافات الأسلوبية.

من هنا يتضح صعوبة وضع معيار قار لقياس الانحراف في كل النصوص، أو حتى في بعضها، ويظل لكل نص معياره الخاص، وتظل القضية نسبية، مرهونة بعملية التلقي وظروفها؛ إذ إنه لكل متلق أفق توقعه الخاص الذي يستغله في تحديد معياره الذاتي في قراءة الانحرافات، وقدرته على تمييز استعمال الشاعر للظاهرة اللغوية استعمالا أسلوبيا، أو استعماله لها استعمالا معياريا.

وفي ضوء هذه المفاهيم لثنائية الانحراف ــ المعيار تنطلق مقاربتنا لنصوص "أمل دنقل"، حيث يتم تحديد النمط المعياري في كل نص، أو موضع من الدراسة على حدة .

الانحـــراف في شعر أمل دنقل:

يلحظ المتأمل في شعر أمل دنقل كثرة الانحرافات وتنوعها، سواء الانحرافات الخارجية، أو الانحرافات الداخلية، وهذا ما حدا ببعض الدارسين إلى عد شعر" أمل دنقل" انحرافا بحد ذاته، وعد هذا الانحراف نوعا من الحداثة التي يتميز بها شعره. كما يلحظ في قول محمود أمين العالم:" وشعر أمل هو خروج كذلك عما هو سائد وثورة عليه، ولكن دون قطيعة مطلقة، مع إمكانية التواصل المباشر مع الناس وبهذا فهو يعبر عن تجديد وتحديث في الشعر" (12).

فالحداثة تكاد تكون مصطلحا يطلق على نوع معين " من الشعر بل التعبير عامة، يغلب عليه طابع المغايرة في الرؤية، والتعبير إلى حد ما يشبه القطيعة المطلقة لكل ما هو سائد"[13].

وستعنى هذه الدراسة، بالدرجة الأساس، بظاهرة الانحراف الأسلوبي، ودورها في توليد الظواهر التصويرية المختلفة. أما سائر أنواع الانحراف وأشكاله المختلفة، على مستوى الحياة، أو الفن، فهي مبثوثة في كل تضاعيف الدراسة وفصولها، مع العلم أن هناك أنواعا أخرى من الانحراف بأشكال مختلفة على مستوى الحياة أو الفن، ليس هذا مجال دراستها.

توظيف الانحـــراف في شعر أمل دنقل:

يلحظ المتأمل في شعر"أمل دنقل" نمطين مختلفين[14]، في توظيف الانحراف، الأول: التوظيف الجزئي، حيث يستخدم الشاعر في قصيدته بعض الانحرافات المتناثرة في تضاعيف القصيدة، فتشكل هذه الانحرافات خروجا على البنية السائدة، أو السياق الأسلوبي العام للقصيدة، أما النمط الآخر، فهو التوظيف الكلي، أو الشامل للانحراف، حيث تشكل بنية الانحراف السياق الأسلوبي العام للنص.

أ - التوظيف الجزئي للانحـــراف:

تفيض قصيدة (أشياء تحدث في الليل) بالانحرافات المترامية على جسدها، غير أن هذه الانحرافات موظفة توظيفا جزئيا، فليس من بينها بنية انحرافية تشكل الأس السائد في القصيدة، وإنما هي سلسلة متنائية و متفارقة تطال جزءا من السياق العام للقصيدة، في مواضع متعددة منه، على نحو ما نلحظ في المقطع التالي:

وكانت الأضواء تنطفي

و الطرقات تلبس الجوارب السوداء

وتغمر الظلال روح القاهرة
والدم كان ساخنا يلوث القضبان
هذا دم الشمس التي ستشرق، الشمس التي ستغرب
الشمس التي تأكلها الديدان(15)

في هذا المقطع من القصيدة يصور الشاعر أثر مقتل (صلاح حسين*)، كما تراءى على صفحة روحه، وفي مرآة نفسه، فهذه الطرقات تتشخص على هيئة امرأة تلبس الجوارب السوداء إيحاء بحالة الحزن والحداد التي سادت الوجود بعد عملية القتل، كما تتشخص القاهرة كائنا حيا له روح، قد تلبست هي الأخرى حالة الحزن والحداد.

وإذا كان المكان قد تفاعل مع الإنسان في مأساته فتخلص من حالة الجمود، وتلبس حالة الحيوية والحركة، فإن الإنسان (المقتول) أيضا المشار إليه بالدم يتشيأ من خلال الاستعارة التصريحية إلى حالة الجماد (الشمس)، ثم ما تلبث هذه الشمس أن تتحول من خلال التشخيص إلى كائن حي تأكله الديدان.

إن الانحراف متمثل بعنصري (التشخيص والتشييئ) يمثل (انتفاضة صياغية) تفرغ الدوال من مدلولاتها المعجمية، وتكسبها مدلولات طارئة؛ تستغور مطاوي شعور الشاعر العميقة تجاه مؤامرة قتل (صلاح حسين)، الذي قتل في سبيل الأرض والحق، فاتحد دمه مع الأرض وأخصبها مبشرا بولادة جديدة، في وحدة ذات طبيعة تراكبية توحد المكان بالإنسان، وتكشف عن نسق علائقي ديالكتيكي بينهما. غير أن الشاعر لم يستطع أن يجسد هذا الإحساس بهذه الوحدة الغريبة التي أخذت تمور في أعماقه في انتظام النسق المعياري للصياغة، فلجأ إلى هذه (الانتفاضة الصياغية) التي تفجؤ وعي المتلقي وتجذب انتباهه إلى تصادمات لغوية لم يألفها، فأصبحت الطرقات

تلبس جوارب سوداء، وأصبحت للقاهرة روح مغمورة بالأسى والحزن، وأصبح للشمس دم، وأصبحت الديدان تأكل هذه الشمس.

وهكذا فقد اكتسبت الدوال مدلولات جديدة طارئة عليها، وهذه المدلولات بدورها تمثل عائقا لغويا أمام عملية التوصيل المألوفة، مما يربك العلائق بين ما هو داخل اللغة، والمدلولات التي تشير إليها الدوال خارج اللغة. وكل هذا من شأنه أن يخلق حالة من القلق القرائي عند المتلقي تدفعه لاكتشاف أسباب هذا القلق، ومن ثم اكتشاف الرؤى والأحاسيس المقنعة من خلال هذا الاستخدام الخاص للغة.

ومن ذلك يمكن الخلوص بنتيجة مهمة تتلخص في كون الانحراف الأسلوبي يمثل حيلة لغوية مقصودة لجذب انتباه المتلقي نحو النص، وإيقاعه تحت سلطة تأثيره وسحره.

في قصيدة (كلمات سبارتكوس الأخيرة) نلحظ أن الشاعر يتخذ سبارتكوس الروماني قناعا يتخفى خلفه لتأسيس بنية الرفض والتغاير، وتحدي قوى الظلم والطغيان. والقناع بحد ذاته يمثل ضربا من ضروب الانحراف الأسلوبي، غير أن ما يعنينا هنا هو (الكيفية) التي يجري بها الخطاب الشعري على لسان الشخصية القناع/ سبارتكوس، إذ تسود النص البنية الإبلاغية على لسان سبارتكوس (SPARTACUS) لكننا ما نلبث بين الفينة والفينة أن نجد خروجا على هذه البنية، وعودة لاستخدام حيلة الانحراف الأسلوبي لتركيز انتباه المتلقي على منطقة براقة من النص تشكل كثافة شعورية ودلالية، يحرص الشاعر على إبرازها، نحو قوله:

---

* من أبطال مصر و شهدائها في حرب أكتوبر 1973.

– فلترفعوا عيونكم إلي:

لربما.. إذا التقت عيونكم بالموت في عيني

يبتسم الفناء داخلي.. لأنكم رفعتم رأسكم..مرة [16]

يحاول الشاعر في هذا المقطع تثوير الآخرين، وتخليصهم من حالة الخنوع، وطأطأة الرأس، عندما حثهم على القيام بالخطوة الأولى، المتمثلة في رفع رؤوسهم والنظر إليه، وهو معلق على المشنقة، إذ مجرد القيام بهذه الخطوة يخلق لديه مصوغ التآلف مع الفناء والموت الذي أحاق به.

من هنا فقد كسر الشاعر نظام البنية الإبلاغية السائدة في النص، باستخدام الاستعارة المكنية (يبتسم الفناء)، فخلق صورة مدهشة لا يمكن تخيلها إلا في حدود النص، حيث تشخص الفناء كائنا حيا مبتسما داخل الشاعر، فتعانق في إطار الصورة المجرد(الفناء) مع المادي/ الإنسان، وتفاعل الطرفان معا في حركة جدلية تخصب عنصر الصراع، والنفس الدرامي في النص، بسبب اتساع درجة الانزياح بين الطرفين وتباعدهما.

وهكذا فإن هذه (الصورة الانحرافية) تشكل منطقة براقة لعين المتلقي تحثه على استكناه التصور المتقنع في ثناياها، فهذه الصورة لا تقوم على شبه حسي يوحد بين المجرد والمادي، وإنما تعكس رؤية الشاعر الذاتية، عندما تتهيأ أسباب معينة تجعله يتآلف مع فنائه، ولا بد للمتلقي من قدرة تخييلية معينة لكشف الحيلة الانحرافية في النص، ومن ثم عبوره عبورا جماليا صحيحا. لأن الانحراف في النص يعمل باستمرار على تعطيل القدرة الإبلاغية العادية فيه، ويحيله إلى تصادمات لغوية، قد تبدو ناشزة، إذا قعدت قدرة المتلقي التخييلية عن تصورها واكتشاف التصورات المتكتمة في أغوارها.

ويعد الانحراف على المستوى الديني صورة لافتة من صور توظيف الانحراف بشكل جزئي في شعر أمل دنقل. وهذا المستوى من الانحراف يعتمد معيارا خارجيا لقياس الانحراف، إذ إن البنية اللغوية له صحيحة على المستوى النحوي والصرفي، ولكنها تشكل خروجا على المأثورات الدينية عند الناس. كما يلحظ مثلا في قصيدة (مقابلة خاصة مع ابن نوح) فهي لا تشكل خروجا على المستوى الديني فحسب، بل وتشكل تعديلا وتثويرا لطبيعته، حيث يظل ابن نوح فيها متمردا عصريا، خارجا من فكرة العقوق السلفي إلى الثورة "[17].

ولا يفهم من هذا أن أمل دنقل كان خارجا على الدين حقيقة ــ رغم كمون الوازع الديني لديه ــ وإنما كان يسعى إلى قلب المسلمات والتخلص من الانسياق الأعمى لمأثورات خرافية تسلم بصحة كل ما تمليه وسائل الإعلام من أخبار، تحجب الوجه الحقيقي للحالة العربية المتداعية. من هنا جاءت معظم (مفاهيمه الدينية) في سياق الرفض والثورة، والتحريض على خلع حالة الصمت والسلبية. فكان اختياره للانحرافات الدينية، بوصفها وسيلة لغوية تخلق الظواهر اللغوية البراقة في النص، وتخصب الإحساس باللغة بشكل جمالي مؤثر، ولجأ دنقل إلى مسلمات دينية لدى المتلقي، وحاول قلبها فنيا، لا واقعيا، بغية إحداث الدهشة والأثر الجمالي في المتلقي، عسى أن يدفعه هذا الأثر إلى اتخاذ خطوات سلوكية معينة على طريق الرفض والثورة والتحرير، كما يلحظ في المقطع التالي:

المجد للشيطان.. معبود الرياح
من قال (لا) في وجه من قالوا (نعم)
من علم الإنسان تمزيق العدم
من قال (لا) فلم يمت

فظل روحا أبدية الألم[18].

فالجملة الأولى تعمل على كسر بنية توقع القارئ، وتفجؤه بتركيب لغوي لم يألفه من قبل، إذ اعتاد القارئ على التركيب اللغوي (المجد لله ولرسوله) أو (المجد لله في الأعالي)، كما في التراث المسيحي، الذي يعد هنا معيارا خارجيا تنحرف العبارة عنه، غير أن هذه العبارة قد تبدو عبارة عادية، لا انحراف فيها لشخص غير ديني، من هنا تظل عملية قراءة الانحراف خاصة، والأسلوب عامة، مخاطرة ذاتية[19]، لأنها محكومة باعتبارات كثيرة، أهمها اعتبار النسبية والذاتية في تحديد المعيار، أو الأسلوب.

وقد يتلاشى الانحراف، أو تخف حدته، إذا علمنا أن مقصود الشاعر بالشيطان هو سبارتكوس، فيصبح التمجيد لهذه الشخصية، وليس لشخصية الشيطان المتمردة على الله، ومن ثم تعود العبارة إلى كينونتها المعيارية. ولكنها على كل الأحوال تظل بنية (تحفيز وتفريغ)[20] للمتلقي؛ تحفزه عند قراءته إياها وتشحنه بالتوتر، كما تظل حيلة لغوية جاذبة، تدعو المتلقي لاكتشاف التصور المتقنع خلفها، والمأخوذ بتأسيس بنية الرفض والثورة والتغيير، على غرار العبد الروماني سبارتكوس الذي رفض أوامر القيصر، وثار عليه.

ومن صور الانحراف التي تتكئ على معايير خارجية، وتظل عرضة لقراءتها قراءة معيارية قول الشاعر:

الناس سواسية ــ في الذل ــ كأسنان المشط [21]

فهذا الشطر الشعري لا يمكن قراءته قراءة انحرافية إلا في ضوء تمثل الحديث الشريف: (الناس سواسية كأسنان المشط). وكذا قول الشاعر:

مولاي، لا غالب إلا... النار[22]

فهذا الشطر الشعري أيضا يتمثل شعار الدولة العربية في الأندلس: (لا غالب إلا الله). وهكذا فإن المتلقي إذا لم يكن على اطلاع على مضمون الحديث الشريف، أو مضمون الشعار العربي في الأندلس، فإنه لن يميز القيمة الانحرافية في هذين المثالين، ولا سيما أنهما صحيحان من الناحية اللغوية والتركيبية.

من هنا يلحظ أن المعايير الخارجية في قراءة الانحراف، تظل عرضة لإلغاء واقعة الانحراف، وقراءتها قراءة معيارية عادية، بسبب اتساع مساحة الذاتية والنسبية فيها، بخلاف المعايير الداخلية التي تظل – إلى حد ما – تراهن على ملمح أسلوبي ما في النص، نحو سيادة نمط أسلوبي معين فيه ونمط آخر – أو أكثر – يشكل انحرافا عنه بشكل من الأشكال.

ب - التوظيف الكلـــي للانحراف:

وهذا الضرب من التوظيف لظاهرة الانحراف يمكن أن يتخذ صورا عديدة، فمن ذلك مثلا: أن الشاعر قد يلجأ إلى بناء قصيدته على مجموعة من الانحرافات الجزئية، بحيث تضحى بنية الانحراف هي البنية السائدة في القصيدة، فتشكل السياق الأسلوبي العام للقصيدة. كما نلحظ في قصيدة (العراف الأعمى) التي تعج بأشكال الانحرافات المؤسسة لعناقيد من الصور الجزئية التي تتشكل منها الصورة الكلية للقصيدة، في تجسيدها لرؤية الشاعر، كما في قوله:

قولي من أين ؟
الصمت شظايا
والكلمات بلا عينين !
. . . .

لملمني الليل . . وأدخلني السرداب
قدماي نسيتهما عند الأعتاب
ويداي تركتهما فوق الأبواب [23]

يلجأ الشاعر في هذه القصيدة إلى تمزيق نظام اللغة المأنوس، وتحطيم بنية توقع القارئ، من خلال ما يمارسه من (عنف) منظم ومقصود على تقاليد اللغة، وعادات استعمالها، فيفجؤ وعي المتلقي عندما يصب الدوال في نسق علائقي، يفرغها من مدلولاتها المعجمية، ويؤجل دلالاتها المتوقعة، فتتحول المدلولات بدورها إلى دوال حرة عائمة في أفق النص، دون أن تستطيع تقرير معنى بعينه، أو دلالة ما للنص، مما يحيل النص إلى كينونة إيحائية ظنية تتراءى خلالها ظلال معان، ولا ترى المعاني بعينها.

تتراءى أولى هذه الظلال من خلال الصمت المتكسر شظايا، والكلمات المشخصة إنسانا بلا عينين، ثم من خلال الاستعارة المكنية المركبة (لملمني الليل)، عندما يتشخص الليل كائنا حيا يشرع في لملمة الشاعر، والشاعر بدوره قد تشيأ كائنا جامدا مبعثرا في أرجاء المكان، من هنا فليس غريبا أن ينسى قدميه عند الأعتاب أويترك يديه فوق الأبواب... إنها صور جزئية تخييلية لا يمكن أن يتصورها العقل، إلا في ضوء طاقة تخييلية رحبة الأفق، فالشاعر قد قصد قصدا إلى إحداث هذه التصدعات بين الدوال ومدلولاتها، في محاولة منه لشحن لغته بطاقات إيحائية جديدة، من خلال هذا النسق العلاقي الجديد، الذي يلملم أوصال الصورة الكلية للقصيدة، ويوحي برؤية الشاعر للمواطن العربي.

والقصيدة حافلة بمثل هذه الخروقات اللغوية المقصودة، مثل قول (ويذوي من شفته القول) فالفعل (يذوي) لا يتصاحب- منطقيا - مع (القول). وقولـــه:

أي وجوه تتدلى منها بسمات الزيف
ضائعة المعنى، متآكلة الأنف[24]

فالفعل (تتدلى) لا يتصاحب مع (بسمات الزيف) لأن البسمات مجرد، والفعل (تتدلى) يسند عادة إلى محسوس لا إلى مجرد.

ويستمر الشاعر على هذا النهج في ممارسة تحطيم قواعد اللغة، أو المنطق والمألوف في لغة النثر العلمي الإبلاغية، حتى نهاية القصيدة حيث يتخلص من بنية الانحراف السائدة في القصيدة، وتهبط لغته إلى لغة التقرير والتصريح، فيميط اللثام عن مغزى القصيدة، ويكشف دلالاتها ــ ولعل هذه سمة لافتة في كثير من قصائده ــ كما في قوله:

وأخيرا عدت
أحمل في صدري صمت الطاعة
وبلا . . ساعة
ما جدوى الساعة في قوم فقدوا الوقت
. . . . . .
وضجيج الناس
أغنية . . كغطيط نعاس:
لم نولد لنهز الدنيا
لم نخلق لنخوض معارك
نحن ولدنا
للإلهام
للأحلام
للصلوات [25]

وهكذا فقد سادت بنية الانحراف أغلب أسطر القصيدة، فعطلت عملية التوصيل العادية، وحولت الدوال إلى علامات مؤشرة على كينونة غياب؛ يجهد المتلقي مخيلته في استدعائها، غير أن الشاعر ما إن شارف على نهاية قصيدته حتى سجل (انحرافا على انحراف) عندما خرج على بنية الانحراف السائدة، والتزم بنية اللغة الإخبارية المباشرة – كما رأينا فـــي المقطع السابـــق – . وفي قصيدة (أيلول) نلحظ نمطا آخر في بناء القصيدة على بنية انحرافية شاملة، إذ تتكرر بنية انحرافية واحدة في كل القصيدة، فتشكل فيها العصب الدلالي والإيحائي الذي يغذي كل مفاصلها وشرايينها،وتتمثل هذه الوحدة الانحرافية في الدال (أيلول)، حيث يلجأ الشاعر إلى إفراغه من دلالته المعجمية المألوفة، بوصفه أحد أشهر السنة، ويكسبه دلالة طارئة يتحول بموجبها إلى شخص كان شاهدا مهما على هزيمة العرب، وضعف إرادتهم السياسية، وعجزهم عن مواجهة العدو، بل و أنكى من ذلك ما يمارسونه من قمع، وتجبر ضد شعوبهم؛ خشية كشف عجزهم عن حماية شعوبهم، وأرضهم، وأوطانهم. من هنا يتشخص أيلول رجلا عربيا محكوما عليه بالإعدام ، كي لا يتحدث، و يكشف المسكوت عنه، لذا يكمم، وتفقأ عيناه، وتسرق أشياؤه البسيطة، ويحشر في أروقة الأشباح، وذلك إيحاء بقسوة السلطة العربية، غير أن هذا الشاهد (أيلول) قبل أن يعدم يقف مبشرا بنبوءته الدموية، إذا لم يتنبه العرب على الخطر، ويتحللوا من صمتهم وسلبيتهم:

أيلول الباكي في هذا العام — ها نحن يا أيلول
يخلع عنه في السجن قلنسوة الإعدام — لم ندرك الطعنة
يمشي في الأسواق: يبشر بنبوءته الدموية — فحلت اللعنة

ليلة أن وقف على درجات القصر الحجرية في جيلنا المخبول
ليقول لنا: إن سليمان الجالس منكفئا . . . . . .
فوق عصاه قد حلت اللعنة
قد مات، ولكنا نحسبه يغفو حين نراه في جيلنا المخبول
أواه فنحن يا أيلول
قال. . .فكمناه، فقأنا عينيه الذاهلتين لم ندرك الطعنة
وسرقنا من قدميه الخفين الذهبيين
وحشرناه في أروقة الأشباح المزدحمة[26]

ويتوالى تردد البنية الانحرافية نفسها في كل مقاطع القصيدة وتضاعيفها، بحيث تصبح البنية السائدة الوحيدة فيها، وتتكشف ملامح شخصية الشاهد (أيلول)، ومأساته أكثر فأكثر في تطوافه في البلاد العربية، حيث يواجه المصير نفسه: الإعدام والتعذيب:

لو زرت دمشق
لوقفت على أبواب (المزة) ولتابعت
الطرق
ودلفت إلى غرفات التعذيب
(صوت)
ورأيتك تضحك يا أيلول وأنت على
الأخشاب تدق
فلقد أبصرتك في آخر ليلة
مصلوبا تتأرجح في باب زويلة [27]

وهكذا يتحول (أيلول) إلى رجل شاهد على هزيمة العرب، لذا يحكم عليه بالإعدام والتعذيب في كل البلاد العربية، ولعل أحداث أيلول سنة 1970 مثلت القادح الذي بزغت منه فكرة القصيدة، غير أن الشاعر قد طور هذه الفكرة وأعطاها أبعادا شمولية لتكون قادرة على الإيحاء بمجمل الحالة العربية بشكل عام. فمشكلة الشاعر – أي شاعر – تكمن في مدى قدرته على (الحدس والإسقاط): الحدس بجوهر الفكرة، ثم إسقاطها في قالب لغوي قادر على الإيحاء بها، وتجسيدها. و الانحراف اللغوي ما هو إلا صورة تكشف عن محاولة الشاعر لاختيار أداته اللغوية، ثم (كيفية) استعمالها بما يفجؤ المتلقي، ويجذب انتباهه، ويجسد رؤية الشاعر الخاصة لواقعه من خلال هذه الكيفية الخاصة في استعمال اللغة.

من هنا فإن قيمة مفهوم الانحراف تكمن " في أنه يرمز إلى صـــراع قار بين اللغة والإنسان: هو أبدا عاجز عن أن يلم بكل طرائقها ومجمـــوع نواميسها... وهي كذلك عاجزة عن أن تستجيب لكل حاجاته فـــي نقل ما يريد نقله، وإبراز كوامنه من القول إلى الفعل. وأزمات الحيوان الناطق مع أداة نقطة أزلية، صور ملحمتها الشعـــراء والأدبـــاء مذ كانوا، وما الانزياح عندئذ سوى احتيال الإنسان على اللغة، وعلى نفسه، لسد قصوره وقصورها معا " [28].

و لعل شاعرنا قد وجد ضالته المنشودة في الصورة الانحرافية الجديدة التي استخلصها لأيلول، وجعله شخصا شاهدا على مجمل الحالة العربية، وذلك عندما رأى في أحداث أيلول سنة 1970 صورة مصغرة عن الحالة العربية، ثم طورها بوصف أيلول حالة عامة تعيشها الأمة العربية.

وفي قصيدة (زهور) يلحظ نمط آخر في توظيف الانحراف بشكل كلي، غير أن الشاعر يبدأ من (الدرجة الصفر) للدال البؤري في القصيدة، وهو (الزهور) في دلالتها المعيارية، أي الطبيعة الخالصة للزهور:

وسلال من الورد
ألمحها بين إغفاءة وإفاقة
وعلى كل باقة
اسم حاملها في بطاقة [29]

فالقصيدة في هذا المقطع تلبي توقع القارئ تماما، و يتطابق الدال مع مدلوله تماما، حيث يتلبس الدال البؤري (الزهور) حالته المعيارية التي ستشهد تدرج فاعلية حالة الانحراف التي ستعتريها خلال نموها وتطورها، فالورود هنا تتراءى في حالتها الطبيعية الخالصة، فثمة سلال من الورود على مقربة من الشاعر الراقد في (معهد الأورام) بالقاهرة، وعلى كل باقة منها اسم حاملها.

وفي المقطع التالي من القصيدة يراوح الشاعر بين الحالة المعيارية للزهور والحالة الانحرافية، حيث يشرع في تخريب الدلالات الطبيعية للزهور، فيخرجها عن نمطها المألوف بتشخيصها وأنسنتها، فتتقمص بعض الملامح الإنسانية، وتشرع في مخاطبة الشاعر، وتحدثه عن رحلتها من البستان إلى المستشفى، معربة عن دهشتها لحظة إعدامها في الخميلة:

تتحدث لي الزهرات الجميلة
أن أعينها اتسعت دهشة –
لحظة القطف
لحظة القصف
لحظة إعدامها في الخميلة

تتحدث لي
أنها سقطت من على عرشها في البساتين [30]

وعلى الرغم أن هذه الزهور قد تقمصت بعض الملامح الإنسانية إلا أنها ظلت في الوقت نفسه تحتفظ ببعض ملامحها الطبيعية/ المعيارية، فترافقت مع بعض دوال هذه الحالة نحو (القطف، عرشها في البساتين، عرضها في زجاج الدكاكين، أو بين أيدي المناديل، اشترتها اليد المتفضلة العابرة. .). فالشاعر يقدم صورة فريدة للزهور، وهي تتخلق في نفسه، وتتصير كائنا بشريا لحظة بلحظة.. إنه يرصد عملية التخلق والنشوء لهذه الزهور من حالتها الطبيعية الخالصة إلى امتزاجها وتداخلها بالحالة الإنسانية، حيث تتداخل صفات الطبيعة والإنسان وتمتزج، ثم يرصد تشكلها التام على هيئة إنسان مكتمل الخلق والتكوين، في المقطع الأخير من القصيدة:

تتحدث لي
كيف جاءت إلي
(وأحزانها الملكية ترفع أعناقها الخضر)
كي تتمنى لي العمر
وهي تجود بأنفاسها الآخرة
كل باقة بين إغماءة وإفاقة
تتنفس مثلي ــ بالكاد ــ ثانية. .ثانية
وعلى صدرها حملت ــ راضية
اسم قاتلها في بطاقة [31]

ففي هذا المقطع يصل الانحراف ذروته، حيث تتخلص الزهور من حالتها الطبيعية الخالصة وتتحول إلى كائنات بشرية مكتملة الخلق والتكوين، تعاني حالة الموت والاختناق التي يعانيها الشاعر نفسه.

إن إحساس الشاعر العميق بالموت القادم إليه جعله يرى حالة الموت هذه في كل ما حوله؛ فرآها في هذه الزهور[32] التي امتزجت حالها بحاله، وتوحدت معه تحت سلطة الموت الذي لا يفرق بين كائن إنساني، وكائن طبيعي، فانهارت الحدود بين عالم الطبيعة وعالم الإنسان، ولما كان هذا هو إحساس الشاعر بالواقع من حوله، فقد كان من الطبيعي أن ينتقل هذا الإحساس إلى اللغة المجسدة له، فكان تدرج الشاعر من المعيار إلى الانحراف تصويرا حيا، وموحيا بواقع هذا الإحساس الذي يضج في أعماق الشاعر. فوهج التجربة المعيشة يخلق دائما وهج التجربة الفنية. وما الانحرافات اللغوية إلا صورة دافقة بالألق الفني المجسد لهذه التجربة تجسيدا جماليا مؤثرا.

وهكذا فإن الانحراف الأسلوبي يشكل أحد أهم الظواهر اللغوية اللافتة في النص، التي تنطوي على بؤر إيحائية وجمالية عالية القيمة في القصيدة، تظل تتوقع توقعات القارئ، وتحثه على كشف السر المسكوت عنه في القصيدة، فالانحراف حيلة لغوية مقصودة لجذب انتباه المتلقي[33]، وزيادة حساسيته تجاه النص. ومن جانب آخر تسهم ظاهرة الانحراف في بنية القصيدة ونموها وتطورها، ولا سيما عندما يلجأ الشاعر لتوظيفه توظيفا كليا متناميا، كما لحظ في قصيدة (زهور). وأخيرا فإن الانحراف يسهم في ترجمة انفعالات الشاعر، واستغوار خبايا نفسه، وما ينطوي عليه عالمه الداخلي من مشاعر وأحاسيس غامضة ومتداخلة، تتطلب لغة خاصة في تجسيدها.. لغة تكسر مواضعات العادة والإلف و العقل والانتظام، حتى إنها قد تكسر قوانين اللغة نفسها وعلائقها المأنوسة لتحيلها إلى لغة انحرافية، تحبط توقعات القارئ، لكنها تحفز مخيلته وتوقظ وعيه.

الـــهـــوامـــش

* أمل دنقل: محمد أمل فهيم محارب دنقل (1940- 1983)، شاعر مصري عمل في عدة وظائف، فقد اشتغل موظفا بمنظمة التضامن الأفروأسياوية، إلا أن همه الوحيد، وطموحه الأكبر، أن يعيش بين نثر الحياة، وتوتر الشعر.

للشاعر ستة دواوين شعرية (مقتل القمر 1965)، (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة 1969)، (تعليق علـــى ما حدث1971)، (العهـــد الآتـــي 1975)، (أقوال جديدة عن حرب البسوس1983)، (أوراق الغرفة 8-1983).

والمتأمل في حياة الشاعر، يدرك أن الظروف التي فرضت عليه توجها نحو ثقافة تراثية، هي نفسها التي دفعته للبحث عن ثقافة خاصة، وشخصية متميزة، فريدة وغريبة منذ الصغر.

(1) بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن، تر: محمد الوالي ومحمد العمري، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص15.

(2) ينظر بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن: 15ــ 16.

(3) ينظر المرجع السابق: 105ــ 108.

(4) ينظر: مجلة فصول، م5، ع1، 1984 الأسلوبية الحديثة/محمود عياد: 126.

(5) مدخل إلى علم الأسلوب/شكري عياد، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ط1، ص: 46.

(6) ينظر المرجع السابق: 37.

(7) ينظر: الأسلوبية والأسلوب/ عبد السلام المسدي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط4، ص: 104.

(8) ينظر: البحث الأسلوبي(معاصرة وتراث)،/ رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، 199، ص: 184.

(9) نظرية اللغة الأدبية/ خوسيه ايفانكوس، تر: حامد أبو أحمد،مكتبة غريب، القاهرة، 1992 ص: 34 ــ 35 .

(10) علم اللغة والدراسات الأدبية/ برند شبلنر، تر:محمد جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، ص: 62.

(11) ينظر: نظرية اللغة الأدبية/ خوسيه ايفانكوس: 36 ــ 37
(12) مجلة الشعر، ع59، يوليو، 1990، القاهرة (أمل دنقل وثلاثة اتجاهات نقدية/ محمود العالم) ص:28.
(13) المرجع السابق: 28.
(14) ينظر حول هذه الفكرة: علم اللغة والدراسات الأدبية/ برند شبلنر: 62.
(15) الديـــوان (الأعمال الشعرية الكاملة لأمل دنقل)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3،1987 ص: 169.
(16) (نفسه): 111.
(17) الجنوبي/ تحرير عبلة الرويني، منشورات مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، د.ت، ص:81.
(18) الديوان (الأعمال الشعرية الكاملة) لأمل دنقل، ص: 110.
(19) ينظر، علم اللغة والدراسات الأدبية/ برند شبلنر:113.
(20) للاتساع حول هذا المصطلح أنظر: بنية القصيدة القصيرة في شعر أدونيس/ علي الشرع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط،198، ص: 58.
(21) الديوان: 317.
(22) الديوان: 316.
(23) الديوان: 432.
(24) الديوان: 433.
(25) الديوان: 434 – 435.
(26) الديوان: 127.
(27) الديوان: 129.
(28) الأسلوبية والأسلوب/ عبد السلام المسدي: 106.
(29) الديوان: 370، أنظر تحليل هذه القصيدة في كتاب سفر أمل دنقل، تحرير عبلة الرويني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 1،1999، ص: 540 ــ 544.
(30) الديوان: 371.
(31) الديوان: 371.

(32) ينظر: اللغة والإبداع، مبادئ علم الأسلوب العربي، شكري عياد،(د.م)، ط، 1988، ص: 79.

(33) ينظر بعض الاعتراضات على أسلوبية الانحراف في:

ـــــ علم اللغة والدراسات الأدبية/ برندشبلنر: 72 ــ 74.

ـــــ البحث الأسلوبي/ رجاء عيد: 150، 184ــ 185.

المنهج الغربـــي والنص العربـــي

البنيوية نموذجا

الأستاذ: ميلود قيدوم
قسم اللغة و الأدب العربي
جامعة 8 ماي 1945- قالمة

الملخـــص:

إن قراءة النص العربي في ظل المناهج الحديثة قراءة تستقطب جملـــة من المعطيات التي تخلق لحظات توتر و انزياحات، وبما أن المناهج الغربية – أصلا- تستقي رؤيتها و بعدها من بيئة لها جملة من المواصفات الثقافيـــة التي تشكل صورتها الطبيعية، فإن الفكر العربي الذي يستقي رؤيته من بيئـــة طبيعية أخرى لا تستمد منها المناهج رؤيتها، لذا نجد في اعتماد هذه المناهج ما يجعل القراءة للنص بعيدة عن المعنى العام و الخاص، ومـــن ثـــم تقحـــم تأويلات أخرى غير متجانسة و طبيعة المقصود .

من هنا كانت نظرة البحث في الكيفية التي ينبغي أن يقـــرأ بهـــا الـــنص العربي، و الوسائل المعتمدة للولوج إلى بعده و معناه. لقد حاولت اســـتقطاب المنهج الأساس الذي تتولد عنه القراءة الصحيحة و المقبولة، والذي أتوســـم فيه الكينونة و الأنا بعيدا عن الآخر. لأن النص في الأخيـــر هـــو الإنســـان بطبيعته و موروثه.

مدخـــــل:

حين نلتفت إلى الأدب بصورة عامة وإلى الأدب العربي بصورة خاصة نجد أمامنا إشكالية في الطرح غامضة، إن صح القول إذ لابد والحال هكذا أن نبحث عن مبررات وجود النص الأدبي فلا يعقل أن يكون حضوره لمجرد التسلية وعليه فلابد من البحث عن مبررات بقائه في ظل النظريات الأدبية "النقديـــة" والحقيقة التي لا نختلف من حولها. جميعا تتمثل في صعوبة الإدراك والإلمام بالمناهج المتعددة، والتي صال أصحابها وجالوا في ميادين النصوص – طبعا الغربية– طويلا وعمدوا إلى كشف أبعادها الجمالية والواقعية والخيالية، ووجدنا أنفسنا أمام هذا الزخم من النظريات عاطلين أحيانا عن المواكبة أو مترجمين لبعضها، أو منخرطين في ظل ما اقتنعنا به، لكن والحال هكذا نرى أن الأدب عندنا استمر في التدفق ومواكبة الحياة بصنوفها، وهي كثيرة، إذ النظريات الغربية في النقد الأدبي الحديث تعددت ومحاولة هضمها تنوعت واعتقد أن الأمور الأدبية تعقدت – إن بعلم أو بغيره– كون أصحابها يعمدون إلى المواكبة سواء كانوا عارفين أو بهدف الحضور والتمثيل غير الواعي في الغالب الأعم.

ولقد حاول نقادنا كما أسلفت الولوج إلى عوالم المناهج النقدية وتقريبها من المبدعين حتى يتسنى لهؤلاء، وهم كثر، النيل منها والإفادة بالتحصيل الجاد، ولكن التحصيل كان ضعيفا، وكان الإقبال هزيلا، والنصوص لم ترتق إلى المطلوب وقد يقول قائل لمَ لمْ يتسن لهؤلاء استيعاب المناهج والعمل في ضوئها بغية مواكبة الأزمنة الأدبية فإننا نجيبه وبإيجاز أن الفكر العربي يظل فكرا عربيا له رؤاه وأبعاده وظلاله فلابد له من رؤية محلية ونقد من صميم تربته يحيله إلى حقيقة أوضاعه وينسجم معه في بعثه وتطلعاته ومن ثم يتواكبان، ويقتنع الطرفان بضرورة التكامل بينهما،

وعليه فإني أطرح السؤال الآتي، لماذا المناهج الغربية وليس العربية هي التي تطبق؟. والحقيقة التي لا مفر منها تتمثل في قصور العقل العربي عن إيجاد مناهج عربية صرفة تنسحب على النص الأدبي النابع من صميم الحياة العربية التي مؤداها طبيعة وثقافة خاصتان.

ومن هنا أجدني أميل إلى الحديث عن المناهج الغربية وضروبها وطبيعة شؤونها وعلاقتها بالنص الأدبي بصورة عامة.

إن النظريات الغربية في النقد الأدبي الحديث تحمل من الخطورة الكثير لاسيما البنيوية التي لم ينتبه إليها الكثير من النقاد العرب يقول الدكتور "يوسف نور عوض" في كتابه نظرية النقد الأدبي الحديث[1] وهو يعرف نظرية النقد الغربي بصورة عامة " إن نظرية النقد في حقيقتها علم غربي خالص يثير كثيرا من الحساسيات في عالمنا العربي" ومنه نجد أنفسنا أمام واقع نقدي ليس مرتبطا كثيرا بواقعنا فهو غريب عنا. وما النقد الذي نحن بصدد الحديث عنه في عالمنا العربي إلا نقد – في حقيقة الأمر– غربي، وما النقاد العرب الذين نعتز بتوجيهاتهم وآرائهم إلا نقاد غرب في بلاد عربية، فمعظمهم انطلق في واقع الأمر من نظريات وتصورات غربية خالصة: " وإذا كان ذلك لا يحرمهم من مكانتهم كنقاد وتطبيقه فإنه ولا شك يثير كثيرا من التساؤلات حول أحقيتهم في أن يكونوا نقادا منظرين"[2].

ولذا كان لزاما علينا ونحن نعود بآرائنا عليهم وكذا تطلعاتنا فإننا في حقيقة الأمر نعود إلى النظريات الغربية نطبقها على أعمال لا صلة لها بالنقد العربي، ولنا أن نعجب أو نتعجب من حالنا هذه فهل يصدق رأي الغرب علينا أم أننا سنظل نتباهى بأننا استوعبنا الفكر الغربي وقدرنا علـــى التّمثل به، بغية القول إن الأمر ملك لنا وأننا أقدر، وأقول ليس من باب الرفض إن العملية ضرورية إلى حد ما لكن ليس دائما.

وإذ أذهب هذا المذهب، فإن ثمة من انتبه لهذا من قبل وأدرك أنه لابدّ من مواجهة الحقيقة واستخلاص العبرة، وذلك بمحاولة استحضار آراء نقدية عربية لأن النقد الغربي خطر فعلا على النص الأدبي العربي حينما يطبق عليه، يقول "عبد القادر القط "، وهو من النقاد الكبار الذين وصل صيتهم أبعاد عالمنا العربي:" إن النقد في أيامنا هذه مصاب بداء تأثر النقاد ببعض نظريات النقد الغربي ومناهجه في التطبيق وانتهى الأمر بهؤلاء إلى الاندماج الكامل مع الغرب في المنهج والأسلوب" وتجاهل هؤلاء النقاد الفروق بين النصوص العربية التي يتجه إليها النقد بالتحليل والتأويل وأصبحت عطاءات أصحاب النظرية الواحدة كالبنيوية والأسلوبية نمطا مكررا لا تكاد تميز ما بينها على مستوى الأسلوب، والمصطلحات وفقد الناقد شخصيته التي لا ينبغي أن تغيب عن العمل النقدي فالنقد مهما خضع لمناهج النقد العلمي، لابد أن ينطوي على شيء من طبيعة الإبداع والتفرد"[3].

وحين نرقب عمل النقاد بشكل علني نرى أنهم يقبلون بصورة تلقائية على الأعمال الأدبية تنقيبا وتمحيصا مجهدين أنفسهم في البحث عن رموزه ودلائله، قاصدين بذلك الوصول إلى المعنى العمود المعلم علما أنهم يتعاملون مع نص أدبي ذي أبعاد جمالية وفنية تشتمل على رؤى الحياة وقضاياها وما يتداخل فيها من متناقضات فهي هموم وآلام وأفراح (أي هي دهشة ومتعة ولذة) وعليه. فالإقبال على المناهج بقصد الاستعانة بها على تطويق هذه الصور قد يفقد جميع الأبعاد المرصودة التي تحتكم إلى خيط رفيع واه ولكنه حتمي. ولكي نتجنب الرغبة الجامحة التي تحيلنا على البحث عن المعلم وجب علينا الاطلاع على هذه النظريات النقدية الغربية بطبيعة الحال ومعرفة المصطلحات لاسيما المعاصرة منها كون الحياة لا تتوقف

عندهم أبدا (الفكرة أعني) وحين يتم الإلمام بها يعمدون إلى تمثلها في قراءتهم من منطلق عربي واضح، لأن الارتباط بها كنموذج قائم، لا محيص عنه، مفاده الوقوع في القراءة الضدية المجانفة للصواب إذ هم أمام نص إبداعي عربي منطلق من بيئة وفكر عربي، لا يمكن قراءته إلا من خلال التوجه العربي أي حضور النقد العربي المتشبع بالمنهج الغربي "عليهم أن يفعلوا قراءة للنص – لا أن يستعيدوا فكرهم لتلك النظريات أو يعدلوا منها بما يناسب طبيعة النص العربي وقدرة قراءته ولعلهم إذ يفعلون ينتهون هم أنفسهم إلى ابتداع نظريات جديدة وأسلوب جديد خاص بهم في التطبيق[4].

هذا ما يتطلبه العمل النقدي العربي بعيدا عن كل الخلفيات التي قد تحيلنا إلى الوقوف جامدين أمام ما يأتينا من الغرب لأن الثقافة ملك للإنسان وعلى الإنسان أن يطورها وفق أوضاعه ولا يسكبها سكبا في قوالب غير قوالبها، ونصوصنا الأدبية لها ابتداء ولها رؤى وابتغاء.

وبما أننا قد تطرقنا للحديث عن البنيوية، فلا بأس من العودة إليها على أساس أنها من المناهج ذات الصيت العريض والخطورة الكبيرة على القراءات النقدية وإن كانت من منظور حداثي لم تعد تلك النظرية ذات التأثير الكبير. إذ انسحبت إلى حدّ ما من الساحة الأدبية تاركة المجال لمناهج حديثة وهذا لا يعني موتها لأننا نرى كثيرا من المهتمين بالنقد لاسيما العالم العربي مازالوا متمسكين بها، ولا يرغبون عنها إذ ملأت عليهم الدنيا وغدت شغلهم فراحوا يطبقونها إن بوعي أو بغير وعي على كثير من الأعمال ظانين بأنها من النقد البنيوي وما هي كذلك.

ووجب علينا قبل كل شيء تعريف البنيوية فما هي البنيوية إذا؟

يعرفها أحد دعاة البنيوية في العالم العربي وهو د. صلاح فضل في كتابه نظرية البنائية بأنها حفنة من المبادئ اللغوية الأولية كرس لها حياته القصيرة عالم سويسري وهو فرديناندي دي سوسير 1857-1913 حيث لم يمهله القدر لإنهائها وتسجيلها كتابة وإنما لم يزد على إملائها في عدة برامج دراسية على طلابه في جنيف وهي تمثل حجر الزاوية ونقطة الانطلاق في النظرية البنائية لا في عالم اللغة فحسب وإنما في جميع ميادين الدراسات الإنسانية[5].

والحديث عن البنيوية لا يثنينا عن الاعتراف بأنها متداخلة متباعدة فثمة عدة بنيويات وذلك لأنها متشبعة تفاوتت في أبعادها وكما جاء على لسان جان بياجيه: "ارتدت أشكالا كثيرة التنوع لا تسمح بتقديم قاسم مشترك وأن البنيات المعروفة اكتسبت معاني تزداد اختلافا "[6]

والباحث يجد أمامه جملة من البنيات مثل البنيوية الرياضية والمنطقية والفزيائية والبيولوجية والنفسية واللغوية وأخرى نراها في الدراسات الاجتماعية والفلسفية وهذه تقريبا تعرض لها "جان بياجيه" بالتحليل والدراسة.

وليس الأمر توقف عند دراسة جان بياجيه الذي أكد بأن "سوسيـــر" استوحى من العلم الاقتصادي نظرية عن التوازن المتزامن "[7] وهو ما يفهم منه أن التأثيرات المكونة التي استطاعت أن تتدخل عن أوائل البنيوية اللغوية والسيكولوجية كانت ذات طبيعة رياضية.

وكثير من العلماء لم يخرجوا عن الإطار الذي أشرنا إليه وهو الطبيعة العلمية فيلغي "ستراوش" وهو أستاذ علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، إذ استنتج نماذجه البنيوية من الجبر العام مباشرة وإن الكثير من الدراسين لدوسوسير يرون أن سوسير كعالم في البنيوية لم يستخدم كلمة

البنية في بحوثه على الإطلاق وإنما كان يتحدث عن النظام والهيكل والعلاقات مما اعتبر إرهاصا وتمهيدا لمفهومها في نظره.

إن ظهور البنيوية في حد ذاته اعتبر حركة أدبية مهمة في فترة السبعينات والتسعينات من القرن الماضي وكان من رواده والداعين إليها بامتياز "جي جريماس"، امبر تواكو ونزفتان تودوروف ورولان بارت، وجيرارد جانيت وغيرهم(9).

ومع هذا فإن أصل البنيوية رغم هؤلاء الدعاة إليها راجع إلى العلمية الروسية وكذلك إلى الشكلانية الروسية وهذا ما ذهب إليه "د عوض" حيث أكد أن المدرسة الشكلية الروسية تعتبر الرافد الثاني من روافد البنائية التي وضع "دو سوسير" حجره الأساسي(11).

البنيويـــة العربيـــة:

الذي لا نختلف فيه جميعا هو أن البنيوية قد لاقت الدراسة والاهتمام من قبل الغربيين الكثير قبل أن يتركوها ليتألقوا إلى ما بعد البنيوية.

لقد درسوا أنواع البنيويات وتعمقوا في مختلف مناهجها وأعطوا كثيرا من العناية وحسبنا حين ننظر إلى ما احتفظت به عنها دوائر المعارف الغربية، ومنها البريطانية علـــى الخصـــوص وكذا القواميس العالمية منهـــا خاصة " قاموس ويبستر" لكن الذي نحن بصدد الحديث عنه الآن هو البنيوية في مجال البحث العربي إذ أن ترك الغرب لها يعني ترك الباحثين العرب لها وذلك ما نود في حقيقة الأمر الحديث عنه بإسهاب.

فبالرغم من هجر الغربيين لها والانتقال إلى غيره من المناهج والمذاهب التي قصدوا من ورائها العائق الأهم في مجال الدراسات النقدية نرى أن سقوطها وانهيارها هناك لم يجعلها تغادر مضامين الحياة النقدية إذ نرى

أن هناك من العرب بنيوا عربيا آلا هو د.كمال أبو ديب، الذي حمل على عاتقه ومن أو كسفورد بالذات حمل رايتها وبدأ في الترويج لها والتنظير أيضا.

ونراه جسد ذلك في كتابة: " جدلية الخفاء والتجلي"وهو عبارة عن دراسة بنيوية في الشعر" كما أنه قدم قبل ذلك كتابا آخر تحت عنوان البنية الإيقاعية للشعر العربي "بيروت 1974".

ففي كتاب "جدلية الخفاء والتجلي" يسعى د. كمال أبو ذيب إلى التعريف المطلق ببنيويته العربية الخطرة من البداية قائلا بأنها ليست فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود ولأنها كذلك فهي تثوير جذري للفكر وعلاقته بالعالم وموقعه منه وبإزائه في اللغة لا تغير البنيوية اللغة وفي المجتمع لا تغير البنيوية المجتمع وفي الشعر لا تغير البنيوية الشعر، لكنها بصرامتها وإصرارها على الاكتناه المتعمق والإدراك المتعدد الأبعاد والغوص في المكونات الفعلية للشيء والعلاقات التي تنشأ بين المكونات تغير الفكر المعاين للغة والمجتمع والشعر وتحوله إلى فكر متسائل قلق، متوثب ومكنته متقصّ، فكر جدلي شمولي في رهافة الفكر الخالق وعلى مستوى من اكتمال التصور والإبداع[12].

وعليه فالمقصود عنده هو أن البنيوية ليست سوى تثوير جذري للفكر وأنها خطر على المجتمع واللغة والشعر إذ تغير كل ذلك وتحوله كما قال إلى فكر متسائل قلق ومتوثب مكنته منتقض. فكر جدلي شمولي وسنحدد المعني العام لكلمة جدلي شمولي فيما بعد.

ولا يعني أبو ذيب عند هذا بل يذهب إلى أبعد طارحا رؤيته المثيرة حول البنيوية إذ يقول: " ولأنها كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر

السابق علينا، يرى العالم ويعاينه مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص أصبح محالا أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس ومع الفن الحديث وبعد أن رسم بيكاسو كراسيه أصبح محالا أن نرى كرسيا كما كان يراه من سبقوا بيكاسو.

ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها التي تعني أصبح محالا أن نعاين الوجود الإنساني والثقافة والطبيعة، كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية " [13].

إن "أبو ذيب" يكشف بإصرار عن المضامين السيئة في النقد البنيوي الحداثي كما يشدنا إلى العلاقة القائمة بين البنيوية والماركسية قبل سقوطها لكن لماذا نرى هذا التعلق القائم بينها وبين البنيوية التي لا تختلف كثيرا عن الشيوعية؟ !.

إن هذا السؤال وجيه لاشك لكننا ندرك وبسهولة أن البحث العلمي أثبت أن البنيويين خلقوا أنواعا من المصالحة بين الماركسية والبنيوية ومع ذلك فإننا نصل ما طرحه" أبو ذيب" من أن البنيوية ليست إيجابية فهي تحمل بذور الهدم في ذاتها وهذا ما اتضح من خلال طرحه فمثلما قلب بيكاسو الفن والرسم وحوله إلى طلاسم وتهويمات أصبح محالا أن يرى البنيويون كرسيا كما كان يراه الذين سبقوا بيكاسو. ويقصد أبو ذيب أن الفن التراثي أو التراث المأثور قد عفّ عليه بيكاسو وليس غيره كما أننا نصل إلى فكرة أخرى لها حضور فاعل في النص تتلخص في أنه مع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها هي التي تعنيهم، وأصبح محالا أن يرى البنيويون الوجود كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية والله يعلم إن كان هؤلاء البنيويون قد أعدو أنفسهم لرؤية شيء لا يراه بنو البشر؟ ! أو أنهم

بذلك يحلمون بكشف الحجب لهم، متى وكيف يتم ذلك؟ ثم إن العلامات التي أثارها أبو ذيب هي ما يسمى بالسيمولوجيا وهي البنيوية نفسها، وعليه فإن كلمة علامات المنتشرة في أوساطهم هي البنيوية وهي ما يطلق عليه السيمولوجيا وهي فوق ذلك الرموز والعلامات كذلك.

وما نقلناه عن أبو ذيب: " لا يتوقف عليه ، بل يتعدى هذا الوصف الصريح لحقيقة البنيوية كمذهب نقدي هدام بل نراه يذهب إلى أبعد من ذلك، فيقول بهذا التصور والإصرار عليه يكون هذا الكتاب الذي يهدف إلى اكتناه جدلية الخفاء والتجلي وإصرار البنية العميقة وتحولاتها – طموحا– لا إلى فهم عدد من النصوص, أو الظواهر في الشعر والوجود، بل إلى أبعد من ذلك بكثير: إلى تغيير الفكر العربي في معاينته للثقافة والإنسان والشعر، إلى نقله من فكر تطغى عليه الجزئية والسطحية والشخصانية، إلى فكر يترعرع في مناخ الرؤية المعقدة المتقصية الموضوعية، والشمولية والجذرية في آن واحد: أي إلى فكر بنيوي لا يقنع بإدراك الظواهر المعزولة، بل يطمح إلى تحديد المكونات الأساسية للظواهر في الثقافة والمجتمع والشعر، ثم إلى اقتناص شبكة العلاقات التي تشع منها وإليها, والدلالات التي تنبع من هذه العلاقات ثم إلى البحث عن التحولات الجوهرية للبنية، التي تنشأ عبرها تجسيدات جديدة لا يمكن أن تفهم إلا عن طريق ربطها بالبنية الأساسية وإعادتها إليها، من خلال وعي حاد لنمطي البنية: البنية السطحية والبنية العميقة[14].

هذا اعتراف صريح أقرّه أبو ذيب عن البنيوية, وعليه فالبنيوية ليست عملا أدبيا أو نقديا أو وسيلة إلى فهم النصوص أو الظواهر الأدبية، وليس ذلك فحسب بل هي شيء خطر جدا على الفكر العربي والإسلامي خاصة في نظرية للثقافة والإنسان والشعر.

ومن هنا أيضا ندرك مضمون الرسالة التي يريد إيصالها وضمان صلاح التربة التي تغرس فيها، وهي بالطبع التربة العربية وكان بذلك يؤسس بنيوية النقد الحداثي الجديد فيها "البلاد العربية" عاملا على شد انتبـــاه الشبـــاب العربي، وقد كشف عن مهمته الصعبة هنا فيقول: " وبهذا التصور أيضا فإن طموح هذا الكتاب ثوري تأسيسي، وفي الآن نفسه رفضيّ نقضيّ يعني "هدّام بصورة واضحة". ولأن الفكر العربي مازال رغم مرور قرون على نهضة أوروبا، ما زال توفيقيا أو عاجزا في الأغلب، عن إدراك الجدلية التي تشد المكونات الأساسية للثقافة والمجتمع والتي تجعل بنية القصيدة تجسدا لبنية الرؤيا الوجودية: بنية الثقافة والبني الطبقية والبنى (الاقتصا- سية) والبنى (الفكر- نفسية) في الثقافة ولأن الفكر العربي ما يزال عاجزا عن التصور الكلي المعقد لحركة الإنسان في المجتمع والقوانين والتطور الفني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي فيه، ولأنه الفكر العربي أخيرا ما يزال عاجزا عن أن يبلور تصورا بنيويا لمشروع سياســـي أو اقتصادي أو لدراسة قصيدة أو رواية أو لإنشاء جامعة أو مؤسسة تجارية أو عسكرية[15].

وحسب القارئ وهو يطلع على كفاية جدلية الخفاء والتجلي لأبو ديب أن يكتشف طموح هذا الناقد المتمثل في الثورة والتأسيس، أي رفض ونقض هدّام بمعنى صريح. وعليه فقد كان تعلق البنيويين به كثيرا فكانوا يدعون إلى التحطيم والنقض والهدم، فحطموا الدلالة الوضعية للغة ودعوا إلى نبذ قواعدها والقضاء على معانيها لتسجيل رموز وعلامات، هذه هي البنيوية وهذه هي طموحاتها كما حملها فكرا وثورة أبو ديب. يعني ذلك ما أشرنا إليه من نصوص. فالتثوير الجذري للفكر لا يحمل معنى، و يعني فقط إلغاء المبادئ والتراث والعقل العربي، والدعوة إلى أمة جديدة وفكر

جديد كل الجدة. وهكذا نرى كيف تحامل أبو ديب على الفكر العربي الإسلامي وأطلق عليه الفكر الترقيعي والتوفيقي وغير ذلك من الأسماء فهو باختصار فكر عاجز عن استيعاب الجدلية وإدراكها، وعاجز عن إدراك التصور الكلي المعقد لحركة الإنسان في المجتمع ولقوانين التطور الفني والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي فيه.

فالفكر العربي من منظور أبو ديب فكر ميت ذاك ما يوصلنا إليه التصوّر العام في الكتاب المذكور وهو بذلك ينضم إلى كوكبة المستعربين الذين تحاملوا على الفكر العربي كالجابري وأركون وأدونيس، فالجابري مثلا يرى أن تكوين العقل العربي تكمن فيه الأزمة وقد قسم هذا العقل إلى عقلين سلفي ومستغرب. والسلفي عنده يزداد معه الوقت توغلا في الماضي بالشكل الذي يجعل التفكير فيه يفقد أسبابه الموضوعية والمتغرب يحاكي النموذج الأوروبي الذي يتوغل في المستقبل بالشكل الذي يجعل الأمل في اللحاق به يتضاءل أمام اطراد التقدم العلمي والثقافي الهائل[16].

ولعل الكثير من المثقفين العرب ممن ساير دعوة الدكتور كمال أبو ديب المطروحة في كتابه "جدلية الخفاء والتجلي" والتي كما أسلفنا تحمل بذور التحامل على الفكر العربي بوضوح، وعليه يجب أن ينتبه المتحمسون لبنيويته العربية لأنها ليست سوى سم في الدسم، وقد تجلى ذلك من خلال دراسته لقصيدة أبي تمام "فتح عمورية" وخمرية (أبي نواس) إذ نراه يبحث في المقارنة بينهما فيذكر أن العلاقات بين الثنائيات قد تكون علاقات توسط يهدف إلى إعادة الخلق عبر التحول والتحويل – كما في قصيدة أدونيس (كيمياء النرجس) – حلم، وقد تكون علاقات تكامل وتناغم وإغناء وإخصاب

كما هـــي بشكل طاغ في قصيدة أبي تمـــام الرائيـــة في مدح المعتصم والربيع[17].

إن أبو ديب لم يكلف نفسه كثير عناء للتنظير للبنيوية لجملة من الأسباب هي أصلا معدودة في كتابه وذهب إلى التطبيق وهو عمل اقتدى به الكثير من البنيويين العرب الحداثيين واعتبروه نموذجا لكنهم لم ينتبهوا إلى خطره النقضي الهدّامي.

إن الخطر الذي يمثله طرح كمال أبو ديب كبير على الفكر العربي وعليه فيجب الانتباه له والتصدي لترويجه، وحسبنا تأكيداً قوله: " لعدد من الأسباب اخترت أن يكون لهذه الدراسات البنيوية طبيعة النقد التطبيقي دون أن أخصص قسما من الكتاب لتقديم الأسس النظرية للمنهج البنيوي، أبرز هذه الأسباب: قيام البنيوية على تراث فكري وفلسفي ولغوي يعود إلى أوائل القرن الحاضر (القصد هو فكر وفلسفة ولغة فرديناند دي سوسير). وكونها استمرارا لتطورات فكرية وفلسفية تضرب جذورها في أعماق التراث الأوروبي ممتدة على هيجل على الأقل ومفاهيمه الجدلية وإلى فرويد والتحليل النفسي[18].

وهذا الطرح من وجهة النظر العامة هو صحيح الفكر التهديمي القائم على الأسس الأولى التي انبنت عليه الحضارة والفكر العربيين، ولا يتوقف في دعوته عند هذا الحد بل يذهب إلى المجاهرة بالرفض المطلق لاستمرار التواتر الرتيب للفكر العربي والثقافة العربية (فالثقافة العربية المعاصرة لم تستطع حتى الآن أن تتمثل هذا التراث الفكري الفلسفي الأوروبي تمثلاً جيدا وأن التراث اللغوي –النابع من دو سوسير– ما يزال غريبا عليها غرابة شبه مطلقة وإن كانت أهم أسسه النظرية جزءا من التراث اللغوي العربي كما يتبلور في عمل ناقد فذ هو عبد القاهر

الجرجاني)[19] فهو من جهة يدرك أن أصل هذه النظريات قد تجلت في عمل عبد القاهر الجرجاني، إلا أن أخذنا عن الأوروبيين كان ضعيفا. وقد اتجه د. كمال أبو ديب في دعوته كما رأينا الجانب التطبيقي للمنهج البنيوي بغية الوصول به إلى الفكر العربي، لأن العقل العربي لا يستوعب الجانب النظري كما هو مطروح ومتداول فطبيعة "المنهج" وخصائصه تبقى عصية الفهم على القارئ العربي والذي دون شك سيحول عجزه عن فهمه إلى تركه كمنهج فكان التقديم "المنهج" من خلال تجلية نصوص مألوفة لدي القارئ العربي فإنه سيتيح له الفرصة لإدراك الهوة العميقة بينه وبين المناهج الأخرى السائدة وفي الدراسات العربية وامتيازه عليها[20].

فكان أن اعتمد على نصوص تطبيقية فنقده لأشعار أبي نواس وأبي تمام وأبن المعتز، سهل الطريق أمام النقاد المعجبين لفكره من العرب. ولا ريب أن كمال أبو ديب منظر البنيوية للبنيويين العرب يهدف إلى حصر الصراع الطبقي وتوضيح أسباب وجوده كما هو الصراع القائم بين الجدلية التي هي كمصطلح ذي بعد شمولي ومن منظور حداثي والتي كما نعلم جميعا منسوبة إلى رائده هيجل والتي تعني بمفهوم "الديا ليكتيكية" أي الفلسفة المادية المسماة بالتحدي والاستجابة وهي التي يرسمها هيجل فيلسوف المادية الجدلية بأن الإنسان في هذه الحياة ومع هذا الكون في صراع وتشاكس وتناقض، كما أن هذه الجدلية عرفت بالنقيض و أخذها منه "كارل ماركس" وطورها فأصبحت – أي الجدلية – من منظوره كافية لتعليل التطورات الدينية والاجتماعية دون الحاجة إلى خالق أزلي عليم حكيم قدير، وقد أقام الشيوعيون كما نعلم بنيانهم انطلاقا من هذه الفكرة الشاملة لكل جوانب الحياة على عقيدة جذرية تزعم أن المادة هي كل الوجود " وأن هذه المادة تتحرك وتتطور مرتقبة صاعدة وفق قانون الجدلية عندهم.

وزعموا أن هذا القانون هو المهيمن على حركة الوجود كله... وزعموا أن الحياة والفكر هما نتاج هذا الوجود المادي، فهما أيضا خاضعان لقوانين الجدلية "[21].

وباختصار فإن مسألة التحرك عندهم مرده إلى المادة التي هي أصل الوجود وهي التي تتحرك في حد ذاتها.

ومن هنا جاء النقد الحداثي القائم بدوره على عملية التهديم والبناء على النقيض حسب قانون الجدلية الذي يقول بذلك.

فالدكتور كمال أبو ديب في كتاب "جدلية الخفاء والتجلي" يدرك من خلال إعرابه في مقدمته للكتاب المذكور أنه:" مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص. ونحن محال أن نعاين المجتمع كما يعاينه الذين سبقـــوا ماركس... والبنيوية ومفاهيـــم التزامن والثنائيات الضدية والإصرار لأن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها هي التي تعنيها، لا أن تعاين الوجود الإنساني والثقافة والطبيعة كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية[22].

ولعل أبو ديب قد أوضح ما رمى إليه عن حقيقة الجدلية بقوله عن قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حلية يتكسر

ومنها :

ملك يضل الفخر في أيامه ويقل في نفحاته ما يكثر

يقول أبو ديب: " والمذهب الكلامي هو في جوهره الفعلي تصور ثنائي ينبع من ربط ظاهرتين منفصلتين ربطا جليا يوحد بينهما، بتوحيده بينهما يتجاوز خللا منطقيا في المنطق الفكري الأساسي له" وهكذا يتضح من القصيدة "أي قصيدة أبي تمام" أيضا نابعة من بذرة المذهب الكلامي لأنها

تكتنه مفهوم التحول ودلالته فتقرر أنه سيء إلا حين يكون في الطبيعة وتقع بذلك في خلل منطقي لأنها توحي بأن تغير زمن الخلافة في انتقالها إلى المعتصم سيئ سمج.

لكنها تتجاوز الخلل المنطقي عن طريق المذهب الكلامي فتربط بين الربيع والمعتصم في عملية محاجة عقلية تظهر أن قانون الطبيعة لا يسري على المعتصم، ولأنه لا يسري فإن تغير الزمن إلى زمن المعتصم نعمة رائعة، أما تغيره من زمن المعتصم على غيره فهو سماجة مؤكدة، ولذلك تنفي القصيدة هذا التغيير الأخير[23].

وهنا نصل إلى الذي خلص إليه د. كمال أبو ديب في تحليله للبنيوية، وبهذين المستويين من القدرة عن تجسيد الرؤيا الشعرية والمستوى النووي الجزئي والمستوى التركيبي الكلي، وتصبح القصيدة لدى أبي تمام في نموذجها المدروس تجسيدا مثاليا لجدلية أساسية في كل شعر عظيم هي جدلية الخفاء والتجلي التي سعينا إلى اكتناه غوامضها وإجلاء بعض من صورها الخفية والأساسية.

الهوامـــش المراجـــع:

1- د. يوسف نور عوض، نظرية النقد الأدبي دار الأمين القاهرة، ص 5.
2- المرجع نفسه، ص 6.
3- مقال نقدي للدكتور، القط عبد القادر في جريدة الندوة عدد 10738، 1994.
4- المقال نفسه.
5- د. صلاح فضل: النظرية البنائية سنة 1977.
6- جان بياجيه: البنيوية، ترجمة عارف منيمنة، بيروت ط 2 1982، ص 17.
7- المرجع نفسه، ص17.
8- المرجع نفسه، ص21.
9- د. يوسف نظرية النقد، ص22.
10- المرجع نفسه ص 22 .
11- د. صلاح فضل مرجع سابق ص 38.
12- د. كمال أبو ديب جدلية الخفاء والتجلي بيروت دار العلم سنة 1979، ص 8.
13- المرجع نفسه، ص 08.
14- المرجع نفسه، ص 09.
15- المرجع نفسه، ص 09.
16- د. محمد عابد الجابري: الخطاب العربي، ص 24.
17- د. كمال أبو يب، مرجع سابق، ص 24.
18- المرجع نفسه، ص 10.

19- المرجع نفسه، ص 15.

20- المرجع نفسه، ص 11.

21- الشيخ عبد الرحمن الميداني: كواشف وزيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دمشق دار العلم 1405هـ، ص 131.

22- د. كمال أبو ديب، مرجع سابق، ص 191.

23- المرجع نفسه، ص 191.

نظرية المثل الأفلاطونية من الوجود الواقعي إلى الافتراض العقلي

الأستاذة: كنزة خيذر
قســـم الفلسفة
جامعة الجزائـــر

الملخــص:

كانت نظرية المثل ثمرة المجهود الفكري (لأفلاطون) و هو يتأرجح بـــين تعددية(هيراقليدس) و وحدة (بارميندس)، حيث وصل أخيرا بمساعدة منهج (سقراط) إلى ماهيات كلية استخلصها من الموجودات الجزئية و جعلها تتمتع بالثبات و الوحدة، فكان عليه أن يضعها في عالم غير العالم المنظور، وهـــي النقطة التي شكلت صعوبات نظريته حول المثل، لأنه من المتعــذر تفســـير نشوء الموجودات من المثل و هي بعيدة عنها كل البعد.

و قد تفطن (أفلاطون) إلى مثل هذه الاعتراضات، و حاول الـــرد عليهـــا لكنه لم يصل إلى حلها حلا نهائيا، فجـــاء (أرســـطو) ليؤكـــد علـــى هـــذه الصعوبات و يتخذ منها أرضية لصياغة نظرية جديدة حول طبيعة الموجـــود الحقيقي و هذا ما أدى به إلى رفض الوجود المستقل للكليات.

- مدخــل

كانت نظرية المثل أول محاوله منظمة للبحث عن حقيقة الوجود الثابت المختفي وراء حالتي التغيــر واللااستقرار اللتين تبدوان عليهما الموجودات في عالم الظواهــر أو العالم الزائف كما يسميـــــه (أفلاطـــــون **Platon** 427 ق.م – 347 ق.م)، حيث اهتدى من خلال رفضه له إلـــى افتـــراض وجود عالم آخر يتمتع بصفة الثبات التي من شأنها أن تجعل العلـــم العقلـــي ممكنا، لأن العقل الإنساني لا يمكنه إدراك الحقيقة من خلال تتبع الجزئيـــات اللامتناهية، فالعلم الحقيقي المطلق يحتاج إلى مواضيع ثابتة تصلح أن تكـــون موضوعا لــــه، وهذه الأخيرة ما هي في النهـــاية إلا مثل (أفلاطون) التـــي تختزل في ذاتها كـــل كثرة حسية من جهة و تتمتع بوجود موضوعي حقيقي مستقل عن الموجودات التي تمثلها من جهة أخرى، و لا يســـتطيع الإنســـان إدراكها إلا إذا تدرج في سلم المعرفة و ارتقى إلى أعلاهـــا و يقصـــد بهـــا أفلاطون مرتبة الفلاسفة، فالفيلسوف هو الوحيد القادر على حـــدس الحقـــائق المطلقة و غايته هي إدراك مثال المثل أو الخير الأقصى أي الإله.

ورغم أهمية المجهود الفكري الذي قام به(أفلاطون) لكي يدافع عـــن الحقائق المطلقة من الحملة التي تبناها السفسطائيون من أجل تغييـــب القـــيم الثابتة و استبدالها بأخرى نسبية إلى حد جعل من أهـــم سفسطـــائي و هـــو (بروتاغوراس **Protagoras** اشتهر حوالي 440 ق.م) يعتبر الإنسان مقياس كل شيء و دفعت بسفسطائي آخر و هـــو (جورجيـــاس **Gorgias** تـــوفي حوالي 380 ق.م) إلى تلخيص مجهود الإنسان لمعرفة الحقيقة فـــي عبـــارة واحدة هادمة للعلم الإنساني كله و هي" لا يوجد شيء"، وهـــذا مـــا رفضـــه (أفلاطون) حينمـــا رأى شباب أثينا يتخبطون في ذاتية متطرفة ويبتعـــــدون عن حقيقة العلم الذي يهدف إلى إدراك الحقيقة المطلقة من أجل الوصـــــول

إلى السعادة القصوى، إلا أن(أرسطو طاليس**Aristote** **384** ق.م- **322** ق.م) تلميذ(أفلاطون) الذي كان يكن لأستاذه حبا كبيرا لم يمنعه هذا الحـــب مـــن التضحية به في سبيل حب أكبـــر و هو حب الحقيقة، وهذه الأخيرة تخـــالف تماما ما قال به (أفلاطون) فعالم المثل ليس له وجود حقيقـــي فـــي عـــرف الواقعية الأرسطية، و المثل ليست سوى تجريدات ذهنية يقـــوم بهـــا العقـــل ليجعل العلم ممكننا، ولهذا ليس هناك إلا عالم واحد حقيقي وهو العالم المادي الخارجي و المصدر الوحيد للمعرفة.

و من أجل إرساء دعائم نظريته الجديدة في المعرفة قـــام (أرســـطو) بتقييم نقدي لنظرية المثل الأفلاطونية و الذي سنسلط عليه الضوء في بحثنـــا هذا حيث سنتعرض بالتفصيل إلى كيفية انتقال نظرية المثـــل مـــن محاولـــة جريئة من (أفلاطون) للبحث عن الحقيقة المطلقة و التماسها و لو في عـــالم آخر يتمتع بوجود واقعي إلى محاولـــة جريئة أخـــرى من (أرسطو) لهـــدم أساس هذه النظرية من أجل العـــودة إلى الواقع كما هـــو و استقراء الحقيقة من موجوداته المادية، و هو نموذج عن الصراع الدائم بين البحـــث عمـــا يجب أن يكـــون و محاولة فرضه على الواقع و لو بافتراض واقـــع آخـــر، وبين قبول الواقع كما هو والبحث ضمنه عن أفضل ما يمكن أن يكون.

عـــرض لنظريـــة المثل

1- سبب وضع نظريـــة المثل:

يختصـــر لنا (أرسطـــو) المذاهب التي تأثر بها (أفلاطون) وقادتـــه إلى نظرية المثل في الفقرة التالية:

" غالبا ما تتفـــق نظريـــة (أفلاطـــون) مـــع نظريـــة الفيثاغوريين، لكنها تنفرد بخصائصها التي تميزها عن فلسفة

المدرسة الإيطالية – كما أن (أفلاطون) في شبابه أصبحا أولا صـــــديقا (لكراتيل) ومتفقا مع آراء (هيراقليدس) اللـــذين حسبهما كل الأشياء الحسية هي في تدفق أبـــدي ولا يمكنهـــا أن تكون موضوعا للعلم، وقد بقي وفيا لهذا الاعتقاد، من جهة أخرى قَبِل أفلاطون تعاليم (سقراط) الـــذي اهـــتم بالأشـــياء الأخلاقية وليس بالطبيعة في شموليتها، رغم أنـــه فـــي هـــذا المجال بحث عن الكلي، وكان أول من رســـخ الفكـــر حـــول التعريفات.

لكن تكوين (أفلاطون) الأول قاده إلى التفكير فـــي أنّ هـــذا الكلّي يجب أن يوجد في حقائق بمرتبة تختلـــف عـــن مرتبـــة الأشياء الحسية، فقد اعتقد أنـــه مـــن المســـتحيل أن يوجـــد التعريف في أيٍ من الأشياء الحسية الفردية أو على الأقل في تلك التي هي في تغير أبدي، واستنادا إلى براهينه أعطى لهذه الحقائق اسم " المثل"[1].

إذا كان ظهور المثل تتويجا لمعاناة معرفية عاشها (أفلاطون) من خلال احتكاكه بالمذاهب الســـابقة، بـــدء ((بهيروقليـــدس **Heraclite** 540 ق.م – 480 ق.م) الذي درس مذهبه على يد (كراتيل)، وتوصل إلى أنه لا يمكننـــا اعتبار الموجودات الحسية موضوعا للعلم، لأنها في تغير مستمر.

وكحل للخروج من المأزق الذي وضـــعه فيـــه (هيروقليـــدس) لجـــأ (أفلاطون) إلى دعـــوة (بارمينيـــدس **Parminide** 540 ق.م– 450 ق.م) للثبات المطلق وإنكاره للتغير والتنوع واستبعادهما من الواقع، لكـــن نظريـــة الوحدة المطلقة أثبتت فشلها لأن صاحبها استبعد مبدأ التغير الذي لا غنى عنه في تفسير الوجود تفسيرا كاملا.

كما ركز (أرسطو) في أكثر من موضع ضمن كتابه "ما بعد الطبيعة" على مدى تأثر (أفلاطون) بنظرية العدد الفيثاغورية، وخاصة فـــي مســـألة المشاركة التي يعتبرها (أرسطو) مجرد تغيير لفظي للمحاكاة التي قال بهـــا الفيثاغوريون لتفسير نشأة الموجودات من العدد.

بالإضافة إلى (أناكساجوراس **Anaxagore** 500 ق.م – 428 ق.م) الذي لفت انتباه (أفلاطون) حينما أدخل عاملا جديدا لتفسير الكـــون وهـــو الذكاء أو العقل فكان فكره أكثر حداثة، ولم يقتصر على العلة المادية لتفسير الكون، بل اعتمد على مبدأين ذكرهما (أرسطو) في كتابه " ما بعد الطبيعة " بقوله " فمما لاشك فيه أن فكره كان أكثر حداثـــة، ... و لأن لاشـــيء كـــان منفصلا، فلا نستطيع بطبيعة الحال أن نثبت أي شي حقيقي حول موضـــوع هذا الجوهر الأول الذي لم يكن له كيفية ولا كمية ولا أي تعيين مهما كان... فكل شيء كان مختلطا... ما عـــدا الذكـــاء الذي هو وحده ما كـــان خالصا وبدون اختلاط"[2]، و لعل ما جـــذب (أفلاطون) نحو هذا التفكير هو أنه كان يحمل بذور مشروعه المستقبلي، إلاّ أنه لم يجد فيه ضـــالته و عـــاب علـــى صاحبه أنه لم يستغل اكتشافه، فبقي العقل علة خارجيـــة مفارقـــة للأشـــياء يقتصر دوره على خلق النظام في الهيولى، كما أنه عاب عليه أيضا أنه لـــم يربطه بالخير وكأن العقل يستطيع أن يكون أي شيء أقل من الخيـــر أو أن يعمل لأي شيء ليس خيرا[3].

رغم الأثر الذي لعبته التيارات الفلسفية السابقة في بلورة نظرية المثـــل الأفلاطونية ، يبقى التأثير الأكبر هو ذلك الذي مارسته شخصـــية (ســـقراط **Socrate** 469 ق.م – 399 ق.م) المعلم على (أفلاطون) التلميذ، و يمكـــن أن نلخص مذهب (سقراط) في اعتباره أن العلـــم يقـــوم علـــى الماهيـــات وتركيزه على البحث في المسائل الأخلاقية، حيث كانت مساجلاته الكلاميـــة

داخل محاورات (أفلاطون) تدور حول تحديد تعريفات للعدالة و الشـــجاعة والجمال وغيرها من القيم الأخلاقية، مستخدما في ذلك منهج التهكم والتوليـــد الذي يمكنه من تحرير محاوره من أفكاره الزائفة، ويســـاعده علـــى تـــذكر الحقيقة الكامنة في نفسه حيث كان يقول « اعرف نفسك بنفسك» .

و رغم إعجاب (أفلاطون) الشديد بأفكار أستاذه السابقة إلاّ انه لم يكتف بما تلقاه منه، بل ابتدع لنفسه منهجا جديدا يقوم على طريقة الفرضية التي تستعمل البرهان الاستدلالي، وهي ذاتهـــا الطريقة التي جعلت (أفلاطون) يفترض أن الكـــــليات أو المعاني العامة التي عمل (سقراط) جاهدا على توليدها من نفوس محاوريه، هي أجناس مفارقة لعالمنا الحسي وأعطاها اسم "المثل" وكانت أول محاورة تضمنت تصريحا واضحا من (أفلاطون) بوجـــود المثل هي محـــاورة " فيدون "، حيث استعمل فيها المثل و المشاركة في المثل كفرضية ليحل مشكلتي العلية الفيزيائية وإثبات خلود الـــروح[4]، و توضحت النظريـــة نهائيا وبصورة كاملة فـــي محـــاورة "الجمهورية"، غير أن طريقة الفرض تبقى غير كامـــلة لأنه بعد استعمال الفرضية عليـــه أن يفحصهـــا، فبمجرد أن يحل مشاكـــل " فيـــدون " سينتقل (أفلاطـــون) إلى اختبار قيمة الفرضية في ذاتها وهذا ما سنراه فعلا في محاورة "البارمنيدس" التي ستكون محور حديث لاحق حول مشاكل نظريـــة المثل، أما ما يعنينا الآن هو العودة مع (أفلاطون) إلى تأمل المثل التي رأى بأنها لا تنتمي إلى خبرتنا الناقصة كما أنها ليست جزءا من تفكيرنا القاصر وهذا يجعلنا نتساءل معه، إذا كانت هذه الماهيات لا تنتمي إلى العالم الحسي المتغير والوحيد الذي نعرفه إلى حد الآن، فأين يمكن تصنيفها؟

2- عـــالم المثـــل:

يــرى (أفلاطون) بأن طبيعة المثل المفارقة للأشياء الحسية تقتضي أن يكون لها وجودا مفارقا لهذا قال بوجود عالمين:

- **الأول:** يضم الموجودات الجزئية المتغيرة وهو عالم زائف تصوره لنا حواسنا على أنه مصدر المعرفة الحقة غير أن تناقضاته وعدم اســتقراره يكشفان للعقل- الذي هذبته الفلسفة وارتقى به المنهج الجــدلي إلـــى مرتبـــة إدراك الحقائق المطلقة- أن هذا العالم عاجز عن إعطاء المعرفة الخالية من تهيؤات الحواس.

- أما **الثانـــي:** فهو عالم المثل المتعالي المصدر الحقيقـــي للمعرفة وهو عالم ثابت لا نستطيـــع إدراكه إلاّ بالعقل وهو الذي يستحق صفة الوجود الحــقيقي، و تصور لنا أسطورة الكهف المذكورة في محاورة "الجمهورية" ثنائية العالم عند (أفلاطون)، والتي هي في نظرنا أبلغ تعبير عن نظرية المثل التي جاءت كتتويج لرحلة بحث يبدؤها الفيلسوف انطلاقا من اصطدامه بتناقضات معطيات العالم الحسي الذي يمثله في أسطورة الكهف بقوله "تخيل رجالا قبعوا في كهف، وهم مقيدون بحيث لا يستطيعون الاستدارة وراءهم وكل ما يرونه هو ظلال التماثيل الخشبية التي تمر أمام نار مشتعلة خلفهم، ولنفرض أننا أطلقنا سراح أحدهم وأرغمناه على الاستدارة نحو الضوء المنبعث نحو النار ألا تظن أن عينيه ستؤلمانه، وإذا أرغمناه على رؤية الشمس ألا تظنه سينبهر و لا يستطيع في البداية رؤية الأشياء الحقيقية "(5) .

وفي هذه الأسطورة تمثل الخيالات المنطبعة على الجدار موجودات هذا العالم المتغير، التي هي أول ما يعرفه الفيلسوف في بداية رحلته نحو بلـــوغ الحقيقة، ولكنه لن يرضى بهذه المعرفة الزائفة فيســتخدم الفيلســوف عقلـــه

ليتحرر من سجنه الجسدي ويتمكن بصعوبة من بلوغ العالم المعقول، وهـــو ما يمثله العالم الخارجي في الأسطورة و موجوداته هي المثل، التـــي تمثـــل مصدر المعرفـــة الحقة، أما الشمس التي تنير هذا العالم فهـــي مثال الخيـــر أو مثال المثل.

مما سبق نستنتج أن (أفلاطـــون) انطلاقا من تفكيره الثنائـــي وصـــل إلى ضرورة التفريق – كما سبق لنا القول– بين عالم المثل وعالم آخر هو عالم الحس، وهو الأمر الذي كثيرا ما لامه عليه (أرسطو)، لأن هذه التفرقة تستلزم أن المثل مفارقة، وهذا ما سيجعلنا نظن أن الحقيقة العقلية تأتي فقـــط لتضاعف الحقيقة الحسية، ونجد أنفسنا أمام حقيقتين دون أن نفهم كيف يمكننا أن ننتقل بين العالمين[6]؟

رغم أن تساؤل (أرسطو) يبدو مشروعا جدا، إلاّ أن هذا لا يعنـــي أن (أفلاطون) لم يهتم بتوضيح هذا الجانب من نظريته، فقد بـــيّن كيفية الانتقال من العالم الحسي إلى العالم المعقول، ورأى أنها لا تتسنى إلاّ للفيلسوف الذي هو الوحيد القادر على إدراك الكلي " إذ أنه يبحث عن طريقة ليسير بكل ثقة من الجزئي إلى الكلي المطلق الذي يشكل ماهية الأشياء والأســـاس الوحيـــد للعلم، إذا ليس هناك علم حقيقي إلاّ بالمطلق، الذي لا يتغير أما الباقي فلـــيس إلاّ ظنا باطلا وليس إلاّ خيالا، هذه الطريقة الأفلاطونية هـــي الجـــدل الـــذي يعلمنا كيف ندرك الأشياء العقلية مباشرة، ويرتقـــي بالعقـــل – دون تـــدخل الحواس – إلى ماهية الأشياء "[7]، و هذا لا يتأتى للفيلســـوف إلاّ بعـــد أن يكون قد تدرج في سلم المعرفة التي تبدأ بالتخيل ثم الاعتقاد يليهما الاستدلال، ليصل أخيرا إلى مرتبة المعرفة الحقة، حيث يتمكن بالفكر وحده مـــن إدراك المعقولات، وفي قمتها الخير الأقصى أو المبدأ الأول، لهذا فالجدل هو قمـــة

كل العلوم مثلما أن مثال الخير هو قمة المثل، ورغم أنـــه الجـــزء الأكثـــر صعوبة في الفلسفة فهو أيضا الأكثر إنـــارة و الأكثر نفعا[8].

إذا فالحقيقة حسب (أفلاطون) ليست في متناول جميع البشر، بل هـــي تقتصر على الفلاسفة الذين أهلتهم الطبيعة لإدراك المثل دون غيرهم، وهـــو تأكيد للرأي القائل بأن (أفلاطون) لم يستطع التحرر من فكره النخبوي.

بعد أن سلمّ (أفلاطون) بوجود مثل مفارقة لأشياء الحسية تنتمي إلـــى عالم متعال على عالم الظواهر الحسية، عليه الآن أن يحـــدد طبيعـــة هـــذه المعاني الكلية، فما هي طبيعة المثل؟

3- ماهيـــة المثـــل:

كلمة " المثل " لا تعني في اليونانية غير الأنواع والأجناس[9]، فالمثـــل إذا كليات والكليات، هـــي ما يقال على كثيرين مختلفين في العدد متفقين في الماهية، وهو التعريف الذي نجده في محاورة " الجمهورية " وهذه الكليـــات هي موضوع العلم حسب " ثياتيتوس " كما أنها و الموجود شيء واحد، وهذا ما يؤكده (سقراط) في حواره مع (بارمينيدس) في المحاورة التي تحمل اسم هذا الأخير حيث يقول: " وهذا الأمر الذي يفكر فيه على أنـــه واحـــد وأنـــه موجود دائما و هو ذاته بالنظر إلى الجميع ، ألا يكون بعد ذلك صورة؟" [10]

كما أن المثال وحدة عقلية صرفة لا تتغير من فرد أو من نـــوع إلـــى آخر، فهو يختزل في ذاته التعددية وهذا ما سيسعي (أرسطو) جاهدا ليبـــين عكسه حيث يبدأ اعتراضه على نظرية المثل بأنهـــا تضـــاعف الموجـــودات فتجعل من تحصيل المعرفة أمرا أكثر تعقيدا، في حـــين أن المثـــل بالنســـبة لصاحبها تُسَهل المعرفة، لأننا يمكن أن نضيع داخل الأفراد الذين لهم عـــدد غير معروف، لكننا لا يمكن أن نخطئ في إدراك المثال الذي هـــو واضـــح

بمقدار ما هو بسيط، فنحن نرى ونسمع هذا الإنسان أو ذاك، الذي نحن أمامه ونحادثه في حين أن الإنسان في ذاته هو في كل إنسان فردي، لكنه لا يدرك إلاّ بالعقل فهو يهرب للحسي الذي لا يكتشفه أبدا[11].

الآن يتساءل (أفلاطون) هل المثل هي مجرد كلمات؟ هل هـــي فقـــط أفكار لا يمكنها أن توجد خارج النفس؟ أم أن لها وجودا حقيقيا؟ وقد انشـــغل الفلاسفة المدرسيون بالإجابة على هذه التساؤلات واختلفوا فيهـــا بـــاختلاف توجههم الأفلاطوني أو الأرسطي، ورغم أن الأمر بدا صعبا ومرهقا لهؤلاء المدرسيين إلاّ أن الإجابة بالنسبة (لأفلاطون) كانت واضحة، نعم المثل هـــي كلمات، نعم هي أفكار لأنها من جهة تساعدنا في تسمية الأشياء، ومن جهـــة أخرى هي مدركة بالعقل، لكنه سيكون تناقضا صارخا أن نعتقد أنها ليســـت إلاّ هذا، فبما أنها هي التي تجعل الأشياء على ما هي عليه، لا يمكنها أبدا أن تكون مجرد كلمات فارغة، ولا أن يكون لها وجودا أقل من وجود الأشـــياء التي تشاركها، ولأنها تدرك بالعقل فهي إذا في فكر الإنسان، لكنهـــا أيضـــا موجودة في مكان آخر، لأنه من الواضح أنها ليست من إنتاج الفكر، بل هي تتمتع بوجود مفارق ومتعال يختلف تماما عن وجود الأشياء الحســـية، فهـــو وجود عقلي محض يجعلها أبدية وغير قابلة للفساد.

قد يعترض أحدهم على (أفلاطون) ويطلب منه أن يوضح أكثر شكل وجود المثل، و (أفلاطون) نفسه حسب حِساب مِثل الاعتراض واعترف أن وجود المثل يصعب فهمه لكنه ليس مستحيلا، ولكي يبدد قدر الإمكان الأمور الغامضة فقد درج على أخذ أمثلة – تحقق اتفاقا عاما و تعتمد على المـــنهج الرياضي الدقيق – لكي يبين طبيعة وجود ماهياته المفارقة الشبيهة بالوحدات التي يشتغل بها الجبر، هذه الأخيرة اعتبرت كأنها متساوية تماما مع بعضها البعض، لهذا السبب فقد أمكن للجبر دراستها، لكن هذه الوحدة ليست واقعية

بالمعنى الدقيق للكلمة، فهي لا تقع تحت الحواس لأن الوحدات التي تـــدركها الحواس بعيدة جدا عن أن تكون متساوية تماما لأنها لا تعطينا إلاّ اللامساواة والتغيرات اللانهائية، في حين أن الوحدة الرياضية هي حقيقية لدرجة تجعـــل منها مبدءا لعلم هو واحد من المعارف الإنسانية الأكثر دقة.

وما قلناه عن الوحدات في علم الأعداد يمكننا قوله عن الماهيات التي تقوم عليها الهندسة، فنحن لم نـــر أبدا الخطوط والسطـــوح مثـــلما يتصـــورها المهندسون، وحوا سنا لم تـــر أبدا نقاطا دون طول أو عـــرض أو سمك، فعالم الهندسة يبرهن باستمرار على أشكال ليس لها الأبعاد الفعلية التي أعطيت لها، ورغم كل ما سبق فنحن لا نعتقد بأن هناك من يتجرأ على الشك في دقة الرياضيات فاسمها الذي تحمله يدل على أنها الأكثر علمية بين العلوم، وهي لم تحظ بهذا الامتياز إلاّ لأنها عقلية وإذا اختلطت أكثر بالمادة ستكون لها مكانة أقل، إذا هذه الوحدات التي يدرسها الرياضيون يمكنها أن تجعلنا نفهم ما هي المثل وندرك طبيعتها وماهيتها، فالمثل هي في الأشياء مثلما هي الوحدات الرياضية في السطوح و الخطوط و النقاط... .

ومع ذلك هناك فرق كبير بين المثل وماهيات الجبر والهندسة، ففي عالم الرياضيات كل شيء ليس فقط ثابتا ولكنه أيضا لا يؤثر[12]، في حين أن المثل هي مبادئ الأشياء وعللها وهذا ما يؤكده كلام (سقراط) في محاورة "فيدون " بقوله " لا يجعل الشيء جميلا إلاّ وجود الجمال و المساهمة فيه، مهما تكن سبيل الوصول إلى ذلك وكيفية الحصول عليه، فلست أقطع برأي في الكيفية، ولكنني أقرر بقوة أن الأشياء الجميلة كلها إنما تكون جميلة بالجمال"[13]، كما تنشأ الموجودات الحسية عن المثل المتعالية عن طريق المشاركة و في هذا يقول (سقراط) "وكنت لتُقسم أمام الملأ بأنك لا تدري طريقة يجيء بها أي شيء إلى الوجود، إلاّ مشاطرته لجوهره الأصلي "[14].

إذا المثل هي جواهر مفارقة لبعضها الـــبعض وهـــي كاملـــة ممتلئـــة بالوجود خالصة وبسيطة ومطلقة الكمال، فهي خارج الزمان وهذا ما يجعلها أبدية غير قابلة للفساد وموضوع العلم الحقيقي.

انطلاقا من فكرة المشاركة وعلاقة المثل بالمحسوسات سيبدأ (أرسطو) نقده لنظرية المثل الأفلاطونية، ولو أن اعتراضه الجوهري على (أفلاطون) هو أن هذا الأخير جعل المثل مفارقة للأشياء الحسية، و كـــل هـــذا يجعلنـــا نتساءل: ما هي الانتقادات الأساسية التي وجهت لنظرية المثل؟

نقـــد نـــظرية المثل

1- مناقشة أفلاطون لنظرية المثل ضمن محاورة " البارميندس ":

إذا نظرنا في محاورة " البارمنيدس " وتأملنا الشخصيات التي تدير الحوار سنجد أن (أفلاطـــون) جعل النقاش يدور بين (سقـــراط) من جهة و(بارمنيـــدس) و تلميذه (زينون **Zenon** اشتهر حوالي 465 ق.م) من جهة أخرى وهذا ما يدعونا إلى التساؤل لماذا هؤلاء بالذات؟

الإجابة تكمن في أن كل من (بارميندس) و(زينون) هما من أنصـــار الوحدة وينكران الكثرة بأي حال، في حين أن (أفلاطون) الذي يمثله (سقراط) في المحاورة، يسلّم بوجود مثل متعددة للمحسوسات فالحقيقة عنـــده ليســـت واحدة، فهو من أنصار الكثرة[15]، لهذا عندما عرض (زينـــون) صـــعوبات القول بوجود الكثرة اقترح (أفلاطون) المثل كفرضية تسمح بحـــل هـــــذه الصعوبات، غير أن أنصار الوحدة رفضوا اقتـــراح (أفلاطـــون)، فـــرغم تسليمهم معه بوجود المثل إلاّ أنهـــم اعترضـــوا علـــى ضـــرورة مشـــاركة المحسوس فـــي المعقول لعجزهم عن إدراك الكيفيـــة التي تـــتم بهـــا هـــذه

المشاركة[16]، وعن هذا الاعتراض الأساسي تنشأ صعوبات يمكن تلخيصـــها فـــي خمس رئيسيـــة:

– **الصعوبـــة الأولى:** تتعلق هذه الصعوبة بعلاقة المثل ببعضها البعض، وهي تدور حول استحالة المشاركة بين المثل نفسها أي تداخلها فيما بينها، وتنشأ من انعكاس العلاقات القائمة بين جزئيات العالم الحسي على المثل التي تشارك فيها، فإذا كانت المثل هي الصورة المعقولة للعالم المحسوس فتبعا لهذا يجب أن توجد صور لكل ما في هذا الأخير من موجودات وإضافات مما يقتضي بالضرورة وجود صور أيضا للارتباطات والعلاقات الموجودة بين المحسوسات، أو حتى تلك التي تنشأ بين حالات المحسوس نفسه، فإذا كان المحسوس واحدا وكثيرا في الوقت ذاته كما افترض (سقراط)" أما إذا برهن أنني أنا واحد وكثرة، فأي عجب في ذلك، فهو يقول عندما يريد أن يظهرني كثرة، أن ما على يميني غير تلك التي على يساري، وأن أقسامي الأمامية غير أقسامي الخلفية، وأن أعضائي العليا غير أعضائي السفلى وهكذا – إذ أشارك الكثرة فيما أعتقد – وعندما يبتغي أن يبديني واحدا فيقول إنني، حين نكون سبعة، رجل واحد، لاشتراكي في الواحد... "[17].

فإذا كان حسب الفرض السابق سقراط كمحسوس واحد وكثرة في نفس الوقت، وكانت الوحدة والكثرة مظهرين له، فيجب إذا أن نجد في العالم المعقول ارتباطا مماثلا أي علاقة مشاركة بين كل من مثالي الوحدة والكثرة ومثال الإنســـان وهذا فعلا ما توصل إليه فرض (سقراط) " وبرهن بعـــد ذلك أن هذه تستطيع في ذاتها أن تتمـــازج وأن تتفارق "[18]، وهذا الاعتـــراض لم يتوصل فيه (أفلاطون) إلـــى حل رغم أنه سيحاول ذلك فـــي محاورة " السفسطائي".

ــ **الصعوبـــة الثانية:** رأينا في الصعوبة الأولى أن (أفلاطـــون) أقـــرّ بوجود مثل لأشياء ليست لها جواهر حسب (أرسطو) مثل النسب والعلاقات، لكن هل هذا يجعله يعترف بوجود مثل لكل الأشياء مهما كانـــت متواضـــعة وحقيرة؟ السؤال ذاته طرحه (بارميندس) على (سقـــــراط) "وبشـــأن تلـــك الأشياء التي تبدو مضحكة كالوبر والوحل و العبس أو أي شي آخـــر زري جدا وحقير هل تحار أم لا يا سقراط في أمر وجود صـــورة مفارقـــة لكـــل منهـــا "[19]، إجابة (سقراط) تتضمن تردده في إثبات وجود مثل لمثـــل هـــذه الأشياء الوضيعة لكنه بمساعدة (بارميندس) سيتظاهر بأنه تخلص من حيرته حين قال له " لأنك ما تزال فتى صغيرا يا سقراط ولأن الفلسفة لـــم تســـتول عليك بعد كما ستلفك يوما فيما أظن عندها لا تعود تحتقر شـــيئا مـــن هـــذه الأشياء"[20]، تتضمن هذه العبارة تصريحا ضمنيا من (أفلاطون) بأنه علينـــا أن نغض النظر عن الأقل أهمية من أجل الأهم ولهذا فهو يسلّم بوجود مثـــل لكل الأشياء لكي لا يقع في الهاوية السحيقة التي كاد بطل محاورته (سقراط) أن يقع فيها إن هو ضحى بأساس المثل.

ــ **الصعوبـــة الثالثة:** قلنا سابقا أن اعتراض (بارميندس) على نظريـــة المثل كما تصوره (أفلاطون) يتركز بدرجة كبيرة على مشـــاركة الأشـــياء الحسية للمثل التي اقترحها (أفلاطون) ليوضح بها نشأة الأشياء من المثـــل، رغم الهوة السحيقة التي تفصل عالم المثل عن العالم الحسي، فبعد أن قبـــل (بارميندس) مبدئيـــا فكرة المشاركة تســـاءل عن طبيعة هـــذه المشاركـــــة "في هذه الحال أيشترك كل مشارك في كل الصورة أم في قسم منها، أم قـــد تحصل مشاركة أخرى غير هاتين؟ "[21]، أي أن مشاركة عدة أشـــياء فـــي مثال واحد تفرض حالتيـــن:

الأولى هي أن يكون المثال كله في واحد من هذه الأشياء أي أن المثال يكون مفارقا لنفسه وهذا غير معقول.

وهنا يحاول (أفلاطون) كعادته عندما يصعب عليه استعمال اللغة المباشرة أن يقرب لنا فكرته باستعمال الأمثلة الحسية، فيقول على لسان (سقراط) " وقد لا تغدو مفارقة إذا أخذت حذو النهار فهو واحد وهو عين ذاته ومع ذلك فهو في أمكنة كثيرة معا و لا يضطر مع ذلك أبدا أن يكون مفارقا لذاته "[22]،

لكن حل (سقراط) لا يفي بالغرض لأن (بارميندس) يرد عليه بمثال الغطاء الذي إن وضع على أشخاص كثيرين فإن كل واحد من هؤلاء، سيغطيه جزء واحد فقط من الغطاء كله، وهذا ما يؤدي به إلى الافتراض الثاني لطبيعة المشاركة وهو أن الأشياء تشارك في جزء من المثل.

مثل هذا القول لن ينجو من انتقادات (بارمنيدس) الذي نبه (سقراط) إلى ما ينتج عنه من تناقضات في قوله: " إن الصور إذا هي أيضا قابلة للتجزئة، وما يشاركها يشترك في جزء منها، وليست بعد كلاً في كل فرد وإنما كل فرد يشترك في جزء منها... أتريد إذا يا سقراط أن تقول بعـــد أن الصورة الواحدة تدعنا نقسمها، وأنها تلبث بعد ذلك واحدة "[23]، فعلا إنها تناقضات كفيلة بهدم أساس المثل كله، لأن القول بمشاركة الأشياء في جزء من المثل هو اعتراف بأنها قابلة للقسمة وبالتالي ننفي الوحدة عنها، والأسوأ من ذلك هو أن القول بأن الصغير مثلا يشارك في الصّغر بالذات في جزء منه يجبرنا على القول بأن مثال الصغر أكبر من كل جزء من أجزائه وهذا غير معقول.

حاول (سقراط) إزالة هذا التناقض، فاقترح شكلا ثالثا للمشاركة وهـــو المشابهة، التي ستنجر عنها صعوبة أخرى.

ــ **الصعوبـــة الرابعة:** تنتج من افتراض أن " الصور تنتصب في الطبيعة بمثابة نماذج وأن الأشياء الأخرى تماثلها وأنها أشباه لها "[24]، أي أن الشيء يشارك في المثال ليس كالجزء بالنسبة للكل ولكن مثل النسخ التي تشبه النموذج، والقول بأن الشيء يشبه المثال يقتضي أن المثال بدوره يشبه الشيء ولا يوجد تشابه إلاّ إذا كان هناك مشاركة في نفس المثال فيجب إذا أن نضع فوق الشـــيء والمثال مثالا آخـــر للمشابهة يشترك فيه كلاهما وهكذا إلـــى ما لا نهاية وهو ما سيعرف لاحقا "باعتراض الرجل الثالث " الذي سيشير إليه (أرسطو) فيما بعد، ضمن انتقاداته للمثل وفي مقدمتها استحالة أن تكون المثل موضوعا للعلم الإنساني.

ــ **الصعوبـــة الخامسة:** أخيرا يرى (بارميندس) أن هناك تعارضا بين طبيعة المثال والوظيفة التي خصصت له، لأنه يجب أن يكون موضوعا للعلم حسب (سقراط) في حين من الواضح أنه لا يمكن حتى أن يكون معروفا منّا، لأنه إذا كان موجودا في ذاته فلن يكون فينا، فالحقيقة في ذاتها لا تحصل إلاّ بالعلم في ذاته الذي ليس لنا فيه أي نصيب[25]، بل هو من نصيب الآلهة التي لديها " السيادة القصوى والعلم الأدق بالذات، فلا سيادة أولئك ستحكمنا ذات يوم، ولا علمهم قد يعرفنا أو نعرف شيئا عن الإله ومن ثمة حسب البرهان عينه لا أولئك هم أسيادنا ولا هم على علم بالمشاكل البشرية مع أنهم آلهة "[26]، ومثل هذا القول تنجر عنه نتيجة خطير وهي الإلحاد.

حسب النقد السابق تفقد فرضية المثل كل القيمة التـــي اكتســـبتها فـــي المحاورات السابقة، فالمثال لم يعد علة للأشياء لأن المشاركة مستحيلة، كمـــا أنه ليس موضوعا للعلم لأنه مفارق لنا كليا[27]، وحلـــول(أفلاطون) بقيـــت معلقة ومترددة، و هذا ما جعل (برتراند راسل **B. Rusell** 1878- 1969م)

يرى في كتابه " تاريـــخ الفلسفة الغربية " أن التفرقة بين الحقيقـــة والظـــاهر لا يمكن أن تترتب عليها النتائج التي يزعمها (أفلاطون) لأنه إن كان الظاهر ظاهرا حقا، فهو إذا جزء من الحقيقة وإن كان الظاهر لا يظهر حقـــا ففـــيم وجع الدماغ من أجله، كما يرى أيضا أن (أفلاطون) أخطأ عندما فرق بـــين الرأي والمعرفة من حيث نوع الموضوع الذي يتناوله كل منهما، فنحن عندنا موضوع الرأي يمكن أن يكون موضوعا للمعرفة أما (أفلاطون) فيـــرى أن ما قد صلح موضوعا للرأي في وقت مضى لن يكون أبدا موضوعا للمعرفة في وقت لاحق، فهو يحكم على الرأي بالخطأ ضرورة.

ولكن يبقى أهم اعتراض وجه لنظرية المثل هـــو ذلـــك الـــذي تبنـــاه (أرسطو) من خلال استغلاله لأهم الاعتراضات السابقة وإضافة انتقـــادات أخرى خاصة به وكان يهدف من خلاله إلى هدم أسس نظرية أستاذه ويحاول أن يقيم على أنقاضها أسس فلسفته الأولى، فما هي اعتراضات (أرســـطو) على نظرية المثل؟ وهل كان نقده لها هدفا في حد ذاته أم كان تمهيدا لنظرية جديدة حول طبيعة الوجود؟

2- انتقـــادات أرسطو لنظرية المثـــل:

لقد لام (أرسطـــو) (أفلاطـــون) على فشله التام في إيجاد حل نهائي للمشكل القائم على التوفيق بين الكثرة والوحدة، بين (هيروقليدس) و(سقراط)، لأن مثله الثابتة المطلقة بقيت بعيدة جدا عن عالم الموجودات الحســـية التـــي يفترض بها أن تكون عللا لوجودها، ولم يؤد لجوء (أفلاطـــون) إلى فكـــرة المشاركة – ليربط العالم الحسي المتغير بعالم المثل الثابت – إلاّ إلى زيـــادة المشكلة تعقيدا، فكيف يمكن اعتبار المثل الثابتة علة للمحسوسات المتغيرة؟

انطلاقا من علاقة المثل بالمحسوسات سيبدأ (أرسطو) نقـــده لنظريـــة المثل الأفلاطونية، ويبدو لنا أن المسألة الجوهريـــة التـــي أثـــارت حفيظـــة (أرسطـــو) ضد معلمه هي أن هذا الأخير اعتبر الحقائق الثابتة منفصلة عن الأشياء الحسية وبفصله للمثل (أفلاطـــون) لم يرد إلاّ أن يتصـــور جـــوهرا يستطيع أن يكون موضوعا للعلم الذي خلفه (سقراط) [28].

وهذا ما سنراه في المسائل الجوهرية التي على أساسها قام (أرســـطو) بمناقشة نظرية المثل وقد صنفها إلى سبعة اعتراضات:

أ – مشكلة مضاعفة الموجـــــودات: يعبـــر (أرســـطو) عـــن هـــذا الاعتراض بشكل ساخر فيقول " فقد أدخلوا حقائق أخرى بعدد مســـاو لهـــذه الموجودات مثل الذي يريد أن يجري حسابا ويعتقد أن عدد الأشياء ســـيكون قليلا جـــدا ولا يستطيع أن يدركه فيرفعه لكي يستطيع العد "[29] وهـــو هنـــا يخص الأفلاطونيين بهذا النقد ففي رأيه افتراض وجود مثل مفارقة للأشـــياء الحسية سيؤدي إلى مضاعفة الموجودات، وبدل أن تهـــتم العلـــوم بدراســـة موجودات العالم الحسي ستضطر هي الأخرى أن تتضاعف فيكـــون هنـــاك علوما تختص بدراسة الموجودات المفارقة، فعلم الفلك الذي يرصد الســـماء عليه أن يرصد سماءا أخرى وشمسا أخرى وكواكب أخرى، والطب مـــثلا عليه أن يهتم بفكرة المرض بدل الاهتمام بالمرض الأكثر واقعية الذي يعاني منه المريض ويطلب شفائه منه، من هنا نتبين المفارقة الكبيرة بين الشـــيء ومثاله وهو ما سيقودنا إلى الاعتراض الثاني.

ب – المـــثل ليست علـــلاً: بفصله المثل عن العالم الحسي (أفلاطون) حرمها من كل فعالية، فأصبحت عاجزة عن تفسير ســـبب كـــون الأشـــياء الحسية وسبب فسادها، فالمثـــال الثابت يمكن أن يكون علة للثبـــات لكنـــــه ليس علة للحركة[30]، إذا كيف تؤثر المثل في الأشياء الحسية؟

من المؤكد أن هذا التأثير ليس مثل تأثير الطبيعة الملازمة للأشـــياء، فالمثل مفارقة ولا يمكنها أن تكون عللا محركة فالشيء المعقول لا ينتج شيئا جزئيا، فقط الجزئي ينتج الجزئي مثل: المهندس المعمـــاري الذي يصـــــمم البيت و الإنسان الذي يلد الإنسان.

وبالتالي تفقد المثل مصداقيتها كعلل فاعلة أو حتى محركة لأنهـــا فـــي الحقيقة ليست إلاّ الموجودات الحسية ذاتها أضيف لها العبارة " فـــي ذاتـــه " فاستحالت في النهاية إلى سميات بسيطة وغير فعالة، ويرجع (أرسطو) هذا العجز في مذهب (أفلاطون) إلى خطئه حول مفهومي الإمكان و القوة.

ج- المـــثل غير مبرهنة: يرى (أرسطو) " بأنه من بين كلِّ الحجج الجدلية التي نبرهن بواسطتها على المثل ولا واحدة من هذه الحجج واضحة فبعضها لا يقود إلى نتائج ضرورية، وبعضها الآخر تثبت وجود مثل لأشياء ليس لها مثل في رأيي حسب الحجج المأخوذة من وجود العلوم"[31]، إذا حسب (أرسطو) المثل لم يبرهن على وجودها، غير أنه انتقاد ضعيف سيرد على صاحبه لأن المبادئ لا يبرهن عليها بل يسلم بوجودها فقط.

د – الأشيـــاء التي ليس لها مثل: وهو اعتراض شاهدناه سابقا فـــي محاورة "البارميندس" وانتهى بتسليم (أفلاطون) بوجود مثل لكـــل الأشياء لكـــي ينقذ نظريته من الانهيار، وهي الثغرة التـــي استغلهـــــا (أرســـطو) ليؤسس عليها نقده إذ يقول " حسب المفهوم الذي انطلقنا منه لإثبات وجـــود المثل لن يكون هناك مثل للجواهر فقط بل لأشياء أخرى أيضا، مـــن جهـــة أخرى ليس هناك علم فقط للجوهر، ولكن أيضا لأشياء أخرى"[32]، مما سبق نتنبه إلى التساؤلات التالية هل هناك مثل لكل شيء؟ هل هناك مثل للنســـب والمنفيات؟ والأشياء الزائلة حتى بعد أن تكون هذه الأشياء قد زالت؟

(أرسطو) ينفي وجود مثل أي ماهيات للأشياء التي ليس لهـــا وجـــودا واقعيا مثل التي لا توجد إلاّ في علاقات تربطها بأشياء أخرى وتتوقف عـــن الوجود بمجرد اختفاء هذه العلاقات، ونفس الشيء بالنسبة للأشـــياء الزائلـــة التي يصنعها الإنســـان، فهل يعقل أن يكون هناك مثال لبيت لم ينجـــز بعـــد أو لآخر قد انهار؟

خلاصـــة القول أن (أرسطو) لا يقبل بوجود مثل لأشـــياء لـــيس لهـــا جواهر مثل النسب والمنفيات وموضوعات الفنون، فكيف يمكن (لأفلاطـــون) أن يقول بوجود مثل لأشياء دون جوهر تماما مثلما يعترف بوجودها للأشياء التي لها جواهر.

الإشكالية في " البارميندس" بقيت معلقة والاعتراض يبدو صحيحا جدا حتى لأشد المفكرين تعصبا لأفلاطون مثل(سانت بارثلمي **J. Barthèlemy S.T.H**) الذي رأى بأنه خطأ لا يمكن تجنبه.

هـــ – اعتـــراض الرجل الثالث : تذكر رواية بأن مبتكر هذه الحجـــة – في صورة مختلفة – هو سفسطائي اسمه (بوليسان **Polyscène**) الـــذي كان تلميذا لفيلسوف ميغاري هو (بريسون **Bryson**) من مناصري الإيليين المتأثرين بالسقراطية[33]، ويتلخص هذا الاعتراض في ما يلـــي:

إذا كانت كل تعددية من الأشياء الحسية تنتمي إلى نفس النوع يجب أن تتشابه في مثال واحد، فالقاعدة ذاتها يجب أن تطبق على الإنسان الحسي وفكرة الإنسان، لأنهما متماثلان فهذا يفترض بالضرورة أن يتشابها في رجل ثالث وكل من الرجل الحسي والرجل في ذاته يتشابهان مع الرجل الثالث في رجل رابع وهكذا إلى ما لا نهايـــة، وهنا تضيع جوهرية المثال إلـــى عدد لا متناه من المثل ويصبح القول " أن المثل هي نماذج وأن الأشياء الأخرى تشارك فيها...كلاما فارغا من المعنى لا يصلح إلاّ للمجازات الشعرية " [34]،

"ونحن عندما نقول الإنسان في ذاته والحصان في ذاته والصحة في ذاتها دون أن نضيف شيئا، لا نقوم إلاّ بمحاكاة هؤلاء الذين قالوا بوجـــود آلهة، لها صورة إنسان"[35].

يبقى علينا الآن أن نتحول إلى آراء (أفلاطون) في نهاية حياته حيـــث جاء بمفهوم جديد للمثل بعد أن مـــارس " الفيثاغوريين " تأثيرا كبيرا علـــى فلسفته فوصل إلى حد القول بأن المثل هي عناصر الموجودات وأنها أعـــداد وهذا ما سيناقشه (أرسطو) في الاعتراض الموالي.

و– المثل ليست عناصـــر للموجودات: يركز (أرســـطو) فـــي هـــذا الاعتراض على الرأي الذي ذهب إليه (أفلاطون) في المرحلة الأخيرة مـــن حياته، والذي اعتبر فيه أن المثل أعداد وهي نظرية لا نجدها فـــي مؤلفاتـــه الأولى إنما وصفها لنا (أرسطو) وصفا دقيقا، ومن الواضح أنه ســـمع هـــذه الآراء في الأكاديمية كدروس غير مدونة أضيفت عليها اجتهـــادات بعـــض الأفلاطونيين مثل (سبيسيب **Speusippe**) الذي قـــال بنظريـــة الأعـــداد الرياضية، و (اكزينوقراط **Xènocrate**) الذي قال بنظرية الأعداد المثالية، ومن هنا كانت انتقادات (أرسطو) موجهـــة للأفلاطـــونيين ككـــل ولـــيس (لأفلاطون) وحده.

فإذا عدنا إلى " الجمهورية " نجد أن الحقـــائق الرياضـــية لعبـــت دور الوسائط بين المحسوسات والمثل لكن طبيعة الصلة التي تربطها بكـــل مـــن المثل والمحسوسات لم توضح ففتحت الباب للتجريح في قيمتها، ويرتكز نقـــد (أرسطو) لهذه النظرية على مسألتين جوهريتين:

1– اعتبـــار المثل أعداد.

2– اعتبـــار المثل عناصر للموجودات مثلما هـــي الأعـــداد عناصـــر للموجـــودات عند " الفيثاغوريـــن ".

" إذا كانت المثل أعدادا، فكيف ستكون عللا؟ هل هذا لأن الموجودات هـــي أعداد أخرى، كأن نقـــول أن سقراط عدد وكالياس عدد...إلخ "[36]، لا يمكننا القول بهـــذا الرأي لأن طبيعـــة الموجودات الحسية تختلف تماما عن طبيعـــة الأعـــداد الثابتـــة والأزليـــة، وإذا قلنـــا بأن المثل أعـــداد " لأن الموجودات مثل كالياس الذي يعتبر علاقة عددية مع النار، التراب، الماء، الهواء، –المثال نفسه هو أيضا علاقة عددية ببعض الأشياء الجوهرية، والإنسان في ذاته سواء كان عددا مثاليا أولا، سيكون علاقة عددية بين بعض العناصر وليس عددا بمعنى الكلمـــة "[37].

كما أن المثل ليست أعدادا لأنه " من مجموعة أعداد يولد عدد واحد لكن من مجموعة مُثل كيف يمكن أن يولد مثال واحد "[38]، وإذا قلنا أن الأمـــــر لا يتعلق بالأعداد في ذاتها ولكن بالوحدات التي توجد في العدد، فهذا يخلق إشكالية أخرى، فإذا كان العدد الضخم يولد من العدد ، فكيف نستطيع تحديد طبيعة الوحدات المكونة لهذا العدد الضخم؟ وإذا كانت هذه الوحدات متماثلة فكيف تختلف المثل – باعتبارها أعدادا – فيما بينها؟

أما إذا افترضنا أن الوحدات في تركيبها غير متماثلة " فســـيكون مـــن الضروري ابتكار نوع آخر من الأعداد تكون موضوعا للجبر"[39]، " زيـــادة على ذلك كيف نفسر كون العدد المثالي المكون من وحدات هو وحـــدة "[40]، ننتقل الآن إلى المسألة الثانية وهي اعتبار أن عناصر المثل هـــي عناصـــر للموجودات.

رأى (أفلاطون) أن عناصر المثل هي عناصر كل الموجـــودات، وأن مادة مبادئ المثل هي الكبير والصغير، وأن صورتها هـــي الواحـــد لأنـــه انطلاقا من الكبير والصغير ومشاركتها في الواحد تولـــد الأعـــداد المثلـــى، وقد وصل (أفلاطون) إلى نفس النتيجة التي وصل إليها الفيثاغوريون وهـــي

اعتبار الأعداد عللا و جواهر للموجودات ولكنه استبدل اللانهـــائي عنـــدهم "بالزوج" اللانهائي وهو الإسهام الشخصي له.

نقطة أخرى ترجع إليه هي أنه وضع الأعداد خارج الأشياء الحسية في حين أن " الفيثاغوريـــن " اعتبروها هي ذاتها أعدادا أما فيما يخص العلل (فأفلاطون) "يعتمد على نوعين من العلل العلة الصورية " الواحـــد " والعلة المادية "الزوج" حيث وضع في أحدهما علة الخير وفي الآخر علة الشر"[41]، ونجد أصول هذه الفكرة عند كل من (أمبيدوكل) و (أناكساغوراس).

ولكن تفسير المثل بعملية الوحدة بين الثنائية غير المحددة " للكبر والصغر" والواحد لا تسمح لنا بتفسير كيف أن النهائي واللانهائي يتحدان لكي يكوّنا العدد، فالأفلاطونية هنا تفتح الطريق أمام ريبية جوهرية.

و يبقى الاعتراض الأساسي الذي يوجهه (أرسطو) (لأفلاطون) في عدة مناسبات هو أن هذا الأخير لم يتقبل إلاّ مبدأين هما الماهية والمادة، الأولـــى علة الخير، والثانية علة الشر، وإذا كانت المثل مختلفة جدا عن المـــادة فـــلا يمكنها أبدا أن تكون عناصر للموجودات.

ز – العلم ومشكلة الجوهـــر: وهو الاعتراض الأساسي الـــذي دفـــع (أرسطو) إلى انتقاد المثل الأفلاطونية ليس باعتبار أنها غير موجودة ولكن لأن وجودها المفارق للأشياء الحسية يؤدي إلـــى هـــدم المعرفـــة، فحســـبه (أفلاطون) ترك الشيئين – اللذيـــن اعتقد بأنه وحدهمـــا – ينفصلان و هما العلم والجوهر، ويمكن أن نقسّم هذا النقد إلى اعتراضين أساسين وهما:

– إما أن المثل هي مواضيع للعلم وبالتالي فهي ليست جواهر أو أنهـــا جواهر للأشياء وإذا لا يمكنها أن تكوِن موضوعا للعلم.

إذا تفحصنا النقطة الأولى: فالمثل مثلما يجب أن تكون في الأفلاطونية هي مواضيع تعريف وكل تعريف مكون من النوع والجنس كأن نعرف الإنسان بأنه حيوان راجل، هذه التركيبة ستكون عائقا لوحدة المعرّف، لأن حيوان راجل تعني من جهة موجودا واحدا ومن جهة أخرى، إذا كانت نظرية المثل حقيقية نجد أن تركيبها يتعارض مع الوحدة لأن العبارتين حيوان راجل تعني كل منهما مثالا أي جوهرا، إذا يوجد في الإنسان جـــوهران وبالتالي يفقد الإنسان وحـــدته و جوهريته، لذلك يجب أن تكون الأجناس متعددة وأن تكون وحدتها في عقولنا وليست في الواقع.

نعود الآن إلـــى النقطة الثانية: وهي أنه إذا كانت المثل جواهر فهـــي لا يمكن أن تكون لا مواضيع للعلم ولا وسائل له لأن البراهين التي تتبعها (أرسطو) لم توصله إلاّ إلى نتيجة واحدة وهي أن المثل ليست سوى ماهيات محققة في الأشياء الحسية، وهي لا تجيب على المشكل الميتافيزيقي" ما الذي يجعل من الإنسان الحســـي إنسانا؟ " لأن اقتراح المشاركة أثبت فشله كما أن وجود المثل مفارقة لنا في عالم متعال جعلها متعذرة على العلم الإنساني.

في الأخير نرى بأن أغلب اعتراضات (أرسطو) على نظرية المثل كان (أفلاطون) قد تطرق إليها في محاورة ""البارمينـدس " ورأى بعض المفكرين أنهتا غير عادلة، مثل (إميـــل بريهـــة **E . Brèhier**) و(ســـانت **بـــارثلمي J . Barthèlemy – ST-H**) وكان لهذا الأخير حجج مضادة لنقد (أرســـطو) فقد رأى أولا أن المثل هي مبادئ مسلم بها والمبادئ لا يبرهن عليها، كما أن المثل ليست مضاعفة للموجودات لأن العلم بها أسهل من تتبع عدد لانهـــائي من الجزئيـــات، وفـــي ما يخص تحديد الأشياء التـــي لهـــا مثل فهو عمـــل لا نستطيع أن نطلـــبه حتى من (أرسطو) نفسه لأننا لا يمكن أن نطلب من أحد إحصاء كل موجودات الكون.

وإذا كانت المثل ليست عللا مادية ولا عللا محركة (فأرسطو) لن ينفي عنها كونها عللا غائية لأنها أشبه بالآلهة وهنا أمامه خياران، إما أن يتخلى عن مذهبه، أو يعترف بأن المثل هي علل غائية أدنى من الإله ولكنها مشابهة له لأنها مفارقة للأشياء مثلما هو مفارق للأشياء أيضا.

هذا في حال فهمنا (أفلاطون) خطأ واعتبرنا أن المثل مفارقة للأشياء لأنه حسب هذا الأخير مثـــل (أفلاطون) ليست مفارقة، إلاّ أننا لا نؤيد هـــذا الموقف لأنه لو كان في نية (أفلاطون) أن يجعـــل مـــن المثـــل ملازمـــة للموجودات لقالها صراحة مثل (أرسطو) فلا حاجة به إلى إضمار رأيه كما أن تلميذه هو الأجدر بفهم أستاذه لأنهما يستعملان لغة واحدة وينتميان إلـــى نفس العصر.

الهـــوامـــش

[1]- Aristote**:** **La Métaphysique**, traduit par : J. Tricot, Paris, Librairie philosophique Vrin J., 1966, TOME I,A, 6,887a 30- 887b 5.

[2]- Ibid, A , 8,989 b, 5-10-15 .

[3]- م.تايلور: **الفلسفة اليونانية، مقدمة**، ترجمة:عبد المجيد عبد الرحيم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م، ط1، ص100.

[4]- Emile Brehier**:** **Histoire De La Philosophie, antiquité et moyen age**, Paris, PUF, 1943, TOME I, CHA III, P121.

[5]- أفلاطون: **الجمهورية**، ترجمة: فؤاد زكريا، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968م، ص ص246-247.

[6]- Jean Brun: **Platon et l'Académie**, 4eme édition, Paris, PUF, P29.

[7]- J. Barthèlemy – ST – H, **De la métaphysique**, paris, Librairie Germer Bailliére et Cie, 1879, première partie, P37.

[8]-Ibid.

[9]- J. Barthèlemy – ST – H, Op.Cit, P30.

[10]- أفلاطون: **البرمينيدس**، ترجمة: فؤاد جورجي باربارة الدمشقي، تحقيق: أوغست ديبس، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، دمشق 1976م، ص164.

[11]- J.Barthélemy-ST-H: **De la métaphysique**,P31.

[12]- Ibid, P33.

[13]-أفلاطون: **فيدون (محاورات أفلاطون)**، عربها: زكي نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة و النشر، القاهرة، 1966، ص183.

[14]- المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[15]- الأهواني محمد فؤاد: **أفلاطون**، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1965م، ص114.

[16]- محمد علي أبو ريان: **تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلاطون**، الدار القومية للطباعة والنشر، الإسكندرية 1965م، ط2، ص230.

[17]- أفلاطون: **البارمينيدس**، ص150.

[18]- المصدر نفسه، ص151.

[19]- المصدر نفسه، ص157.

[20]- المصدر نفسه، ص151.

[21]- المصدر نفسه، ص 159.

[22]- المصدر نفسه، نفس الصفحة.

[23]- المصدر نفسه، ص160.

[24]- المصدر نفسه، ص165.

[25]- Emile Bréhier**: Histoire De La Philosophie, antiquité et moyen age**, P122.

[26]- أفلاطون: **البرمينديس**، ص172.

[27]- Emile Brehier, Op.Cit, P128.

[28]- Ibid,P189.

[29]- Aristote**: La Métaphysique**, TOME I,A,9,990 b ,5.

[30]- Emile Bréhier, Op.Cit , P192.

[31]- Aristote**: La métaphysique**, TOME I, A,9 ,990 b,5-10.

[32]- Ibid, TOME I A, 9,990 b,20-25.

[33] - Leon Robin: **Platon**, 2eme edition, Paris, PUF,1968,P90.

[34]- Aristote,**: La Métaphysique** ,TOME I,B,9,991 b, 5-10.

[35]- Ibid, B, 9,991 b, 5-10.

[36]- Ibid, A, 9,991 b,5-10.

[37]- Ibid, TOME I, A,9,991 b,10-15.

[38]- Ibid, A,9,991 b,25-30.

[39]- Ibid.

[40]- Ibid, A,9,992 a,5.

[41]- Ibid, TOME I, A, 7,988 a, 10.

الاحتلال الفرنسي لقسنطينة عاصمة بايلك الشرق الجزائري عام1837م وردود فعل أعيان أريافها

الأستاذ: العياشـــي روابحي
قسم التاريـــخ
جامعة باجي مختار –عنابة

الملخـــص:

يتميـــز الشرق الجزائري بوجود عدة قوى محلية فاعلة، تحكمت إلى حد بعيد في توجيه الجماهير الريفية، ولعبت دورا سياسيا وعسكريا متميـــزا في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر. و تتمثل هذه القوى في مختلف الأسر الكبرى التي تهيمن على أريافه. ويحاول هذا المقال أن يسلط الضوء علـــى سقوط مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق تحت السيطرة الاستعمارية عـــام 1837م وموقف هذه الأسر المتنفذة من هذا الحـــدث، كمـــا يبـــين الخلفيـــة التاريخية لمواقفها المتباينة من ذلك، فهناك أسر تخندقت في صف المقاومـــة الوطنية بقيادة الحاج أحمد باي ودافعت عن مدينة قسنطينة، وفي مقابل ذلـــك هناك أسر أخرى فضلت الميل للاستعمار الفرنسي والتعاون معه.

بعدما أحكم الفرنسيون قبضتهم على الجزائر العاصمة عام 1830م، اتجهت أنظارهم إلى مدينة قسنطينة قصد احتلالها لما تنطوي عليه من أهمية إستراتجية، وفي هذا السياق، شنت عليها حملتين عسكريتين عام 1836م، و1837 على التوالي، وقد نتج عن الحملة الأخيرة سقوط المدينة، واحتلالها يوم 1837/10/13، وتبعا لدلك، فقد تباينت ردود فعل أعيان الريف القسنطيني الدين يمثلون زعماء الأســـر المنتقدة فما هو موقف هده الأســـر من هـــذا الحدث؟

وما هـــي خلفياتـــه؟

والواقع أن احتلال هذه المدينة أصبح إلى حد كبير معروفا ومبسوطا في العديد من الدراسات التاريخية•، لذلك سأحاول التطرق إليه بإيجاز حتى نتمكن من الربط بينه وبين الأحداث التي نسوقها، وحتى نتمكن من فهم مواقف هذه الأسر من احتلال قسنطينة بشكل دقيق، لا بد لنا أيضا من تسليط الضوء ولو بصورة موجة عن علاقة هذه الأسر بالإدارة العثمانية منذ بداية الحكم العثماني إلى غاية مجيء الحاج أحمد باي عام 1826م، لأن تلك العلاقة هي التي ساهمت إلى حد بعيد في تحديد موقفها من هذا الحدث وعليه. أتناول هذا الموضوع بناء على النقاط الآتيـــة:

1- علاقة الحكام العثمانيين بالأسر القسنطينية المتنفذة.
2- احتلال مدينة قسنطينة عام 1837م.
3- موقف الأسر القسنطينية من احتلال قسنطينة.

1- علاقـــة الحكام العثمانيين بالأســـر القسنطينية المتنفذة.

عندما بسط العثمانيون سلطتهم على الشرق الجزائري وجدوا أسرا متنفذة تهيمن على أريافه وهذه الأسر هي: أسرة بوعكاز الذواودة، وأسرة

بن جلاب بجنوب البايلك القسنطيني، وأسرة أحرار الحنانشة، وأسرة بوعكاز بن عاشور وأسرة المقراني بشمال البايلك القسنطيني، وانطلاقا من القرن 18م ظهرت أسرة بن قانة بالجنوب القسنطيني، إن هذه الأسر المحلية الحاكمة في الريف القسنطيني، يسميها فيرو **Feraud** " الأســـر الشريفيـــة " **Les familles seigneuriale** "[42].

وقد اعترف الحكام العثمانيون باستقلال هذه الأسر، حيث كانت لهم قيادات، وإمارات مستقلة شاسعة إلى درجة انه يمكن، القول أن قيادة كل أسرة كانت تشكل دولة داخل دولة[43].

وقد كانت علاقة الحكام العثمانيين بهذه الأسر تتأرجح بين السلم والحرب. ففي حالة السلم، إستفاذ هؤلاء الحكام من هذه العلاقة حيث وظفوها في تثبيت أركان حكمهم في البايلك القسنطيني واستفادوا من نفوذ هذه الأسر وقوتها في القضاء على حركات التمرد والعصيان[44]، ويلاحظ أن هذه العلاقة كانت تتسمم في بعض الأحيان، وعلى إثر ذلك فإن زعماء هذه الأسر ينفضون من حول هؤلاء الحكام وينضمون إلى الثورات المحلية وحركات العصيان المختلفة.

فعلى سبيل المثال ذكر الأب دان " **le père dan** " أن شيوخ أسرة المقراني شاركوا في ثورة ابن الصخري عام 1638م المناهضة للحكم العثماني لأن علاقاتهم مع السلطات العثمانية كانت غير منسجمة في تلك الفترة[45].

وقد فضل بعض الحكام العثمانيين اللجوء إلى مصاهرة زعماء هذه الأسر، فقد تزوج صالح باي قسنطينة (1771م-1792م) من إحدى بنات الباي أحمد القلي (1756-1771) الذي كانت زوجته من أسرة المقراني[46]

وهي نفس العلاقة التي نسجها الحاج أحمد آخر بايات قسنطينة مع أسرة المقراني كذلك[6].

وقد ترعرع الحاج أحمد باي في أحضان أسرة بن قانة لأن أمه كانت تنحدر منها، وقد نالت هذه الأسرة حظوة ورعاية خاصة حيث منحها منصب "شيخ العرب"• بعدما انتزعه من عائلة بوعكاز الذواودة التي كان على رأسها فرحات بن السعيد. وقد كان هذا الإجراء سببا في تجدد الصراع بينهما بالجنوب القسنطيني، كما تسبب في اضطراب العلاقة بينه وبين أسرة بوعكاز الذواودة[7] أما علاقة الحاج أحمد باي بأسرة بوعكاز بن عاشور بفرجيوة، فقد كانت قوية ومتينة[8] وهي ذات العلاقة التي كانت تربطه بأسرة أحرار الحنانشة حيث أشار في مذكراته إلى هذه العلاقة[9].

ومن خلال ما تقدم، نخلص إلى القول أن الحكام العثمانيين سعوا إلى كل الوسائل التي تساعدهم على ربط علاقات ودية مع هده الأسر، بما في دلك رابطة المصاهرة لكي يساعدهم على تثبيت حكمهم بالبايلك القسنطيني.

2- احتـــلال مدينة قسنطينة عـــام 1837

الواقـــع أنه بعد استيـــلاء الفرنسيين على الجزائر العاصمـــة في 1830/07/05م اتجهت أنظارهم مباشرة إلى الشرق الجزائري لاحتلال عاصمتـــه مدينة قسنطينـــة، فقد صرح الحاكم العـــام الفرنسي دوروفيغو DE ROVIGO (1831-1833) أن فرنسا لا يمكنها بحال من الأحوال أن تثبت أقدامها على أرض الجزائر دون السيطرة على مدينة قسنطينة، والشرق الجزائري بصفة عامة[47].

وحتى يتحقق لهم ذلك، كان عليهم السيطرة على مدينة عنابة نظرا لأهميتها الاقتصادية والإستراتيجية، حيث تشكل المنفذ البحري الرئيس لبايلك

الشرق الجزائري، لذلك كانت ثاني مدينة مستهدفة من قبل قوات العدو، وعليـــه أمر الجنيـــرال دوبرمون بتجهيز حملة عسكرية ضد المدينـــة يوم 1830/07/26 [48].

وقد اعتبر منظرو السياسة العسكرية الفرنسية آنذاك أنه لا مناص من احتلال هذه المدينة لأن إنتفاء السيطرة عليها يعني بالضرورة إنتفاء السيطرة على مدينة قسنطينة[49].

وعلى إثر إستيلاء الفرنسيين عليها عام 1832م، تخوف الحاج أحمد باي، وأدرك النوايا العدوانية للمحتل، لذا جعل من شرط الجلاء عن المدينة شرطا أوليا واقفا لا بد من توفره قبل التفاوض عن أي صلح بينه وبين قوات الإحتلال[50].

وفي 1836/01/21م تلقى المملوك يوسف• أمرا من الماريشال الفرنسي كلوزيل **Clauzel** يأمره فيه بإحتلال مدينة عنابة، وتنفيذا لهذا الأمر قام هذا الأخير بشن حملات وحشية ضد سكان المنطقة وعاث فيها فسادا وارتكب جرائم فظيعة طالت النساء والأطفال والشيوخ[51].

ويذكر " شارل أندري جوليان " **Charles-André Julien** أن المملوك يوسف هو مهندس هذه الحملة الذي حفز وأقنع الماريشال كلوزيل على القيام بعمل عسكري ضد مدينة قسنطينة قصد إخضاعها، وعليه شنت حملة عسكرية في نوفمبر عام 1836م، وفيها ابتلع الجيش الفرنسي إهانته ومني بكارثة عسكرية وسيكولوجية خطيرة[52].

واتخذ مناوئوا "كلوزيل" من هذه الهزيمة مسوغا لتوجيه انتقاداتهم ضده حيث أتهم بقلة التجهيز للحملة، وبالانفرادية في اتخاذ القرار[53]. والحق أن هذه النكبة أحدثت ضجة كبرى في الأوساط السياسية والعسكرية الفرنسية انتهت

بالتضحية بالمارشال كلوزيل والتخلي عن خدماته وتعويضه بالماريشال دامريمون[54].

ويبدو أن الماريشال الجديد وقف على مواطن القوة وبواطن ضعف الحملة العسكرية السابقة ضد مدينة قسنطينة، لذا عمل كل ما في وسعه من أجل تلافي عوامل الهزيمة، وفي هذا الإطار فقد استدعى النقيب " فولتـــز " **Foltz** الذي كان مقيما بتونس وكلفه بمهمة سرية "استعلامية" حول الوضع العام بقسنطينة وطلب منه إعداد تقرير مفصل حول ذلك، وتزويده بمعلومات حول القوة العسكرية للحاج أحمد باي، وفي ضوء هذا التقرير تشن حملة عسكرية ثانية، وبهذا فإن إدارة الاحتلال عملت على توفير شروط نجاح الحملة الثانية خاصة بعد اطمئنانها على الجهة الغربية من البلاد التي عقدت بشأنها معاهدة التافنة في ماي 1837 مع الأمير عبد القادر[55].

وفي 1837/10/05 بلغت الحملة العسكرية الثانية سطح المنصورة، ورغم المقاومة الباسلة التي أبداها جيش الحاج أحمد باي والتي أودت بحياة الماريشال دامريمون في 1837/10/12، إلا أنها استطاعت احتلال المدينة، وبذلك سقطت قسنطينة عاصمـــة بايلك الشرق فـــي قبضة المحتـــل في1837/10/13[56].

وبسقوط هذه المدينة، تكون الإدارة الاستعمارية قد بلغت الهدف الذي خططت له مباشرة بعد احتلالها للجزائر العاصمة، وهو السيطرة على عاصمة الشرق الجزائري رغم المقاومة الباسلة التي أبداها الحاج أحمد باي.

3- موقف الأســـر القسنطينية من احتلال قسنطينة

الواقع أن علاقة التطاحن والصراع التي سادت بين بعض الأسر القسنطينية، بل وبين فروع بعض الأسر كأسرة المقراني خلال العهد

العثماني، والسياسة التي درج عليها الحكام العثمانيون إلى غاية فترة حكم الحاج أحمد باي تجاه هذه الأسر، كانت قد أثرت بشكل أو بآخر على موقفها من احتلال مدينة قسنطينة، حيث تباينت مواقفها حول ذلك، فمنهم من فضل التخندق في صف المقاومة الوطنية الرسمية والدفاع عن المدينة إلى جانب قوات الحاج احمد باي، ومنهم من ارتمى في أحضان الاستعمار الفرنسي وفضل الخضوع له.

فقد هب رؤساء الأسر المتحالفة مع الحاج أحمد باي لنصرته بعد الزيارة التفقدية التي قام بها هذا الأخير في جوان 1836م إلى مختلف القبائل[57]، وقد ذكر الحاج أحمد باي في مذكراته بعض القادة الذين لبوا نداءه و منهم الشيخ رزقي عن أسرة الحنانشة، وأحمد المقراني، ومحمد بن عبد السلام المقراني، ولد عبد الله المقراني عن أسرة المقراني وبوعزيز بن قانة شيخ العرب عن أسرة بن قانة، والشيخ بوعكاز بن عاشور بفرجيوة[58].

وبعد انكسار الحملة الفرنسية الأولى على قسنطينة عام 1836، قام الحاج أحمد باي بمراسلة شيوخ قبائل الشرق الجزائري، طالبا منهم الوقوف وقفة رجل واحد في مواجهة التهديدات الفرنسية[59].

وقد وقفت أسرة المقراني إلى جانب الحاج أحمد باي في مقاومته للقوات الغازية عن طريق زعيمها أحمد بن محمد المقراني أثناء الحملتين الفرنسيتين على قسنطينة، وتمكن فرسانه من توجيه ضربات موجعة لقوات الاحتلال خاصة أثناء الحملة العسكرية الأولى عام 1836، واستمر أحمد بن محمد المقراني في وفائه إلى الحاج أحمد باي حتى بعد سقوط مدينة قسنطينة عام 1837، حيث اتصل به وخيره بين الإقامة في قلعة بني عباس، أو في جبال المعاضيد بقيادة المقراني، لكن الباي فضل الانسحاب جنوبا حيث روابطه العائلية عند اسرة بن قانة بالصحراء[60].

وإذا كانت علاقة الحاج أحمد باي بأحمد بن محمد المقراني ودية فإنها ليست كذلك مع أبناء عمومته. و تذهب بعض المصادر الفرنسية إلى أن صهر الحاج أحمد باي محمد بن عبد السلام المقراني وهو من أبناء عمومة أحمد بن محمد المقراني حاول الاتصال بالفرنسيين لطلب الأمان انطلاقا من عدة مراسلات تمت بينه وبينهم، غير أنهم صرفوا عنه النظر. وسبب عدم اكتراثهم بطلبه، فقد اتجهت أنظاره رفقة بعض الزعماء الآخرين إلى باي تونس. وكان محمد بن عبد السلام سيء الحظ، حيث تمكن الحاج أحمد باي من العثور على أحد مراسلاته، فألقى عليه القبض وتم إيداعه بسجن القصبة الذي فر منه إثر الحملة الفرنسية التي شنت على قسنطينة عام 1837م مستغلا في ذلك حالة الفوضى التي عمت المدينة إثر سقوطها[61].

والواقع أن هذا الخبر يجوز فيه النظر، وما يؤكد هشاشته أن الحاج أحمد باي يذكر في مذكراته أن الشيخ عبد السلام المقراني كان ضمن الزعماء الذين لبوا نداءه لمواجهة الاحتلال الفرنسي كما قدمنا.

أما أسرة الحنانشة، فقد وقفت هي الأخرى إلى جانب الحاج أحمد باي في دفاعه عن مدينة قسنطينة، لأن الشيخ رزقي قائدها كان ضمن القادة الذين ذكرهم الحاج أحمد باي في مذكراته، و ذلك في معرض حديثه عن الزعماء الذين لبوا نداءه لمواجهة الاحتلال الفرنسي حينما كان يهدد مدينة قسنطينة، وقد أشرنا إلى هذه المسألة سابقا.

ويبدوا أن أسرة الحنانشة كانت علاقتها بالحاج أحمد باي تشبه إلى حد ما علاقة أسرة المقراني بهذا الباي، فإذا كانت مواقف هذه الأخيرة متباينة من هذا الباي بين مناصر ومعارض له، فإن أسرة الحنانشة كانت هي الأخرى كذلك، إلا أن الفرق بينهما أن هذه الأخيرة انتصبت شوكة مغروسة في حلق الاستعمـــار رغم الخلافـــات القائمة بين بعض زعمائها والحاج

أحمد باي، حيث قام هذا الأخير باعتقال الحسناوي بن بلقاسم شيخ الحنانشة، وعين خلفه كاتبه الشيخ رزقي، غير أنه تمكن من الفرار من السجن، فانفض من حول الحاج أحمد باي وتسممت العلاقة بينهما[62]، ورغم ذلك فقد كان الشيخ الحسناوي يتواصل مع الحاج أحمد باي منذ أن انتقل إلى مدينة عنابة للذود عنها عام 1832، حيث طلب منه المجيء قصد تحريرها أو على الأقل تزويده بمقاتلين، غير أن الحاج أحمد باي لم يتمكن من تلبية طلبه لأنه كان في وضع حرج ونصحه بقطع طريق المواصلات بين عنابة وقسنطينة [63].

أما أسرة بوعكاز بفرجيوة، فقد وقفت موقف المدافع عن مدينة قسنطينة إلى جانب قوات الحاج أحمد باي وقد أشار إلى ذلك الحاج أحمد باي في مذكراته كما قدمنا.

وقد ظل شيخها ثابتا على موقفه المقارع للاستعمار والمؤيد للحاج احمد باي. فبعد سقوط مدينة قسنطينة في قبضة المحتل عام 1837، بقي شيخها يتابع بإهتمام كبير مقاومة الحاج أحمد باي ويعطف عليه عطفا كبيرا، وكان متفائلا بانتصاره على القوات الاستعمارية الغازية[64].

وما يقال عن موقف أسرة المقراني، وأسرة أحرار الحنانشة وأسرة بوعكاز بن عاشور من احتلال مدينة قسنطينة، يقال كذلك عن موقف أسرة بن قانة من هذا الحدث، فقد كان زعيمها بوعزيز بن قانة إلى جانب الحاج أحمد باي في الدفاع عن المدينة، غير أنه بعد سقوط المدينة تحت السيطرة الاستعمارية حدثت تطورات حاسمة على موقف هذه الأسرة أدت إلى بتر العلاقة بين الحاج احمد باي وزعماء هذه الأسرة.

وفي هذا السياق يذكر الحاج أحمد باي في مذكراته أنه بعد سقوط المدينة انسحب المقاومون بزعامته واستدعى كل القادة واقترح عليهم تجميع

النساء والأطفال والشيوخ، وكل الممتلكات المنقولة الثمينة التابعة للباي وسائر قادته، و– قد عبر عنها بالزمالة –، ثم التوجه جنوبا حيث الصحراء الآمنة، وفي نفس الوقت إرسال جيش يقوده الباي نفسه يتجه إلى مدينة عنابة ويتمركز بإحدى النقاط الرئيسة في الطريق الرابط بين قسنطينة وعنابة من أجل قطع حركة المرور بين المدينتين، وقد لاقت هذه الخطة استحسانا من لدن مرافقي الحاج أحمد باي، وكادت أن تدخل حيز التنفيذ لولا اعتراض شيخ العرب بوعزيز بن قانة الذي صاح قائلا " ماذا تريدون أن تفعلوا: تبتعدون عن بلدكم وتتوجهون نحو الشمال إذن، فأنتم لا تعلمون أن فرحات بن سعيد يقترب بسرعة من الزيبان وفي الوقت الذي تحاولون فيه الدفاع عن قسنطينة، فإنكم تعرضون أنفسكم للطرد من منطقتكم، ولذلك يجب أن نسرع إلى الصحراء ندخل عائلاتنا ومن اتبعنا إلى المدن، ثم نخرج متحدين ضد العدو الذي نخشى هجومه أكثر، فالفرنسيون لن يتقدموا بينما فرحـــات يزحف علينا، ومن ثمة يجب أن نبدأ بمحاربته وبعد ذلك نوحد قوانا ونهاجم الفرنسيين "[65].

وبفعل قلة أنصار الحاج أحمد باي، فقد أذعن إلى رأي خاله وعدل عن خطته الحربية السالفة الذكر، فاتجه إلى الصحراء[66].

وكان ذلك خطأ إستراتيجيـــا كبيـــرا و "مصابـــا عظيمـــا" بالنسبة للحاج أحمد باي[67]، لأن بوعزيز بن قانة كان قد مال للإدارة الإستعمارية التي عينته شيخا للعرب في 1839/01/14[68]. وبهذا وضعت أسرة بن قانة نفسها في خدمة الإدارة الإستعمارية رغم أنها وقفت موقف المدافع عن مدينة قسنطينة.

وإذا كانت الأســـر السابقة الذكر وقفت موقف المعادي للاحتلال، وتخندقت في صف المقاومة الوطنية التي أعلنها الحاج أحمد باي، فهناك أسر

أخرى تبنت موقفا سلبيا من هذه المقاومة حيث تعاونت مع قوات الاستعمار ورفضت المشاركة في الذود عن مدينة قسنطينة، وهذا الكلام ينطبق على أسرة بوعكاز الذواودة، و أسرة بن جلاب بالجنوب القسنطيني، فما هي خلفيات هذا الموقف السلبي؟.

لقد كان الصراع عنيفا بين أسرتي بوعكاز الذواودة وبن قانة، وهذا الصراع كان موروثا عن العهد العثماني، وكان يتمحور حول المكاسب السياسية والمراكز الإدارية الحساسة بمنطقة الزيبان[69]، وقد استفحل هذا الصراع منذ أن قام الحاج أحمد باي بانتزاع منصب شيخ العرب من أسرة بوعكاز الذواودة باي بانتزاع منصب شيخ العرب من أسرة بوعكاز الذواودة ومنحه إلى أسرة بن قانة كما رأينا سابقا.

ويذكر الحاج أحمد باي في مذكراته أن الأمير عبد القادر حاول تأليب سكان بايلك الشرق الجزائري ضده حيث كتب " وقبل احتلال مدينة قسنطينة بمدة قصيرة، كان الحاج عبد القادر قد كتب إلى العرب يخبرهم بأنه أبرم الصلح مع الفرنسيين الذين اعترفوا بسيادته على كامل أنحاء البلاد، وعليه يطلب منهم أن يتخلصوا من سلطاني، ويدخلوا في طاعته وإذا لم تفعلوا ذلك، فإنني أثير عليكم الفرنسيين، وفي وقت وجيز ستسحقكم قواتي وقواتهم "[70].

ولم يستجب إلى دعوة الأمير عبد القادر أحد باستثناء فرحات بن السعيد الذي كان على رأس أسرة بوعكاز الذواودة حيث عينه خليفة له في الصحراء[71].

وبهذا يمكن القول أن ميل فرحات بن السعيد إلى الأمير عبد القادر كان نكاية في الحاج أحمد باي الذي انتزع من أسرته منصب شيخ العرب ومنحه إلى أسرة بن قانة كما قدمنا.

ويلاحظ أن هذا الزعيم حاول اللعب عن الحبلين، فهو خليفة للأمير بمنطقة الزيبان، وفي نفس الوقت كان يحاول الاتصال بالفرنسيين ولما بلغت هذه الأخبار مسامع الأمير أمر بإنهاء مهامه واعتقاله[72].

ويذكر الماريشال فالي **Valee•** في إحدى مراسلاته الموجهة إلى السلطات الفرنسية أن زعيم الزيبان فرحات بن السعيد - " ثعبان الصحراء "- **serpent de desert** كما يسميه -حشد قوة عسكرية تعدادها 1000 فارس وتقدم بها إلى قسنطينة، وبلغ أسوار هذه المدينة مباشرة بعد سقوطها وتحديدا يوم 1837/10/27، طالبا منه مواصلة الحرب ضد الحاج أحمد باي، وعندما امتنع عن ذلك صرح قائلا أنه يواصل حربه ضد هذا الباي وأنه سوف يبذل قصارى جهده لإلقاء القبض عليه حيا أو ميتا[73].

وبالفعل فقد خاض حربا ضد قوات الحاج احمد باي وانتصر على قواته واحتجز منهم عدد قليل من الرهائن لكي يتباهى بهذا الصنيع أمام السلطات الإستعمارية ويتقرب أكثر منها، بل أكثر من ذلك أنه صمم على أنه لن يراسل إلا الماريشال فالي ويفاوضه حول ذلك[74].

وقد أدرك الفرنسيون ضعف شخصية هذا الزعيم لأنه لم تكن لديه قضية يدافع عنها وإنما كان يتبنى قضية شخصيته ليس إلا[75]، لذلك كانت كل طلباته واتصالاته بالإدارة الفرنسية الرامية إلى القضاء على مقاومة الحاج أحمد باي تقابل بالتسويف وغالبا ما كانت تصرف عنها النظر[76]. وبهذا يمكن القول أن أسرة بوعكاز الذواودة ساهمت إلى حد ما في إضعاف المقاومة الرسمية التي تزعمها الحاج أحمد باي من خلال موقفها السلبي الذي وقفته حيث أنها لم تنضم إلى المعسكر الرافض للاستعمار والمدافع عن مدينة قسنطينة.

أما أسرة بن جلاب فقد وقفت هي الأخرى موقفا سلبيا من احتلال مدينة قسنطينة، وذلك بناء على علاقتها غير المنسجمة مع الحاج أحمد باي قسنطينة.

والواقع أن موقف هذه الأسرة من احتلال مدينة قسنطينة، هو في واقع الأمر إمتداد لمواقفها السابقة من الإستعمار الفرنسي، فقد دخلت في علاقات مع الإدارة الإستعمارية عن طريق علي بن جلاب الذي اتصل بالفرنسيين عام 1833م حينما أرسل خطابا إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر العاصمة عارضا عليه التعاون معهم قصد الإطاحة بحكم الحاج أحمد باي(77) بل أكثر من ذلك، فإن تعاون هذه الأسرة مع الاحتلال الفرنسي لم يتوقف عند هذا القــدر حيث أن سلطان الأسرة عبد الرحمن شيخ توقرت أرسل خطابـــا إلـــى الحاكم العام الفرنسي الجنرال فوارول **Voirol** بتاريخ 1834/02/24 عرض فيه فكرة التعاون مع الإدارة الإستعمارية بهدف تحطيم شوكة الحاج أحمد باي، وحتى يبدي حسن نيته للإدارة الإستعمارية، فقد أرسل له إبنه علي بن جلاب لكي يحتجزه كرهينة طيلة فترة التفاوض، وقد إقترح السلطان عبد الرحمن على السلطات العسكرية الفرنسية التمركز بمدينة عنابة، ويقوم بتزويدها بعدد غير قليل من الفرسان لأنه يملك جيشا يتألف من زهاء 1000 فارس وعدد معتبر من المشاة ليضم قواته إلى القوات العسكرية الفرنسية للتوجه إلى قسنطينة قصد احتلالها والإطاحة بالحاج أحمد باي(78).

وفي 1834/03/15 تلقى السلطان عبد الرحمن ردا من الجنرال فوارول **voirol** يتضمن خطة أولية لإحتلال مدينة قسنطينة حيث إقترح أن تشن القوات الفرنسية حملة عسكرية ضد مدينة قسنطينة انطلاقا من مدينة عنابة، وفي الوقت نفسه تنطلق حملة عسكرية موازية يشنها السلطان عبد الرحمن رفقة القوات الفرنسية انطلاقا من الصحراء، وفي هذه الحالة يكون

الحاج أحمد باي محاصرا بين فكي كماشة (أي بين القوات الفرنسية المنطلقة من مدينة عنابة وقوات السلطان عبد الرحمن المنطلقة من مدينة توقرت) الأمر الذي يسهل عملية سحق الحاج أحمد باي وسائر المتعاونين معه[79].

وبعدما أحكم الفرنسيون قبضتهم على مدينة قسنطينة عام 1837 واصل سلطانها اتصالاته بالسلطات العسكرية الفرنسية قصد التعاون معها[80]، والثابت أن موضوع الإطاحة بالحاج أحمد باي ومحاولة القضاء على مقاومته شكل إحدى النقاط المركزية في هذه المراسلات.

وبهذا يمكن القول أن أسرة بن جلاب كانت قد مالت إلى الإدارة الاستعمارية منذ البداية وتمسكت بموقفها المؤيد للاستعمار والمناهض للمقاومة الوطنية، وبقيت على موقفها حتى بعد سقوط مدينة قسنطينة في قبضة الإحتلال الفرنسي عام 1837.

وفي الختام نرى أن السياسة التي درج عليها الحكام العثمانيون وبايات قسنطينة تجاه الأسر القسنطينية المتنفذة هي التي صنعت مواقفها من الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة. فعلاقة الحاج أحمد باي غير المنسجمة ببعض الأسر هي التي دفعت بهم دفعا إلى الميل نحو الفرنسيين، وهو موقف مشين ممجوج لأن الارتماء في أحضان الغزاة لا مسوغ له، فمهما اختلفت هذه الأسر مع الحاج أحمد باي ومهما تباينت مواقفها معه واصطدمت مصالحها فيما بينها، فإن التعاون مع الاستعمار والاحتماء به سلوك مرفوض، فكان عليها أن تضع خلافاتها جانبا وتقف وقفة رجل واحد في مواجهة الإستعمار الفرنسي وذلك من باب أولى.

الهوامـــش

- – حول تفاصيل الحملتين الفرنسيتين على مدينة قسنطينة، أنظر:
- – عبد الكريم بحاجة: معركة قسنطينة 1836–1837، تعريب محمد الهادي لعروق، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1984.

وأنظر كذلك:

- Ernest mercier : les deux sièges de Constantine 1836, 1837, librairie L. poulet, Constantine 1896.
- H'sen derdour : Annaba 25 siècles de vie quotidienne et de luttes, Tome II, les presses de Dar el houda, Ain M'lila, Algérie 2004.
- Abdeljelil Tememi : le Beylik de Constantine et hadj Ahmed bey 1830-1837, presses de la société tunisienne des arts graphiques, Tunis, Tunisie 1978.

[42] –Charles Féraud : » les Hrar, seigneurs des Hanencha, études historiques sur la province de Constantine » in, Revue Africaine N° 18, année 1874, p13.

[43] –Charles féraud ; ibid, p23.

[44] –Armaud : « les bendjellab sultans de Touggourt , notes historiques sur la province de Constantine » in, Revue Africaine N° 23 année 1879, p269.

[45] - François trinutaire : Le père Dan: histoire de la barbarie et de ses corsaires, 2ème édition, Paris, France, 1649, p132.

[46]– فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة المدينة والمجتمع في النصف الثاني من القرن 13هـ، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة تونس الأولى 1998، ص 111.

•– كانت أسرة بوعكاز الذواودة أول أسرة صحراوية متنفذة تتحصل على هذا اللقب في بداية الحكم العثماني، وهو لقب إتخذ طابعا رسميا جاء ليعوض اللقب القديم: أمير العرب، حول هذا الموضوع، أنظر:

*- Charles Féraud : « les descendants d'un personnage des milles et une nuit en Algérie » in, Revue Africaine, n° 32, année 1878, p 233.

[47]– حميدة عميراوي: جوانب من السياسة الفرنسية وردود الفعل الوطنية في قطاع الشرق الجزائري – بداية الإحتلال– دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، 1984، ص48.

[48] – H'sen Derdour : op, cit, p 230.

[49] - Paul Azan : l'armée d'Afrique de 1830 à 1852, collection du centenaire de l'Algérie, Paris France 1936, p190.

[50]- حميدة عميراوي: دور حمدان خوجة في القضية الجزائرية (1827-1840) دار البعث، قسنطينة، 1987، ص 127.

•- اختلف المؤرخون في تحديد أصل المملوك يوسف، فمنهم من يرجعه إلى أصول إيطالية، ومنهم من يرجعه إلى أصول يهودية ليفورنية، ومنهم من قال أنه توسكاني الأصل، والثابت أنه عديم الأب والأم، سقط أسيرا في جزيرة ألبا، ونقل إلى تونس وظل خادما في قصر الباي، إلى غاية ارتكابه جريمة أخلاقية مشينة تسببت في هروبه إلى الجزائر خوفا على روحه، وعلى إثر الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1830م اتصل بالسلطات العسكرية عارضا عليها خدماته، فاستقبلوه بصدر رحب واستشاروه في عظائم الأمور العسكرية، فلعب دورا مركزيا في محاربة الجزائريين. حول المملوك يوسف ونشاطه داخل الجيش الفرنسي أنظر :

* H'sen Derdour : op. Cit, pp 258-261.

[51] -Charles- André Julien : Histoire de l'Algérie contemporaine (1827-1871), Paris , France 1964, p,p 93,94.

[52] - Charles André julien : ibid : p 132.

[53]- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص 160.

[54] - Charles André julien : op, cit , p 133.

[55] - Abdeldjelil Tememi : op.cit, p193.

[56]- صالح فركوس : المرجع السابق، ص 73.

[57] - Ernest Mercier : op cit, p 48.

[58]- محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 69.

[59]- حميدة عميراوي: المرجع السابق، ص 183.

[60] - Louis Rinn : Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie, Alger, Jourdan 1891, p20.

[61] - Charles Féraud « Histoire des villes de Constantine Bordj bouarréridj » in R.S.A.C Constantine, 1872 p 310.

[62]– حفناوي بعلي: " صانعو ملاحم الأرياف في الشرق الجزائري"، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة نوفمبر 1954، العدد 6، 2002، ص، ص، 354، 355.

[63] – Capitaine Maitrot : Bône militaire, Bône 1912, p 349.

[64]– صالح فركوس: المرجع السابق، ص، ص 97

[65]– محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص، ص 76، 77.

[66] - Charles Féraud : op.cit, p311.

[67]– محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 77.

[68] - Bouaziz Bengana : le cheikh el arab étude historique sur la famille Bengana, Alger 1930, p64.

[69]– إبراهيم مياسي: لمحات من جهاد الشعب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص52.

[70]– محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 80.

[71]– إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 53

[72]– إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 59.

•– سليفـــان شارل فالي **sylvan- charles valée**، ولد بتاريـــخ 1773/12/17 ببريان لوشاتو **Brienne le château**، انظم إلى الجيش الفرنسي كتلميذ ضابط في مدرسة المدفعية في شالون عام 1792، تخرج منها برتبة ملازم في 1793/06/01، ثم رقي إلى رتبة نقيب في 1795/04/27، فمقدم في 1804/06/07، وفي 1807/01/12 رقي إلى عميد، ثم جنرال فرقة في 1809/07/28 ثم جنرال قسمة في 1811/08/06، ومفتش عام للمشاة (1822–1830) وفي 1830/09/08 أحيل على الاستيداع، استدعي إلى الخدمة الفعلية عام 1834، وأخيرا رقي إلى رتبة ماريشال في 1837/11/11، ثم عين حاكما عاما بصفة نهائية على الجزائر في 1837/12/01 مارس بهذه الصفة لمدة ثلاث سنوات وشهر و 20 يوما، عاد إلى فرنسا في 1841/01/20، قضى نحبه في 1846/08/15، ولمزيد من المعلومات حول الماريشال فالي أنظر:

-Georges yver : correspondance du maréchal valée, tome I (octobre 1837-mai 1838), la rose, Paris V, France, 1949, voir l'introduction pages non numérotées. Voir aussi :

-Anonyme : « Histoire de l'Algérie, liste chronologique des gouverneurs généraux de l'Algérie » in, Revue Africaine n° 31, année 1887, p 429.

[73] – Georges yver : op. Cit, p 48.

[74] - Georges yver : IBID P 14.

[75]– أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث – بداية الاحتلال – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982 ص 96.

[76] - Pellissier de Reynaud : Annales Algériennes, Paris France, 1854, p 246.

[77] - Charles Féraud : Histoire des sultans de Touggourt et du sud algérien, présentation Kamel Chelrit, éditions grand Alger livres, 2006 p,p 120, 121.

[78] – Esquer Gabriel : Correspondance du général Voirol (1833-1834), Paris, France, 1924, p,p 428,429.

[79] –Esquer Gabriel : ibid, p, p 466, 467.

[80] -Charles Feraud : op. cit, p 128.

ركائز الإدارة الاستعمارية في الجزائر

الأستاذ الدكتور: صالح فركوس
قسم التاريخ و الآثار
جامعة 08 ماي1945– قالمة

الملخـــص:

أثناء تحرياتي في وثائق تاريخ الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي بأرشيف **إكس– أون– بروفنس– بفرنسا،** عثرت على وثيقة في غاية الأهمية لم تنشر إلى حد الآن، حول إدارة الأمير عبد القادر. هذه الوثيقة المجهولة الهوية والتي توجد بعلبة سلسلة (1H4)، لا تحمل أي إمضاء أو أية إشارة لكاتبها ما عدا ختم أرشيف إكس. إن قراءة هذه الوثيقة التي تتكون من أربع ورقات مخطوطة ومكتوبة باللغة الفرنسية معنونة كالتالي: " لمحة مختصرة عن إدارة الأمير عبد القادر"، تكشف لنا إلى أي حد كانت السلطات الفرنسية مهتمة بإدارة الأمير بعد سقوطها بهدف استخلافها في حكومة الأهالـــي. كما أن صـــاحب هذه الوثيقة التي لا تحمل كذلك تاريخ كتابتهـــا قد أشاد بالتنظيم الإداري للأمير، بل كان يلح على تبني هذا النظام بعد نهاية مقاومته للمحافظة على أمن واستقرار القبائل. لقد قمنا بترجمة هذه الوثيقة التاريخية إلى اللغة العربية وحاولنا أن نحلل ما جاء فيها، فهل يمكن لنا الإطلاع على محتواها؟

الوثيقة التي بين أيدينا تحت عنوان: " لمحة مختصرة حول إدارة الأميـــر عبد القادر " والتي نقوم بنشرها اليوم يمكن أن نسجل حولها الملاحظات التاليـــة:

أولا: يشير صاحبها أنه قدم مثل هذه الوثيقة إلى الجنرال "لاموريسيار" « **lamoricière** » بالنسبة لمقاطعة وهران كنموذج للإقتداء بإدارة الأمير على أن يقوم كذلك بتعريفها – كمـــا قـــال– بالنسبة لمقاطعات الشرق[1]. غيـــر أننا لم نعثر على هذه الأخيرة نرجو أن يتمكن باحث آخر من العثور عليها.

ثانيـــا: لقد أشاد صاحب الوثيقة بقدرة الأمير على التحكم في إقليميه وتسيير إدارته حيث كتب يقول: "هذه المسيرة الإدارية البسيطة. نقدمها اليوم كنموذج لتنظيم الشعب الذي قام على تسييره.. أما وأن يكون التصرف بخلاف ذلك فإنه يعني إزعاج بل إحداث اضطراب في أوساط القبائل التي اعتادت منذ عشر سنوات على مسيرة إدارية موحدة ومنظمة حيث تتقاسم نفس الحظوظ السارة والأليمة "[2].

ثالثـــا: كما نوّه بطموحات الأمير في التجديد وتجنب تقليد الأتراك فيما وقعوا فيه من أخطاء إدارية حيث كتب يقول: "منذ ظهور الأمير عبد القادر في السلطة لم يقع بالنسبة لتقسيم الإقليم في أي خطأ من أخطاء الحكومة التركية التي لم تعرف توطيد أية قاعدة ثابتة في الإدارة ،شعورا منه بوضع الأمور في نصابها (أي الأمير) بالنسبة للمناطق التي لم يترك الأتراك أثرا فيها "[3].

رابعـــا: كان إعجـــاب صاحب الوثيقة بإدارة الأميـــر وحسن تنظيمهـــا قـــد ذهب به أبعد من ذلك لإقناع سلطاته العليا على تبنّي هـــذا التنظـــيم قـــائلا: " إن الأميـــر عبد الذي كان يعرف جيدا تقاليد ومتطلبات شعبه، عرف كذلك

كيف يستفيد من السلم لتنظيم بلاده تنظيما جيـــدا، حيث لا نقدر نحن أن نفعل أفضل من ذلك "[4].

خامســـا: لقد كان الأميـــر يجتهد ليجدد إدارة دولته بما يواكب ما يجـــري في دول عربية وإسلامية، خاصة منها مصر، حيث شاهد وهو في طريقه إلـــى الحج رفقة والده محي الديـــن عـــام 1826م، عند زيارتهما القاهـــرة الإنجازات الضخمة التي أدخلها الوالي محمد علي في مجالات الإدارة واطلع على القوانين التي سنها لتنظيم جيشه ووحداته المسلحة فقد أعجب به وشعر بأنه مثال يحتذي به [5].

سادسا: كما أعجب كاتب الوثيقة بتقسيم الأمير لبلاده تقسيما دقيقا ومضبوطا إلى حد انه وصفه بأفضل تقسيم إداري حتى منه الموجود في فرنسا: " هكذا فإن كل البلاد مقسمة إلى أغاليك حدودها بالنسبة لبعضها البعض معروفة ومحددة بشكل دقيق وأفضل بالقياس إلى حدود ولاياتنا بفرنسا "[6].

سابعـــا: يضرب المثل بخليفة الأمير بمعسكر الحاج مصطفى بن أحمد التهامي، حيث كان تحت أوامره سبعة أغاليك "أغاليك الغرابة– أغاليك المجاهر– أغاليك فليتة– أغاليك الشرق– أغاليك السدامة – أغاليك هاشم الغرابة– أغاليك الشراقة "[7].

وقد حاولنـــا أن نحقق فيما كتبه من معلومـــات حول هذه الإدارة فوجدنـــا أن الخليفة فعلا هو مصطفى بن التهامي وأن آغا الغرابة هو حبيب بوعلم وأن آغا المجاهر هو الحاج محمد بن جحّال وأن آغا هاشم الغرابة هو قدور بن سهاراوي وأن آغا هاشم الشراقة هو ولد محمود و أن قاضـــي سدامة هو الحاج عبد القادر بوكليكرا و أن قاضي الفليتة هو سيدي الميلود بوطالب وأن آغا الشرق هو سيدي الميلود بن عراش[8].

ثامنـــا: أشار الكاتب إلى عدم استخدام الأمير لقب " الباي" في إدارته الذي حسب رأيه " يوحي كثيرا بلقب التركي" مستبدلا إياه بلقب الخليفة[9].

تاسعـــا: أكّد الكاتب على الاحتفاظ بالتنظيم الإداري للأمير " واستبـــدال فقط أنصار عبد القـــادر الذين كانوا في السلطة من أجل تنصيب الأسر التي أبعدها الأميـــر واستخلاف حكومتنا لحكومته يمكن أن يتم ذلك دون حـــدوث أي خلل "[10].

عاشـــرا: اعتبر صاحب الوثيقة أن الأمير عبد القادر "قد انشأ القومية العربية وانه لا يزال يمارس تأثيرا دينيا كبيرا على كثير من الجماهير التي حكمها بواسطة ثماني خلفاء..."[11].

ثم يقترح تعيين رجال لا يشك في إخلاصهم لفرنسا ليحلوا محل خلفاء الأمير ،تمهيدا للإدارة المباشرة باسم فرنسا،ويختم قائلا: " إنني أقدم هذه الانطباعات ومازال لدينا الوقت لتناول المسائل الجزئية مثل نمط التعيين في الوظائف واستخلاص الضرائب المختلفة، إنما لنقم بتكريس هذا المبدأ ولنبرهن على أن هذا النظام للبلد الذي نتصوره والذي لم نعشه في الميدان داخل الأراضي يصبح بسيطا للغاية حينما نعلم حقيقة المسيرة الإدارية المتبعة من طرف الأمير للجنرال لامورسيار بالنسبة لمقاطعة وهران وسأقوم بتعريفها كذلك بالنسبة لمقاطعة الشرق. كما اقترح ذلك لوجود ثمرة تجربة والتوافق التام للمصالح المختلفة "[12].

مما يبين إلى أي حد كان متأثرا ومعجبا بإدارة الأمير التي تعتبر في نظره ثمرة تجربة ناجحة يمكن الاستفادة منها استفادة كبرى بل الاحتفاظ بمؤسساتها في إدارة الأهالي مع استبدال خلفاء الأمير بآخرين مخلصين لفرنسا.

الوثيقة التاريخية التي تنشر لأول مرة حول إدارة الأمير عبد القادر

Notice sur l'administration de l'Emir Abd-el-Kader.

ARCHIVES NATIONALES DEPOT D'AIX en Pce

L'emir Abd-el Kader, à son avènement au pouvoir, n'a suivi pour la division du territoire aucun des errements du gouvernement turc qui n'avait su établir aucune règle fixe en administration. Sentant que, tout en mettant de l'ordre là où il n'en trouvait aucune trace, il devait satisfaire aussi des ambitions nouvelles; voici la marche simple, conséquente invariable que partout il a suivie, et que nous donnons comme un modèle d'organisation pour le peuple qu'il avait à diriger.

Quand une tribu forte et nombreuse se fractionnait sur un terrain assez vaste pour exiger la surveillance continuelle d'un chef résidant sur les lieux, il lui a nommé un Aga qui devenait aussitôt responsable de l'observation des lois civiles et religieuses, de la rentrée des impôts, de la sureté des routes, de la police des marchés, de la transmission des ordres et des rassemblemens de guerre, par l'intermédiaire bien entendu des Kaids, qui, eux mêmes, avaient une action directe sur les Chigrr ou Kebir edouar. Exemples, dans la province d'Oran

Les Beni-aâmeur
El Ghrossoul
hachems
Medjahars
et Flittas

Quand une tribu ne présentait pas les conditions ci-dessus mentionnées qu'a-t-il fait? il a groupé autour de la tribu la plus forte de la circonscription projetée, un certain nombre de tribus secondaires mais voisines, et puis il leur a nommé un Aga dont le commandement par ce moyen devenait aussi important que celui de l'Aga de la tribu de première ordre. exemple, dans la province d'oran, l'agalik des Garabas qui se grossissait des

hamyane	Ferragas	Oulad Sidi Mansour	Aâtebâa
Bordjyas	Tâhalayt	Crechetelya	Zemalas

Béni Cheugran   Aãbid Cherragas   Guerboussa   Guetarnyas
Béni Ghraddou   Sedjeraras   El Borj   Elyouasset &c &c

Le pays entier se trouvait ainsi divisé en Agaliks dont les limites, les uns par rapport aux autres, étaient aussi bien tracées et connues que celles de nos départemens en france.

Les emplois étaient annuels et dans chaque Agalik y il y avait un certain nombre de familles influentes qui se disputaient le pouvoir. C'était à qui redoublerait de zèle, soit pour y arriver soit pour le conserver.

Convaincu que, dans un pays où les communications sont aussi difficiles, jamais il ne pourrait surveiller lui-même tous ses Agaliks, l'Emir avait pris le parti d'en placer toujours plusieurs sous les ordres d'un Califa, et de ne confier surtout cet important emploi qu'à des membres de famille puissante sur la fidélité desquels il pouvait compter, ou bien à des marabouts vénérés qui sauraient ou lui maintenir les populations, ou les pousser à la guerre sainte suivant les circonstances. Tout indique que ses choix ont été parfaits puisque après tous les malheurs qui viennent de l'accabler aucun de ses califas ne l'a encore abandonné.

Exemple dans la province d'Oran le Califa de Mascara Sid el hadj Moustapha Ben Chamy avait sous ses ordres les agaliks suivans:

Agalik des Garabas
Agalik des Medjahars
Agalik des Flittas
Agalik du Cheurg
Agalik de Sedama
Agalik des hachems Garabas
Agalik des hachems Cherragas

Le titre de Bey, sentant trop le turc, n'a jamais été employé par l'Emir. Il l'avait remplacé par celui de Califa qui veut dire qui vient après ou lieutenant.

Comme on le voit par ce qui précède, l'Emir qui connaissait bien les mœurs et les besoins de son peuple a su profiter de la paix pou

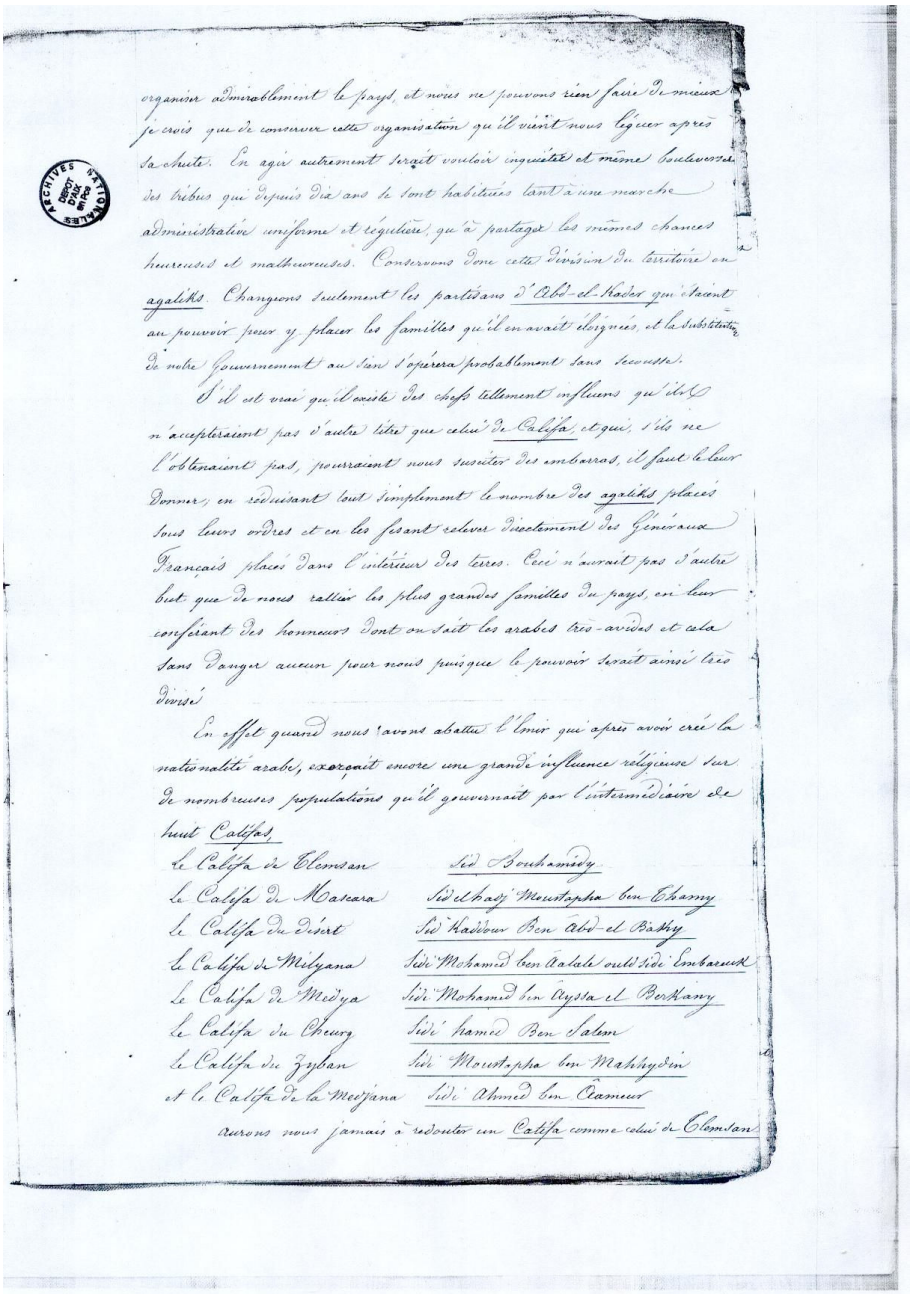

organisa admirablement le pays, et nous ne pouvons rien faire de mieux je crois que de conserver cette organisation qu'il vient nous léguer après sa chute. En agir autrement serait vouloir inquiéter et même bouleverser des tribus qui depuis dix ans se sont habituées tant à une marche administrative uniforme et régulière, qu'à partager les mêmes chances heureuses et malheureuses. Conservons donc cette division du territoire en aghaliks. Changeons seulement les partisans d'Abd-el-Kader qui étaient au pouvoir pour y placer les familles que l'on avait éloignées, et la substitution de notre Gouvernement au leur s'opérera probablement sans secousse.

S'il est vrai qu'il existe des chefs tellement influens qu'ils n'accepteraient pas d'autre titre que celui de Califa, et qui, s'ils ne l'obtenaient pas, pourraient nous susciter des embarras, il faut le leur donner, en réduisant tout simplement le nombre des aghaliks placés sous leurs ordres et en les faisant relever directement des Généraux Français placés dans l'intérieur des terres. Ceci n'aurait pas d'autre but que de nous rallier les plus grandes familles du pays, en leur conférant des honneurs dont on sait les arabes très-avides et cela sans danger aucun pour nous puisque le pouvoir serait ainsi très divisé

En effet quand nous l'avons abattu l'Emir qui après avoir créé la nationalité arabe, exerçait encore une grande influence religieuse sur de nombreuses populations qu'il gouvernait par l'intermédiaire de huit Califas,

Le Califa de Clemsan	Sid Bouhamidy
Le Califa de Mascara	Sid el hadj Moustapha ben Ehamy
Le Califa du Désert	Sid Hadjour Ben Abd-el Bathy
Le Califa de Milyana	Sidi Mohamed ben Arabat ould Sidi Embarek
Le Califa de Médya	Sidi Mohamed bin Aysa el Berkany
Le Califa du Cheurg	Sidi Hamed Ben Salem
Le Califa du Zyban	Sidi Moustapha bin Mahhydin
et le Califa de la Medjana	Sidi Ahmed bin Ramour

aurons nous jamais à redouter un Califa comme celui de Clemsan

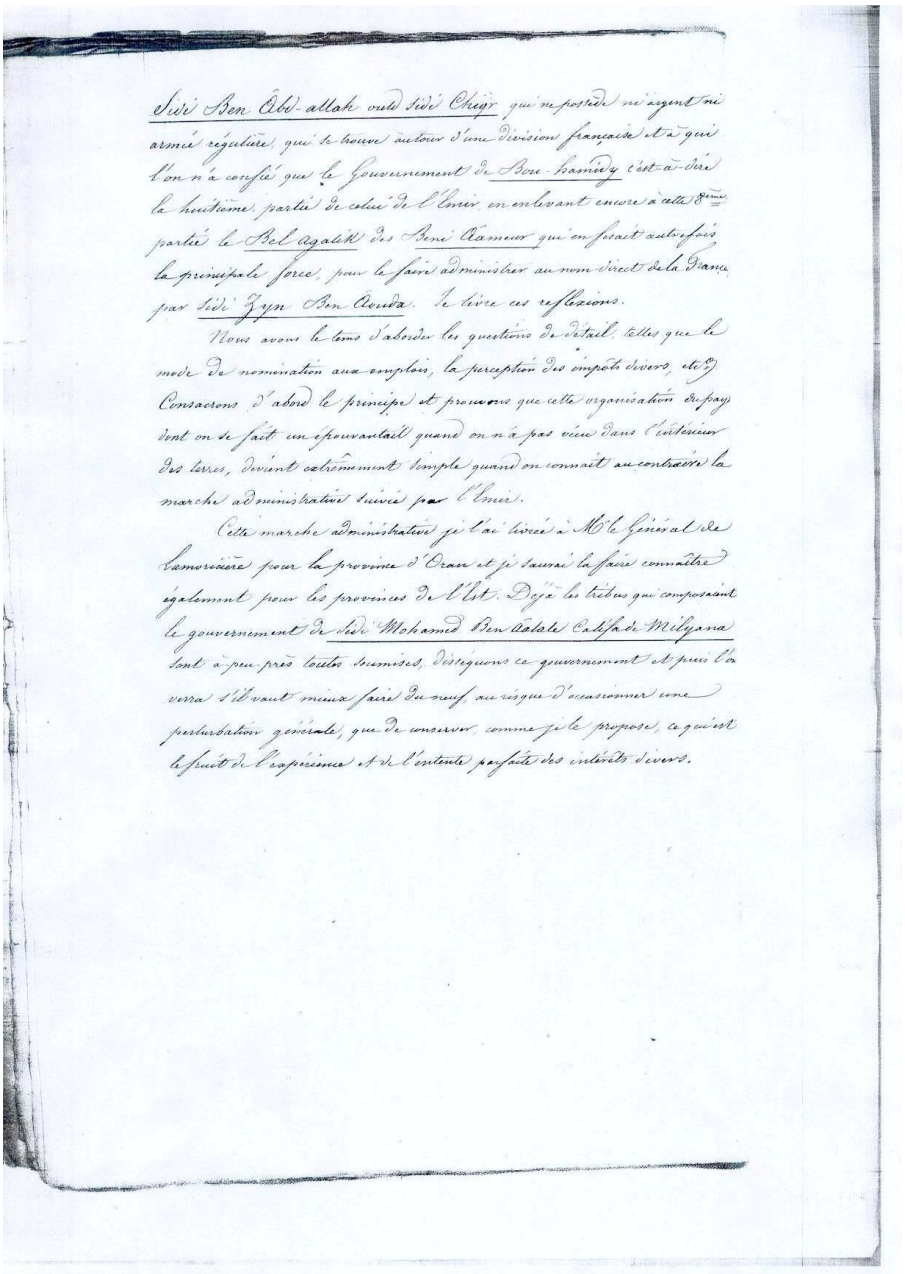

Sidi Ben Aïssa allah ould Sidi Cheïr qui ne possède ni argent ni armée régulière, qui se trouve autour d'une Division française et à qui l'on n'a confié que le Gouvernement de Beni Hamidy c'est-à-dire la huitième partie de celui de l'Emir, en enlevant encore à cette 8ème partie le Bel Agalik des Beni Aamour qui en forait autrefois la principale force, pour le faire administrer au nom direct de la France par Sidi Zyn Ben Aouda. Je livre ces réflexions.

Nous avons le tems d'aborder les questions de détail, telles que le mode de nomination aux emplois, la perception des impôts divers, etc.ª Consacrons d'abord le principe et prouvons que cette organisation du pays dont on se fait un épouvantail quand on n'a pas vécu dans l'intérieur des terres, devient extrêmement simple quand on connaît au contraire la marche administrative suivie par l'Emir.

Cette marche d'administration je l'ai livrée à M.le Général de Lamoricière pour la province d'Oran et je saurai la faire connaître également pour les provinces de l'Est. Déjà les tribus qui composaient le gouvernement de Sidi Mohamed Ben Abdalah Califa de Milyana sont à peu près toutes soumises, dirigeons ce gouvernement et puis l'on verra s'il vaut mieux faire du neuf, au risque d'occasionner une perturbation générale, que de conserver comme je le propose, ce qui est le fruit de l'expérience et de l'entente parfaite des intérêts divers.

ترجمة الوثيقة إلى اللغة العربية: " لمحة مختصرة حول إدارة الأمير عبد القادر "

" منذ ظهور الأمير عبد القادر في السلطة، لم يقع بالنسبة لتقسيم الإقليم في أي خطأ من أخطاء الحكومة التركية التي لم تعرف توطيد أية قاعدة ثابتة في الإدارة. و شعورا منه بوضع الأمور في نصابها رأى الأمير بالنسبة للمناطق التي لم يترك الأتراك أثرا فيها ضرورة، أن يجسد فيها طموحات جديدة. وهذه المسيرة الإدارية البسيطة كنتيجة غير ثابتة والتي اتبعها الأمير في كل مكان، نقدمها كنموذج لتنظيم الشعب الذي قام على تسييره.

" عندما تكون قبيلة قوية موزعة على مساحة واسعة وشاسعة ومن أجل فرض المراقبة المستمرة من طرف قائد يقطن بعين المكان، كان الأمير يقوم بتعيين آغا على هذه القبيلة ليصبح مسؤولا على مراقبة سير القوانين المدنية والدينية، وكذا استخلاص الضرائب و أمن الطرقات وشرطة الأسواق وايصال الأوامــر وعقد الاجتماعات الحربية عن طريق القياد الذيــن هو بدورهم كان لهم تأثير مباشرا على الشيوخ أو كبير الدوار. وهذه أمثلة عن مقاطعــة وهــران:

بني عامر

الغروسال

هاشم

مدجانة

فليتة

" عندما لا تتوفر القبيلة على الشروط المذكورة أعلاه ما ذا كان الأمير يصنع بها؟ كان يجمعها حول القبيلة الأقوى و المتاخمة لها والتي تضم عددا من القبائل الثانوية ولكنها متجاورة، ثم يقوم بتعيين آغا عليها الذي بواسطة تعيينه يصبح أكثر أهمية من آغا القبيلة التي كانت من النظام الأول. مثال عن ذلك بمقاطعة وهران، أغاليك الغرابة التي كبرت بالقبائل التاليــة:

حميان – فراغة – أولاد سيدي منصور – عتبة –البرجية – تهالايات – كريستالية – زمالة – بني شعران – عبيد الشراغة –غربوسه– عتارنياس – بني غرادو – سد جرارة –البرج–اليوعسات ...إلخ

" هكذا فإن كل البلاد مقسمة إلى أغاليك حدودها بالنسبة لبعضها البعض معروفة و محدودة بشكل دقيق و أفضل بالقياس إلى حدود ولاياتنا بفرنسا.

" كانت الوظائف سنوية كما كان يوجد في كل أغاليك بعض العائلات المتنفذة والتي تتنازع السلطة، حيث كل واحدة منها تضاعف الحماس من أجل البقاء في هذه السلطة أو الوصول إليها .

"واقتناعا منه في بلد الاتصالات كانت فيه شاقة و صعبة لم يكن بإمكان الأمير مراقبة كل الأغاليك بنفسه، لذا شرع في جعل الكثير منها – دوما – تحت أوامر خليفة، حيث لم تكن تسند هذه الوظيفة الهامة إلا لأفراد أسرة قوية يعتمد على اخلاصها له أو إلى مرابطين محترمين يستطيعون أن يمسكوا بزمام القبائل تابعة له أو يحرضونها على الحرب المقدسة حسب الظروف. كل ذلك يؤشر على أن كل خياراته كانت جيدة، لأن كل المآسي التي ألمت به، لم يتخل عنه إلى حد الآن أحد من خلفائه.

" مثال عن ذلك بمقاطعة وهران، خليفة معسكر سيدي الحاج مصطفى بن التهامي، كان تحت أوامره الأغاليك التالية:

أغاليك الغرابة

أغاليك المجاهر

أغاليك فليته

أغاليك الشرق

أغاليك السدامة

أغاليك هاشم الغرابة

أغاليك هاشم الشراقة

" إن لقب الباي الذي يوحي كثيرا بلقب التركي لم يستخدم أبدا من طرف الأمير .لقد استبدله بلقب الخليفة الذي يجيء بعد لقب الباي.

" وكما رأينا من خلال ما سبق أن الأمير الذي كان يعرف جيدا عادات ومتطلبات شعبه، قد استفاد كثيرا من السلم لتنظيم البلاد تنظيما جيـــدا حيث لا نقدر نحن أن نفعل أفضل من ذلك. واعتقد أنه يمكن الاحتفاظ بهذا التنظيم الذي تركه لنا بعد سقوطه. أما و أن يكون التصرف بخلاف ذلك فإنه يعني إزعاج بل إحداث اضطراب في أوساط القبائل التي اعتادت منذ عشر سنوات على مسيرة إدارية موحدة و منتظمة، حيث تتقاسم نفس الحظوظ السارة والأليمة. المحافظة – إذن –على هذا التقسيم للإقليم في شكل أغاليك والعمل فقط على استبدال أنصار عبد القادر الذين كانوا في السلطة من أجل تنصيب الأسر التي أبعدها الأمير واستخلاف حكومتنا لحكومته يمكن أن يتم ذلك دون حدوث أي خلل.

" وإذا كان يوجد هناك قادة حتى و إن كانوا مؤثرين و لا يقبلون بأي لقب سوى لقب الخليفة وإذا لم يحصلوا عليه يمكن أن يسببوا لنا عراقيل، فينبغي تقليدهم هذا اللقب مع إختزال بكل بساطة عدد الأغاليك الخاضعة لأوامرهم وجعلها تابعة مباشرة إلى الجنيرالات الفرنسيين المتواجدين بداخل الأراضي. وليس لهذا أي هدف سوى جمع العائلات الكبرى بالبلاد من أجل تقليدهم أوسمة شرف التي كما تعرف بالنسبة للعرب تجعلهم أكثر تلهفا لنيلها.

و هذا أيضا لا يشكل أي خطر لنا، لأن السلطة ستكون بذلك جد مجزأة.

"وهكذا عندما هزمنا الأمير الذي كان قد أنشأ القومية العربية، لا يزال كذلك يمارس تأثيرا دينيا كبيرا على كثير من الجماهيـــر التي حكمها بواسطة ثماني خلفاء:

خليفة تلمسان	سيدي البوحميدي
خليفة معسكر	سيدي الحاج مصطفى بن التهامي
خليفة الصحراء	سيدي قدور بن عبد الباقي
خليفة مليانة	سيدي محمد بن علاّل ولد سيدي مبارك
خليفة المدية	سيدي محمد بن عيسى البركاني
خلية الشرق	سيدي حمد بن سالم
خليفة الزيبان	سيدي أحمد بن عامر
و خليفة مدجانة	سيدي أحمد بن عامر

" إننا لا نشك أبدا في خليفة مثل خليفة تلمسان سيدي بن عبد الله ولد سيدي شاكر الذي لا يملك لا دراهم و لا جيش منظم و الذي يوجد حول ناحية عسكرية، حيث قمنا بإسناد إدارة بوحميدي له، أي حكومة الجزء الثامن الذي كان تابعا للأمير و الذي كنا قد حذفنا من هذا الجزء أفضل أغاليك لبني عامر حيث كان يشكل القوة الرئيسية للأمير، لتتم إدارته مباشرة باسم فرنسا بواسطة سيدي الزين بن وعدة. إنني أقدم هذه الانطباعات و ما زال لدينا الوقت لتناول المسائل الجزئية، مثل نمط التعيين في الوظائف، استخلاص الضرائب المختلفة ...إلخ. ولنقم بتكريس هذا المبدأ ولنبرهن على أن هذا النظام للبلد الذي نتصوره والذي لم نعيشه في الميدان داخل الأراضي، يصبح بسيطا للغاية حينما نعلم حقيقة المسيرة الإدارية المتبعة من طرف الأمير.

"هذه المسيرة الإدارية قد قدمتها للجينرال لامورسيار بالنسبة لمقاطعة وهران و سأقوم بتعريفها كذلك بالنسبة لمقاطعة الشرق .

" و الآن فإن القبائل التي تشكل حكومة سيدي محمد بن علال خليفة مليانة هي تقريبا كلها خاضعة.

و لنقم بتقسيم هذه الحكومة ثم لنرى هل يمكن أن نصنع منها جديدا أفضل، مع وجود خطر حدوث اضطراب عام، أو المحافظة كما اقترح ذلك – لوجود ثمرة تجربة والتوافق التام للمصالح المختلفة."

الهوامـــش

1- انظر الوثيقة رقم 4 جاء فيها:

« Cette marche administrative je l'ai livrée à Mr le général de Lamoricière pour la province d'Orant et je saurai la faire connaître également pour les provinces de l'Est ».

2- أنظر الوثيقة ورقة رقم 1، 3 جاء فيهما باختصار:

« .. Voici la marche simple…que nous donnons comme un modèle d'organisation pour le peuple qu'il avait à diriger …En agir autrement serait vouloir inquiéter et même bouleverser des tribus qui depuis dix ans se sont habituées tant à une marche administrative uniforme et régulière qu'à partager les mêmes chances heureuses et malheureuses ».

3- أنظر الوثيقة رقم 1:

« L'Emir Abd-el Kader, à son événement au pouvoir, n'a suivi pour la division du territoire aucun des errements du gouvernement turc qui n'avait su établir aucune règle fixe en administration. Sentant, tout en mettant de l'ordre là ou il n'en trouvait aucune trace ».

4- أنظر الوثيقة رقم 3:

« …L'Emir qui connaissait bien les mœurs et les besoins de son peuple a su profiter de la paix pour organiser admirablement le pays, et nous ne pouvons rien faire de mieux ».

5- انظر بوعزيز يحي: الأميـــر عبد القادر رائد الكفـــاح الجزائري، دمشق، 1944، ص 20، أنظر كذلك: هنري شرشل: حياة الأمير عبد القادر ترجمة أبو القاسم سعد الله، تونس 1974، ص 45 والعربي اسماعيل: المقاومة الجزائري تحت لواء الأمير عبد القادر، الجزائر 1974، ص 39.

6- انظر الوثيقة ورقة رقم 2:

« le pays entier se trouvait ainsi divisé en Agaliks dont les limites, les uns par rapport au autres, étaient aussi bien traccées et connues que celles de nos départements en France ».

7- أنظر الوثيقة ورقة رقم 2:

« Exemple dans la province d'Oran, le Califa de Mascara Sid el Hadj Mustapha thamy avait sous ses ordres les agaliks suivants : Agaliks des Grabas Agaliliks des Medjahars – Agalik des Flittas –Agalik du cheurk Agalik de Sedama –Agalik des Hachems Garabs –Agalik des Hachems Cherragas ».
8-E.Daumas: Correspondance du capitaine Daumas, Consul à Mascara 1837-1938, éd .par G Yves, Alger, 1912, p .583 , 593, 608-621.

9- أنظر الوثيقة ورقة رقم 2:

« Le titre de Bey sentant trop le turc, n'a jamais été employé par l'Emir.
Il l'avait remplacé par celui de Califa ».

10- أنظر الوثيقة ورقة رقم 3:

« Concernant donc cette division du territoire en agaliks, changeons seulement le partisans d'Abd-el –Kader qui étaient au pouvoir pour y placer les familles qu'il en avait éloignées, et la substitution de notre gouvernement au sein s'opérera probablement sans secousse » .

11- أنظر الوثيقة ورقة رقم 3:

« L'Emir qui après avoir crée la nationalité arabe, exerçait encore une grande influence religieuse sur de nombreuses populations qu'il gouvernint par l'intermédiaire de huit califas.

12- أنظر الوثيقة ورقة رقم 4:

« Je livre ces réflexions. Nous avons le temps d'aborder les questions de détail, telles que le mode de nomination aux emplois, la perception des impôts divers, etc. Consacrons d'abord le principe et prouvons que cette organisation du pays dont on se fait un épouvantail quand on n'a pas vécu dans l'intérieur des terres, devient extrêmement simple quand on connaît au contraire la marche administrative suivie par l'Emir .Cette marche.. je l'ai livrée a Mr le général de Lamoricière pour la province d'Oran et je saurai la faire connaître également pour les provinces de l'Est …comme je le propose , ce qui est le fruit de l'expérience et de l'entente parfaite des intérêts divers. »